لن تعرف

You will never know

الجزء الثاني

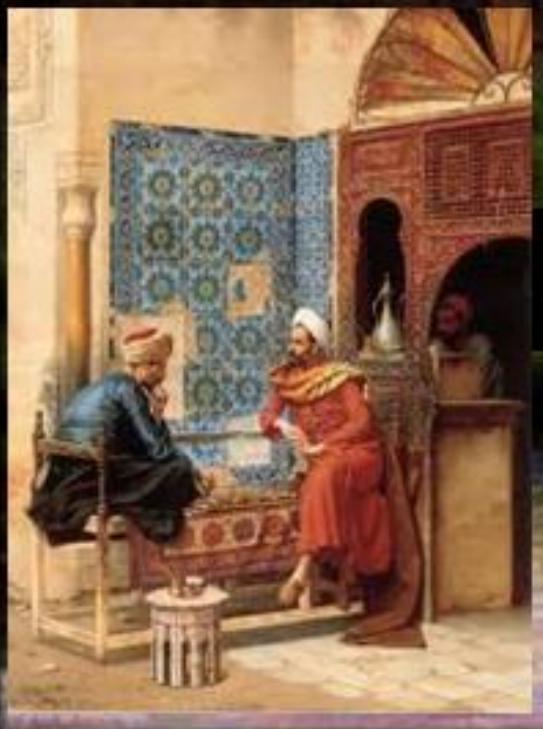

بقلم
محمد عرموش

كيف قامت دولة المماليك البحرية في مصر ؟

- توقفنا في الحديث في اللقاء السابق عند موقف تكليف المماليك لشجرة الدر زوجة الملك الصالح بتولي عرش مصر ، فلماذا لم يتولي أحدهم الحكم بعد مقتل الملك توران شاة ابن الملك الصالح ؟
- بعد وفاة الملك الصالح وانتهاء معركة المنصورة ثم مقتل الملك توران شاه ابن الملك الصالح لم يجرؤ أحد من أمراء المماليك علي أن يعلن نفسه سلطاناً نظراً لأن شرعية الحكم في ذلك الوقت كانت لسلاطين بني أيوب وشرعية الحكم لابد أن تأتي من الخليفة العباسي في ذلك الوقت ، فلا يمكن آنذاك أن يتولي أي شخص مقاليد السلطة في أي بقعة من بقاع العالم الإسلامي إلا بتقليد من الخليفة شخصياً وحتي وإن كان هذا إجراء رمزي إلا أنه ضروري لإضفاء الشرعية ، وحاجة المماليك تحديداً إلي هذه الشرعية تفوق حاجة غيرهم لأنهم يعرفون جيداً أنهم عبيد منذ البداية ولا تصح لهم ولاية ، لذلك قرروا بشكل مبدئي أن تبقي السلطة في الأسرة الأيوبية مؤقتاً لحين حل هذه المعضلة[1] ، فاتفقوا علي أن تتولي شجرة الدر زوجة الملك الصالح مقاليد السلطة إلي أن أرسل لهم الخليفة العباسي خطاباً ينكر عليهم تولية إمرأة الحكم فكان هذا اعتراف ضمني من الخليفة بانتقال السلطة لأحد أمراء المماليك (– وقد كان التقليد المتبع في عهد الأيوبيين أن السلطان لا تصبح ولايته شرعية إلا إذا اعترف به الخليفة العباسي وأرسل إليه التقليد بذلك ولذلك أسرع أمراء المماليك فولوا أحدهم – وهو الأمير عز الدين أيبك – السلطنة ولقب بالملك المعز وتزوج من شجرة الدر التي خلعت نفسها من السلطنة بعد أن تولتها ثمانين يوماً)[2]
- وهذا يذكرنا بالعصر الفرعوني عندما ينتهي نسل الذكور من الأسرة الفرعونية يقوم أحد القادة بالزواج من إحدي أميرات الأسرة ويؤسس أسرة جديدة حتي يجري دماء الفراعنة في نسله ، فشرعية الحكم في عهد الفراعنة مرتبطة بالدماء الملكية ، ولكن مشكلة المماليك أن ليس لديهم دماء ملكية فالجميع متساوون في النشأة والبيئة
- وهكذا أصبح الملك المعز عز الدين أيبك هو أول ملك في دولة المماليك البحرية
- ولكن ألم يكن للأسرة الأيوبية بقايا في الشام ؟
- نعم ، وحتى لا تغضب الأسرة الأيوبية بالشام قرر المماليك أن يشارك الملك عز الدين أيبك طفل من سلالة الأيوبيين هو الأشرف موسي حفيد الملك الكامل محمد وكان عمره حوالي ست سنوات ، ولكن الأيوبيين في الشام لم يقبلوا بهذا الوضع ودارت معركة شرسة بينهم وبين المماليك انتهت بانتصار المماليك[3] ونتيجة لهذه المعركة قام المماليك بخلع الملك الطفل من السلطنة

---

[1] فتح الشبابيك علي أحوال المماليك – محمد عرموش

[2] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج٢ صفحة ١١٥

[3] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج٢ صفحة ١١٦

- وبهذا تم الاستقلال المملوكي التام بمصر ؟
- نعم ولكن شعر الخليفة العباسي المستعصم بالله أن الأمور ستتحول إلي قتال بين المسلمين بينما الخطر المغولي علي الأبواب فقام بحسم الخلاف بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر وأرسل رسولاً إلي كل منهم كمبعوث للسلام (- ونجح رسول الخليفة في مهمته وتقررت قواعد الصلح بين الطرفين علي أن تكون مصر والجزء الجنوبي من فلسطين بما فيه غزة والقدس وبلاد الساحل للمعز أيبك ، وأن تكون الأجزاء الواقعة شمال هذه المنطقة لأصحابها من البيت الأيوبي وأن يطلق المعز سراح من وقع في أسره -)[٤]
- وبهذا تم إضافة الشرعية علي الملك المعز عز الدين أيبك وأصبح يتبع الخليفة مباشرةً
- بالتأكيد
- هل من الممكن كما تعودنا تلخيص العصور وقبل الاسترسال في الحديث عن المماليك أن نلخص العصر المملوكي بالكامل ؟

٢. ملخص العصر المملوكي بالكامل

- تولي سلاطين المماليك حكم مصر لمدة حوالي ٢٦٧ سنة (- وقد انقسمت فترة حكم المماليك لمصر إلي مماليك بحرية استمرت من ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م إلي ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م - - - ثم تلتها المماليك البرجية أو الشركسية وهم سكان أبراج القلعة والتي انتهت بالفتح العثماني لمصر علي يد السلطان سليم الأول في ٩٣٢ هـ / ١٥١٧ م)[٥] ، (وتولي سلطنة مصر ٢٧ ممن المماليك البحرية و ٢٨ من المماليك البرجية)[٦] وبالتالي يكون مجموع ملوك وسلاطين المماليك ٥٥ سلطاناً مملوكياً ، وفي عهد الظاهر بيبرس تم انتقال الخلافة العباسية إلي مصر لتصبح مصر دار خلافة عباسية وسلطنة مملوكية
- وهذا بالطبع أضفي شرعية قوية لسلاطين المماليك الذين توسعوا في ملكهم ليشمل معظم أنحاء العالم الإسلامي كالحجاز والشام ومصر وغيرها ،
- هذا صحيح ولكن الشرعية الحقيقية لهؤلاء السلاطين كانت في تعاطف الأمة كلها معهم وحبهم لهم وتقديرهم الكبير لدورهم الرائع في القضاء علي المغول (التتار) وتطهير الأمة الإسلامية منهم ومن بقايا الصليبيين المعتدين وكانت هذه المرحلة في تاريخ المماليك هي التي بالفعل أضفت الشرعية علي حكمهم وكانت قد صدرت قبل ذلك فتوى بعدم شرعية حكمهم لكونهم عبيد تم شرائهم
- أليس من الممكن أن يشتروا أنفسهم بما يملكون من أموال ؟

---

[٤] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج٢ صفحة ١١٦

[٥] موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلي اليوم (د ناصر الأنصاري) صفحة ٩٣

[٦] موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلي اليوم (د ناصر الأنصاري) صفحة ٩٤

- لقد أكدت الفتوي أيضاً أنه لا جدوى من شراء أنفسهم بأموالهم لأنهم هم وما يملكون ملكاً للدولة ، ولكن بعد تصديهم للتتار وقهرهم للأعداء نالوا إعجاب الجميع ومبايعتهم لأنهم حافظوا علي الدولة الإسلامية من خطر التتار وكل هذا بفضل الله سبحانه وتعالي ورحمته ،
- لقد كان المماليك في ذلك الوقت قوة لا يستهان بها علي مستوي العالم في الوقت الذي كانت الأمة الإسلامية في أمس الحاجة لقوة تدرأ عنها الأخطار المحدقة بها من كل جانب ، فكيف كان أسلوب تداول السلطة في العصر المملوكي وهم تقريباً بالكامل متساوون في النشأة وأسلوب الإعداد ؟

٣. عندما يتساوي الجميع فمن يكون له الحق في العرش ؟[٧]

- في الحقيقة إن هذا السؤال هو أساس جميع الصراعات بين أمراء المماليك وهو سر التنافس علي السلطة فإذا كان أحد الأمراء يجلس علي عرش مصر ويري أمير آخر أنه الأحق بذلك يبدأ الصراع بينهما علي السلطة ولكنه صراع مرير ومغامرة كبري ولا يتدخل فيها الخليفة العباسي ، فمصر منذ عهد أحمد ابن طولون ثم الإخشيد ثم الفاطميين ثم الأيوبيين مستقلة بطريقة أو أخري عن الخلافة العباسية وارتباطها بالخلافة ارتباط رمزي لا يعني التبعية المطلقة كما كانت قبل عصر الدولة الطولونية ، أما فترة الحكم الفاطمي لمصر فقد كانت مستقلة عن العباسيين تماماً لاختلاف المذهب بل كانوا في حالة عداء دائم وحروب مستمرة ، فإذا استثنينا الفاطميين فإن باقي الدول التي تأسست في مصر سواء طولونية أو إخشيدية أو أيوبية ثم مملوكية بعد ذلك كلها كانت مستقلة
- ولكنها تتبع المذهب السني الذي كان يمثله الخليفة العباسي ،
- هذا صحيح ولكن الخليفة رغم وجوده في القاهرة فإنه لا يتدخل في الصراع علي السلطة
- فما أهم ما يميز الصراع بين أمراء المماليك علي السلطة ؟
- علي الرغم من أن الصراع علي السلطة في حد ذاته شئ بشع ومكلف للأموال والأرواح ويؤثر علي حالة البلاد والعباد إلا أن الصراع بين المماليك كانت له سمات خاصة وعجيبة ، منها أنه كان داخل مصر أو داخل الدولة المملوكية عموماً ولا يتم تدويله بإدخال عناصر من خارج الدولة لمساعدة أحد الأمراء للوصول إلي السلطة اللهم إلا إذا استعان بعض الأمراء ببعض شيوخ العرب والبدو أحياناً في بعض المعارك ولكنهم في النهاية مقاتلين لا يخضعون لسلطان دولة من الدول ، وبالتالي لم يتم التدخل في شئون مصر الداخلية من دول أخري نتيجة لهذا الصراع ، أما السمة الثانية فإن الصراع ينتهي بمجرد اختفاء أحد الأمراء المتنافسين علي السلطة سواء بالقتل أو السجن أو النفي أو التنازل ، وبالتالي لا يستمر الصراع بواسطة أنصاره بعد اختفاءه وهذا يحقن الدماء ويهدئ الأمور ، حتي أنك إذا قرأت عن أحد هذه الصراعات في بعض الكتب وتابعت باهتمام أعمال القتل والنهب والسلب والجرائم

---

[٧] نقلاً عن كتاب فتح الشبابيك علي أحوال المماليك – محمد عرموش

التي ترتكب خلال هذا الصراع قد تتمني أن يتم التخلص بسرعة من أحد الأميرين المتنافسين حتي تهدأ الأمور ، فكل أمير منهم يلتف حوله أعداد ضخمة من المماليك ويقاتلون بشراسة وبمجرد موته ينتهي كل شئ بشكل يدعو للدهشة ، كما يصفح الأمير المنتصر عنهم وتنتهي الفتنة ، أما السمة الثالثة من سمات هذا الصراع ابتعاد عامة الشعب عنه وعدم إقحامهم فيه إلا في حالات نادرة وكان كل أمير حريص علي رضا العامة عنه ليدعموه بالدعاء له بالنصر

- فكيف كانت تنتقل السلطة في الأحوال العادية أم أن الصراع هو الأساس في انتقال السلطة دائماً ؟

٤. كيف كانت تنتقل السلطة من سلطان إلي آخر في الأحوال العادية ؟

- كل ما سبق لا يعني أن السلطة كانت تنتقل دائماً بعد صراعات وإراقة للدماء خلال العصر المملوكي فهذا هو الاستثناء حتي لو حدث كثيراً ولكن كانت بالتأكيد هناك قاعدة سلمية لتداول السلطة في العصر المملوكي وكلما اختلت يحدث الصراع ، وهذه القاعدة كانت تعتمد بشكل عام علي نظام الأقدمية فقد كان المماليك يحترمون الأقدمية جداً فهناك أمير كبير وهناك أمير صغير وهناك من تولي وظائف عديدة وخاض معارك طاحنة وهناك من لم يمر بعد بكل هذه الأمور وبالتالي كانت القاعدة العامة هي احترام مكانة وأقدمية كبار الأمراء ،
- فماذا عن نظام توريث الحكم للأبناء ؟
- لم ينجح نظام توريث الحكم في عهد المماليك بشكل واضح (- ويرجع السبب في عدم نجاح نظام الوراثة الشرعية عند المماليك إلي أنهم كانوا جنوداً محاربين نشأوا نشأة واحدة وربوا تربية واحدة متجانسة فهم قوم قد انقطعت صلاتهم بأسراتهم منذ اشتروا في أسواق الرقيق أو أسروا في ميادين الحروب فضعفت عندهم مع الزمن معاني الصلات الأسرية وقويت عندهم في نفس الوقت معاني صلات أخري كان لها شأن كبير في حياتهم - - - فكان يصعب علي المماليك دائماً أن يلي السلطنة ابن سلطان سابق لأنه لم ينشأ نشأتهم ولم يرب تربيتهم وليس بينهم من العلاقات ما يلزمهم بالولاء له فكانوا في العادة يقبلون سلطنة هذا الابن مؤقتاً احتراماً لما أخذ عليهم من مواثيق وأيمان إلي أن تنتهي المشاورات بين كبراء أمراءهم ويتفقوا علي تولية أحدهم وكان الاختيار يقع عادة علي أقرب الأمراء إلي السلطان السابق ، وأقرب الأمراء إلي السلطان السابق كان في العادة أقدمهم والأخذ بنظام الأقدمية من المبادئ الهامة التي كان يحترمها ويعمل بها المماليك -)[٨]
- فماذا كان يحدث لابن الملك السابق ؟
- لم يكن عزل ابن الملك السابق معناه قتله ولكنهم كانوا يكتفون بعزله فقط أو إبعاده إلي مدينة بعيدة عن العاصمة معزز مكرم لأن كل منهم كان يشعر بأن هذا سيكون مصير أولاده من بعده ، وعلي الرغم

[٨] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج٢ صفحة ١١٩

من نجاح بعض سلاطين المماليك في توريث الحكم لأولادهم وذلك بإعدادهم إعداد خاص لذلك إلا أن هذه المحاولات لم تكن القاعدة العامة في انتقال السلطة في عصر المماليك بشكل عام وجدير بالذكر أن أشهر من قام بتوريث الحكم لأولاده هو السلطان المنصور قلاوون

- فكيف كان يتم تحقيق الإنجازات مع وجود صراعات علي السلطة ؟

٥. علاقة الإنجازات بالأفضلية أثناء الصراع

- عندما يعتبر أحد الأمراء أنه أفضل من غيره وأحق بالعرش من الجميع فلابد أن يثبت ذلك بتحقيق العديد من الإنجازات والانتصارات ، فإذا كان سلطاناً بالفعل وقامت عليه حركة عصيان ونافسه أحد الأمراء ليجلس مكانه ، أو شعر بمجرد وجود آراء حول حكمه للبلاد قد تثير الفتن والاضطرابات وتشجع من له طموح في منافسته ، عندئذ يحاول أن يثبت للجميع أنه الأفضل فيكثر من تحقيق الإنجازات في جميع المجالات سواء إقتصادية أو معمارية كما يشن الحروب علي أعداء الأمة ويحاول تحقيق النصر والمجد وكلما زادت حدة الصراعات تزيد الإنجازات علي ما يبدو ، فهذه الإنجازات لها العديد من الفوائد بالنسبة له ، فهي أولاً تجعل عامة الشعب في حالة انتعاش اقتصادي وتتوفر السلع بأسعار زهيدة مما يجعل الناس تتمسك به وتدعو له بالنصر ، أما ثاني هذه الفوائد أن أنصاره من المماليك والجنود الذين حوله ترتفع روحهم المعنوية بشكل كبير وتزداد شراستهم في القتال للزود عنه واستقرار عرشه ، كما أن كل ما يحققه من انتصارات وأمجاد ومكاسب تخفض الروح المعنوية لأنصار خصمه ولا يجد من يسانده إلا لمصالح شخصية ،
- فالإنجازات إذن قد تجعل طبيعة الصراع للمصلحة العامة وليس للمصلحة الشخصية ،
- نعم ومن هنا قد يكون هذا هو السبب في تزامن حدوث إنجازات مع وجود صراعات ، بل إن الصراعات التي لم تنتهي طوال عصر المماليك جعلت معها إنجازات لم تنتهي أيضاً إلا بانتهاء هذا العصر وكان الأمير الذي يريد أن يجلس علي العرش يتخلص من خصومه ويعتبر نفسه الأقوى والأصلح للقيادة وأن القضاء علي الخصوم بالقتل أو النفي كان يعتبره من متطلبات الأمن القومي والاستقرار السياسي فقد يتحول بسهولة جداً اختلاف الآراء بين الأمراء إلي قتال شرس وعنيف وما يشبه الحروب الأهلية التي تدمر كل شئ لأن كل أمير توجد تحت سيطرته قوة لا يستهان بها طوع أمره وبالتالي لابد من أمير قوي يسيطر علي الجميع ويضمن ولاءهم ولو بالقوة والعنف في البداية وبمجرد أن يجلس علي العرش يبدأ في تحقيق العديد من الإصلاحات والانتصارات والأمجاد ليؤكد لنفسه وللأمة كلها أنه كان علي حق عندما أصر علي تولي السلطة والتخلص من الخصوم
- ما فهمته من كلامك أنه كانت غالباً تحدث الصراعات علي الحكم عندما يفشل كبار الأمراء في الاتفاق علي سلطان محدد منهم ليحكم ولم يكن مقبولاً لديهم أن يحكم ابن السلطان الراحل لأنه لم ينشأ النشأة التي تعودوا عليها فهو ليس واحد منهم كما ذكرنا فكان يتولي الحكم لحين الاتفاق علي الملك الجديد

وإذا لم يحدث هذا الاتفاق يبدأ الصراع علي الحكم بأشكاله المتعددة ودائماً وفي نهاية الأمر يصل إلي الحكم من أراد المولي عز وجل له الحكم فالملك بيد الله يؤتيه من يشاء ، ولكن أليس الصراع علي الحكم مغامرة قد تؤدي للموت ؟

- يقول أبو فراس الحمداني في قصيدته الشهيرة :

وَنَحْنُ أُنَاسٌ، لا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا، لَنَا الصّدرُ، دُونَ العالَمينَ، أو القَبرُ

تَهُونُ عَلَيْنَا في المَعَالي نُفُوسُنَا، و منْ خطبَ الحسناءَ لمْ يغلها المهرُ

- العرش أو القبر ، يا لها من مغامرة كبري غير مأمونة العواقب ، فهل تستحق ؟
- نعم فمن يتأمل هذا المعني لابد أن يفكر ألف مرة قبل أن يتخذ قرار المنافسة علي العرش ، ومن المؤكد أنه قرار صعب يحتاج إلي جرأة وقوة عزيمة وإرادة صلبة فالبقاء للأقوي دائماً فهي ليست نزهة خلوية أو مسابقة رياضية فالخسارة فيها تعني الموت
- وقد يسبق هذا الموت ألوان من العذاب فالحبس وحده في انتظار القتل يقتل المحبوس كل لحظة أثناء حبسه ، وبالتالي فالقرار صعب ومصيري ، فما الذي يستحق كل هذا العناء ؟
- الخطير أيضاً في هذا الصراع أن جميع الأساليب مشروعة فالمسألة حياة أو موت فمن الممكن استخدام الخداع والمكر وبالتالي تنعدم الثقة بالآخرين ويرتاب الجميع في سلوك الجميع فقد تأتي الطعنة من الخلف ومن أقرب الناس إليك ،
- معني هذا أنه قد يتم القتل لمجرد استشعار نية القتل من الطرف الآخر ؟
- نعم فلا يوجد وقت للتحقق من ذلك أو التفكير في وسائل أخري ،
- إن كل هذا يجعلك تشعر بالإشفاق علي هؤلاء المساكين الذين يدخلون في هذا الصراع ،
- بالتأكيد ، فالمماليك حياتهم عبارة عن سلسلة من المعارك ومنازلهم هي صهوات جيادهم وصوت ضرب السيوف هو الصوت الذي يطربهم ولمعانها يثيرهم كما أنشد عنترة بن شداد من قبل :

وَلَقَد ذَكَرتُكِ والرِّماحُ نَواهِلٌ – مِنّي وبِيضُ الهِندِ تَقطُرُ مِن دَمي

فَوَدَدتُ تَقبيلَ السُيوفِ لأَنَّها – لَمَعَت كَبارِقِ ثَغرِكِ المُتَبَسِّمِ

- أعتقد أنني إذا كنت أعيش في تلك الفترة من تاريخ مصر فلن أعرف أبداً نتيجة أي صراع ، بل إذا انتهي صراع وعرفت نتيجته فسيبدأ بالتأكيد صراع جديد قبل موتي ولن أعرف نتيجته
- هذا ليس في عصر المماليك فقط ، بل في جميع العصور ، فالصراعات لا تنتهي والأحداث تتجدد بصفة مستمرة فلا تشغل بالك بنتيجة أي صراع ، ولكن احرص علي أن تلقي الله وأنت تسير علي طريق الحق ، فليس مطلوب منك أن تصل لنهاية الطريق بل يكفي أن تموت وأنت تحاول أن تنصر الحق دون انتظار نتائج

- **حدثتني عن أن المماليك في بداية نشأتهم كانوا يتلقون دروساً دينية وهم صغار فما انعكاس ذلك أو نتيجته في سلوكياتهم ؟**

٦. النزعة الدينية لدي المماليك

- **في الحقيقة كان القاسم المشترك الأعظم لجميع المماليك علي اختلاف أنواعهم وظروف نشأتهم هو التدريب علي القتال والولاء للأستاذ ، أما باقي المعارف الأخري أو المشارب أو البيئات الحاضنة فتختلف من نوع إلي آخر وإن كانت العقيدة الدينية من الثوابت الراسخة لديهم جميعاً تقريباً فنكاد نلمحها في تصرفاتهم وفي عمائرهم وحتي في صراعاتهم علي السلطة**
- **كيف ذلك ؟**
- **كل منهم كان حريص علي أن يستمد شرعيته في الحكم من منظور ديني كما سنري ، فنجد مثلاً أن المماليك عندما تولوا الحكم كملوك وسلاطين لا يطمئن أحدهم إلا إذا تم تقليده السلطنة في حضور الخليفة والقضاة الأربعة [٩] ومباركتهم ، كما نلاحظ أيضاً هذه النزعة الدينية عندما نقرأ في كتب التاريخ أن كثيراً منهم بعد أن يتولي الحكم ويصبح سلطاناً يقوم باستدعاء كبار رجال دولته والأمراء ليحلفون له بالأيمانات المؤكدة علي عدم الغدر به أو التآمر علي خلعه من السلطنة ، وبغض النظر عن مدي صدق هذه الأيمانات إلا أنها مؤشر يوضح تأثير الدين في سلوكياتهم ،**
- **وهل توجد أمثلة أخري علي هذه النزعة الدينية ؟**
- **بالتأكيد فمن أوضح الأمثلة علي توغل هذه المشاعر والعقائد في نفوسهم النذور التي كانوا ينذرونها إذا كانوا في ضيق أثناء صراعاتهم وقد سجل المؤرخون أمثلة علي بعض هذه النذور ومن أشهرها نذر الملك المؤيد شيخ المحمودي الذي كان مسجوناً في سجن من أبشع السجون في ذلك الوقت والذي كان يسمي خزانة شمايل بجوار باب زويلة حيث نذر نذراً وقام بالوفاء به بالفعل بعد أن تولي السلطنة حيث قام ببناء مسجده الشهير الموجود إلي الآن في نفس موضع السجن الذي كان مسجوناً فيه ، أما الصراع علي السلطة نفسه فكانوا يطلقون عليه كلمة (فتنة) وأثناء حدوث إحدي هذه الفتن اختفي الأمير لاجين المنصوري داخل مئذنة جامع ابن طولون لفترة حتي [١٠] انتهاء هذه الفتنة ، وكان هذا الجامع الضخم خرباً ومهجوراً في ذلك الوقت ولا تقام فيه الشعائر فأخذ الأمير لاجين علي نفسه عهداً ونذر نذراً أن يعمر هذا الجامع ويرممه إذا انتهت هذه الفتنة بسلام ووصل للسلطة وقد كان ، فعندما**

---

[٩] تم استضافة الخليفة العباسي في مصر في عهد الظاهر بيبرس ولم يحدث ذلك أثناء حكم الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية رغم محاولة أحمد بن طولون وأبو بكر الإخشيد إقناع الخليفة باتخاذ مصر مقر للخلافة العباسية ، بينما نجح المماليك في ذلك ، أما القضاة الأربعة فمقصود بهم قضاة المذاهب الأربعة للسنة فقد كان هناك قاضي لكل مذهب (الشافعي ومالك وابن حنبل وابو حنيفة)

[١٠] كانت هذه الفتن تنتهي بصاحبها إلي القبر أو العرش أو الهروب أو النفي أو السجن ، فليس من السهل أن يقرر أحد الأمراء أن يدخل في صراع للوصول إلي العرش فهي مغامرة كبري غير مأمونة

صار ملكاً علي مصر قام بالوفاء بهذا النذر وليس أدل علي تمكن الدين من المماليك كدليل العمائر الإسلامية ، فقد كانوا يتنافسون فيما بينهم علي بناء الأسبلة والتكيات والمدارس والمساجد والخوانق والكتاتيب ويوقفون عليها الأوقاف لتستمر بعد وفاتهم ، بل إن من الأمثلة الطريفة التي تؤكد لجوءهم وتضرعهم إلي الله سبحانه وتعالي وهم في قمة الضعف الإنساني عندما يمرض أحدهم مرضاً شديداً يقوم باختيار أفضل فرس لديه من خيوله – وما أدراك ما الخيول بالنسبة لهم – ويرسله ليعرض للبيع ويتصدق بثمنه كاملاً من منطلق ما ورد في الأثر الشريف (داووا مرضاكم بالصدقة)

- إلي هذا الحد كان اعتقادهم ويقينهم وتوكلهم ؟ ولكن بمناسبة الكلام عن الخيول ، أعتقد أنها كانت ذات أهمية خاصة بالنسبة للمماليك ، فهل لديك معلومات عن علاقة المماليك بالخيول ؟

٧. الخيول المملوكية

- بالفعل لابد لنا أن نلقي الضوء علي أهميتها عند المماليك فعن أهمية الخيول في العصر المملوكي كتب الكاتب الكبير جمال الغيطاني في كتابه الممتع ملامح القاهرة في ألف سنة ما ملخصه : (نتجه إلي ميدان الرميلة الممتد تحت قلعة الجبل ، ربما كان التجول في سوق الخيل مدخلاً طبيعياً إلي عالم رحب وثيق الصلة بكافة تفاصيل الحياة خلال العصور الوسطي ، لم يتغير موقع هذا السوق طوال العصر الوسيط ، ترتفع صيحات الدلالين والمنادين ، وأنواع عديدة من الخيول ، لكنها موزعة علي ثلاثة أقسام رئيسية ، الخيول العربية ، أنفسها وأغلاها قيمة مطلوبة للسباق وللحاق ، مصدرها بلاد الحجاز ونجد واليمن والشام والعراق ومصر وبرقة ، والنوع الثاني تركي أو أعجمي ، وكانت تسمي الهماليج أو الأكاديش ، مرغوبة لصبرها علي السير الحثيث وسرعة المشي ، النوع الثالث مولد بين العربية والأعجمية ، إذا كان الأب أعجمياً والأم عربية قيل له هجين وهي وسط بين النوعين السابقين ، أما الخيول الإفرنجية فهي أفشل الأنواع وأرخصها ثمناً هنا ، ولا يقبل عليها أحد ، الخيول العربية نفسها تنقسم إلي عدة أنساب ، الحجازية أشرفها ، والنجدي أيمنها والمصري أفرهها ، والغربي أنسلها ، وعندما ترد السوق خيول مؤصلة فإنها تعرض علي السلطان ، وكان السلاطين مهتمين جداً باقتناء أنفس الأنواع وأنقي الأنساب – – – – – ، كان الناصر بن قلاوون شغوفاً بجلب الخيول العربية ، – – وأفرد لها دفاتر تسجل أنساب الخيل كما تسجل أنساب الآدميين ، وعندما مات ترك خلفه ما يقرب من ثمانية آلاف فرس في اصطبلاته ، أما السلطان برقوق – – فقد خلف وراءه ستة آلاف فرس ، كان اقتناء الخيول والاهتمام بها مظهراً من مظاهر القوة والجاه ، ولا عجب ، فقد قام النظام المملوكي علي دعامتين ، الفارس والفرس ، ربما كان هذا سبباً قوياً في أهمية سوق الخيل وقربه من قلعة الجبل مركز الحكم ورمز السلطة في مصر وقتئذ ،

- وماذا عن ألوان الخيول ؟ وهل كان السلاطين يفضلون ألوان بعينها ؟

- في السوق نري ألواناً عديدة ، غير أن الألوان الأساسية أربعة ، وما عدا ذلك متفرع منها : الأول : اللون الأبيض وكان سلاطين المماليك يفضلونها ، ويطلقون عليها الفرس البوز ، ويذكر ابن إياس في بدائع الزهور أن السلطان الغوري كان يخرج في المواكب ممتطياً فرس بوز أبيض ، الثاني : هو الأسود ، وكل فرس شديد السواد كان يطلق عليها أدهم ، والثالث : هو اللون الأحمر ، ويسمي الكميت ، واللون الرابع هو الأصفر ، ومعرفة ألوان الخيل ضرورية بالنسبة للفرسان – – – وأحياناً كان بعض الفرسان يحرصون علي ركوب فرس ذات لون معين في كل يوم – – – ولهذه الألوان علاقة بالتفاؤل ، ولا يقتصر التفاؤل والتشاؤم علي اللون العام للفرس ، وإنما يتعلق الأمر ببعض العلامات في جسده ، فالغرة ، أي البياض الذي يكون في وجه الفرس ، إذا استدارت أو كانت تشبه حرف الحاء فإنها تدل علي اليمن والبركة ، وإذا أصاب البياض خداً دون الآخر فإن الفرس يكون مكروهاً ويتشاءم به ، كذلك إن غطت عيناً دون الأخري ، فيصبح من المتوقع أن تقتل مع صاحبها ، أما إذا غطت العينين فإنها تقهر مع فارسها ، وإن مالت إلي اليمين تدل علي الشؤم ، وإلي اليسار فإنها تدل علي المكاسب ، وإن وصلت إلي الأنف فإنها تدل علي البركة والخير ،
- وهل كانوا يأخذون هذه الأمور بجدية ؟
- في سنة ٨٠٢هـ ١٣٩٩م ، كُسِر الأمير تنم وسقط أسيراً ، واستفسر المؤرخ ابن تغري بردي عن سبب وقوع الأمير عن فرسه ثم أسره ، فقالوا كان في فرسه شؤم ، وأشاروا إلي هذه العلاقة ، وقالوا : إن أصحابه نهوه عن ركوبه فأبي ، وفي سوق الخيل نلاحظ أن المشترين والفاحصين يطلبون التحديق لاختبارها وفحصها والتفرس له قواعد ، فلابد أن ينظر إلي الفرس في جميع حالاته خاصة أثناء الجري والفرس الجيد يعرف من شدة نفسه ، وحدة نظره ، وصغر كعبيه ، ورقة جحافله ، وقصر ساقيه ، وقلة التوائه ، ولين التفاته ، وإذا نظر الإنسان إلي آثار قوائمه وقت جريه وقاس ما بينهما ، فإذا كانت ستة أذرع يكون فرساً سباقاً – – كما يجب أن يكون صافياً عن الصهيل فهذا دليل علي صحة الرئتين ، وعلامات أخري عديدة كان المتفرسون يعرفونها وسجلتها كتب الفروسية ، – – –)١١ ، ولعلك أدركت بعد هذا العرض ماذا تعني الخيول بالنسبة للمماليك حتي يتم بيع أفضلها والتصدق بثمنه
- لقد عرض الأستاذ جمال الغيطاني أهمية الخيول المملوكية بأسلوب رائع وممتع للغاية ، وبالفعل لقد أدركت معني أن يتصدق السلطان بأفضل ما لديه من خيول ، مما يؤكد مكانة الدين عندهم
- فإذا كانت سلوكيات المماليك وقراراتهم وصراعاتهم ومنشآتهم لها صبغة دينية أو هكذا تبدو علي الأقل فيمكننا أن نؤكد أن الدين كان من الثوابت الراسخة في نفوسهم ، أما القتال فهو حرفتهم الوحيدة التي تعلموها

---

[١١] نقلاً باختصار عن كتاب ملامح القاهرة في ألف سنة للكاتب الكبير جمال الغيطاني ، ، الناشر نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع – الطبعة الخامسة سبتمبر ٢٠٠٧، مقتطفات من صفحة ٥٤ إلي صفحة ٥٦

- بناءاً علي هذا فلابد أن تكون هناك مكانة خاصة لعلماء الدين في ذلك العصر

٨. مكانة العلم والعلماء لدي المماليك

- هذا صحيح ، فلقد كان للعلماء المسلمين مكانة خاصة جداً لدي المماليك ، وعن هذا الموضوع كتب د محمود الحويري ما ملخصه : (- إذا كان المماليك قد كونوا طبقة عسكرية شديدة البأس - - فقد أدي ذلك إلي ظهور علماء الدين المصريين الذين وقفوا أمام استبداد المماليك ، وتكلموا بلسان الشعب المصري باعتبارهم من أبناءه ، ودافعوا عنه ضد كل طغيان ، وبلغ رجال الدين في دولة المماليك مكانة سامية ، جعلت سلاطين المماليك يستمعون إلي شكواهم ويجيبون طلباتهم ، بل توجسوا من بعضهم خيفة ، وليس أدل علي ذلك من أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام كان يزجر السلطان الظاهر بيبرس عن المظالم وينهاه عنها - -)١٢ كما أن (- قاضي قضاة الحنفية شمس الدين الحريري كان شديد السطوة لا تأخذه في الله لومة لائم وكانت الأمراء تخافه ولقد ذكر لابن بطوطة أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قال يوماً لجلسائه : " إني لا أخاف أحداً إلا شمس الدين الحريري " ومن هذا المنطلق كان المماليك يُقرِّبون علماء الدين والقضاة المصريين ، حرصاً منهم علي تدعيم سلطتهم بالنفوذ الديني -)١٣ ، (- وكثيراً ما كان السلطان المملوكي يرجو نصح علماء الدين باعتبارهم أهل الحل والعقد ولا يقوم بحرب أو يتخذ قرارات عليا هامة تمس أمور الدولة إلا بعد استشارتهم ، هذا في الوقت الذي كان رجال الدين يعتبرون سلاطين المماليك درع الأمة الإسلامية وأن احترامهم من احترام الإسلام -)١٤ ،
- إذن فقد كان الاحترام متبادل ، ويبدو من كلامك أن المماليك كانوا يهتمون بالعلم والعلماء ، فهل هذا هو سبب ما حققته هذه الدولة من تقدم في كافة المجالات ؟

٩. العلم هو سبب الازدهار والحضارة

- في الحقيقة إن العلم يبني الإنسان والإنسان يصنع الحضارة ، وهذا باختصار شديد ما حدث في عصر المماليك البحرية ، فاهتمامهم بالعلم ورعايتهم للعلماء وكثرة المدارس في عهدهم كل هذا قد ساهم في بناء الإنسان وبالتالي ازدهر كل شئ علي يد الإنسان في جميع المجالات (صناعة ، تجارة ، زراعة ، بناء) ، وأياً ما كان أسباب ودوافع المماليك للاهتمام بالعلم والعلماء فإن هذا ما حدث بل هو ثابت في العديد من كتب التاريخ التي تتناول ذلك العصر ،
- فماذا قرأت عن هذا الموضوع ؟

---

[١٢] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٤١

[١٣] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٤١

[١٤] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٤٢

- فيما كتبه د محمود الحويري ما قد يفسر كلام ابن بطوطة عن كثرة المدارس في مصر حيث كتب في كتابه الممتع "مصر في العصور الوسطي" ما يلي :(كانت القاهرة في عصر دولة المماليك دون نزاع أكثر العواصم الإسلامية ازدهاراً بالبحث والدرس وحملت وحدها مشعل الثقافة العربية الإسلامية وحافظت عليها من خطر الضياع بعد أن ذوت مراكز العلم والتنوير في معظم البلاد الإسلامية ، خاصة بعد سقوط بغداد في أيدي المغول وتدميرهم لكنوز المخطوطات، وتعرض قرطبة في الأندلس لحركة الاسترداد المسيحية وإلحاق الضرر ببلاد الشام علي أيدي الصليبيين والمغول جميعاً واستقبلت مصر العلماء والباحثين والطلبة من كل مكان لينهلوا من مراكز العلم بها ، وفي العصر المملوكي زاد عدد المدارس زيادة كبيرة)١٥،
- يتضح من هذا الكلام أن العلم والعلماء يحتاجون إلي قوة راعية لنشاطهم العلمي ولا يمكن أن تقوم حضارة بدون علم ولا يمكن أن يتحقق العلم إلا في وجود قوة ترعاه وأموال تنفق عليه
- من المؤكد أن المماليك كانوا في فترة من فترات التاريخ هم القوة الوحيدة في العالم الإسلامي وكانوا يحترمون العلم والعلماء وبالتالي هرول إليهم أهل العلم بعد ضعف العباسيين في بغداد والأمويين في الأندلس ،
- هذا عن رعايتهم للعلم والعلماء فهل هذا ينطبق علي الفنون أيضاً ؟
- بالتأكيد (فعلي الرغم من أن المماليك كانوا طبقة حاكمة تميل إلي البطش والقسوة والقوة إلا أنهم كانوا رعاة للفنون التي لم تشهد لها مصر مثيلاً منذ عصر البطالمة ، وتمتعوا بذوق راق وحب للفنون فملأوا سماء القاهرة بالتحف الهندسية الرائعة ولازالت القاهرة تزخر بالمساجد والمدارس والقباب والخوانق والأضرحة والقصور والأسبلة والحمامات والبيمارستانات وغيرها من التحف المعمارية، وقد عني سلاطين المماليك وأمرائهم عناية تامة منذ قيام دولتهم بتشييد المنشآت العامة حتي كاد يخطئها العد)١٦ ، أما عن الحياة الفكرية والأدبية فقد (بلغت الحياة الفكرية والأدبية في مصر الإسلامية ذروة النضج والازدهار في القرنين الثامن والتاسع الهجريين ففي هذين القرنين تحتشد أعظم جمهرة من العلماء والكتاب من كل فن وضرب وفيها تغص القاهرة بأكابر العلماء الوافدين عليها من المشرق والمغرب ، تجتذبهم نهضتها الفكرية ، وأزهرها التالد ، وبلاطها المستنير، حامي الآداب والعلوم ،
- ربما يعبر هذا عن معاني كثيرة مما أود توضيحه (بلاطها المستنير ، حامي الآداب والعلوم)
- ويمتاز القرن الثامن في مصر بظاهرة فكرية خاصة ، وهي أنه عصر الموسوعات العلمية والفنون المعروفة يومئذ ، في مؤلفات جامعة لم تعرفها الآداب العربية من قبل وكتبت في عدة موسوعات جليلة

---

[١٥] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٩٢

[١٦] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٨٦

، مازالت تتبوأ مقامها الفذ في تراث الأدب العربي)١٧ وأشهر هؤلاء العلماء الموسوعيين أحمد ابن عبد الوهاب النويري المتوفي سنة ١٣٣٢ م صاحب كتاب " نهاية الأرب في فنون الأدب " وأحمد ابن فضل الله العمري المتوفي سنة ١٣٤٨ م صاحب كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار وأبو العباس القلقشندى المتوفي سنة ١٤١٨ م صاحب كتاب صبح الأعشى في كتابة الإنشاء (وإنه لمن التجاوز والتواضع أن نسمي هذه المؤلفات المدهشة كتباً ، فهي في الواقع موسوعات ضخمة شاسعة لا تدل أسماؤها علي حقيقة محتوياتها)١٨

- ولكن ألا يحتاج كل هذا إلي اقتصاد قوي ؟
- مما لا شك فيه أن كل هذا النشاط العلمي كما يحتاج إلي قوة ترعاه ، فلابد له من أموال تنفق بسخاء علي البحث العلمي وترعاه ولذلك اهتم المماليك بالحياة الاقتصادية ومما ذكره د محمود الحويري في هذا المعني ما يلي : (اهتم سلاطين المماليك بالزراعة باعتبارها مصدر الثروة الأول الذي عاش عليه المصريون في مختلف العصور ، ولذلك عني سلاطين المماليك بحفر الترع وإقامة الجسور حرصاً علي وصول المياه إلي أراضي لم تصل إليها من قبل مما زاد في رقعة الأراضي الصالحة للزراعة وبالتالي كثرة الغلات والخيرات)١٩ ،
- لنا هنا وقفة عند الزراعة لما لها من وضع خاص في تاريخ مصر فمن الواضح أن المماليك كان لهم نفس اهتمام حكام مصر بالزراعة والري علي مر التاريخ ولكن ماذا عن اهتماماتهم بالصناعة والتجارة والبناء ؟

١٠. فكرة عامة عن التجارة والصناعة والبناء في العصر المملوكي

- نعود مرة أخري للدكتور محمود الحويري وكتابه الممتع مصر في العصور الوسطي حيث كتب ما يلي : (وإلي جانب الزراعة اهتم سلاطين المماليك بالثروة الحيوانية فعملوا علي تحسين سلالتها وجلب الأنواع الممتازة لتربيتها والإكثار منها ، وفي عصر المماليك ارتقت الصناعة وأصبحت علي درجة كبيرة من الجودة والإتقان ، ومن أهم الصناعات في العصر المملوكي صناعة المنسوجات – – وبرع المصريون في الصناعات الجلدية – – والمصنوعات المعدنية ، وازدهرت صناعة الزجاج ، وكذلك صناعة الخزف وخضع الصناع وأصحاب الحرف في العصر المملوكي لنظام النقابات ، فكان أفراد كل حرفة يكونون نقابة خاصة بهم لها نظام ثابت يحدد عددهم ومعاملاتهم ، كما يكون لهم رئيس أو شيخ يرأسهم ويفض مشاكلهم ويرجعون إليه في كل ما يهم)٢٠ ، (أما التجارة في عصر المماليك فقد

---

[١٧] مؤرخو مصر الإسلامية (محمد عبد الله عنان) صفحة ٧٦

[١٨] مؤرخو مصر الإسلامية (محمد عبد الله عنان) صفحة ٧٦

[١٩] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٨٨

[٢٠] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٩٠

لعبت الدور البارز كمصدر للثروة سواء كانت تجارة داخلية أو خارجية ، ولكن التجارة الخارجية ساهمت بالنصيب الأكبر في دخل دولة المماليك وثرائها)٢١ وكان سلاطين المماليك يهتمون بالتعامل معاملة حسنة مع التجار الأجانب ومن أظرف الأمثلة علي ذلك أن السلطان المنصور قلاوون بعث إلي المسئول عن ميناء الإسكندرية رسالة يأمره فيها بتنمية تجارة الميناء (ومعاملة التجار الواردين إليه بالعدل الذي كانوا ألفوه منه ، فإنهم هدايا البحور ، ودوالبة الثغور ، ومن ألسنتهم يطلع علي ما تجنه الصدور وإذا بذر لهم حب الإحسان نشروا له أجنحة مراكبهم كالطيور ، - - - وهيأت دولة المماليك وسائل الراحة لإقامة التجار الأوروبيين في مينائي الإسكندرية ودمياط فبنت الفنادق ووضعتها تحت تصرف هؤلاء التجار حتى يعيشوا وفق النمط الذي اعتادوه في بلادهم)٢٢

- فماذا عن مكونات المنازل ومحتوياتها لأنا مؤشر للصناعة والتجارة في ذلك الوقت ؟
- ولنوضح روعة المنتجات التي كان يتم تصنيعها ومدي التقدم في هذا المجال سنورد هنا وصف مؤرخ بريطاني لأحد المنازل كنموذج للمنازل التي كان يدل علي فكر عالي وهندسة معمارية راقية ، فيقول ستانلي لين بول٢٣ واصفاً تلك المنازل التي صممها المهندسون المصريون لتوفر الراحة والهدوء والخصوصية : (---- وفي داخل الدار ممر ينعطف فجأة بعد خطوة أو خطوتين ، ويحول دون مشاهدة أي شئ في الداخل وأنت بالباب الخارجي ، وفي نهاية هذا الممر نجد أنفسنا أمام فناء متسع به بئر المياه – في أحد الأركان الظليلة ، وفي أغلب الأحيان نجد شجرة عتيقة للجميز ، وفي هذا المكان لا تتلمس دليلاً علي أن ثمة حياة ، فالأبواب مغلقة في إحكام إمعاناً في الغيرة والحذر ، والنوافذ تحجبها تلك الستائر الخشبية البديعة التي تروق عين الفنان ، وتغري الكثير من الغواة باقتنائها ، والفناء الداخلي لا يقل في هدوئه وسكونه عن تلك الأجزاء التي تطل علي الشارع نفسه ، وهنا لا نري أية علامة لحياة هؤلاء السكان المنزلية ، لأن غرف النساء منعزلة تماماً عن هذا الفناء ولا تطل عليه ، إنما تطل عليه غرف الرجال وحجرات الاستقبال وما إلي ذلك والواقع أن هذا المكان الهادئ منعش جداً حينما يأوي إليه المرء بعد أن قاسي الكثير من الجلبة والصخب في الشارع ، حينئذ يشعر المرء أن المهندسين المصريين قد أدركوا لحسن الحظ ما تقتضيه الحياة في الشرق ، فهم يجعلون الشوارع ضيقة ، ويظللونها بالمشربيات البارزة حتي لا تصل أشعة الشمس المحرقة إليها ، كما

---

[٢١] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٩٠

[٢٢] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٩١ ، ٢٩٢

[٢٣] ولد المؤرخ والرحالة البريطاني ستانلي لينبول في مدينة لندن في الثامن عشر من شهر ديسمير سنة ١٨٥٤ ودرس في جامعة أكسفورد وجامعة دبلن وبدأ حياته العملية كمؤرخ وباحث في الآثار ، وقد زار مصر أكثر من مرة وعمل بها وله مؤلفات عديدة تتناول تاريخها وتوج في سنة ١٩٠٢ سلسلة مؤلفاته في تاريخ مصر بكتاب (سيرة القاهرة) أو تاريخ القاهرة The Story of Cairo والذي قام بترجمته كل من د حسن إبراهيم حسن و د علي إبراهيم حسن ود إدوار حليم وفي هذا الكتاب وصف رائع للعاصمة المصرية

هو الحال في شوارع المدن الأوروبية الواسعة ، حيث تستطيع الشمس أن تنفذ إلي هذه الدور ، ولكنهم يجعلون المنازل نفسها فسيحة الأرجاء ، ويحيطونها بالحدائق والأفنية ، لأن حرارة الشمس لا تطاق في الغرف في أثناء الصيف ما لم يتخللها الهواء ، إن فن المهندس الشرقي يتلخص في أنه يبني لك منزلك بحيث لا تستطيع أن تري شيئاً من خلال نوافذ جارك ، وبحيث لا يستطيع جارك في الوقت نفسه أن يري شيئاً مما يدور خلف نوافذ منزلك والطريق الواضح للوصول إلي هذه الغاية ، هو أن تكون الحجرات بحيث يحيط بها فناء واسع فسيح الأرجاء ، وأن تكون النوافذ محتجبة بالستائر الخشبية المتشعبة التي تسمح لقبس ضئيل من النور أن يدخل ، وتدع قدراً وفيراً من الهواء يتخلل أجزاءها كما يسمح بالنظر من خلال هذه النوافذ دون أن يري الغرباء من المارة ما بداخلها ، والستائر الخشبية والفناء المنعزل من شأنهما أن يعملا علي تحقيق ذلك النظام الذي يحتمه الإسلام بفصل الجنسين بعضهما عن بعض ، والحجرات السفلي التي تواجه أبوابها الفناء مباشرة ، وهي تلك الحجرات التي يستطيع الشخص أن يمشي فيها آمناً ولا يخشي أن يري وجها لأية إمرأة في البيت ،وإلي إحدي تلك الحجرات السفلي يتقدمنا مضيفنا ، طالباً إلينا في أدب جم أن نوليه الشرف بأن نظهر كما لو كنا في بيوتنا الخاصة ، إنها حجرة الاستقبال ، أو المنظرة ، وهي بمثابة أنموذج لما ينبغي أن تكون عليه الغرف في العادة ، والجزء الذي ندخل منه في الحجرة منخفض عن بقية الأجزاء ، وإذا كان المنزل أنيقاً حقاً فإننا نجد هذا الجزء المنخفض مغطي بالرخام المصنوع من الفسيفساء ، وفي وسطه نافورة تعمل علي تبريد الهواء ، وبإزاء الباب نجد قطعة مسطحة من الرخام محملة علي أقواس ، حيث توضع قلال الماء وأقداح القهوة وأدوات غسيل الأيدي ونحن نخلع أحذيتنا الخارجية ونتركها علي الجزء الرخامي من الحجرة قبل أن نطأ ذلك الجزء المغطي بالبسط ، وهنالك تجد الأرض مغطاة ببسط من الصوف الخشن ، كما نجد بمحاذاة ثلاثة من أضلاع الحجرة ديواناً منخفضاً وفي الحائط الخلفي مشربية بداخلها وسائد مريحة ، وبأعلاها نحو من ستة من النوافذ مكونة من قطع صغيرة من الزجاج الملون ، ومن حولها إطار من الطلاء ، فتكون بذلك علي شكل زهرة ، وهذه النوافذ من شأنها أن تسمح لنصف الهواء فقط بأن يمر من خلالها ، أما الجانبان الآخران فمطليان بالجير ، وليس بهما خشب أو قرميد ، بل أعدت بها بضعة أصونة خشبية منخفضة لها أبواب صغيرة تفتح بطريقة هندسية معقدة ، وعلي جانبي كل صوان من هذه الأصونة كوة صغيرة مقوسة ، وفي أعلاه رف وضعت عليه الأطباق المزخرفة والأوعية وغيرها من أدوات الزينة المنقوشة ، أما سقف الحجرة فيتكون من ألواح مثبتة في جذوع ضخمة ، ولونه في العادة أحمر قاتم ، غير أنه في البيوت القديمة نجد في السقف غالباً بعض النقوش الجميلة ، ولا نجد في الحجرة مناضد أو كراسي أو مدفئات أو أي شئ من الأثاث الذي يعرفه الأوروبي ، وحينما يحين وقت الطعام ، يحضر خوان صغير مستدير ، وإذا كان الجو بارداً قدم موقد أوقد فيه فحم الخشب ، وبدلاً من الكراسي نجد القاهري يضع رجليه من تحته علي الديوان

ويجلس القرفصاء ، تلك الجلسة التي إذا فكر الأوروبي أن يجلس مثلها أصيب بتشنج في الأعصاب)٢٤، ومما سبق يتضح مدي إعجاب المؤرخ البريطاني بالتصميم الهندسي المميز لهذه المنازل وتجدر الإشارة إلي أن محتويات هذه المنازل من مفروشات ومصنوعات خشبية وزجاج وأواني وأوعية وخزف مصنوعة في مصر أو ناتجة عن ازدهار حركة التجارة وكذلك فإن هذه المنازل ليست فقط تحف فنية وهندسية مدهشة ولكنها مكيفة الهواء أيضاً بأسلوب ذلك العصر حيث تتكون من جدران سميكة تعزل الحرارة وبها وسائل لتوزيع الهواء بأسلوب معين وفسقيات فوقها شخشيخة وحولها ملاقف فيرتفع الهواء الساخن لأعلي ويهبط الهواء البارد لأسفل فيجعلك تشعر بوجود تكييف للهواء

- من الواضح أن هذا المؤرخ البريطاني كان منبهراً بما شاهده في مصر ؟
- ويضيف ستانلي لين بول في موضع آخر من كتابه فيقول (، إن فن نحت الخشب لم يزدهر ولم يبلغ أقصي مداه إلا أثناء حكم السلاطين المماليك وعلي الأخص حكم الملك الناصر فقد كانت الأخشاب ذات الألوان المختلفة تستخدم لإحداث تأثير ملطف كما حل الترصيع محل النحت في الكتل الصلبة وأحياناً كنا نجد كل صفيحة صغيرة منحوته توضع في إطار من الأبنوس حافل بدوره هو الآخر بالنحت والنقوش ، وكثيراً ما كان يتكون من إطارين أو ثلاثة إطارات متميزة الواحد منها خارج الآخر ، ومن الغريب أن الرسم الداخلي لم يكن يتكرر في صفيحتين ، علي الرغم من مئات الصفائح التي كانت توجد هناك ، ولا يخفي علينا مقدار الجهد الذي كان يتكلفه نحت تلك الصفائح ووضعها ، بعد نقشها إلي جانب بعضها البعض ، وهناك نماذج كثيرة توجد في المساجد ، كما أن هناك نماذج أرق منها تتمثل في الأبواب الخشبية المرصعة بالعاج في كنائس بابليون القبطية ، والتي أغلب الظن أن المسلمين أخذوا منها فنهم ، إلا أن أروع نماذج لنحت المماليك توجد الآن في لندن ، ذلك أن عدداً كبيراً من تلك النماذج نقل أثناء حكم الخديوي اسماعيل ، وحتي قبل ذلك ، إلي المتحف الموجود جنوب كنسنجتون فهناك نستطيع أن ندرس علي مهل بعض النقوش العربية الفاخرة – والتي ليست جد متقنة في الوقت نفسه – المأخوذة من المنبر الذي بناه السلطان لاجين في مسجد ابن طولون عام ١٢٩٦م ، وهناك قطع أخري منحوتة من جامع المرداني ١٣٣٩م موضوعة في شكل غير مقبول فوق منضدة فرنسية ، ومجموعة ثالثة لعلها من منبر جامع قوصون ، موضوعة كذلك في إطار حديث ولو أن النحت العربي مازال محتفظاً برونقه وجماله ، وأخيراً نجد منبراً كاملاً يحمل اسم قايتباي ولكن لا يعرف من أي مسجد أخذ ، وهذه الأشياء في مجموعها تكون معرضاً جميلاً لنقش الخشب في أحسن عصوره ومهما يكن من شئ ، فإن المجموعات فيها بعض الاختلاف ، وأحياناً شئ من التدهور ، وأن دراسة فاحصة

---

[٢٤] نقلا عن كتاب (سيرة القاهرة) تأليف المؤرخ البريطاني (ستانلي لين بول) ترجمة د حسن ابراهيم حسن ، و د علي ابراهيم حسن ، و د إداور حليم –مكتبة الأسرة ١٩٩٧– الهيئة المصرية العامة للكتاب

للرسوم سوف ترينا أن الفن وصل إلي أقصي مداه في نقوش جامع المرداني ، أي بعد حكم الناصر مباشرةً)[٢٥]

- فهل وصف المؤرخ ستانلي لين بول القاهرة بشكل عام ؟
- يقول المؤرخ البريطاني ما ملخصه : (- - - ولكنك إذا وقفت علي أسوار هذا الحصن –قلعة صلاح الدين– لم تعد تري أي اختلاف أو تناقض ، وإنما تبصر من حولك كل ما هو شرقي صميم ، -- هناك تجد الكثير من القباب والمآذن والأديار ذات القباب ، والمنازل المنبسطة الأسقف ، منها الأصفر والأبيض ، ومنها الأسمر ، كذلك بقعاً خضراء هنا وهناك ، يتخللها شجر الجميز العتيق وفي الجهة المقابلة تشاهد صفوف من النخيل ، وأخدوداً من الفضة حيث يجري ذلك النهر الطويل الصافي حالماً بين ضفتيه القاتمتين ، وهناك في الأفق حيث تأخذ الشمس في المغيب فتترك ورائها لونا أحمر قانياً ، هناك تبصر الأهرام الخالدة ، كذلك تشاهد المآذن الدقيقة وقد ارتفعت كثيرا عن مستوي القباب ، وسطوح المباني الأخري ، حيث تكون لنفسها عالما خاصاً بها ، فيه الكثير من السحر والجمال ، إن كل واحدة من هذه المآذن لها قصة جديرة بأن ترويها لنا ، قصة انتصار أو انكسار ، أو قصة مجاعة أو غزو ، أو قصة ثقافة وزهد ، وإذا ما اتجهت بنظرك شمالاً ، شاهدت مآذن جامع المؤيد البديعة من فوق باب زويلة ، إن هذه المآذن لتذكرنا بمئات الأحداث والقصص ، ووراء هذه المآذن ترتفع مآذن حي النحاسين وهي أنموذج كامل للفن الإسلامي ، ووراء هذه المآذن أيضاً نشاهد بعض الأبراج ، إنها أبراج جامع الحاكم ، وأمام هذه الأبراج يقع جامع السلطان حسن ، أكبر وأعظم المساجد التي ترجع إلي عهد المماليك ، وإلي اليسار قليلاً يري الناظر بروج وأروقة جامع ابن طولون الذي يطل علي التلال التي تحيط به - - - ويستمر المؤرخ البريطاني في الوصف منبهراً بكل ما يراه من عراقة إلي أن يقول : وهنا نعرف القاهرة لأول مرة علي أنها مدينة من مدن العصور الوسطي ، بل أكثر من هذا نعرفها كمدينة لها تراثها المجيد منذ فجر التاريخ ، فنحن حين نطل من أعلي أسوار القلعة ، ندرك أن هناك محيطات أخري غير تلك التي نعهدها زاخرة بالمياه ، وأن حاضرة مصر لا يمكن أن يكون لها حدود أنسب من الصحاري التي هي بمثابة الدرع الواقي لها ، والأهرام التي تعلن في جلاء ووضوح عن أعمالها المجيدة التي تمت منذ أقدم عصور التاريخ ولقد قال الإسرائيلي الحكيم : من لم يشاهد القاهرة لم يشاهد الدنيا فأرضها تبر . ونيلها سحر ، ونساؤها حور الجنة في بريق عيونهن ، ودورها قصور ، ونسيمها عليل ، عطر كعود الند ينعش القلب ، وكيف لا تكون القاهرة كذلك وهي أم الدنيا)[٢٦]

---

[٢٥] نقلاً عن كتاب سيرة القاهرة لستانلي لينبول ، ترجمة د حسن إبراهيم حسن ، د علي إبراهيم حسن ، إداور حليم ، طبعة مكتبة الأسرة ١٩٩٧ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب

[٢٦] مقتطفات من صفحة ٤٣-٤٦ من كتاب سيرة القاهرة – تأليف ستانلي لينبول – الهيئة المصرية العامة للكتاب–مكتبة الأسرة –١٩٩٧

- ويأخذنا الحديث عن اهتمام المماليك بالبناء فلنستعرض معاً ما كتبه المؤرخون عن منشآت بعض الشخصيات المملوكية علي اختلاف عصورهم من بحرية وبرجية وليكن ذلك في إطار الحديث عن أهم الأحداث في العصر المملوكي بشكل عام إذا لم يكن لديك مانع
- لا مانع إطلاقاً ولنبدأ الحديث عن أهم وأشهر السلاطين في العصر المملوكي بحيث نتناول أهم الأحداث والأعمال المعمارية وما يستحق أن يُذكر في عهد كل منهم وأول ملك سنتحدث عنه هو سيف الدين قطز
- قائد معركة عين جالوت ، رائع جداً فلنبدأ

١١. المماليك والتتار ومعركة عين جالوت

- في بداية عصر المماليك البحرية في مصر وتحديداً في عهد السلطان الصغير نور الدين علي ابن السلطان عز الدين أيبك هاجم هولاكو العراق وقتل الخليفة المستعصم بالله وخرب بغداد تخريباً شديداً واقترب خطر المغول من مصر ويقول السيوطي عن الخليفة العباسي المستعصم قتيل التتار (– كان متديناً متمسكاً بالسنة كأبيه وجده ولكنه لم يكن مثلهما في التيقظ والحزم وعلو الهمة – – ثم ركن المستعصم إلي وزيره مؤيد الدين العلقمي الرافضي[٢٧] فأهلك الحرث والنسل ولعب بالخليفة كيف أراد وباطن التتار[٢٨] وناصحهم وأطمعهم في المجئ إلي العراق وأخذ بغداد – – – وصار إذا جاء خبر منهم كتمه علي الخليفة ويطالع بأخبار الخليفة التتار إلي أن حصل ما حصل –)[٢٩] ، ووصل التتار إلي بغداد (–وبذل السيف في بغداد واستمر القتال فيها نحو أربعين يوماً ----، ولم يسلم إلا من اختفي في بئر أو قناة وقُتِل الخليفة رفساً ، قال الذهبي : ما أظنه دُفِن ، وقُتِل معه جماعة من أولاده وأعمامه وأُسِر بعضهم وكانت بلية لم يصب الإسلام بمثلها ولم يتم للوزير ما أراد وذاق من التتار الذل والهوان ولم تطل أيامه بعد ذلك وعملت الشعراء قصائد في مراثي بغداد وأهلها –)[٣٠]

بادت وأهلوها معاً فبيوتهم – – – ببقاء مولانا الوزير خراب

وقال بعضهم :

يا عصبة الإسلام نوحي واندبي – – – حزناً علي ما تم للمستعصم

دست الوزارة[٣١] كان قبل زمانه – – – لابن الفرات فصار لابن العلقمي

- إنها كارثة بكل المقاييس ، فماذا كان وقع ذلك علي مصر ؟

---

[٢٧] كان للمستعصم وزير اسمه مؤيد الدين العلقمي وهو شيعي رافضي وكان يحاول هدم الخلافة السنية وإقامة خلافة شيعية

[٢٨] باطن التتار أي اتفق معهم علي معاونتهم ضد الخليفة سراً

[٢٩] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٦٣

[٣٠] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٦٨

[٣١] دست الوزارة = منصب الوزارة

- عندما اقترب الخطر من مصر تم تولية قطز السلطنة سنة ١٢٥٩م ، وقال (- إني ما قصدت إلا أن نجتمع علي قتال التتار ولا يتأتي ذلك بغير ملك ، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم أقيموا في السلطنة من شئتم -)٣٢ ويقول السيوطي (--- وقدم الصاحب كمال الدين بن العديم إليهم رسولاً يطلب النجدة علي التتار ، فجمع قطز الأمراء والأعيان ، فحضر الشيخ عز الدين ابن عبد السلام وكان المشار إليه في الكلام ، فقال الشيخ عز الدين : " إذا طرق العدو البلاد وجب علي العالم كلهم قتالهم ، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به علي جهازهم ، بشرط أن لا يبقي في بيت المال شئ وأن تبيعوا ما لكم من الحوائص والآلات ويقتصر كل منكم علي فرسه وسلاحه وتتساووا في ذلك أنتم والعامة ، وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا -)٣٣
- لا يتبقي مع كل مملوك إلا فرسه وسلاحه فقط يا لها من فتوي
- وتم جمع الأموال استعداداً لقتال العدو ، وأرسل هولاكو رسلاً من عنده إلي مصر يحملون رسالة تحذير وتهديد (- فيا أيها الباقون أنتم بمن مضي لاحقون ، يا أيها الغافلون أنتم إليهم تساقون ، ونحن جيوش الهلكة لا جيوش الملكة ، مقصودنا الانتقام وملكنا لا يرام ونزيلنا لا يضام ، وعدلنا في ملكنا قد اشتهر ومن سيوفنا أين المفر - - دمرنا البلاد وأيتمنا الأولاد وأهلكنا العباد وأذقناهم العذاب وجعلنا عظيمهم صغيرا وأميرهم أسيرا ، تحسبون أنكم منا ناجون أو متخلصون -)٣٤
- بالتأكيد كان قطز علي علم تام أنه لن يكون هناك أي فرق بين الاستسلام أو عدم الاستسلام فهم علي أي حال سوف يقتحمون مصر ويدمرونها كما دمروا غيرها وسيقتلون الناس بلا رحمة حتي في حالة الاستسلام
- نعم ولذلك كان رد قطز بلا تردد هو قطع رؤوس رسل هولاكو (وعلق رؤوسهم علي أبواب القاهرة وأخذ يحشد قواه ويستعد لملاقاة المغول -)٣٥ (- وبدأ النضال العنيف بين عنصرين من أخطر وأقوي العناصر المحاربة وبين فنين من فنون الحرب الممتازة في العصور الوسطي ---- وقد تأرجح النصر مرات بين الفريقين أثناء المعركة -)٣٦ (- وفي أول المعركة هُزِم المماليك وتفرقوا ولكن قطز ثبت في مكانه وألقي بخوذته إلي الأرض وصرخ بأعلى صوته " وا إسلاماه " وحمل بنفسه علي العدو فالتف المماليك حوله ثانيةً وانتصروا علي عدوهم - - - غير أن التتار لم يلبثوا أن ضموا صفوفهم وتجمعوا وتقدموا وأوشكوا أن ينتصروا علي المماليك ثانية فتقدم قطز وصرخ صرخته الأولي ثلاث مرات " وا إسلاماه ، يا الله انصر عبدك قطز علي التتار " فأثارت هذه الصرخة وهذا الدعاء حمية المماليك

---

[٣٢] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج٢ صفحة ١٢٢

[٣٣] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٧٠

[٣٤] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٧٠

[٣٥] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج٢ صفحة ١٢٢

[٣٦] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج٢ صفحة ١٢٢ ، ١٢٣

وحملوا علي التتار حتي هزموهم هزيمة شنعاء فلما تم النصر نزل قطز عن فرسه ومرغ وجهه علي الأرض وقبلها وصلي ركعتين شكراً لله –)٣٧ ،

١٢. قطز وبيبرس وضعفاء النفوس

- فكيف وقع الخلاف بين قطز وبيبرس بعد أن انتهت معركة عين جالوت بالانتصار الساحق للمسلمين علي التتار ، أم أنه الأسلوب المملوكي الذي تحدثنا عنه والذي لا يرحم ؟
- لقد حاول ضعاف النفوس أن يوقعوا الخلاف والوحشة بين الملك المظفر سيف الدين قطز والأمير ركن الدين بيبرس وللأسف الشديد نجحوا في ذلك نجاحاً باهراً
- ضعاف النفوس موجودون في كل مكان وكل زمان تقريباً ولا يعجبهم الناجحين وتراهم يحقدون ويفسدون كل نصر أو تقدم ،
- ويروي الإمام السيوطي رحمه الله عن معركة عين جالوت ما يلي (– فأقبل المظفر بالجيوش وشاليشه ركن الدين بيبرس البندقداري ، فالتقوا هم والتتار عند عين جالوت ووقع المصاف وذلك يوم الجمعة خامس عشر رمضان فهزم التتار شر هزيمة وانتصر المسلمون ولله الحمد وقتل من التتار مقتلة عظيمة وولوا الأدبار – – وجاء كتاب المظفر إلي دمشق بالنصر فطار الناس فرحاً – – وأحبه الخلق غاية المحبة ، وساق بيبرس وراء التتار إلي بلاد حلب وطردهم عن البلاد ووعده السلطان بحلب ، ثم رجع عن ذلك فتأثر بيبرس من ذلك وكان ذلك مبدأ الوحشة وكان المظفر عزم علي التوجه إلي حلب لينظف آثار البلاد من التتار فبلغه أن بيبرس تنكر له وعمل عليه
- من الذي أبلغه ؟
- لا أعرف ولكن من المؤكد شخص يريد أن تقع الوحشة بينهما والله أعلم ، فلما وصله هذا البلاغ ، فصرف وجهه عن ذلك –عن التوجه إلي حلب– ورجع إلي مصر وقد أدمر الشر لبيبرس وأسر ذلك إلي بعض خواصه ، فاطلع علي ذلك بيبرس
- ومن خواصه هؤلاء وما هي علاقتهم ببيبرس ، وإذا كانوا خواصه فعلاً فكيف يفشون سره إذا كان قال هذا الكلام فعلاً ؟
- لم أقرأ للسيوطي ما يجيب علي أسئلتك ، أما ما قاله السيوطي بعد وقوع هذه الوقيعة بينهما : (فساروا إلي مصر وكل منهم محترس من صاحبه –)٣٨
- وهنا أصبح اثنان من الأسود في قفص واحد ولابد من مقتل أحدهما

---

[٣٧] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج٢ صفحة ١٢٣

[٣٨] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٧١

- وتم القتل للأسف الشديد بعد أن استغل ضعاف النفوس عدم تعيين بيبرس والياً علي حلب فنجحوا في إقناع كل من الطرفين أن كل منهما يحاول قتل الآخر والتآمر عليه فاعتبر كل واحد منهم أن قتل الآخر هو ببساطة شديدة " دفاع مشروع عن النفس "

١٣. السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي

- وصلنا للظاهر بيبرس والذي أصبح يتغني الناس بانتصاراته المعروفة بسيرة الظاهر بيبرس فماذا قرأت عنه ؟
- تولي السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس حكم مصر سنة ١٢٦٠م وتم في عهده تحقيق حلم ابن طولون والإخشيد حيث قام بيبرس باستضافة الخلافة العباسية في مصر لتصبح مصر لأول مرة في تاريخها مقر خلافة وسلطنة في وقت واحد (- حقيقة كانت القاهرة مقراً للخلافة الفاطمية قبل ذلك ولكن كانت هناك خلافتان أخريان تعاصرانها وتنافسانها - - - هما الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الأموية في قرطبة ، أما في العصر المملوكي فلم يكن هناك في العالم الإسلامي سوي خلافة واحدة هي خلافة القاهرة -)[٣٩]
- والقاهرة كانت المحطة الأخيرة للخلافة العباسية ، ولكن ماذا فعل التتار بعد هزيمتهم في عين جالوت؟
- كان بيبرس علي علم أن المغول سوف ينتقمون مما حدث لهم في عين جالوت فأعد العدة لقتالهم وكان في نفس الوقت يواجه خطراً صليبياً من نوع آخر وظل بيبرس يقاوم كل منهما بكافة الوسائل (- وكان بيبرس في دمشق وقد فرغ من أمر الصليبيين وعلم أن التتار قد أعادوا الهجوم علي البيرة فتقدم نحو الشمال يقود الجيش بنفسه ثم حمل بعض السفن المفككة إلي نهر الفرات حيث أعاد تركيبها وعبر بجنوده إلي الشاطئ الشرقي حيث انتصر علي التتار الذين تقهقروا سريعاً واحتل بيبرس البيرة وحصنها وأقام بها حامية للدفاع عنها – ومنذ ذلك الحين اتجه النضال بين بيبرس وبين التتار إلي ميدان آخر إلي آسيا الصغرى -)[٤٠] ، وكانت المعركة الكبرى لبيبرس ضد جيوش المغول وحلفاءهم من سلاجقة الروم في مكان اسمه "الأبلستين" في سنة ١٢٧٧ م (- وفيها انتصر بيبرس انتصاراً حاسماً عظيماً وانتقل بعد هذا النصر إلي قيسارية عاصمة الدولة ونزل بدار السلطنة وجلس علي عرش سلاجقة الروم ولهذه الوقعة نتيجة هامة أخري فقد حطمت دولة سلاجقة الروم وأتاحت الفرصة لقيام دويلات تركية أخري في أنحاء آسيا الصغري سيكون لبعضها شأن عظيم فيما بعد ، من هذه الدويلات ، دولة بني قرمان ودولة بني عثمان -)[٤١] وبهذا كسر بيبرس شوكة التتار (- ولكن بيبرس لم يقدم علي مهاجمة الصليبيين إلا بعد أن اختط لنفسه خطة واضحة تدل علي ما كان يمتاز به من ذكاء خارق

---

[٣٩] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٣٤

[٤٠] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٣٨

[٤١] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٣٨ ، ١٣٩

ومواهب سياسية فذة ، كانت هذه الخطة تتلخص في عقد سلسلة من التحالفات مع كل القوي الإسلامية والمسيحية المحيطة به وبالصليبيين لتحقيق هدفين ، أولهما أن يمنع هذه القوي أن ترسل أو تسمح بمرور أي مدد إلي الصليبيين ولإيقاف جيوش المغول إن فكرت في التقدم لمساعدة الصليبيين –)٤٢ واستمر بيبرس في حروبه ضد الصليبيين لمدة عشر سنوات كاملة٤٣ وكان يتزامن أحياناً القتال مع الصليبيين مع القتال علي جبهات أخري ضد المغول وغيرهم (وقد لقي بيبرس في حملاته ضد الصليبيين مشاق ومتاعب جمة غير أنه كان المنتصر دائماً فلم ينهزم قط في معركة من معاركهم ولم يمتنع عليه حصن من حصونهم –)٤٤ وكانت أهم إنجازات بيبرس في قتاله ضد الصليبيين تحرير إمارة صليبية كبري وهي إمارة إنطاكية

- هذه الإمارة الصليبية أحد الإمارات الأربعة اللاتي أسسها الصليبيون في الشام (الرها وانطاكية وبيت المقدس وطرابلس) إذن فقد انضم بيبرس لأبطال التحرير الأربعة الذين حرروا تلك الإمارات ،
- نعم (– وقد كان لانتصارات بيبرس المتتالية أثرها القوي في نفوس الشعب العربي في مصر والشام فأعجب ببطولة بيبرس وأكبره وراح يتغنى بشجاعته وانتصاراته وألف أديب مصري مجهول "سيرة الظاهر بيبرس" فكانت ملحمة للبطولة وظلت قروناً يتغنى بها الشعراء والقصاص في المقاهي ومجالس السمر ليثيروا النخوة والعزة والبطولة في نفوس الشعب –)٤٥

١٤. السلطان الأشرف خليل ابن قلاوون وجلاء آخر جندي صليبي من الشام

- وكيف تم طرد الصليبيين من الشام بالكامل ؟
- لقد استطاع الصليبيون كما هو معروف تكوين أربعة إمارات صليبية في الشام وهي إمارة الرها وإمارة بيت المقدس وإمارة إنطاكية والإمارة الرابعة طرابلس ثم بدأت معارك التحرير ويقول د جمال الدين الشيال : (– تهاوت الإمارات الصليبية الثلاث من قبل علي أيدي أبطال الجهاد المسلمين ، فسقطت إمارة الرها علي يد عماد الدين زنكي ، وسقطت إمارة بيت المقدس علي يد صلاح الدين الأيوبي وسقطت إمارة إنطاكية علي يد الظاهر بيبرس ولم تعد إلا الإمارة الرابعة وهي إمارة طرابلس التي كان يحكمها أمراء النورمان ، وبقيت بعض فلول الصليبيين في مدن أخري متناثرة وهي بقايا مملكة بيت المقدس وكان مقرها مدينة عكا وحصن المرقب ويحكمه فرسان الاسبتارية وطرسوس ويحكمها فرسان الداوية –)٤٦ ، وقد استطاع السلطان قلاوون ومن بعده ابنه الأشرف خليل هزيمة الصليبيين وطردهم

---

٤٢ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٤٩
٤٣ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٥٥
٤٤ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٥٦
٤٥ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٥٨
٤٦ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٦٧

من الشام بالكامل لتنتهي بذلك هذه الصفحة من تاريخهم في الشام وقد استطاع قلاوون تحرير طرابلس (- وخرج علي رأس جيش ضخم حتي وصل إلي طرابلس فحاصرها تسعة وثلاثين يوماً ، وبعد قتال عنيف سقطت طرابلس واستولي عليها قلاوون في أبريل سنة ١٢٨٩م -)٤٧، وكانت عكا آخر المعاقل الصليبية في الشام وأخذ قلاوون يعد العدة لتحريرها ولكنه مات قبل أن يتم ذلك فتولي الملك الأشرف خليل بن قلاوون المسئولية ودعا للجهاد ضد الصليبيين في جميع البلاد الإسلامية

- إذن لم يكن جيشاً مملوكياً خالصاً بل شارك فيه المجاهدون المسلمون أيضاً ، هذا رائع جداً
- نعم فقد كتب د جمال الدين الشيال عن هذا الموضوع ما يلي : (- وفي القاهرة أقام السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون احتفالاً دينياً في القبة المنصورية دعا إليه القضاة والعلماء والأعيان وحضرته طوائف الشعب ، وضج المجتمعون بالدعاء إلي الله أن يكتب النصر للسلطان ثم خرج خليل بجيشه من القاهرة واجتمعت هذه الجحافل٤٨ من كل مكان عند أبواب عكا في ربيع سنة ١٢٩١ م - واشتد الحصار ودام ثلاثة وأربعين يوماً - وسقطت عكا في أيدي العرب بعد أن لبثت في أيدي الصليبيين مائة عام كاملة وسرعان ما تساقطت المدن الصليبية القليلة الباقية كما تتساقط أوراق الشجر - وهكذا اختتمت حلقة من حلقات الاستعمار الأوروبي وطرد من عكا آخر جندي صليبي بعد نضال طويل وكفاح مستمر مرير بدأه عماد الدين زنكي وشارك فيه جماعة من الأبطال المغاوير : نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وبيبرس وقلاوون ثم كان التطهير علي يد الأشرف خليل بن قلاوون -)٤٩

١٥. عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون أفضل عصور المماليك

- سمعت أن عصر الملك الناصر محمد من أفضل عصور المماليك إن لم يكن أفضلها علي الإطلاق فما حقيقة ذلك ؟
- تولي السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون حكم مصر ثلاث مرات متباعدة ، كانت الأولي سنة ١٢٩٣ م ، والثانية سنة ١٢٩٨م ، والثالثة سنة ١٣٠٩م ، وقد شيد الناصر محمد مسجداً مازال موجود حتي الآن بالقلعة ، وتعتبر مئذنة جامع الناصر وقبته وكذلك جدرانه الداخلية قد غشيت جميعها ببلاطات من القيشاني الأخضر اللون ، ولقد اهتم السلطان الناصر بتعمير منطقة بولاق فسكنها الأمراء والجند والكتاب والتجار والعامة ، ولم يقتصر الناصر علي تشييد العمائر الدينية والمباني السكنية

---

[٤٧] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٦٨

[٤٨] خرج كل أمير من أمراء الشام بقوة كبيرة ليقابل جيش السلطان عند عكا وجدير بالذكر أن هذه المعركة اشترك فيها المجاهدين المسلمين وليس المماليك فقط

[٤٩] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٦٩

فحسب ، بل شملت حركة البناء والتعمير إقامة مجاري المياه والقناطر والعيون ، ومن أهم هذه المباني مجري عيون فم الخليج لتوصيل مياه النيل إلي قلعة الجبل ،

- تعد هذه المجري من الآثار العمرانية التي تفخر بها القاهرة في العصور الوسطي ، والتي لا تزال باقية حتي الآن ،
- كما شيد الناصر المدرسة الناصرية التي تقع بشارع المعز لدين الله الكائن بحي النحاسين ، كذلك شرع الناصر في تجديد المارستان الكبير المنصوري الذي أسسه السلطان قلاوون ، وبني الناصر سبيلاً ألحقه بمدرسته وقبة ألحق بها مكتبة عظيمة وشيد القصر الأبلق في قلعة الجبل ،
- لاحظت أثناء الحوار معك عن تاريخ مصر أن أفضل العصور التي تشهدها مصر طوال تاريخها هي العصور التي يهتم فيه الحكام بالعلم والصحة (المكتبة والمارستان)
- هذا صحيح ، وقد ازداد تعلق شعب مصر بالناصر محمد لما أتاه من جليل الأعمال وما تكشف لشعبه فيه من جميل الخصال ، ويعتبر عصر الناصر محمد بن قلاوون أزهي عصور دولة المماليك البحرية ، إذ فيه توطدت دعائم هذه الدولة وبدأت أساليب الحكم والإدارة في الاستقرار ،
- فكم بلغ اتساع دولته ؟
- كانت القاهرة في عصر الناصر حاضرة لإمبراطورية شاسعة بسطت نفوذها علي مصر والشام وأعلي الفرات والحجاز واليمن والنوبة وبرقة وتونس وبعض الجزر بالبحر المتوسط ،
- إنها تعد إمبراطورية شاسعة فهل خاض هذا الملك حروب ناجحة ؟
- بالتأكيد فهو يعد من السلاطين الأبطال الذين خاضوا غمار الحروب وأحرزوا النصر تلو النصر ، وفي سنة ١٣٠٣ تقابل المغول بقيادة زعيمهم غازان عند مرج الصفر علي مقربة من حمص مع المماليك بقيادة السلطان الناصر محمد فهلك معظم جيش المغول وهُزِموا ومات كثير منهم وتعتبر هذه الواقعة من المواقع الحاسمة في التاريخ وعلي إثرها مات غازان كمداً وقوبل الناصر حين عودته من الشام إلي مصر بأعظم الترحيب ، وأقيمت له أقواس النصر في القاهرة وخرج الشعب المصري يحيي قاهر المغول
- فماذا عن موقفه من السياسات الاقتصادية ؟
- لقد عني الناصر محمد بموارد الدولة المالية فوسع نطاقها حتي يستطيع تنفيذ المشروعات النافعة لجميع مرافق البلاد والقيام بما تتطلبه الدولة من ضروب الإصلاح مع إبطال العديد من الضرائب ، كل ذلك أدي إلي توافر الأقوات ورخص أسعارها وسهولة الحصول عليها [٥٠]
- هل هذا السلطان هو والد السلطان حسن صاحب الجامع الشهير وهل تم بناءه ليكون جامع أم مدرسة؟

١٦. جامع السلطان حسن أم مدرسة السلطان حسن ؟

[٥٠] نقلاً باختصار عن كتاب هؤلاء حكموا مصر – حمدي عثمان – الهيئة المصرية العامة للكتاب

- بالفعل إن السلطان حسن هو الناصر حسن بن محمد بن قلاوون وقد أمر بإنشاء جامعه أو مدرسته الموجودة حتي الآن في القاهرة تشهد بعظمة ورقي فن العمارة الإسلامية في العصر المملوكي ويعد معجزة العمارة الإسلامية في القاهرة[٥١]
- فهل هو جامع أم مدرسة ؟
- عن هذا الموضوع وتحت عنوان العلم بين المسجد والمدرسة كتب الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أستاذ تاريخ العصور الوسطي – كلية الآداب – جامعة القاهرة ما ملخصه : يقول المقريزي ما نصه : (وفي هذا الجامع عجائب من البنيان منها المدارس الأربع التي بدور قاعة الجامع) إذاً فقد أقيمت في دور قاعة الجامع أربعة مدارس لها أربعة أواوين متقابلة بحيث تختص كل مدرسة منها بمذهب من مذاهب أهل السنة الأربعة ، ومعني هذه العبارة أن المدارس أنشئت في قاعة الجامع وليس الجامع هو الذي أقيم في ساحة المدرسة حتي غدت هذه المدارس من عجائب فن البنيان في هذا الجامع ، فالجامع هو الأصل وهو الهدف وهو الأساس ولكي تعم الفائدة ويعظم الأجر والثواب أقيمت به مدارس لتعليم علوم الدين وأحكامه وشرائعه ، علي أنه ثمة مرة واحدة في كتابه المواعظ استخدم المقريزي فيها عبارة (مدرسة الناصر حسن بسوق الخيل) ولكن هذه العبارة وردت في تعداده لأسماء المساجد التي تقام فيها الجمعة ، ونص العبارة : (وقد بلغت عدة المساجد التي تقام بها الجمعة مائة وثلاثين مسجداً منها جامع شيخو – جامع قانباي – جامع ألماس – جامع قوصون – جامع الصالح – مدرسة السلطان حسن بسوق الخيل) ، والمقريزي هنا يضع مؤسسة السلطان حسن في قائمة المساجد الجامعة وليس في قائمة المدارس وربما نعت هذه المؤسسة باسم الشهرة الذي عرفت به ، ولم يكن المقريزي هو المؤرخ المعاصر الوحيد الذي أطلق علي مؤسسة السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون اسم جامع وإنما هناك مؤرخ آخر عاصر الناصر حسن وعاش أيامه هو الحسن بن عمر المعروف بابن حبيب المتوفي سنة ٧٧٩هـ – ١٣٧٧م صاحب كتاب (تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه) ومن الواضح أن ابن حبيب ألف كتابه الضخم هذا الذي يقع في ثلاثة مجلدات مخصصاً إياه للتأريخ لأسرة قلاوون ، أعني السلطان المنصور قلاوون وسلالته من الحكام حتي أيام ابن حبيب نفسه ولذا يعتبر هذا الكتاب مصدراً أساسياً للوقوف علي أخبار تلك الحقبة ،
- فماذا قال ابن حبيب عن هذا الموضوع ؟

---

[٥١] هذه المدرسة تعد بحق من روائع العمارة الإسلامية فقد جمعت بين فخامة البناء وجمال الهندسة الدقيقة المتناسقة وروعة الزخرفة سواء المنقوشة منها علي الحجر أو الرخام أو الخشب ، أو تللك المحفورة علي النحاس المطعم بالذهب والفضة أو المرسومة علي الزجاج المموه بالمينا ، جاءت آية فنية في جمالها وجلالها لا مثيل لها في العمائر الإسلامية بالشرق وقد شُيدت هذه المدرسة سنة ١٣٥٨م بعد أن استغرق العمل فيها حوالي عشر سنوات تكلف خلالها أموالاً طائلة ، وتبلغ مساحة المدرسة (المسجد) حوالي فدانين

- يقول ابن حبيب ما نصه : وفيها شرع السلطان الملك الناصر حسن أيده الله في عمارة المكان الذي أنشأه بالرميلة تحت قلعة الجبل ظاهر القاهرة المحروسة ، وهو بناء مشيد محكم عظيم الشأن مرفوع القواعد ، عالي الأركان ، متسع الفناء يشتمل علي جامع فسيح له صحن كبير فيه أربعة أواوين متقابلة ، وفيه المنبر ، وبه تقام الجمعة ، وعلي كتفي الأيوان الشرقي بابان عظيمان يدخل منهما إلي مدرستين وعلي كتفي الأيوان الغربي مثل ذلك ، وعلي كتفي الأيوان الشمالي بابان أعظم من الأربعة المشار إليهن ، الأيمن منهما مجاز إلي الجامع المذكور ، وبوسط هذا الجامع بركة ماء عليها قبة عظيمة ، وعلي بابه سبيل

في جامع السلطان قم يا من أتي مصرا وطف سعياً بذياك الحرم
وانظر بناء ينجلي للناس في ثوب الشباب واطرح ذكر الهرم[٥٢]

- فهل توجد معلومات أخري عن السلطان حسن ؟
- تولي السلطان حسن حكم مصر سنة ١٣٤٧م ومرة ثانية سنة ١٣٥٤م (وأثناء فترة حكم السلطان حسن نُكِبت مصر بالطاعون الذي أزهق الأرواح حتي بلغ عدد الموتي في شهرين حوالي تسعمائة ألف ، وقلت المزروعات لموت الفلاحين فانتشر القحط والجوع في البلاد من جديد ، وفتك الطاعون بالحيوانات أيضاً فكثيراً ما شوهدت الخيول والجمال والحمير والطيور وهي ملقاة في البراري والطرقات وساد الحزن جميع أرجاء البلاد - - - - وخلت كثير من الديار)[٥٣]
- يا لها من مأساة مؤلمة ، فهل هناك أحداث أخري مهمة تمت في عصر المماليك البحرية ؟

١٧. آخر أيام المماليك البحرية

- في الحقيقة لازال هناك أحداث مهمة لابد أن أذكرها قبل أن أختم كلامي عن أهم الأحداث في مصر في عهد المماليك البحرية وسوف أحاول جاهداً أن أذكرها بإيجاز شديد " إن شاء الله " ، لنتحدث معاً عن أهم الأحداث في عصر المماليك البرجية وكيف نشأت دولتهم وماذا حدث خلالها من أحداث مهمة ثم نتكلم بعد ذلك عن انهيار دولة المماليك البرجية وانتهاء عهد سلاطين المماليك عموماً ، أما ما حدث في أخر أيام المماليك البحرية فقد وقع ما يسمي بسنة الفناء أو الوباء الأسود وهذا الوباء هو نوع من المرض الخطير يصيب الإنسان ويؤدي إلي موته بعد قليل جداً من إصابته به ، وكان هذا الوباء سنة ٧٩٤ هـ / ١٣٤٩ م في عهد السلطان الناصر حسن ولم يكن في مصر وحدها بل شمل جميع بلاد العالم ، حتي أن المقريزي ذكر أن الأسماك أيضاً قد أصيبت في البحر بهذا الوباء وبالرغم من أن هذا

---

[٥٢] نقلاً عن كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية – إعداد د عبد العظيم رمضان – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة ٢٠٠٠

[٥٣] نقلاً عن كتاب هؤلاء حكموا مصر لحمدي عثمان صفحة ٣١٨

الكلام قد يكون مبالغ فيه إلا أنه يدل علي أن هذا الوباء قد قتل الكثير جداً من الناس والحيوانات والطيور (- ولم يكن هذا الوباء كما عهد في إقليم دون إقليم ، بل عم أقاليم الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً جميع أجناس بني آدم وغيرهم حتي حيتان البحر وطير السماء ووحش البر -)٥٤

- وبالتأكيد قد أصيب الاقتصاد المصري في مقتل
- نعم ، وحدث نقص وعجز شديد في القوي البشرية وضعفت دولة المماليك البحرية

١٨. حملة صليبية جديدة في عهد الأشرف شعبان

- فماذا حدث أيضاً ؟
- أما الحدث الثاني الذي أود أن أذكره بعد ذكر الوباء الأسود فقد تعرضت مصر في عهد أحد أحفاد الملك الناصر محمد بن قلاوون وهو الملك الأشرف شعبان لحملة صليبية وكانت الإسكندرية هذه المرة هي هدف الحملة (- ولم تقلع إلا بعد أن خربت المدينة تخريباً كاملاً وسلبتها كل ما فيها من غال وثمين -)٥٥
- وإضعاف مصر لابد أن يبدأ بإضعاف اقتصادها وضربه في مقتل
- بكل تأكيد ، (- وإذا كانت موارد دولة المماليك في مصر تعتمد في معظمها علي ما تجبيه من مكوس وضرائب علي التجارة المتبادلة بين الشرق والغرب عبر مصر فقد أصدر الباباوات عدة قوانين تحرم علي التجار الأوروبيين التعامل مع المسلمين أو الاتجاه بسفنهم إلي موانى مصر والشام ولكن تجار الجمهوريات الإيطالية لم يطيعوا هذه الأوامر حفاظاً علي مصالحهم الاقتصادية المتبادلة مع مصر فاضطرت البابوية إلي إنشاء قوة بوليسية حربية تعمل علي اختطاف أولئك التجار الأوروبيين الذين يقدمون علي التعامل مع دولة المماليك كانت جزيرة قبرص خير مكان في شرق البحر المتوسط يتخذ لمراقبة سواحل مصر والشام أو للإغارة عليها -)٥٦ وحضر ملك قبرص بطرس الأول لوزنيان إلي الإسكندرية بأسطول ضخم في ٩ أكتوبر سنة ١٣٦٥ م وكان والي الإسكندرية في ذلك الوقت يؤدي فريضة الحج والنائب الموجود مكانه ليس علي نفس الوزن من الخبرة والدراية فلم يحسن الدفاع عن المدينة واستطاع بطرس وجيشه البقاء بها ثلاثة أيام كاملة قام خلالها بالتخريب والنهب والقتل وعندما شعر بطلائع جيوش المماليك القادمة من القاهرة فر ومن معه من الإسكندرية (وصحبوا معهم خمسة آلاف أسير وأسيرة من أهالي الإسكندرية منهم كما يقول النويري المؤرخ السكندري "المسلم والمسلمة واليهودي واليهودية والنصراني والنصرانية ")٥٧ وعندما هرب بطرس من الإسكندرية هرب مسرعاً

---

٥٤ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٩٤ (نقلاً عن المقريزي)
٥٥ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٩٦
٥٦ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٩٧
٥٧ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٩٨

مرعوباً حتي أنه ألقي بعض المنهوبات التي أثقلت سفنه خوفاً عليها من الغرق (- وصدق قول النويري حيث وصفه بأنه " جاء المدينة لصاً وخرج منها لصاً -)[٥٨] ، وهكذا وصلنا إلي آخر حدث مهم كنت أود أن أذكره من عصر المماليك البحرية

- وبالطبع مات كل سلاطين المماليك البحرية بما فيهم أيبك وقطز وبيبرس وقلاوون دون أن يعرفوا أن دولتهم ستنتهي ، ولكن هل لديك فكرة عن أسباب نجاح أسرة قلاوون فقط في توريث الحكم في العصر المملوكي علي خلاف روح ذلك العصر ؟
- هناك عدة أسباب منها طبيعة أبناء وأحفاد قلاوون وما اتسم به بعضهم من قوة شخصية وقدرة علي القيادة كالأشرف خليل بن قلاوون والناصر محمد بن قلاوون وقد يكون السبب هو الحل الوسط الذي كان يرضي به كبار الأمراء عندما يفشلون في الوصول إلي نتيجة مرضية ليصل أحدهم للحكم فيصبح تولي ذرية قلاوون حلاً مناسباً علي أن تكون إدارة شئون البلاد الفعلية في أيدي كبار الأمراء ،
- فهل تعرف أحد من كبار الأمراء الذين سيطروا علي مصر مع وجود ملك من أسرة قلاوون
- أعتقد أن أشهرهم حالياً الأمير طاز لوجود قصر فخم باسمه حتي الآن
- نعم إنه القصر التي تقام فيه أنشطة ثقافية وفنية حالياً فهل لديك معلومات عن هذا الأمير ؟
- سأذكر لك ما كُتِب عنه في كتاب الخطط التوفيقية لعلي باشا مبارك حيث أكد أنه أحد القصور التاريخية التي أنشئت خلال عصر المماليك في مصر والذي تحول في أيام علي باشا مبارك إلي مدرسة للبنات وقد كتب عنها بكتابه الممتع الخطط التوفيقية بالجزء الثاني صفحة ٤٦ ما يلي : (- - - ثم بعدها مدرسة البنات التي هي دار الأمير طاز ذكرها المقريزي فقال هذه الدار بجوار المدرسة البندقدارية تجاه حمام الفارقاني علي يمنة من سلك من الصليبة يريد حدرة البقر وباب زويلة أنشأها الأمير سيف الدين طاز في سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وكان موضعها عدة مساكن هدمها برضا أربابها وبغير رضاهم وتولي الأمير منجك عمارتها وصار يقف عليها بنفسه حتي كملت فجاءت قصراً مشيدا واصطبلاً كبيراً وهي باقية إلي يومنا هذا يسكنها الأمراء انتهي ملخصاً (قلت) وهذه الدار اليوم هي المدرسة المعروفة بمدرسة البنات التي تجاه بيت الأمير عبد الله باشا فكري وحمام الفارقاني المذكورة هي الآن حمام الألفي الواقعة خلف بيت الأمير المذكور وكانت هذه الدار قبل جعلها مدرسة جارية في وقف علي أغا أغاة دار السعادة وكانت الناظرة عليها امرأة تدعي نفوسة وفي زمن العزيز محمد علي باشا أخذت هذه الدار وجعلت مخزناً للمهمات الحربية وترتب للناظرة عليها مائة وخمسة وعشرون قرشاً ديوانياً في كل شهر واستمرت كذلك إلي زمن الخديوي اسماعيل أعني سنة إحدي وتسعين ومائتين وألف ثم رغب في إنشاء مدرسة لتربية البنات وتعليمهن وكنت إذ ذاك[٥٩] ناظراً علي

---

[٥٨] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٩٨

[٥٩] أي علي باشا مبارك

ديوان الأوقاف والمدارس فصرت أبحث عن محل يليق لهذا الغرض فلم أجد أليق من هذه الدار وكانت قد خليت من المهمات وانقطع راتب الناظرة عنها فجعلتها مسكناً للفقراء ومربطاً للدواب وكانت وقتئذ متشعثة ومتخربا أغلبها ولم يتحصل منها إلا ريع قليل فتكلمت مع الناظرة وجعلت لها خمسمائة قرش في كل شهر من جهة المدارس إن تنازلت عن نظارتها لديوان الأوقاف فعندما سمعت بذلك رضيت في الحال فشرعنا في عمارتها مدرسة من ذاك الوقت وتمت علي الصورة التي هي عليها الآن ولم نغير بابها بل بقي علي صورته الأصلية وأصلحنا خلل القاعة والمقعد وبعض الجهات القابلة للإصلاح وأنشأنا بها البناء القاسم للحوش وفتحنا الدكاكين القديمة التي كانت بواجهتها فجاءت بحمد الله مدرسة حافلة ومساكن فاخرة ودخلها نحو مائتي بنت يتعلمن فيها الكتابة وغيرها من الأشغال الدقيقة مثل الخياطة والتطريز ونحو ذلك وترتب بها الخوجات والمعلمات وهي عامرة إلي وقتنا هذا ويعمل بها امتحان في كل سنة

- واضح أن علي باشا مبارك كان فخوراً بما صنعه بهذا القصر
- بالتأكيد وهو محق في ذلك بلا شك وإليك بعض ما ورد عن قصر الأمير طاز بموسوعة ويكيبيديا والذي يعتبر حالياً من أهم مراكز الإبداع الفني في القاهرة : يقع القصر بالقاهرة القديمة بمنطقة الخليفة بالقلعة بشارع السيوفية المتفرع من شارع الصليبة .أنشأه صاحبه الأمير سيف الدين طاز بن قطغاج، أحد الأمراء البارزين في عصر دولة المماليك البحرية، والذي بدأ يظهر اسمه خلال حكم عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون1345 – 1343) م (إلى أن أصبح في عهد أخيه الصالح زين الدين حاجى أحد الأمراء ممن بيدهم الحل والعقد في الدولة في ذلك الوقت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وعندما بلغ قصر الأمير طاز من العمر خمسمائة عام رأت الحكومة الخديوية أن تحيل القصر إلي الاستيداع وقررت تحويله إلي مدرسة للبنات بإيعاز من علي باشا مبارك أحد رواد التنوير حينذاك ولكن لم تمض سوي عشرات قليلة من السنين إلا وأخلت وزارة التربية والتعليم القصر ليس من أجل ترميمه والحفاظ عليه بعد أن ظهرت عليه آثار الشيخوخة بشكل واضح ولكنها أخلته لتحويله إلي.. مخزن! ولأن القصر كبير ومتسع ويقع في قلب القاهرة فقد كان مؤهلا من وجهة نظر الوزارة أن يكون المخزن الرئيسي لمئات الألوف من الكتب الدراسية وعشرات العربات التي تم تكهينها ومئات الأطنان من الخردة بمختلف أنواعها.. ولأن الناس علي دين ملوكهم فلم يستشعر سكان المنطقة حرجا في استعمال القصر كمقبرة للحيوانات النافقة!.. لم يحتمل القصر كل هذا الهوان وهو الذي شهد وشاهد مئات السنين من العز والنعيم فانطوي علي نفسه بعد أن داهمته الامراض والعلل وتمايلت الكثير من جدرانه وانهارت العديد من غرفه. ، وفي أكتوبر ١٩٩٢ تم إدخال القصر الي غرفة العناية المركزة بعد أن عصفت رياح الزلزال الشهير بالكثير من أركانه وأعمدته وعلي مدي عشر سنوات ظل الحال كما هو عليه إلي أن تم إعلان الوفاة إكلينيكيا في ١٠ مارس ٢٠٠٢ عندما انهار

جانب كبير من الجدار الخلفي للقصر والمطل علي حارة ضيقة بها عشرات البيوت المتهالكة يسكنها مئات آلاف المواطنين أصبحت حياتهم جميعا مهددة بالخطر المنتظر بين لحظة وأخرى بعد أن أصبح الانهيار الكامل للقصر مسألة ساعات لا أكثر.. قامت وزارة الثقافة ببدء مشروع ترميم القصر بعد اهماله لفترات طويلة و لكن المهمة كانت صعبة للغاية بسبب تلف اجزاء كثيرة.. بيوت الخبرة العالمية والخبراء الاجانب اعتبروا أن الموضوع قد انتهي بالفعل وأن أي محاولات للإنقاذ مضيعة للوقت.. ولأن أبرز هوايات المصري في وقت الشدة هي تحدي المستحيل.. أو ما يبدو لغيرنا مستحيلا.. فقد هرول الجميع الي موقع القصر المنهار وفي لحظات بدأت أجهزة التنفس الصناعي وتدليك القلب في العمل بسرعة خارقة وتمت عملية الإنقاذ ووقف العالم مبهورا وهو يري الحياة تعود إلي القصر الذي تم ترميمه بكفاءة لا يمكن وصفها.. ولم يكتف المصريون بالانقاذ والترميم ولكن المفاجأة الأكبر كانت في الاكتشافات الأثرية المهمة التي واكبت ذلك وأدت إلي إزاحة الستار عن المزيد من خبايا القصر.. والعمل الذي تم إنجازه رائع بكل المقاييس ، تبلغ مساحة القصر الاجمالية أكثر من ثمانية آلاف متر مربع وهو عبارة عن فناء كبير في الوسط خصص كحديقة تتوزع حولها من الجهات الأربع مباني القصر الرئيسية والفرعية وأهمها جناح الحرملك والمقعد أو المبني الرئيسي المخصص للاستقبال واللواحق والتوابع والاسطبل. أما الآن فلم يتبق من هذه المباني سوي الواجهتين الرئيسية المطلة علي شارع السيوفية والخلفية المطلة علي حارة الشيخ خليل وهي التي بدأ منها الانهيار والمقعد الذي تم تجديده في عهد "علي أغا دار السعادة" صاحب السبيل والكتاب الملحقين بالقصر وجزء صغير من قاعات الحرملك فضلا عن القاعات المستحدثة التي استخدمت كمخازن أو قاعات دراسية في عصور لاحقة.

- إن الحديث عن هذا يعد تاريخ في حد ذاته يعبر عن الكثير من العبر والعظات أما الحديث عن صاحبه الأمير طاز فيعتبر نموذج علي بعض صراعات العصر المملوكي الذي تحدثنا عنها ، فيا له من قصر ويا له من عصر ، ولقد مات الأمير طاز ومات علي باشا مبارك ومات كل من كان يعيش في جميع المراحل التي مر بها هذا القصر ولم يعرفوا ما سيحدث له
- ونحن أيضاً سنموت دون أن نعرف ما سيحدث حتي لو أدركنا أي تغيير في الأحداث الحالية فسوف يتبعه تغييرات كثيرة لن نعرفها وكما قلت لك من قبل وأرددها دائماً ، لن تعرف ، لن تعرف
- إن حديثنا عن العصر المملوكي يؤكد بالفعل أن الأحداث فيه كانت تتلاحق بشكل سريع ومرعب ومثير رغم كل ما فيه من إنجازات وحضارة وانتصارات ، وهو من أوضح الأمثلة علي ما تقول من عدم إمكانية معرفة ما سيحدث ، ولكن هل كانت المعادلة صفرية في كل صراع كما فهمت أي لابد من القضاء التام علي الطرف الآخر في الصراع ؟

- الصراعات علي السلطة في العصر المملوكي كما ذكرنا يؤدي إلي انقسام بين المماليك ينتهي باختفاء أحد المتنافسين علي العرش سواء بالقتل أو السجن أو التنازل أو الهروب كما قلنا ولا يستمر القتال بد ذلك ، ولا يحدث هذا الانقسام بين عامة الشعب المصري بشكل عام
- ولكن هل قد حدث انقسام بين عامة الشعب نفسه في مرحلة من مراحل التاريخ المصري ؟
- بالتأكيد هناك عدة انقسامات شهيرة قد حدثت بين صفوف الشعب المصري مثل الانقسام الذي حدث خلال أحداث الثورة العرابية وقد ذكره الرافعي وسوف نتناوله إن شاء الله ، وكذلك الانقسام الذي حدث بين سعد زغلول وعدلي يكن ومؤيدي كل منهما وسوف نتناوله أيضاً إن شاء الله وغير ذلك من الاختلافات في الرأي والتوجهات السياسية وربما استمرت هذه الانقسامات حتي الآن
- وهل الانقسامات بين صفوف الشعب المصري تكون فيها المعادلة صفرية أيضاً ؟
- هذا يتوقف علي زعماء هذه الانقسامات والشحن الإعلامي وإثارة المتطرفين من الجانبين ، ولكن الشعب المصري بشكل عام شعب غير دموي كما قال الدكتور جمال حمدان أن مصر جسم بشري واحد ووحيد ، ووسط جغرافي أحادي بالتأكيد ، ونهر سائد وفريد
- وماذا كتب د جمال حمدان عن هذا الموضوع ؟
- عن هذا الموضوع كتب د جمال حمدان ما يلي : – ، ، ، ومن هذا جميعاً نري أن الوحدة التاريخية التي لم تنقطع والتي كانت جزئياً ثمرة للتجانس البشري قد ضاعفت بدورها من هذا التجانس ، حتي قل أن نجد شعباً متماثلاً في ملامحه الجسمية والنفسية ، في مزاجه وتقاليده ، باختصار في (طابعه القومي) كالشعب المصري ، ولربما زدنا هذه الحقيقة وضوحاً إذا ما وضعناها موضع المقارنة مع بلاد أو شعوب أخري مجاورة في الشرق العربي مثلاً عبر العصور الطوال كما في يومنا هذا ، نجد أن سوريا تمتاز في كل نواحي حياتها وكيانها بمعادلة إقليمية أساسية تعد مفتاحاً لكل أعماق شخصيتها : إنها تتألف من عدد كبير من الوحدات الضئيلة : في الأرض والطبوغرافيا ، في العروق والسلالات ، في اللهجات والاتجاهات ، في الطوائف والملل ، حتي في المدن والواحات ، إنها في ذلك كله كومة مفككة من الأحجار الصغيرة وأكاد أقول من حصي وتراب ، والعراق أكثر تجانساً وتماسكاً ، فهو بنهريه وبيئتيه الطبيعيتين السهل والجبل – – إلخ ، أقرب إلي الثنائية التركيبية – إلي حجرين كبيرين نوعاً
- أما مصر في هذه المتتالية التصاعدية فتأتي علي القمة ، فهي حجر واحد monolith ، وحجر ضخم عند ذلكmegalith ، فهنا جسم بشري واحد ووحيد ، ووسط جغرافي أحادي بالتأكيد ، ونهر سائد وفريد ، وهي لذلك كله أبعد ما تكون عن التنافر الداخلي ، أو التخلخل التركيبي ، ومنه تستمد ثقلاً ووقعاً ، وقوة اندفاع فرضت نفسها علي تاريخ المنطقة[٦٠]
- إن هذا كلام مطمئن جداً ، والآن فلنعود لموضوعنا فكيف بدأت فكرة المماليك البرجية ؟

[٦٠] نقلاً عن كتاب مختارات (٣) من شخصية مصر للدكتور جمال حمدان – الفصل الخامس – وحدة مصر الوطنية –مكتبة مدبولي

١٩. أصل المماليك البرجية

- لنتحدث عن أصل المماليك البرجية علينا أن نعود إلي عصر قلاوون الكبير عميد العائلة القلاوونية ونصعد إلي القلعة ونجلس معه وهو يفكر في موضوع خطير ومهم بالنسبة له ، فقد قرر الاعتماد علي قوات جديدة من نوع خاص وتتلخص الفكرة في شراء نوع جديد من المماليك بعيداً عن جزيرة الروضة وما تحتويه من مماليك بحرية ، وقام بالفعل بشراء مماليك جدد وجعل إقامتهم في أبراج القلعة وعزلهم عن الناس
- ولذلك تم تسميتهم بالمماليك البرجية
- نعم وإليك بعض ما قرأت عن هذا الموضوع (عزم السلطان المنصور قلاوون "٦٧٩-٦٨٩ هـ / ١٢٧٩—١٢٨٩ م " علي تكوين فرقة جديدة من المماليك تدين له بالولاء والطاعة ويعتمد عليها وتختلف في أصولها عن فرقة المماليك الأخرى التي غلب عليها عنصر الأتراك ولذلك أقبل علي شراء المماليك الجراكسة من المنطقة الواقعة بين بحر قزوين وبين البحر الأسود ، وأسكنهم في أبراج القلعة - - - فسموا البرجية تمييزاً لهم عن المماليك البحرية الذين أقاموا في جزيرة الروضة ، وساعد قلاوون علي تحقيق رغبته كثرة الجركس في أسواق الرقيق - - - فضلاً عن رخص سعرهم آنذاك بالنسبة للعناصر التركية)[٦١] ولقد كان السلطان يهتم بهم وبأحوالهم كما قال المقريزي
- وماذا قال المقريزي عن هذا الموضوع ؟
- لقد كتب المقريزي عن اهتمام أسرة قلاوون عموماً بالمماليك البرجية ثم شرح كيف انخفض مستواهم بعد أن انخفض مستوي الاهتمام بهم ، وإليك ما كتبه عن المكان المخصص لإقامتهم بالقلعة : (الطباق بساحة الإيوان) : عمرها الملك الناصر محمد بن قلاوون وأسكنها المماليك السلطانية وعمر حارة تختص بهم وكانت الملوك تعني بها غاية العناية ، حتي أن الملك المنصور قلاوون كان يخرج في غالب أوقاته إلي الرحبة عند استحقاق حضور الطعام للمماليك ويأمر بعرضه عليه ويتفقد لحمهم ويختبر طعامهم في جودته ورداءته فمتي رأي فيه عيباً اشتد علي المشرف والاستادار ونهرهما وحل بهما منه أي مكروه ، وكانت المماليك أبدا تقيم بهذه الطباق لا تبرح فيها ، فلما تسلطن الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، سمح للمماليك أن ينزلوا من القلعة في النهار ولا يبيتوا إلا بها ، فكان لا يقدر أحد منهم أن يبيت بغيرها ، ثم إنه الملك الناصر محمد بن قلاوون سمح لهم بالنزول إلي الحمام يوماً في الأسبوع فكانوا ينزلون بالنوبة مع الخدام ثم يعودون آخر نهارهم ولم يزل هذا حالهم إلي أن انقرضت أيام بني قلاوون ، وكانت للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة : أولها أنه إذا قدم بالمملوك تاجره عرضه علي السلطان ونزله في طبقة جنسه وسلمه لطواشي برسم الكتابة ، فأول ما يبدأ به تعليمه ما

[٦١] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٦٤

يحتاج إليه من القرآن الكريم ، وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم ، ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالي ومعرفة الخط والتمرن بآداب الشريعة وملازمة الصلوات والأذكار

- أي أن المنصور قلاوون أراد أن يكون برنامج إعداد المملوك كما كان علي عهد الملك الصالح كما تم إعداده هو شخصياً وأن يأتي المملوك صغيرا في السن
- نعم – – وكان الرسم إذ ذاك ألا تجلب التجار إلا المماليك الصغار ، فإذا شب الواحد من المماليك علمه الفقيه وأقرأه فيه مقدمه ، فإذا صار إلي سن البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك ، فيتسلم كل طائفة معلم حتي يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه وإذا ركبوا إلي لعب الرمح أو رمي النشاب لا يجسر جندي ولا أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم ، فينقل إذن إلي الخدمة ويتنقل في أطوارها رتبة بعد رتبة إلي أن يصير من الأمراء ، فلا يبلغ هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه واشتد ساعده في رماية النشاب وحسن لعبه بالرمح ومرن علي ركوب الخيل ، ومنهم من يصير في رتبة فقيه عارف أو أديب شاعر أو حاسب ماهر، هذا ولهم أزمة من الخدام وأكابر من رؤوس النوب : يفحصون عن حال الواحد منهم الفحص الشافي ويؤاخذونه أشد المؤاخذة ويناقشونه علي حركاته وسكناته ، فإن عثر أحد من مؤدبيه الذي يعلمه القرآن أو الطواشي الذي هو مسلم إليه أو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه ، علي أنه اقترف ذنباً أو أخل برسم أو ترك أدباً من آداب الدين أو الدنيا قابله علي ذلك بعقوبة مؤلمة شديدة بقدر جرمه ، فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك وقادة يجاهدون في سبيل الله وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل ويردعون من جار وتعدي ، وكانت لهم الإدارات الكثيرة من اللحوم والأطعمة والحلاوات والفواكه والكسوات الفاخرة والمعاليم من الذهب والفضة بحيث تتسع أحوال غلمانهم ويفيض عطاؤهم علي من قصدهم
- هذا كلام جميل جداً فماذا حدث بعد ذلك ؟
- ثم لما كانت أيام الظاهر برقوق راعي الحال في ذلك بعض الشئ إلي أن زالت دولته في سنة أحدي وتسعين وسبعمائة ، فلما عاد إلي المملكة رخص للمماليك في سكني القاهرة وفي التزوج فنزلوا من الطباق من القلعة ونكحوا نساء أهل المدينة وأخلدوا إلي البطالة ونسوا تلك العوايد ، ثم تلاشت الأحوال في أيام الناصر فرج بن برقوق وانقطعت الرواتب من اللحوم غيرها حتي عن مماليك الطباق مع قلة عددهم ورتب لكل واحد منهم في اليوم مبلغ عشرة دراهم من الفلوس فصار غذاؤهم في الغالب الفول المصلوق عجزا عن شراء اللحم وغيره هذا وبقي الجلب من المماليك إنما هم الرجال الذين كانوا في بلادهم ما بين ملاح سفينة ووقاد في تنور خباز ومحول ماء في غيط أشجار ونحو ذلك واستقر رأي الناصر علي أن تسليم المماليك للفقيه يتلفهم بل يتركون وشئونهم
- يا له من قرار له عواقب وخيمة

- فبدلت الأرض غير الأرض وصارت المماليك السلطانية أر ذل الناس وأدناهم وأخسهم قدراً وأشحهم نفساً وأجهلهم بأمر الدنيا وأكثرهم إعراضاً عن الدين ما فيهم إلا من هو أزني من قرد وألص من فأرة وأفسد من ذئب ، لاجرم أن خربت أرض مصر والشام من حيث يصب النيل إلي مجري الفرات بسوء إيالة الحكام وشدة عبث الولاة وسوء تصرف أولي الأمر حتي أنه ما من شهر إلا ويظهر من الخلل العام مالا يتدارك فرطه ، وبلغت عدة المماليك السلطانية في أيام الملك المنصور قلاوون ستة آلاف وسبعمائة فأراد ابنه الأشرف خليل تكميل عدتها عشرة آلاف مملوك وجعلهم طوائف فأفرد طائفة الأرمن والجركس وسماهم البرجية لأنه أسكنهم في أبراج بالقلعة فبلغت عدتهم ثلاثة آلاف وسبعمائة وأفرد جنس الخطا والقبجاق وأنزلهم بقاعة عرفت بالذهبية والزمرذية وجعل منهم جمدارية وسقاة وسماهم خاصكية وعمل البرجية سلاحدارية وجمقدارية وجاشنكيرية وأوشاقية ، ثم شغف الملك الناصر محمد بن قلاوون بجلب المماليك من بلاد أزبك وبلاد توريز وبلاد الروم وبغداد وبعث في طلبهم وبذل الرغائب للتجار في حملهم إليه ، ودفع فيهم الأموال العظيمة ثم افاض علي من يشتريه منهم أنواع العطاء من عامة الأصناف دفعة واحدة في يوم واحد ولم يراع عادة أبيه ومن كان قبله من الملوك في تنقل المماليك في أطوار الخدم حتي يتدرب ويتمرن كما تقدم وفي تدريجه من ثلاثة دنانير في الشهر إلي عشرة دنانير ثم نقله من الجامكية إلي وظيفة من وظائف الخدمة ، بل اقتضي رأيه أن يملأ أعينهم بالعطاء الكثير دفعة واحدة ، فأتاه من المماليك شئ كثير رغبة فيما لديه حتي كان الأب يبيع ابنه للتاجر الذي يجلبه إلي مصر وبلغ ثمن المملوك في أيامه إلي مائة ألف درهم فما دونها وبلغت نفقات المماليك في كل شهر إلي سبعين ألف ثم تزايدت حتي صارت في سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ، مائتين وعشرين ألف درهم[٦٢]
- هذا يعني أن المنصور قلاوون الذي هو من المماليك البحرية اهتم بإعداد المماليك البرجية ولم تستمر هذه الرعاية بعد وفاته ، ولكن موضوع السماح لهم بمغادرة القلعة يعتبر تطور خطير في رأيي
- يغادرون القلعة (بشرط ألا يبيتوا خارجها مما أدي إلي وقوفهم علي الأحوال العامة بعد أن كانوا بمعزل عن الناس)[٦٣] وزاد نفوذ المماليك البرجية تدريجياً إلي أن قويت شوكتهم في عهد سلطنة الناصر محمد ابن قلاوون
- إنها خطوات لا تستطيع أن توقفها أو تتحكم فيها طالما بدأت الخطوة فلن تعرف ما الذي سيحدث بعد وفاتك وإلي أين ستتجه خطوات من سيأتي بعدك

---

٦٢ نقلاً عن كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية – الجزء الثالث – تأليف تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – تحقيق محمد زينهم ، مديحة الشرقاوي – مكتبة مدبولي

٦٣ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٦٤

- بالفعل لقد كانت الخطوة الكبري في تأسيس دولة المماليك البرجية والإطاحة بدولة المماليك البحرية عندما ظهر علي مسرح الأحداث الأمير برقوق
- ومتي كان ذلك ؟

٢٠. الظاهر برقوق يؤسس دولة الجراكسة

- في عهد أحد أحفاد الناصر محمد استطاع أحد المماليك البرجية التدرج في المناصب والوصول إلي منصب أتابك العسكر سنة ٧٨٠ هـ " ١٣٧٨ م "٦٤ وهذا المملوك هو الأمير برقوق الذي انتهز اضطراب الأحوال في البلاد وضعف دولة المماليك البحرية ووجود سلطان صغير السن من أحفاد الناصر محمد بن قلاوون ووسط كل هذا تمكن برقوق من الوصول للسلطة حيث عقد اجتماعاً مهماً وكبيراً بالقلعة حضره الخليفة العباسي والقضاة (قرروا فيه : " إن أحوال المملكة قد فسدت وتزايد فساد العربان في البلاد من الشرقية والغربية والصعيد ، وقد خامرت النواب وخرجوا عن الطاعة والأحوال غير صالحة وإن الوقت محتاج لإقامة سلطان كبير – – – يردع العربان ويمهد البلاد ويسكن الاضطراب ويقمع أهل الفساد – –)٦٥
- دائماً تكون الحاجة في مصر إلي حاكم قوي ، ولا أدري هل مصر هي التي في حاجة إليه أم أنه في حاجة إليها ، وسبحان الله ما أكثر ما يتكرر هذا المشهد في تاريخ مصر منذ الفراعنة
- وهكذا تم إعلان الأمير برقوق سلطاناً علي البلاد وأصبح لقبه السلطان الملك الظاهر برقوق وبذلك قامت دولة المماليك الجراكسة بكل بساطة
- وبالتأكيد قام الجراكسة بشراء المزيد من الجراكسة
- ويبدو أن سلاطين المماليك البرجية لم يكتفوا فقط بشراء مماليك سعرهم منخفض بل إنهم قرروا شراء مماليك كبار في السن فكان المملوك يصل مصر شاباً كبيراً وليس طفلاً صغيراً وتم تسميتهم بالمماليك الجلبان أو الأجلاب الذين جلبوا إلي البلاد كباراً
- وقد أدي هذا بالطبع إلي اختفاء عملية إعداد المملوك التي كانت تحدث أيام المماليك البحرية مما أثر علي سلوكيات المماليك بشكل واضح أليس كذلك ؟
- لا شك (وصار تجار الرقيق يجلبون إلي مصر المماليك الكبار ، في الوقت الذي بخل عليهم السلاطين بالمال والتربية الصالحة ، ولم يدفعوا بهم إلي فقيه أو مؤدب ، وتهاونوا في تربيتهم ، فضعفت روحهم العسكرية وكثرت ثوراتهم وصاروا مصدر قلق واضطراب وفوضي – – وخير تعبير عن حالة المماليك الجراكسة وما طرأ عليهم من فساد وتدهور ما وصفهم به المقريزي فقد قال في نقد لاذع " وصارت

---

٦٤ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٦٥

٦٥ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٦٥

المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدراً وأشحهم نفساً وأجهلهم بأمر الدنيا وأكثرهم إعراضاً عن الدين – –)[٦٦]

- وكما قال أمير الشعراء أحمد شوقي :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت – – – فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

- وهكذا كان بدء هبوط منحني دولة المماليك التي بدأت برجال أقوياء وسلاطين عظماء جاهدوا تحت راية الإسلام وكانت لهم صولات وجولات في ميادين القتال وقهروا الصليبيين والتتار وكان تقديرهم للدين الإسلامي واعتزازهم به واعتمادهم عليه واحترامهم لعلماءه سبباً رئيسياً لانتصاراتهم ومجدهم وهذا الاهتمام بالدين كان ناتجاً عن نشأتهم نشأة صالحة دينية منذ نعومة أظافرهم أما ما وصل إليه الحال في نهاية عهد المماليك الجراكسة فسوف نعرفه أثناء الحوار عن الخيانة والفساد وانتشار الفوضى واللامبالاة التي أدت إلي انهيار دولتهم
- قبل أن نسترسل في الحديث عن دولة المماليك البرجية أرجو أن تحدثني علي الملك الظاهر برقوق
- تولي السلطان المملوكي الظاهر سيف الدين برقوق حكم مصر سنة ١٣٨٢م ، وكان محباً للفروسية ميالاً للعب بالرمح ، ولقد ألغي السلطان برقوق الكثير من الضرائب فنشطت الحركة التجارية وهبطت أسعار السلع المستوردة ، الأمر الذي شجع الكثير من التجار الأجانب وخاصة الشرقيين منهم علي الإتجار مع مصر ، وقد اتسع ملك مصر في عهده ، فقد خطب باسمه في أماكن لم يخطب لأحد قبله فيها من سلاطين المماليك ، فخطب باسمه في مدينة تبريز وفي الموصل وفي ماردين وسنجار بجانب مصر وبرقة والشام والحجاز واليمن وضربت السكة باسمه في هذه الأماكن،
- كل هذه البلاد كانت تحت سيطرته ، وبالطبع لم تكن هناك حدود بينها
- بالتأكيد لقد كانت دولة واحدة كبيرة لفترة كبيرة من الزمن وليس في عصر المماليك فقط بل تم السيطرة علي ما يسمي حالياً بالشرق الأوسط من معظم حكام مصر البارزين منذ تحتمس الثالث أيام الفراعنة مروراً بكبار القادة من أمثال ملوك الفرس والاسكندر وبطليموس الأول والرومان وبعد ذلك الدول الإسلامية المتعاقبة كالأموية والعباسية ثم الطولونية والإخشيدية والأيوبية ثم المملوكية كل هذه الدول لم تعرف الحدود المعروفة حالياً بينها
- فمتي كانت المرة الأولي في التاريخ التي يتم رسم حدود بين هذه الدول ؟
- بعد الاحتلال البريطاني والفرنسي وتوقيع اتفاقية سايكس بيكو بينهما كما سنري لتقسيم مناطق نفوذ كل دولة منهما بعد سقوط آخر دولة إسلامية مرهوبة الجانب في المنطقة
- هذا يعني أنه عند حدوث أي خلاف علي الحدود بين هذه الدول حالياً يجب أن نعود إلي اتفاقية سايكس بيكو لحسم الأمر

---

[٦٦] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٦٦

- بالتأكيد فقد ترك المحتلون المنطقة العربية والأفريقية مع وضع بذور الاختلاف بين هذه الدول علي الحدود لأنها لم تكن حدود طبيعية كما في أوروبا ولكنها خطوط مستقيمة مرسومة علي الخريطة باليد
- وماذا تقصد بالحدود الطبيعية ؟
- أقصد أن يفصل بين الدول سلسلة جبال مثلاً أو بحر أو نهر أو أي تضاريس طبيعية توضح حدود الدولة منذ أن سكنها القدماء وليس خط مستقيم تم تحديده علي الخريطة في اتفاقية
- نعم فهمت ، نعود إلي الظاهر برقوق الذي مات دون أن يعرف أن دولته ستتمزق وتتحول إلي أشلاء
- نعود لما كنا نتحدث عنه ، فعندما توفي الظاهر برقوق دُفِن بالصحراء مع مجموعة من العلماء والصالحين ، وكان قد أوصي أن يبني لهم مدفن وأن يلحق به مسجد وخانقاه ، ولقد نفذ ابنه الناصر فرج الوصية ، وتعتبر مدرسة (مسجد) وخانقاه السلطان برقوق أولي المنشآت المعمارية في دولة المماليك الجراكسة بمصر وهي ملاصقة لمدرسة الناصر محمد بن قلاوون وتطل علي شارع المعز لدين الله في (بين القصرين)
- فهل لديك معلومات عن هذه المدرسة ؟
- أما تخطيط المدرسة فهو كبقية المدارس المملوكية ، فهي تتكون من صحن مكشوف بوسطه فسقية عليها قبة مقامة علي ثمانية أعمدة وتحيط بها أربعة إيوانات ، ولقد استخدم الرخام لأول مرة في زخرفة الواجهة الرئيسية وزخرفة المئذنة أما مدفن السلطان برقوق فيكفي هذا الأثر فخراً أن صورته استعملت رمزاً لأحد العملات الورقية في مصر ولقد شيد ذلك المدفن السلطان الناصر فرج بن برقوق لأبيه ، واستغرق بناؤه اثنتي عشرة سنة ، واستغل هذا المكان كمدفن وخانقاه للتعبد ومدرسة لتدريس المذاهب الأربعة ومسجداً جامعاً
- وهل هناك أحداث شهيرة غير ذلك في عهده ؟
- نعم فعلي عهد الظاهر برقوق ارتفع نجم القائد تيمورلنك ملك التتار ودارت عدة صراعات بسبب ذلك في المنطقة ولقد عاصر أيضاً جلوس السلطان الظاهر برقوق علي عرش مصر مقدم الفيلسوف المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون إلي مصر حيث وصل إلي الإسكندرية من البلاد المغربية واندمج منذ وصوله إلي مصر في نسيج حياتها يدرس في الجامع الأزهر ويتولي رئاسة القضاء الحنفي وقد زار ابن خلدون العالم الشهير مصر سنة ٧٨٤ هـ (نوفمبر ١٣٨٢م) في عصر دولة المماليك الجراكسة (وكانت هذه أول مرة يري فيها القاهرة ، فقال : فانتقلت إلي القاهرة أول ذي القعدة فرأيت حضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر وإيوان الإسلام وكرسي الملك تلوح القصور والأواوين في جوه ، وتزهر الخوانق والمدارس بآفاقه وتضيء البدور والكواكب بين علمائه ، – – ونحن لهذا العهد

نري أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر ، لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين ، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت)٦٧

- فماذا حدث بعد ذلك في عصر المماليك البرجية ؟

٢١. فتح قبرص ومحاولات فتح رودس وأحداث أخري في عصر المماليك البرجية

- لم ينسي المماليك ما فعله ملك قبرص عندما نهب مدينة الإسكندرية وهرب بأسطوله كاللصوص وظل دافع الانتقام موجود ولكن لم تكن هناك فرصة مناسبة علي ما يبدو للرد علي هذه الحملة ، ولكن تم الرد بعد ستين سنة من حدوثها وفي عهد السلطان الأشرف برسباي الذي أرسل ثلاث حملات بحرية إلي جزيرة قبرص (الأولي سنة ٨٢٧ هـ "١٤٢٤ م " والثانية سنة ٨٢٨ هـ " ١٤٢٥ م " والثالثة سنة ٨٢٩ هـ "١٤٢٦ م ")٦٨ وفي الحملة الثالثة استطاع المماليك فتح قبرص والسيطرة عليها بالكامل بل وتم أسر ملك قبرص الذي كان في ذلك الوقت الملك جانوس الذي تم إطلاق سراحه في مقابل أن تصبح الجزيرة تابعة لمصر وتدفع الجزية (وهكذا انتقمت مصر لنفسها من جزيرة قبرص ونجحت في القضاء علي نشاطها في مياه البحر المتوسط ، وظلت قبرص منذ ذلك الوقت تابعة للقاهرة ، وتدفع جزية سنوية حتي نهاية حكم المماليك علي يد العثمانيين سنة ١٥١٧ م)٦٩

- وهل كانت هناك محاولات أخري للسيطرة علي جزيرة رودس ؟

- بعد أن سقطت جزيرة قبرص تحول بقايا الصليبيين إلي جزيرة رودس ليتخذوها قاعدة لهم محصنة للهجوم علي بلاد المسلمين وسفنهم والقيام بأعمال القرصنة البحرية (ومما يؤكد ذلك أنه في عهد السلطان جقمق " ٨٤٢-٨٥٧هـ / ١٤٣٨-١٤٥٣م " دخلت فرع رشيد في ربيع الأول سنة ٨٤٣ هـ / ١٤٣٩ م أربع سفن للصليبيين حتي قاربت مدينة رشيد وأخذت أبقاراً وغيرها ثم عادت أدراجها - - - وكان من المستحيل علي دولة المماليك الجراكسة أن تقف مكتوفة الأيدي أمام القراصنة الذين اتخذوا من سواحل جزيرة رودس أوكاراً يخرجون منها للإغارة علي شواطئ مصر - - - ولذلك أراد السلطان جقمق إخضاع جزيرة رودس ليبسط سيادته علي مياه شرق البحر المتوسط -)٧٠ وأرسل جقمق ثلاث حملات لغزو رودس وكانت المقاومة شرسة وعنيدة ولكنها انتهت بتوقيع اتفاقية صلح ليتوقف القتال مقابل توقف أعمال القرصنة وهذا باختصار شديد جداً ما حدث

- سمعت أن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح كان تقريبا في العصر المملوكي فهل هذا صحيح ؟

---

٦٧ نقلا عن كتاب هؤلاء حكموا مصر – حمدي عثمان ، وكتاب (مصر في العصور الوسطي – الأوضاع السياسية والحضارية) (د محمود الحويري)

٦٨ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٦٧

٦٩ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٦٩

٧٠ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٧٠

- (كانت النزعة الاستعمارية هي القاعدة العريضة التي قامت عليها الكشوف الجغرافية في أواخر العصور الوسطي وفي هذا الدور من أدوار الحركة الصليبية ظهرت البرتغال بجهودها الكشفية ذات الطابع الصليبي وشجعها البابوات ، علي أساس تطويق المسلمين من الأمام والخلف وتحطيم سيطرتهم علي تجارة الهند التي تمثل المنبع الرئيسي لثروتهم ورخائهم ، وفي ٢٠ مايو سنة ١٤٩٨ م " ٩٠٤ هـ " بعد رحلة استغرقت أكثر من عشرة شهور تمكن فاسكو دي جاما من الطواف حول أفريقيا من طريق رأس الرجاء الصالح)٧١ وبوصول البرتغاليون إلي الهند تم ضرب اقتصاد الدولة المملوكية في مقتل ،
- إنها ضربة قاسية للاقتصاد المملوكي الذي يعتمد علي تجارة الترانزيت
- بكل تأكيد (وعبثاً حاولت دولة المماليك الجراكسة إيقاف البرتغاليين عن التعرض بسوء للتجار المسلمين في الهند وتهديد سفنهم التجارية ، فدخلت في حرب معهم كان نصيبها فيها الهزيمة الساحقة وتحطيم أسطولها في معركة ديو البحرية في ٣ فبراير سنة ١٥٠٩ م "٩١٥هـ" فلم تقم للتجارة المملوكية في الهند بعد ذلك قائمة وتدهور مركزها الاقتصادي)٧٢ ولأول مرة تقريباً يذوق المماليك طعم الهزيمة الساحقة التي لم تحدث لهم منذ نشأة دولتهم وحتي هذه المعركة
- ومن من السلاطين الجراكسة يمكن أن نتحدث عنه بعد برقوق وبرسباي وجقمق ؟
- يمكننا ان نتحدث عن الأشرف إينال والأشرف قايتباي والغوري وطومان باي
- إنها أسماء معروفة بالفعل ولنبدأ بالسلطان الأشرف إينال

٢٢. السلطان الأشرف إينال

- هو السلطان الأشرف أبو النصر سيف الدين إينال العلائي الظاهري وهو السلطان الثاني عشر من دولة المماليك البرجية الشراكسة في مصر بويع بالسلطنة في يوم الاثنين ٨ ربيع أول عام ٨٥٧ هـ. الموافق ١٩ مارس ١٤٥٣م وكانت فترة حكمة لمصر والدولة المملوكية حوالي ٨ سنوات
- وماذا تعني كلمة إينال ؟
- يقال أن إينال كلمة تركية من مقطعين هما: «أى» ومعناها القمر، و«نال» ومعناها شعاع أى أن اسمه يعنى «شعاع القمر» وكان قد تولّى عدة مناصب قبل السلطنة منها رأس نوبة ثاني ونائب غزة ونائب الرها في زمن السلطان برسباي عام ٨٣٦ هـ ثم حضر إلى القاهرة وأصبح مقدم ألف ثم أصبح نائب صفد عام ٨٤٠ هـ ثم عينه السلطان جقمق أتابكا عام ٨٤٩ هـ. وكان السلطان إينال ملكا هينا لينا قليل الأذى لم يسفك دما قط بغير وجه شرعي، ينقاد للشريعة الغراء ويحب العلماء ويُعتبر من خيار ملوك الشراكسة. وكانت الدولة العثمانية في ذلك الوقت تربطها علاقات طيبة مع دولة المماليك

---

[٧١] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٧١

[٧٢] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٧٢

وظلت هذه الدولة القوية تحاول فتح القسطنطينية حتي تم لها ذلك في عهد السلطان العثماني محمد الثاني

- الذي أطلقوا عليه بعد ذلك اسم محمد الفاتح ؟
- نعم وكان ذلك في عهد السلطان المملوكي الأشرف إينال الذي وصلته رسالة من السلطان العثماني محمد الفاتح يخبره فيها بفتح القسطنطينية وهذا بعض ما جاء في رسالة محمد الفاتح إلي الأشرف إينال : (- - إن من أحسن سنن أسلافنا رحمهم الله تعالي أنهم مجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، ونحن علي تلك السنة قائمون وعلي تلك الأمنية دائمون ممتثلين بقوله تعالي {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ } (٢٩) سورة التوبة ، ومستمسكين بقوله عليه الصلاة والسلام " من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله علي النار " فهممنا في هذا العام غمه الله بالبركة والإنعام معتصمين بحبل الله ذي الجلال والإكرام ومتمسكين بفضل الملك العلام إلي أداء فرض الغزو في الإسلام مؤتمرين بأمره تعالي {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ } (١٢٣) سورة التوبة ، وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجوراً وكفراً التي بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهي بكفرها فخراً - - فمتي طلع الصبح الصادق من يوم الثلاثاء يوم العشرين من جمادى الأولي هجمنا مثل النجوم رجوماً لجنود الشياطين سخرها الحكم الصديقي ببركة العدل الفاروقى بالضرب الحيدرى لآل عثمان من الله بالفتح قبل أن تظهر الشمس من مشرقها {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ } (٤٥)، (٤٦) سورة القمر)٧٣
- وبالطبع فرح المسلمون في مصر وفي جميع أنحاء الأمة الإسلامية فرحاً عظيماً بهذا الفتح
- نعم كما سعد الخليفة العباسي بذلك سعادة بالغة فكم ناصبت الدولة البيزنطية العداء للأمة الإسلامية وأذاقتها من شرورها
- فماذا كان رد السلطان إينال علي رسالة السلطان محمد الفاتح ؟
- قام السلطان إينال بالرد علي رسالة السلطان محمد الفاتح برسالة يهنئه فيها بالفتح العظيم وجاء فيها بعض أبيات من الشعر الذي نظمه الشعراء في مصر بهذه المناسبة كان منها :

كذا فليكن في الله جل العزايم - - - وإلا فلا تجفوا الجفون الصوارم

كتائبك البحر الخضم جيادها - - - إذا ما تهدت موجه المتـلاطم

يا ناصر الإسلام يا من بغزوه - - - علي الكفر أيام الزمان المواسم٧٤

- ومتي كان تحديداً تاريخ فتح القسطنطينية ؟

---

[٧٣] الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (د علي محمد محمد الصلابي) صفحة ١٤٩ ، ١٥٠

[٧٤] الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (د علي محمد محمد الصلابي)صفحة ١٥١

- كان فتح القسطنطينية في ٢٠ جمادى الأول سنة ٨٥٧ هجرياً (٢٩ مايو ١٤٥٣ ميلادياً) ومنذ هذا التاريخ لم يعد هناك وجود لما يسمي بالدولة البيزنطية[٧٥]
- سبحان الله إنها القسطنطينية عاصمة أباطرة الروم الشهيرة والتي كانت معقل من معاقل أعداء الإسلام منذ الإمبراطور هرقل الشهير حيث كانت الدولة البيزنطية الكبرى المسيطرة علي بقعة ضخمة من العالم ولا تنافسها إلا دولة الفرس ، بشر رسول الله صلي الله عليه وسلم بفتحها القسطنطينية وقد انتظر المسلمون هذا الحدث ومر عليهم خلفاء كبار وسلاطين أقوياء دون أن يتم فتح القسطنطينية ولكنهم كانوا علي ثقة كاملة من أن بشارة رسول الله صلي الله عليه وسلم سوف تتحقق في يوم من الأيام
- وقد تحققت بالفعل بفضل الله تعالي علي يد الدولة العثمانية التي كانت في ذلك الوقت ترفع راية الجهاد في سبيل الله ، وكنت قد أشرت إشارة سريعة وعابرة عن نشأة هذه الدولة بعد معركة بيبرس الشهيرة ضد المغول وأخذت هذه الدولة تنمو وتزدهر وتتوسع وكانت تربطها علاقات طيبة وحسنة مع دولة المماليك والخليفة العباسي في مصر وظلت هذه الدولة القوية تحاول فتح القسطنطينية حتي تم لها ذلك
- كانت هذه أهم الأحداث في عصر الأشرف إينال فماذا عن قايتباي ؟

٢٣. السلطان الأشرف قايتباي

- تولي السلطان الأشرف قايتباي حكم مصر سنة ١٤٦٨ م وكان من ألمع سلاطين المماليك الذين حكموا مصر ، وفي عهده وصل إلي القاهرة الأمير (جم) العثماني أخو السلطان العثماني بايزيد ، لخلاف وقع بين الأخوين فرحب به قايتباي وأحاطه بعناية كبيرة ،
- فهل كان هذا الموقف سبباً لإفساد العلاقات بين مصر المملوكية والدولة العثمانية ؟
- بالتأكيد فلم يغفر السلطان بايزيد للسلطان قايتباي إيواء الأمير جم ، ووقعت أول معركة بين الجانبين سنة ١٤٨٤ م وقد انتصر فيها الأمراء المماليك ، وقد وقعت معركة أخري سنة ١٤٨٦ م حيث التقي جيش مصري ضخم تحت قيادة الأمير يزبك أتابك العسكر المصري مع جيش عثماني في أقصي الشمال فهزم الجيش العثماني هزيمة ساحقة ، حتي قيل إن عدة من قتل من العثمانيين يربو علي أربعين ألفاً وقبض علي قائد الجيش العثماني أحمد هرسك واستولي علي الأعلام العثمانية ، واهتزت القاهرة لهذا النصر الكبير وأقيمت الزينات وسارت المواكب التي استعرضت فيها الأعلام العثمانية وقد وقعت مواجهة أخري بين الجانبين سنة ١٤٨٧ م اشترك فيها الأسطول العثماني وكان النصر أيضاً حليف الجيش المصري ، ومن جديد ارتجت القاهرة لهذا النصر الجديد وأقيمت فيها الاحتفالات

[٧٥] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٧٤

- **يبدو أن الجيش المملوكي في عصر قايتباي كان من أقوي الجيوش في المنطقة إن لم يكن أقواها علي الإطلاق**
- **نعم فقد كان المماليك لا يزالون محتفظون بقوتهم وكفائتهم القتالية العالية، واستقر الرأي بعد مفاوضات متواصلة بين السلطان قايتباي المملوكي والسلطان بايزيد العثماني علي عقد صلح بين الملكين علي أساس أن يرسل بايزيد مفاتيح القلاع التي استولي عليها إلي مصر إشارة إلي ردها إلي ملكية مصر ،علي أن يطلق قايتباي من عنده من الأسري العثمانيين ، وتبادل السلطانان الهدايا والمجاملات الودية وهكذا فتحت صفحة جديدة من الود بين الدولتين سنة ١٤٩٢م والجدير بالذكر أن العلاقات ساءت بين الدولتين مرة أخري وبلغت ذروتها في عهد كل من السلطان المملوكي الأشرف قنصوة الغوري والسلطان العثماني سليم الأول**
- **نعم بكل تأكيد**
- **وتعتبر قلعة قايتباي في الإسكندرية من أهم المنشآت المعمارية للملك الأشرف قايتباي ، وتم بناء هذه القلعة علي أساس منارة الإسكندرية القديمة ،**
- **أي أن مكان هذه القلعة كانت منارة الاسكندرية المشهورة تاريخياً؟**
- **بالتأكيد وقد أنشأ قايتباي القلعة المعروفة باسمه سنة ١٤٧٩ م واشتملت علي مسجد بقيت منارته إلي ما بعد الاحتلال الفرنسي لمصر وتأثر بضرب الإسكندرية سنة ١٨٨٢ أسوأ الأثر ، وكانت أحداث ضرب الإسكندرية قد تسببت في تخريب هذه القلعة وهدم أبراجها وقسم كبير من واجهاتها وبقيت متخربة إلي أن عنيت إدارة حفظ الآثار العربية بإصلاحها ، وقد أصلحت أبراجها وما يعلوها من أبنية بعد إعادتها لحالتها الأصلية وهي تبدو لزائر الإسكندرية من كل جهة والسلطان قايتباي هو السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي الجركسي ، وولد في سنة ١٤٢٣ م ، وبويع بالسلطنة سنة ١٤٦٨ م ، وقد ظل ملكاً لمصر نحو ٢٩ سنة ،**
- **وهل أمر بتشييد منشآت أخري ؟**
- **نعم فقد أقام كثيراً من المنشآت المعمارية من مساجد ومدارس ووكالات ومنازل وأسبلة وقناطر للمياه ، كما عني بالعمارة الحربية وبالحصون فأنشأ قلعة الإسكندرية وأخري برشيد ، وقد توفي في سنة ١٤٩٦ م وينسب إليه ما يزيد عن سبعين أثراً إسلامياً ما بين إنشاء وتجديد ، وتعتبر مجموعة قايتباي بالقرافة الشرقية من أبدع وأجمل المجموعات المعمارية في مصر الإسلامية ، وترجع أهميتها إلي جمال تنسيق المجموعة مع بعضها ، وهي تتكون من مدرسة ومسجد وسبيل وكتاب وضريح ومئذنة ، وقد لعبت دقة الصناعة وكذا جمال النسب دوراً هاماً في إبراز جمال هذا الأثر المعماري القيم**
- **من الواضح أن قايتباي كان من السلاطين البارزين في دولة المماليك البرجية**

- نعم وقد قام المؤرخ ابن اياس الحنفي بوصف عودة السلطان الأشرف قايتباي من رحلة الحج[٧٦] كما ورد بكتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور فكتب ما يلي : وفيه قدم مبشر الحاج وهو شخص من الخاصكية يقال له اسنباي وقد استمر اسمه بالمبشر بعد ذلك فأخبر بسلامة السلطان وأنه دخل إلي مكة في موكب حافل وكان له يوم مشهود ، ولقاه أمير مكة من مسيرة يومين ، ، وأنه تصدق علي فقراء بمكة بخمسة آلاف دينار ، وتواضع تواضعاً وخضوعاً إلي الغاية ، وكان بطول الطريق لا يتكلم في شئ يتعلق بالأحكام بين الناس وفعل في الطرقات أشياء كثيرة من وجوه البر والمعروف فحصل لاسنباي المبشر جملة خِلَع ، ومالا له صورة ، من الأمراء وأعيان الناس ، ومن خوند زوجة السلطان وغير ذلك من أرباب الدولة ، وفيه جهز الأتابكي أزبك ويشبك الدوادار وجماعة من الأمراء إقامات لملاقاة السلطان من العقبة ، وخرج الأمير أزبك اليوسفي أحد الأمراء المقدمين صحبة ذلك ، وخرج معه جماعة كثيرة من أرباب الدولة لملاقاة السلطان من العقبة ، واهتم الأمير يشبك الدوادار ببياض أماكن بالقلعة ودهان أبوابها وضرب الرنوك عليها وجلا واجهة القصر الأبلق وما يليه حتي ظهر رخامه الملون وقد احتفل في إصلاح ذلك جداً ، ويستمر وصف ابن إياس فيقول : سنة خمس وثمانين وثمانمائة (١٤٨٠م) : فيها ، في المحرم بعث السلطان نجابا إلي الأمراء وأخبر النجاب بأن السلطان دخل إلي المدينة الشريفة ، علي صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وزار النبي صلي الله عليه وسلم وأنعم علي الفقراء الذين بها بخمسة آلاف دينار ، وأنه رحل نحو الينبع قاصدا للعقبة ، ثم رحل عنها وهو واصل عن قريب ، ثم رسم لهم بألا يخرج لملاقاته أحد من الأمراء ، وأن السلطان ينزل بقبة الأمير يشبك التي بالمطرية فبادر الأمراء بالخروج إلي هناك ونصبوا الخيام ، ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قد وصل إلي البويب فلما تحقق الأمراء ذلك ركب الأتابكي أزبك والأمير يشبك الدوادار وبقية الأمراء من المطرية وتوجهوا إلي ملاقاة السلطان ، فلما وصلوا إلي البويب اجتمعوا بالسلطان هناك وساروا قدامه حتي وصل إلي الوطاق الذي بالمطرية ، وكان له هناك موكب حافل ، وكان دخوله في ثاني عشر المحرم قبل دخول الحاج بثمانية أيام ، فلما نزل بقبة الأمير يشبك مد له الأمير أزبك الأتابكي هناك مدة حافلة جداً وبات السلطان هناك وبات عنده قضاة القضاة ومشايخ العلم وهنئوه بقدومه ، فلما كان يوم الاثنين رابع عشر ركب السلطان من هناك وحمل الأتابكي أزبك علي رأسه القبة والطير ، وركب قدامه الأمراء والعسكر وهم موكبون كالأعياد ، وسارت الأمراء والقضاة الأربعة قدامه ، فدخل من باب النصر ، وشق من القاهرة ، وقد زينت له زينة حافلة ، واستمر في هذا الموكب العظيم ، وطلب طلبا حافلا ولعب قدامه بالغواشي الذهب وكان له يوم مشهود إلي أن طلع إلي القلعة ، فلما طلع فرشت له خوند عدة شقق من باب القلعة إلي الحوش ، ونثرت علي رأسه خفائف الذهب والفضة

[٧٦] تم إدراج هذا الوصف لعودة السلطان من الحج لما يحتويه من تفاصيل تلقي الضوء علي جانب كبير من حياة المماليك في ذلك العصر

وتوشحت الخدام بالبنود الذهب والحرير الأصفر ، وتخلقت بالزعفران ، فلما دخل السلطان إلي الحوش ، مد له هناك الأمير يشبك مدة حافلة أعظم من مدة الأتابكي أزبك التي مدها له بالقبة ، ثم أن السلطان خلع علي من كان معه من أرباب الوظائف ونزلوا إلي بيوتهم وانفض ذلك الموكب ، وعدت هذه الحجة من النوادر الغريبة ، ودخل عليه جملة تقادم من مال وتحف تعدل مائتي ألف دينار من أمير مكة وقضاتها ، ومن أمير الينبع وغير ذلك ، وقد نظم الشعراء في هذه الواقعة عدة قصائد ، فمن ذلك :

قدم السرور بمقدم السلطان ،،، من حجه المقبول بالرضوان
سلطاننا الملك الهمام الأشرف ،،، الراقي سماء الحسن والاحسان
فهناؤنا ببقائه ، في نعمة ،،، وسلامة فرض علي الأعيان
لما نوي حجا ولبي محرما ،،، عم الأمان مراتع الغزلان
والوحش في أبياتها والدوح في ،،، أنباتها والطير في الطيران
ثم الصلاة علي النبي المصطفي ،،، عدد الرمال بجملة الكثبان

- بالفعل هذا الوصف لعودة السلطان من الحج يحتوي علي تفاصيل تلقي الضوء علي جانب كبير من حياة المماليك في ذلك العصر
- فلما استقر السلطان بالقلعة ، أخذ في أسباب تفرقة الهدية علي الأمراء ، فابتدأ بالأتابكي أزبك ثم بقية الأمراء كل من هو في منزلته ، ثم المباشرين وأرباب الدولة ، وكان الأمراء والمباشرون قدموا للسلطان أيضاً تقادم حافلة ، ما بين مال وخيول وقماش وغير ذلك
- إنه وصف رائع بالفعل ، فهل لديك المزيد من الوصف لتفاصيل ذلك العصر عند ابن اياس أو المقريزي وهل كانت هناك أحداث أخري مهمة في عهد الأشرف قايتباي ؟
- هناك وصف طريف أورده المقريزي عن تقاليد سفر السلطان في العصر المملوكي يمكن أن نذكره في هذه المناسبة
- كلي آذان صاغية

٢٤. من التقاليد السلطانية عند سفر السلطان وعند ركوبه إلي الميدان في العصر المملوكي من كتاب خطط المقريزي

- يقول المقريزي : وكان من رسوم السلطان في خروجه إلي سرياقوس وغيرها من الأسفار ألا يتكلف إظهار كل شعار السلطنة بل يكون الشعار في موكبه السائر فيه جمهور مماليكه مع المقدم عليهم واستاداره ، وأمامهم الخزائن والنجائب والهجن ، وأما هو نفسه فإنه يركب معه عدة كبيرة من الأمراء الكبار والصغار من الغرباء والخواص ، وجمله من خواص مماليكه ، ولا يركب في السير برقبة ولا

بعصائب بل يتبعه جنائب خلفه ويقصد في الغالب تأخير النزول إلي الليل فاذا جاد الليل حملت قدامه فوانيس كثيرة ومشاعل فاذا قارب مخيمه تلقي بشموع موكبية في شمعدانات كفت ، وصاحت الجاويشية بين يديه ، ونزل الناس كافة إلا حملة السلاح فإنهم وراءه والوشاقية أيضاً وراءه وتمشي الطبردارية حوله ، حتي إذا وصل القصور بسرياقوس أو الدهليز من المخيم ، نزل عن فرسه ودخل إلي الشقة وهي خيمة مستديرة متسعة ثم منها إلي شقة مختصرة ثم منها إلي اللاجوق ، وبدائر كل خيمة من جميع جوانبها من داخل سور خركاه ، وفي صدر اللاجوق قصر صغير من خشب برسم المبيت فيه ، وينصب بإزاء الشقة الحمام بقدور الرصاص والحوض ، علي هيئة الحمام المبني في المدن إلا أنه مختصر ، فإذا نام السلطان طافت به المماليك دائرة بعد دائرة ، وطاف بالجميع الحرس وتدور الزفة حول الدهاليز في كل ليلة وتدور بسرياقوس حول القصر في كل ليلة مرتين : الأولي منذ يأوي إلي النوم والثانية عند قعوده من النوم ، وكل زفة يدور بها أمير جاندار وهو من أكابر الأمراء وحوله الفوانيس والمشاعل والطبول والبياتة وينام علي باب الدهليز النقباء وأرباب النوب من الخدم ، ويصحب السلطان في السفر غالب ما تدعو الحاجة إليه حتي يكاد يكون معه مارستان ، لكثرة من معه من الأطباء وأرباب الكحل والجراح والأشربة والعقاقير وما يجري مجري ذلك ، وكل من عاده طبيب ووصف له ما يناسبه ، يصرف له من الشراب خانه أو الدواء خانه المحمولين في الصحبة ، والله أعلم

- إنها طقوس عجيبة فعلاً وأعتقد أن أهم ما فيها هو ما يتعلق بالطب والأطباء
- وكان من مصطلح الملوك أن تكون تفرقة السلطان الخيول علي الأمراء في وقتين أحدهما عندما يخرج إلي مرابط خيله في الربيع عند اكتمال تربيعها وفي هذا الوقت يعطي أمراء المئين الخيول مسرجة ملجمة بكنابيش مذهبة ويعطي أمراء الطبلخانات خيلا عريا ، والوقت الثاني يعطي الجميع خيولا مسرجة ملجمة بلا كنابيش بفضة خفيفة وليس لأمراء العشراوات حظ في ذلك إلا ما يتفقدهم به علي سبيل الإنعام ولخاصكية السلطان المقربين من أمراء المئين وأمراء الطبلخانات زيادة كثيرة من ذلك بحيث يصل إلي بعضهم المائة فرس في السنة
- لقد كانوا يحترمون الأقدمية علي ما يبدو
- وكان من شعار السلطان أن يركب إلي الميدان وفي عنق الفرس رقبة حرير أطلس أصفر بزركش ذهب فتستر من تحت أذني الفرس إلي حيث السرج ويكون قدامه اثنان من الأوشاقية راكبين علي حصانين أشهبين برقبتين نظير ما هو راكب به ، كأنهما معدان لأن يركبهما ، وغاشية السرج محمولة أمام السلطان وهي أديم مزركش مذهب يحملها الركابدارية قدامه ، وهو ماش في وسط الموكب ، ويكون قدامه فارس يشبب بشبابة لا يقصد بنغمها الإطراب ، بل ما يقرع بالمهابة سامعة ومن خلف السلطان الجنائب وعلي رأسه العصائب السلطانية وهي صفر مطرزة بذهب بألقابه واسمه

- طبعاً هناك ألفاظ ومصطلحات غير مفهومة ولكن سياق الكلام يوضح أهميتها ، فهل هذه الطقوس كانت عند ركوب السلطان إلي الميدان فقط ؟
- هذا لا يختص بالركوب إلي الميدان بل يعمل هذا الشعار أيضاً إذا ركب يوم العيد أو دخل إلي القاهرة أو إلي مدينة من مدن الشام ويزداد هذا الشعار في يوم العيدين ودخول المدينة برفع المظلة علي رأسه ويقال لها الحبر وهو أطلس أصفر مزركش من أعلاه قبة وطائر من فضة مذهبة ، يحملها يومئذ بعض أمراء المئين الأكابر وهو راكب فرسه إلي جانب السلطان ، ويكون أرباب الوظائف والسلاحدارية كلهم خلف السلطان ، ويكون حوله وأمامه الطبردارية وهم طائفة من الأكراد ذوي الإقطاعات والإمرة ويكونون مشاة وبأيديهم الأطبار المشهورة[٧٧]
- إنها معلومات طريفة ، فهل كانت هناك مواقف تاريخية تستحق الذكر في هذا الحوار ؟
- هناك موقف تاريخي في غاية الأهمية وهو محاولة إنقاذ الأندلس قبل سقوطها
- إنه موضوع أهم من ركوب السلطان فماذا حدث ؟

٢٥. محاولة إنقاذ الأندلس في العصر المملوكي

- في الحقيقة إنه من المواقف التاريخية المؤثرة التي حدثت في ذلك العصر وهو محاولة إنقاذ الأندلس بواسطة الدولة المملوكية وقد وردت هذه المحاولة في كتاب مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية تأليف محمد عبد الله عنان حيث كتب ما يلي : قلما نجد في صحف مصر الإسلامية ما يثير من التأثر والشجن ، قدر ما تثيره هذه المحاولة النبيلة التي بذلتها مصر لتنقذ دولة الإسلام في الأندلس ، ولقد كانت أيضاً آخر محاولة بذلتها مصر المستقلة في ميدان الدبلوماسية الإسلامية ، – – – في سنة ١٤٨٩ كانت جيوش أسبانيا النصرانية – أو جيوش قشتالة وأراجون – تتقدم في قلب مملكة غرناطة آخر معقل لأسبانيا المسلمة وكانت دولة الإسلام في الأندلس قد أخذت منذ أوائل القرن السابع الهجري تنحدر بسرعة إلي هاوية الإنحلال والفناء – – – – ثم حل الصراع الأخير ، واتحدت قشتالة وأراجون علي يدى فرناندو وإيسابيلا ، واعتزمت أسبانيا النصرانية أن تقوم بضربتها الحاسمة للإسلام في الأندلس ، فتقدمت الجيوش المتحدة علي مملكة غرناطة ، وكانت أحوال غرناطة يومئذ تنذر بالويل ، وكان الخلاف الداخلي قد دب إليها ومزقتها المنافسات والمعارك الأهلية ، وشطرتها إلي شطرين يتربص كل منهما بالآخر ، أحدهما غرناطة وبعض أعمالها ويحكمها أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل ، وكان فرناندو وإيسابيلا قد شهرا الحرب علي الإسلام قبل ذلك بأعوام ، – – – وكانت أنباء الأندلس قد ذاعت يومئذ في العالم الإسلامي ، واهتز لمصابها أمراء الإسلام قاطبة ، وكان

---

[٧٧] نقلاً عن كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية – الجزء الثالث – تأليف تقي الدين أحمد بن علي المقريزي – تحقيق محمد زينهم ، مديحة الشرقاوي – مكتبة مدبولي – من صفحة ٣١ وما بعدها

أمراء الأندلس وزعماءها يتجهون إزاء الخطر الداهم بأبصارهم إلي دول الإسلام في إفريقية ومصر وتركيا لتسعي إلي غوثهم ، وكانت سفاراتهم ورسائلهم تتري منذ أعوام علي فاس والقاهرة وقسطنطينية

- هذه الرسائل كانت تطلب من أقوي الدول الإسلامية في العالم في ذلك الوقت التدخل لإنقاذ الأندلس ؟
- نعم وكان سلطان مصر يومئذ الملك الأشرف قايتباي المحمودي الظاهري ، ولم تكن أحوال مصر علي ما يرام يومئذ ، فقد كان يسودها الانحلال الداخلي ، وكانت فوق ذلك تخشي الخطر يهددها من ناحية الترك ، ولكن مصر لم تنس مهمتها التاريخية في توجيه الدبلوماسية الإسلامية كلما دعيت إلي أدائها - - - ووصلت سفارة الأندلس إلي مصر في أواخر سنة ٨٩٢هـ (نوفمبر سنة١٤٨٧م) ، ويصف ابن إياس هذه السفارة فيما يأتي : وفي ذي القعدة سنة ٨٩٢هـ جاء قاصد من عند ملك الغرب صاحب الأندلس ، وعلي يده مكاتبه من مرسله تتضمن أن السلطان يرسل له تجريدة تعينه علي قتال الفرنج ، فإنهم أشرفوا علي أخذ غرناطة وهو في المحاصرة معهم ،-- -
- وكيف كانت الاستجابة لهذه الرسائل ؟
- مهما يكن من موقف مصر وتركيا يومئذ إزاء حوادث الأندلس فإن مصر هي التي انفردت بتلبية نداء الأندلس ، والسعي إلي إنقاذها ولم تكن أحوال مصر يومئذ مما يسمح لها بإرسال جيش أو غيره من المساعدات المادية ، إلي ميدان حرب ناء كالأندلس ، - - ذلك أن سلطان مصر الأشرف ، أجاب علي سفارة الأندلس بتوجيه سفارة مصرية إلي البابا وملوك النصرانية ، ولكنه لم يعهد بها إلي سفراء مسلمين ، وإنما عهد بها سفراء من رعاياه النصاري ، واختار لأدائها راهبين من جماعة القديس فرنسيس أحدهما القس انطونيو ميلان وعهد إليهما بكتب إلي البابا وإلي ملك نابولي ، وإلي فرناندو وإيسابيلا ملكي قشتالة وأراجون ،
- أي أنه استعان بالدبلوماسية بدلاً من القتال واختار لأداء المهمة رعاياه من النصاري ، يا لها من حكمة فماذا كتب في رسالته ؟
- وفي هذه الكتب يعاتب سلطان مصر ملوك النصاري ، علي ما ينزل بأبناء دينه المسلمين في مملكة غرناطة ، وعلي توالي الاعتداء عليهم ، وغزو أراضيهم وسفك دمائهم ، ونهب أملاكهم ، في حين أن رعاياه النصاري في مصر وفي بيت المقدس ، وهم ملايين ، يتمتعون بجميع الحريات والحمايات ، آمنين علي أنفسهم وعقائدهم وأملاكهم ، ولهذا فهو يطلب إلي ملكي قشتالة وأراجون ، الكف عن هذا الاعتداء ، والرحيل عن أراضي المسلمين ، وعدم التعرض إليهم ، ورد ما أخذ من أراضيهم ، ويطلب إلي البابا وملك نابلي أن يتدخلا لدي ملكي قشتالة وأراجون ، لردهما عما يدبرانه من المشاريع لإيذاء المسلمين والبطش بهم ،
- فماذا في يده ليفعله إذا لم تتم الاستجابة لمطالبه ، وإلا فقد تكون رسائل لا قيمة لها ؟

- نعم فقد أضاف أيضاً هذا التهديد : هذا وإلا فإن سلطان مصر يضطر إزاء هذا العدوان ، أن يتبع نحو رعاياه النصاري سياسة التنكيل والقصاص ، ويبطش بكبار الأحبار في بيت المقدس ، ويمنع دخول النصاري كافة إلي الأراضي المقدسة[٧٨] ،
- أي ما يسمي حاليا المعاملة بالمثل ، فماذا حدث بعد ذلك
- لقد تم الرد علي قايتباي بأن هذه المعارك والصراعات ليس لها علاقة بالاضطهاد الديني ولكن لاستعادة الأرض فقط ، وهو ما ظهر عكسه تماماً بعد سقوط الأندلس والتنكيل بالمسلمين
- فهل نفذ المماليك تهديداتهم بعد سقوط الأندلس بشأن معاملة رعاياهم من النصاري ؟
- بالطبع لا ، فهذا يتعارض مع تعاليم الإسلام السمحة مع أهل الذمة
- إن سقوط الأندلس بالتأكيد كان له أثره المحزن علي جميع المسلمين بلا شك ولكنهم كانوا في حالة من الصراعات فيما بينهم شغلتهم عن القيام بواجبهم لإنقاذ الأندلس ، وقد بدأت المعارك بالفعل بين أقوي دولتين في العالم الإسلامي في ذلك الوقت العثمانية والمملوكية وكانت النهاية في عصر الغوري فيما أعتقد
- نعم ودعنا نتحدث قليلا عن الغوري
- أتمني ذلك

٢٦. السلطان الأشرف قنصوة الغوري

- تولي السلطان الأشرف قنصوة الغوري حكم مصر سنة ١٥٠١م وكان يحكم مصر والشام والحجاز كمن سبقوه من سلاطين المماليك وكان يلقب بملك البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين ، وكانت مصر في ذلك العهد تسيطر علي حركة التجارة العالمية إلا أنها قد تأثرت إلي حد ما باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، وكانت القاهرة من أرقي عواصم العالم فنا وحضارة وعلماً وعمارة ، وقد كتب المؤرخ الكبير ابن اياس الحنفي عن السلطان الأشرف قنصوة الغوري ما يلي :وأما ما أنشأ من العمائر التي بالقاهرة فمن ذلك الجامع والمدرسة اللتان أنشأهما في الشرابشيين والوكالة والحواصل والربوع التي أنشأها خلف المدرسة عند المصبغة والمئذنة التي أنشأها في الجامع الأزهر وهي برأسين ، وأنشأ هناك الربع والحوانيت التي بالسوق خلف الجامع ، وأنشأ الربوع التي بخان الخليلي ، وجدد عمارة خان الخليلي وأنشأ به الحواصل والدكاكين ، وأنشأ الميدان الذي تحت القلعة ونقل إليه الأشجار من البلاد الشامية ، وأجري إليه ماء النيل من سواقي نقالة ، وأنشأ به المناظر والبحرة وأنشأ جامعا خلف الميدان عند حوش العرب بخطبة ومأذنة ، وجدد عمارة قاعات القلعة منها قاعة البيسرية وقاعة العواميد وقاعة البحرة وأنشأ المقعد القبطي الذي بالحوش ، وجدد عمارة سبيل المؤمني وجعل سقفه عقود

[٧٨] كتاب مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية تأليف محمد عبد الله عنان ١٨٩٦-١٩٨٦ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة ١٩٩٨ – مقتطفات من صفحة ٢٠٢ وما بعدها

بالحجر ، وأنشأ الربع والدكاكين التي بسويقة عبد المنعم ، وأنشأ الربع والوكالة التي في الجسر الأعظم ، وجدد عمارة ميدان المهارة الذي بالقرب من قناطر السباع وبناه بالفص الحجر المشهر بعدما كان مبنياً بالطوب اللبن ، وجدد عمارة المقياس وأنشأ به القصر علي تلك البسطة التي كانت بها ، وأنشأ بها المقعد المطل علي البحر ، وجدد عمارة قاعة المقياس ، والجامع الذي هناك ، وجدد عمارة قنطرة بني وائل ، والقنطرة الجديدة ، وقنطرة الحاجب ، وأنشأ بثغر رشيد سورا وأبراجا لحفظ الثغر وجدد عمارة أبراج الإسكندرية ، وأصلح طريق العقبة وأنشأ هناك خانا بأبراج علي بابه وجعل فيه الحواصل مثل الخان الذي في العقبة ، وحفر هناك الآبار في عدة مواضع من مناهل الحجاج ، وأنشأ بمكة المشرفة مدرسة ورباطا للمجاورين والمنقطعين هناك وأجري عين بازان بعد ما كانت قد انقطعت من سنين ، وأنشأ بجدة سورا علي ساحل البحر الملح وفيه عدة أبراج بسبب حفظ بندر جدة من الفرنج جاء هذا السور من أحسن المباني هناك ، وأنشأ علي شاطئ البحر الملح بالينبع الصغير سورا وأبراجا منيعة وله غير ذلك من الآثار الحسنة عدة مبان بها نفع للمسلمين ،

- **يبدو أنه كان يعشق البناء**
- نعم ويستمر ابن اياس في وصفه فيقول : وفي الجملة إن السلطان الغوري كان خيار ملوك المماليك الجراكسة علي عوج فيه ولم يجئ من بعده أحد من الملوك يشابهه في أفعاله ولا علو همته ولا عزمه في الأمور وكان كفئا تاما للسلطنة ، مبجلا في المواكب تملأ منه العيون[٧٩]
- **فما أهم الأحداث التي وقعت في عهده ؟**
- لقد حدث صراع مرير بين الدولة المملوكية والبرتغاليين لتأمين التجارة في البحر الأحمر وقد (بدأ هذا الصراع منذ وصول البرتغاليين إلي البحار الشرقية حيث عمل كل طرف علي الاستيلاء وأسر سفن تجار الطرف الآخر بل عمل كل فريق علي العبث وإتلاف وافساد ثروات الفريق الآخر ، وعادت هذه الأعمال العدائية من جانب الطرفين بالخسارة الشديدة علي موانئ البحر الأحمر وبخاصة موانئ عدن ومخا وجدة كما تذكر المصادر المعاصرة وكثرت الاشاعات بفساد الافرنج وتعبثهم علي التجار وقد جابوا حول بندر جدة وقد قامت سياسة البرتغاليين في حقيقة الأمر منذ تلك الفترة علي أساس القضاء علي كل نفوذ تجاري للتجار العرب في –البحار– الشرقية ، ومن هنا كانت مطاردتهم للسفن العربية وإغراقها والعمل علي طرد العرب من المراكز التجارية الهندية والإفريقية منذ وصول فاسكو داجاما إلي هذه البحار حيث قام أثناء رحلته الثانية سنة ١٥٠٢ بإرسال حملة مكونة من خمس سفن حربية للإقامة الدائمة عند مدخل البحر الأحمر والعمل علي مهاجمة السفن العربية ومنعها من مزاولة النشاط

---

[٧٩] نقلا عن كتاب (المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور) تأليف محمد بن أحمد بن اياس الحنفي – مكتبة الأسرة ١٩٩٦ صفحة ٥٦، ٥٧

التجاري في مياه المحيط الهندي إلا بتصريح من البرتغاليين وفعلاً تمكن قائد هذه الحملة البرتغالية من القيام ببعض الأعمال العدائية ضد السفن التجارية العربية كما تمكن من أسر بعض البحارة العرب

- أي أنه لم يكتف باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح بل قام بنشر الرعب بين التجار في البحر الأحمر
- نعم وقد ازدادت حدة الحصار البرتغالي شدة حينما وصل إلي المياه الشرقية البوكيرك سنة ١٥٠٦ الذي شدد من فرض الحصار البحري المفروض علي البحار العربية ومداخلها مما أضر ضرراً فادحاً باقتصاد كل من مصر واليمن والبندقية التي كانت تسعي جادة في تلك الآونة علي مقاومة الخطر البرتغالي عن طريق حث السلطان الغوري علي النهوض لمقاومة هذا العدو المشترك ، ورغم سوء الظروف الداخلية التي كانت تحيط بالسلطان الغوري فإن خطته قائمة آنذاك علي تقوية نفوذه في أقاليم البحر الأحمر وتحصين سواحله إدراكاً منه لأهمية هذا البحر الإقتصادية والاستراتيجية بالنسبة لأملاكه في مصر والحجاز ولذا فإنه أرسل في ٦ جمادي الآخرة سنة ٩١١هـ - ٤نوفمبر سنة ١٥٠٥م حملة بحرية تحت قيادة حسين الكردي من ميناء السويس ووجهتها الهند علي أن تعمل في نفس الوقت علي تحصين ميناء جدة استعداداً لمواجهة أي خطر برتغالي في المستقبل لمهاجمة الأماكن المقدسة ، ولذا فإن الحملة زودت بالفنيين اللازمين للقيام بهذه التحصينات ، وقد أقام هؤلاء الفنيون فعلاً بعض الاستحكامات في هذا الميناء ثم اتجهت الحملة إلي موانئ اليمن الواقعة علي البحر الأحمر مثل قمر بجيزان وجزيرة كمران ثم اتجهت إلي مخا فعدن حيث ذكر الأمير حسين الكردي قائد الحملة لحاكم عدن الطاهري أن الحملة تستهدف الذهاب إلي الهند لمحاربة البرتغاليين فأمده حاكم عدن بما يشاء من طعام ومؤن ومع أن الحملة تمكنت حينما وصلت إلي "ديو" من التحالف مع بعض الإمارات الهندية وإحراز انتصارات جزئية علي القوي البرتغالية إلا أن الهزيمة حلت بها في النهاية ولم تحقق الهدف المرجو منها ومنذ تلك الآونة ازداد اقتراب الخطر البرتغالي إلي مداخل البحر الأحمر)[٨٠] ،

- وكيف تطور هذا الصراع ؟
- لم تستمر الدولة المملوكية لاستكمال هذا الصراع ولكن حلت محلها الدولة العثمانية وتولت مسئولية العالم الإسلامي وانتهت فترة حكم السلطان الغوري بل انتهت حياته كلها في معركة مرج دابق وقد وردت كل هذه الأحداث في كتاب ممتع للمؤرخ ابن اياس الحنفي أسمه بدائع الزهور في وقائع الدهور
- أرجو أن تقرأ لي بعض سطور من هذا الكتاب
- لا مانع ، بل وستكون فرصة لتتعرف علي بعض تفاصيل ذلك العصر ، يقول ابن إياس : - - - - وفي يوم الخميس المقدم ذكره صنع السلطان - الأشرف قنصوة الغوري - وليمة حافلة بالمقياس ، واجتمع بها القضاة الأربعة ، وأعيان الناس من العلماء وغير ذلك ، ومد هناك الأسمطة الحافلة ،

---

[٨٠] من كتاب (فصول من تاريخ مصر الإقتصادي والإجتماعي في العصر العثماني) د عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم - من سلسلة كتب (تاريخ المصريين) رقم ٣٨ - الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة سنة ١٩٩٠ صفحة ١٢١ وما بعدها

واجتمع هناك قراء البلد قاطبة والوعاظ وكانت ليلة حافلة ، والسلطان كل سنة يصنع مثل ذلك بالمقياس قرب وفاء النيل ، وفي سنة عشر وتسعمائة صنع وليمة بالمقياس مثل هذه فزاد الله تعالي في النيل المبارك تلك الليلة خمسين أصبعاً دفعة واحدة ، فعد ذلك من النوادر ، وفي يوم الاثنين ثاني عشرينه حضر إلي الأبواب الشريفة الأمير طومان الدوادار ، وكان له مدة وهو مسافر في الصعيد بسبب ضم المغل ، فلما كان يوم الأحد بلغ السلطان وصوله إلي الجيزة فنزل إلي المقياس ولاقاه من هناك ، وكذلك قاصد ابن عثمان ، فلما طلع إلي القلعة يوم الاثنين المذكور خلع عليه السلطان خلعة حافلة ، ونزل من القلعة في موكب مشهود ، وصحبته سائر الأمراء المقدمين والمباشرين وأعيان الناس ، واستمر علي ذلك حتي دخل إلي داره ، وخلع عليه السلطان في ذلك اليوم فوقاني أخضر بطرز يلبغاوي عريض ، ومشت الأفيال وهي مزينة قدامه في ذلك الموكب وشق من الصليبة ، وفي يوم الثلاثاء ثالث عشرينه توفي الأمير ماماي جوشن أحد الأمراء المقدمين الألوف ، وكان رئيساً حشماً جميل الهيئة قليل الأذي بين الأمراء ، ومات وهو في عشر الستين ، وقيل أصله من مماليك الظاهر خشقدم من كتابيته ، واشتراه الأشرف قايتباي من بيت المال وأعتقه فهو من جملة معاتيق الأشرف قايتباي ومن مماليكه ، فلما بلغ السلطان وفاته نزل وصلي عليه ، وكانت جنازته مشهودة رحمة الله تعالي عليه ، وفي يوم الثلاثاء المذكور كان وفاء النيل المبارك ، أوفي بعد الظهر ، وعلق الستر علي شباك القصر الذي أنشأه السلطان علي بسطة المقياس ، وقد أوفي الله الست عشرة ذراعاً وأصبعين من سبع عشرة ، ووافق ذلك ثاني عشرين مسري ، وقد أبطأ هذا النيل عن نيل السنة الماضية بسبعة أيام ، وكانت الناس بسببه في غاية الاضطراب ، وفي يوم الأربعاء رابع عشرينه ، الموافق الثالث عشرين مسري ، فتح السد وكان يوماً مشهوداً قل أن يقع مثله في الفتك والفرجة ، ورسم السلطان للأتابكي سودون العجمي بأن يتوجه ويفتح السد علي العادة ، فكان له في ذلك موكب حافل ، وخلع عليه السلطان فوقاني أخضر بطرز يلبغاوي عريض ، وحصل للناس غاية الجبر بكسر السد في ذاك اليوم ، وقد قيل في المعني :

كسر الخليج وكان ذلك نعمة سرت قلوب العالمين لبشره
ومن العجائب والغرائب أنه جبرت قلوب المسلمين لكسره

- يبدو أن هذا الاحتفال كان من أهم الأيام في مصر في تلك الأيام وعدد الأصابع التي تزيد وتنقص كانت أهم ما يشغل الناس ، وسبحان مغير الأحوال
- ووافق أن النيل زاد بعد فتح السد بيومين عشر أصابع في دفعة واحدة ، ثم في اليوم الثالث من فتح السد زاد الله في النيل المبارك احدي عشرة أصبعاً في دفعة واحدة ، ثم في اليوم الخامس من فتح السد زاد سبع أصابع فزاد ست عشرة أصبعاً من ثماني عشرة ذراعاً وذلك في أواخر مسري بعد الوفاء بخمسة

أيام ، فعد ذلك من النوادر ، وفي رجب كان مستهل الشهر يوم الثلاثاء ، فجلس السلطان في الميدان ، وطلع إليه الخليفة والقضاة الأربعة يهنونه بالشهر ،

- إنها تفاصيل تعبر عن الكثير عند تأملها ولكن بالطبع لم تستمر هذه الأوضاع
- بالتأكيد فعصر المماليك البرجية كان قد وصل إلي فترة اضمحلال وضعف وأصبحوا غير قادرين علي مواجهة أعداء الأمة وخاصة ما يصنعه البرتغاليون في البحر الأحمر بالقرب من المقدسات الإسلامية
- إذن فقد حان الوقت لقيام دولة اسلامية أخري قادرة علي صد الأعداء بعد أن فشلت الدولة المملوكية ، فقامت الدولة العثمانية بالقضاء علي الدولة المملوكية وتحملت مسئولة العالم الإسلامي ولكن كيف حدث ذلك ؟
- إليك وصف المؤرخ ابن اياس الحنفي لمعركة مرج دابق التي وقعت في ٢٤ أغسطس سنة ١٥١٦م في شمال سوريا بين المماليك بقيادة السلطان الأشرف قنصوة الغوري والعثمانيين بقيادة السلطان سليم الأول : (في يوم الخميس رابع عشره ورد علي السلطان مطالعة[٨١] من عند سيباي نائب الشام وقد بلغه حركة سفر السلطان من مصر إلي البلاد الشامية فأرسل يقول له : يا مولانا السلطان إن البلاد الشامية مغلية والعليق والتبن ما يوجد والزرع في الأرض لم يحصد ولا ثم عدو متحرك فلا يتعب السلطان سره ولا يسافر وإن كان ثم عدو متحرك فنحن له كفاية – – فلم يلتفت السلطان إلي كلامه واستمر باقياً علي حركة السفر إلي حلب)[٨٢] ، (وفي يوم الأربعاء ويوم الخميس أنفق السلطان علي المماليك بقية النفقة – – وفي يوم السبت ثالث عشرينه أكمل السلطان النفقة علي المماليك قاطبة من قرانصة وجلبان ونادي لهم في الحوش أن السفر أول الشهر فاضطرب أحوال المماليك وارتجت القاهرة وعز وجود الخيل والبغال ، وصارت المماليك يهجمون الطواحين ويأخذون منها الخيول والبغال والأكاديش ، فغلقت الطواحين قاطبة وامتنع الخبز من الأسواق وكذلك الدقيق ووقع القحط بين الناس وضج العوام وكثر الدعاء علي السلطان)[٨٣] ، (وفي يوم السبت سادس عشر شعبان ٩٢٢ هـ أشيعت هذه الكاينة العظيمة التي طمت وعمت وزلزلت لها الأقطار ، فلما خرج السلطان من حلب توجه إلي حيلان فبات بها فلما أصبح يوم الأربعاء حادي عشرين رجب رحل السلطان من حيلان وتوجه إلي مرج دابق فأقام به إلي يوم الأحد خامس عشرين رجب وهو يوم نحس مستمر فما يشعر إلا وقد دهمته عساكر سليم شاه بن عثمان – – فقيل أول من برز للقتال الأتابكي سودون العجمي وملك الأمراء سيباي نائب الشام والمماليك القرانصة دون المماليك الجلبان ، فقاتلوا قتالاً شديداً هم وجماعة من النواب فهزموا العثمانيين وكسروهم كسرة مهولة وأخذوا منهم سبعة صناجق – – فهم ابن عثمان

---

[٨١] مطالعة = رسالة مكتوبة

[٨٢] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي)صفحة ١٩

[٨٣] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي)صفحة ٢٠

بالهروب أو يطلب الأمان وكانت النصرة للمماليك أولاً وياليت لو تم ذلك ، ثم بلغ المماليك القرانصة أن السلطان قال لمماليكه الجلبان لا تقاتلوا شي وخلوا المماليك القرانصة تقاتل وحدهم فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال ، فبينما هم علي ذلك وإذا بالأتابكي سودون العجمي قد قتل في المعركة وقتل ملك الأمراء سيباي[٨٤] بك نائب الشام فانهزم من في الميمنة من المماليك ثم إن خاير بك نائب حلب انهزم وهرب فكسر الميسرة – – ويقال إن خاير بك كان موالساً علي السلطان في الباطن وهو مع ابن عثمان علي السلطان وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد فكان أول من هرب هو قبل المماليك قاطبة وكان ذلك خذلاناً من الله تعالي للمماليك حتي نفذ القضاء والقدر – – وانعقد بين العسكرين غباراً حتي صار لا يري بعضهم بعضاً وكان نهار غضب من الله تعالي قد انصب علي المماليك وغلت أيديهم عن القتال)[٨٥] (وقد أقامت هذه الوقعة من طلوع الشمس إلي بعد الظهر وانتهي الحال علي أمر قدره الله تعالي فقتل في تلك الساعة من العثمانيين ومن المماليك ما لا يحصي عدده)[٨٦] ومات الغوري في المعركة من شدة القهر بعد أن طلب من المماليك القتال وقال لهم (هذا وقت المروءة هذا وقت النجدة فأخذ يستغيث فلم يسمع له أحد ، ويروي أن الغوري عندما رأي جيشه يفر من أمام عينيه وتحقق من الهزيمة أصيب بالشلل وطلب جرعة من الماء فجاءوا له بها ولكنه لم يتمالك نفسه وهوي من فوق صهوة فرسه ميتاً وداسته الخيل)[٨٧] والغريب أنه لم يعثر له علي جثة بعد المعركة ، واستمر سليم الأول يزحف بجيشه نحو مصر ويضم إليه كل ما يقابله من بلاد ، وعندما تأكدت وفاة السلطان الغوري طلب الأمراء المماليك من الأمير طومان باي أن يتولى السلطنة

- إنه وصف بليغ لما حدث ، حتي أنني لم أرغب في مقاطعتك حتي تنتهي تماماً من القراءة ، ومن الواضح أن ابن إياس الحنفي كان يتميز بأسلوب رائع

٢٧. وصف اسلوب المؤرخ ابن اياس الحنفي

- بالتأكيد وإليك وصف اسلوب المؤرخ ابن اياس الحنفي كما ورد بكتاب مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية تأليف محمد عبد الله عنان ١٨٩٦-١٩٨٦ – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة ١٩٩٨ – مقتطفات من صفحة ٢١٩ وما بعدها : ، ، ، وفي هذا القسم من روايته ، أعني تدوين حوادث عصره ، وهو يشمل زهاء نصف قرن ، من أواخر القرن التاسع إلي سنة ٩٢٨هـ ، يبدي ابن إياس نوعاً من الطرافة والبراعة ، ويبدي بالأخص دقة في الملاحظة ، ومقدرة لا بأس بها في تحليل

---

[٨٤] كان نائب الشام سيباي بك قائد الميمنة بينما كان خاير بك نائب حلب هو قائد الميسرة وقد تم قتل سيباي بك أثناء القتال وانسحب خاير بك بدون سبب أثناء المعركة وهناك من أوقع الخلاف بين المماليك القرانصة والمماليك الجلبان في أحرج مواقف المعركة

[٨٥] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ٣٥ ، ٣٦

[٨٦] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ٣٨

[٨٧] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٨٠

الأنفس والعواطف ، وقد يرجع ذلك من بعض الوجوه إلي سير الحوادث نفسها وإلي المفاجآت والوقائع الغريبة التي قدر للمؤرخ أن يشهدها في خاتمة حياته ، فهي التي تغذيه خلال روايته بما يلاحظ وما يعلق ، ونستطيع بالأخص أن نستخرج من رواية ابن إياس خلال المجتمع المصري في هذا العصر ، وأن نتعرف هذا المجتمع المستهتر الطروب في بعض أثوابه الحقيقية ، وأن نقرأ في سلوكه وتصرفاته كثيراً من عواطفه وميوله وبوادر نفسه ، وأن نقف علي صور شائقة من عاداته وأحواله الاجتماعية ، وهذا ما تعرضه رواية الحوادث ذاتها ، ولكن لابن اياس فضلاً في ذلك ، هو أنه يعني في كثير من الأحيان بتدوين بعض أحوال الحياة الخاصة ، وتتبع آثار الحوادث في نفس الشعب وطبقاته الإجتماعية المختلفة ، فنري في روايته ، طبقة الأمراء والأرستقراطية تتحكم في سائر الطبقات اجتماعياً واقتصادياً ، ولا تبحث إلا عن تحقيق أهوائها ورفاهيتها ، عاش الناس أم هلكوا ، ونشعر بوحي القضاة وغيرهم من رجال الدين واضحاً في سياسة السلاطين ، كما نراهم سند السلاطين في إباحة المصادرة ونهب الأرزاق والأموال ، وإصدار ما يحقق أهواءهم من الفتاوي والأحكام ، ونري الطبقة المتوسطة منكمشة لا تكاد تأخذ بقسط في مجري الحوادث ، أما الطبقة الدنيا أو العامة فنراها صاخبة فائرة ، تظهر في طليعة كل اضطراب ، ولكنها كعادتها تهدأ وتختفي أمام القوة ، ويتتبع ابن إياس حركات العامة بصفة خاصة ، فيصف سلوكهم ونزعاتهم وعواطفهم من غضب ورضى ومرح واكتئاب ، في نبذ ممتعة كثيراً ما تثير الابتسام ، أما نظم السياسة والحكم والتشريع والإدارة فيعرضها ابن إياس في سياق روايته خير عرض ، فيشرح لنا كيف كان يلي السلطان العرش ويباشر الحكم بنفسه أو علي يد خاصته وأمرائه ، وكان نظام البلاط والحكومة يومئذ من أغرب النظم الملوكية التي عرفت ، يمتزج فيه التشريع والتنفيذ والقضاء ، وسلطات الحرب والمالية في صعيد واحد ، – – – –ونري مما يذكر إلي أي حد كانت دولة المماليك الشراكسة تمعن في المركزية والاستئثار بالسلطات – – – كذلك يصف التقلبات الاقتصادية من غلاء ورخاء ، ، وعلي الجملة فإنه يصور لنا في سياق روايته مجتمع عصره سواء في الحياة العامة أو الخاصة أو في الخلال والعادات ، والميول والأهواء تصويراً قوياً شائقاً

- من حسن الحظ أنه عاصر نهاية المماليك وبداية العصر العثماني
- كانت حوادث الفتح العثماني آخر ما دون قلم ابن اياس فهو يصل في روايته حتي خاتمة سنة ٩٢٨هـ – ١٥٢٢م – ونحن نعرف أن المؤرخ توفي بعدئذ بقليل سنة ٩٣٠هـ – – فهو يترك لنا عن هذه الحوادث الشهيرة سجلا يوميا مسهباً يستند إلي تحقيق المعاصرة والمشاهدة ، وهو لا يمهد فيه إلي الحوادث ، ولا يعني بربطها بل يدونها مرسلة كما وقعت ويحصي آثارها إحصاء من رأي وسمع ، وكل ما هنالك ان ابن اياس يطلق العنان لشعوره وعواطفه ، فنراه يحمل علي السفاكين والظلمة في عبارات شديدة وأحياناً مؤثرة ، – –ويفيض في تفاصيل الواقعة الهائلة التي نشبت بين الغزاة وبين الجيش المصري في مرج دابق سنة ١٥١٦م وما أوقعه الغزاة بعسكر مصر من سفك ونهب ، ويصف صدي

النكبة في القاهرة وكيف قام (نعي السلطان في ذلك اليوم ونعي الأمراء والأعيان الذين قتلوا وصار في كل حارة وزقاق وشارع في القاهرة صراخ وبكاء ، ورجت القاهرة وضجت الناس واضطربت الأحوال وكثر القيل والقال) ثم يقف المؤرخ قليلاً ليصف السلطان الغوري وخلاله ويعدد مثالبه ومآثره وينظم في ذلك قوله :

طالعت تاريخ الملوك فلم أري فيما سمعت حوادثاً مما جري
لا زالت الأيام يبدو فعلها بعجائب وغرائب بين الوري
لكن هذه وقعة ما مثلها سبقت لسلطان ولا متأمرا
والأشرف الغوري كان مليكنا لكنه قد جار فينا وافتري
أعماله ردت عليه بما جني والدهر جازاه بأمر قدرا

- وصلنا إذن في حديثنا إلي طومان باي

٢٨. السلطان الأشرف طومان باي ونهاية دولة المماليك البرجية في مصر

- تولي السلطان الأشرف طومان باي حكم مصر سنة ١٥١٦م بعد مقتل السلطان الغوري وقد أجمع معظم المؤرخون أنه كان سلطاناً عالي الهمة وقليل الأذى للرعية ، وقد كان السلطان الغوري قد عينه نائباً له في مصر قبل أن يتجه إلي لقاء العثمانيين في مرج دابق بشمال سوريا ، وعندما تأكدت وفاة الغوري خلال المعركة طلب الأمراء في مصر من طومان باي أن يتولى السلطنة ،(ولقد تمنع طومان باي عن قبول السلطنة مدة خمسين يوماً إلا أنه قبلها بعد ذلك تحت ضغط)٨٨ ، (وحين تولي طومان باي السلطنة كانت البلاد في أقصي درجات التدهور والدولة المملوكية في آخر رمق ، نتيجة لعوامل متعددة ، إذ قد استشري الفساد في كيان الدولة المملوكية – – وكأنها حتمية النهاية ، ولم يعد هناك أي أمل في استنقاذها)٨٩ ، وبالرغم من كل هذه المعوقات حاول طومان باي أن يستعد للحرب الحتمية (بينما رفض أن يأخذ أموال الناس قهراً أو من أي سبيل حتي لا تحدث في أيامه مظلمة أبداً)٩٠ ، وكتب ابن إياس (فلما كان يوم الخميس تاسع عشرين ذي الحجة فيه وقعت كاينة عظيمة تذهل عند سماعها عقول أولي الألباب وتضل لهولها الآراء عن الصواب)٩١ ، (زحف عسكر ابن عثمان ووصل أوائله إلي الجبل الأحمر فلما بلغ السلطان طومان باي ذلك زعق النفير في الوطاق ونادي السلطان للعسكر بالخروج إلي قتال عسكر ابن عثمان – – فركبت الأمراء المقدمون ودقوا

---

٨٨ طومان باي آخر سلاطين المماليك (د عبد المنعم ماجد) صفحة ٤١

٨٩ طومان باي آخر سلاطين المماليك (د عبد المنعم ماجد) صفحة ٥٣

٩٠ طومان باي آخر سلاطين المماليك (د عبد المنعم ماجد) صفحة ٥٩

٩١ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ٨٠ ولاحظ معي أسلوب ابن إياس في وصف المصيبة التي حلت بسلطان مصر ويبدو أن ابن اياس الحنفي كان شاعر ومثقف وعلي قدر عالي من الوعي وله أسلوب شيق في الكتابة

الطبول حربياً وركب العسكر قاطبة حتي سد الفضاء وأقبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر وهم السواد الأعظم فتلاقي الجيشان في أوائل الريدانية فكان بين الفريقين وقعة مهولة يطول شرحها أعظم من الوقعة التي كانت في مرج دابق – – حتي انكسر عسكر مصر وولي مدبراً ، فثبت بعد الكسرة السلطان طومان باي – – وهو يقاتل بنفسه في نفر قليل من الرماة والمماليك السلحدارية)٩٢ ، وانتهت معركة الريدانية بهزيمة ساحقة للمماليك ودخل سليم الأول مصر منتصراً

- وهل فر طومان باي ؟
- كتب ابن إياس (فاستمر السلطان طومان باي – يقع – مع عسكر ابن عثمان ويقتل منهم في كل يوم ما لا يحصي عددهم – – فرأى عين الغلب وقد تكاسل العسكر عن القتال واختفوا في بيوتهم وتفرقت الأمراء واستمر السلطان يقاتل وحده بمفرده في نفر قليل – – وكان قليل الحظ غير مسعود الحركات في أفعاله فكان كما يقال :)٩٣

قليل الحظ ليس له دواء – – – ولو كان المسيح له طبيب

- يبدو أن الجميع قد تخلي عنه والتفوا حول السلطان سليم الأول المنتصر
- (– وكان السلطان ، كلما رام أن ينتصر علي ابن عثمان ينعكس فكان كما يقال في المعني)٩٤

إذا لم يكن عون من الله للفتي – – – فأول ما يجني عليه اجتهاده

- فكيف تم شنقه علي باب زويلة كما هو معروف ؟
- كان من الطبيعي أن يختفي السلطان طومان باي بعد أن تفرق المماليك من حوله وبدا له مما لا يدع مجالاً للشك مدي تكاسلهم عن القتال فذهب طومان باي إلي بعض من يثق به من معارفه ولكن للأسف تم العثور عليه ولم يصدق الناس خبر القبض علي السلطان طومان باي فأمر السلطان سليم الأول بشنقه علي باب زويلة حيث اعتاد الحكام شنق القتلة وقاطعي الطرق
- يا لها من نهاية مؤلمة لبطل شجاع وسلطان محبوب
- (– فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف فإنه كان شاباً حسن الشكل سنه نحو أربع وأربعين سنة وكان شجاعاً بطلاً تصدي لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب وحده بنفسه ، وكان ملكاً حليماً قليل الأذى كثير الخير وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً ، وكان في هذه المدة في غاية التعب والنكد وقاسي شدائد ومحناً وحروباً وشروراً وهجاجاً من البلدان وآخر الأمر شنق علي باب زويلة وأقام ثلاثة أيام وهو معلق علي

---

٩٢ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ٨٢

٩٣ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ٩٢

٩٤ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ١٠٦

الباب حتي جافت رائحته – – وفي اليوم الثالث أنزلوه فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ومضت أخباره كأن لم يكن)٩٥

- فماذا كتب المؤرخون عن هذا الموقف ؟
- يري الكاتب الساخر الكبير محمود السعدني أن (التي تدلت من الحبل لم تكن جثة طومان باي ولكنها كانت في الحقيقة جثة مصر ، ولقد ماتت قروناً طويلة قبل أن يكتب لها البعث من جديد وجاء السلطان العثمانلي ودخلت مصر في سرداب التاريخ وتحولت من سلطنة إلي ولاية وخيم عليها الظلام وأصابها الضمور وإذا كان السلطان العثمانلي قد قطع رأس سلطان المماليك فقد أبقي علي المماليك أنفسهم ، ولم يلبث هؤلاء أن تزيوا بزي العثمانلي ورطنوا بلسانه واشتغلوا تحت رايته)٩٦
- جثة مصر وليست جثة طومان باي
- نعم هكذا وصفها الأستاذ محمود السعدني
- وصلنا إذن في الحديث إلي العصر العثماني ولكن أرجو قبل أن نستكمل حديثنا أن تبحث لي عن المزيد من المعلومات عن احتفال المصريين بوفاء النيل

٢٩. كيف كان يحتفل المصريون بوفاء النيل ؟

- في كتابه الممتع صفحات من تاريخ مصر كتب الأديب الكبير يحيي حقي ترجمة مقال للمستشرق الفرنسي جاستون ڤييت Gaston Wiet تحت عنوان الأعياد والألعاب في القاهرة ، فيما يلي مقتطفات مختصرة من المقال : إن أوفي وصف لأعياد وفاء النيل في القاهرة نجده عند الجغرافي ليون الأفريقي المولود سنة ١٤٨٣م بعد أن زار مصر سنة ١٥١٧م قال : في بدء الأيام التي يغمر فيها النيل أرض مصر يقام في القاهرة عيد كبير وتعلو فيه الضجة وأنغام الموسيقي – تستقل كل أسرة قارباً تزينه بأغلي الأقمشة وأجمل السجاجيد وتحمل معها أطايب الطعام والحلوي وشموعاً غاية في اللطف والبهاء الناس كلهم في القوارب يلتمس كل منهم لهوه حسب طاقته ، ويشارك السلطان نفسه في الاحتفال بهذا العيد يصحبه أعوانه فيأخذ طريقه إلي خليج في النيل يسمي بالخليج الكبير حيث موقع السد ، ويتناول السلطان فأساً ويشرع بضرب جدار السد ثم يحذو حذوه كبار رجال حاشيته حتي ينهدم جانب الجدار الذي يحبس الماء عن الجريان ، فلا يكاد الجدار ينهدم حتي يتدفق النيل في الخليج وهو يهدر بعنف ، ثم ينصب من هناك إلي الخلجان الأخري في المدينة المحمية بسورها ، فيتاح التنقل بالقوارب بين مساكن مصر ونواحيها كلها ، وهكذا فإن ثمرة ما ربحه التاجر أو الصانع خلال العام كله ينفقه في هذا الأسبوع علي الطعام والحلوي والشموع والعطور واستخدام محترفي الغناء والموسيقي ، وهذا العيد بعث لأعياد كانت عند قدماء المصريين ، وهكذا ما إن يعلن عن وفاء النيل حتي يحتشد له أغلب سكان

---

[٩٥] المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي)صفحة ١١١

[٩٦] مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة ٦٧

القاهرة وينصبوا خياماً لهم علي الشاطئين وفي جزر النهر ولا يتخلف عن الجمع أحد من المطربين وعازفي الموسيقي ، ومحترفي الألعاب ، وأصحاب أماكن اللهو تحف بهم جموع من شباب صاخب ، كلهم بلا استثناء يشاركون في بهجة العيد وينفقون أموالاً لا حصر لها ، ويورد الرحالة كارلييه دي مبتون ١٥٧٩م مزيداً من التفاصيل فيقول : إن الناس تخرج في هذا العيد إلي الشوارع يلتمسون ما يتاح لهم من اللهو ، والجانب الشيق عندنا في هذا الاحتفال الذي يقام في الخلاء هو امتداده أيضاً إلي الليل ، فتقام زينة من الأنوار بهية لم يفت المؤلفات العربية وصفها ، وبقي الاحتفال بهذا العيد من التقاليد المرعية وبلغ التأنق في زينته أقصي غايته فكانت الفوانيس ترتب بحيث يخيل لرائيها إنه إزاء قلاع أو قصور ، ويمدنا الرحالة كوبان ١٦٣٨م بتفاصيل شيقة عن هذا العيد فيقول : إن الكثير من الناس تتجمع في سطح الماء أو علي الشواطئ أو حتي داخل المساكن يعلق علي واجهاتها فوانيس عديدة حتي تصبح كأنها بساط من النور ، يربط هذه الفوانيس حبال رقيقة علي الجدران طولاً وعرضاً وفق نسق جميل ، لكل واجهة زينتها الخاصة ، وتبقي الفوانيس مضاءة طول الليل ولا تنطفئ وعلي الجانب الآخر من النيل يتراءي للناس مركبان من أكبر المراكب التي تشق النيل ويعلو فوق هذين المركبين هرم خشبي ثبتت عليه الفوانيس متقاربه تبدل أماكنها صعوداً وهبوطاً أو في حركة دائرية ويتم ذلك في سرعة مذهلة منظر يبهج العيون ، ولا يتأتي لأحد أن يلحظ كيف يتم هذا التبدل والدوران ، ولا شك أن هذه الفوانيس موصولة بعجلات يحركها رجال من خلف الهرم الخشبي ، فتبعث السرور في القلوب[٩٧]

- من الواضح أن هذا الاحتفال قد لفت الرحالة الأجانب عندما حضروا إلي القاهرة
- بالتأكيد فهو أهم احتفال في حياة المصريين لأنه يرتبط بالفعل بحياتهم
- نعود إلي حوارنا ولنستكمل الحديث عن الدولة العثمانية ولتكن البداية عن ملخص العصر العثماني

٣٠. ملخص العصر العثماني

- يمكن تقسيم تاريخ الدولة العثمانية كمعظم الدول إلي عصرين رئيسيين ، عصر ازدهار وتقدم وحضارة وقوة وعصر اضمحلال وتخلف وجمود وضعف ، وقد بدأ هذا التحول تقريباً بين العصر الأول والعصر الثاني بعد عهد السلطان سليمان القانوني[٩٨] أي بعد فترة قصيرة من ضم مصر للدولة العثمانية ، وقد (اتفق المؤرخون علي أن عظمة الدولة العثمانية قد انتهت بوفاة السلطان العثماني سليمان القانوني عام ٩٧٤ هـ وكانت مقدمات ضعف الدولة قد اتضحت في عهد السلطان سليمان) وكانت هزيمة العثمانيين في معركة ليبانتو عام ٩٧٩ هـ أزالت السيادة العثمانية عن البحر المتوسط ، وإذا تأملنا معاً

---

٩٧ نقلاً عن كتاب صفحات من تاريخ مصر – يحيي حقي – طبعة ٢٠٠٨ – نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع– مقتطفات مختصرة من صفحة ٨٧ وما بعدها

[٩٨] (من كتاب الدولة العثمانية – عوامل النهوض وأسباب السقوط) (د علي الصلابي) صفحة ٦٣٥

العصر الأول والعصر الثاني وعلاقته بمصر سنجد أن مصر إلي حد كبير لم تنعم بعصر ازدهار العثمانيين بل كان انضمامها إليهم مع بداية عصر اضمحلالهم تقريباً ،

- بعبارة أخري لم تذق مصر حلاوة العثمانيين ولكنها تجرعت مرارتهم
- نعم ، وهذا يفسر سر كراهية العديد من المصريين حالياً لفترة الحكم العثماني لمصر ويحكم علي الدولة العثمانية بالكامل من خلال عصرها الثاني فقط ، فلم تكن مصر تحت الحكم العثماني أيام السلاطين الأوائل العثمانيين من أمثال عثمان الأول مؤسس الدولة وأورخان ومراد الأول وبايزيد الأول ومحمد جلبي ومراد الثاني ومحمد الفاتح فقد كان هؤلاء السلاطين معاصرين لفترة تواجد الخلافة العباسية في مصر في ظل السلطنة المملوكية القوية المزدهرة في ذلك الوقت بمعني أن سلاطين بني عثمان وسلاطين المماليك كانوا يجاهدون في سبيل الله ولكن مع اختلاف أماكن القتال فقد كان العثمانيون يجاهدون في الغرب الأوروبي بينما كان المماليك يواجهون الخطر المغولي والصليبي في الشرق وكانت بين الدولتين علاقات حميمة وكانوا يتبادلون الرسائل كلما حدثت أمور مهمة
- بالفعل قد تكلمنا من قبل عن الرسالة التي أرسلها السلطان محمد الفاتح إلي الخليفة العباسي والسلطان المملوكي وأهل مصر بشكل عام والتي أخبرهم فيها بفتح القسطنطينية
- بل إن قبل ذلك بفترة وتحديداً في عصر السلطان المملوكي الظاهر برقوق أرسل السلطان العثماني بايزيد الأول رسالة إلي الخليفة العباسي في القاهرة يطلب منه فيها أن يمنحه لقب سلطان الروم نظراً لأنه فتح الكثير من البلاد الرومية وسيطر عليها
- يريد شرعية الحكم من الخليفة العباسي ؟
- نعم ، وإليك بعض ما قرأت عن هذا الموضوع ، (واتخذ بايزيد لقب سلطان الروم كدليل علي وراثته لدولة السلاجقة وسيطرته علي كل شبه جزيرة الأناضول ، كما أرسل إلي الخليفة العباسي المقيم بالقاهرة يطلب منه أن يقر هذا اللقب حتي يتسنى له بذلك أن يسبغ علي السلطة التي مارسها هو وأجداده من قبل طابعاً شرعياً رسمياً فتزداد هيبته في العالم الإسلامي)[٩٩] وقد تعاونت الدولتان المملوكية والعثمانية تعاون عسكري فيما بينهما فمن الثابت تاريخياً أن الدولة العثمانية أرسلت إمدادات ومعونات عسكرية للدولة المملوكية في مواجهة الخطر الصليبي فقد طلب السلطان الغوري المعونة من السلطان بايزيد الثاني ليتمكن من قتال الأسطول البرتغالي (وأرسل في شهر شوال سنة ٩١٦ هـ / ١٥١١ م عدة سفن محملة بالمكاحل والأسهم وأربعين قنطاراً من البارود وغير ذلك من المستلزمات العسكرية والأموال اللازمة ولكن هذه المساعدة لم يكتب لها الوصول سالمة بسبب تعرضها لقرصنة فرسان القديس يوحنا)[١٠٠]

---

[٩٩] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٨٩

[١٠٠] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٢٣٩

- وكما قلنا من قبل أنه عندما عجزت الدولة المملوكية عن القيام بمسئولياتها تجاه الإسلام ومواجهة أعداء الأمة نتيجة للفساد الذي انتشر بها قرر العثمانيون ضم مصر وتوحيد الجبهة الإسلامية ،
- وهنا بدأ الحكم العثماني لمصر في مرحلة حرجة ومفترق طرق حيث أنه لم يمض وقتاً طويلاً بعد ضم مصر حتي بدأت الدولة العثمانية نفسها تدخل في عصر اضمحلال ولذلك نجد أن مصر لم تشاهد من العثمانيين إلا فترات جمود وضعف بعد ذلك وتم إهمال شئونها الداخلية وتحكم فيها المماليك مرة أخري كما سنري ، وعندما تولي السلطان سليم الأول العرش العثماني سنة ٩١٨ هـ قام بتغيير السياسة العثمانية بشكل ملحوظ (فقد توقف في عهده الزحف العثماني نحو الغرب الأوروبي أو كاد أن يتوقف واتجهت الدولة العثمانية اتجاها شرقياً نحو المشرق الإسلامي)[١٠١] ويؤكد الدكتور علي الصلابي أن تحرك الدولة العثمانية نحو المشرق كان (من أجل إنقاذ العالم الإسلامي بصورة عامة والمقدسات الإسلامية بصورة خاصة من التحرك الصليبي الجديد من الأسبان في البحر المتوسط والبرتغاليين في المحيط الهندي وبحر العرب والبحر الأحمر الذين أخذوا يطوقون العالم الإسلامي ويفرضون حصاراً اقتصادياً حتي يسهل عليهم ابتلاعه)[١٠٢]
- بالطبع قد لاحظنا فعلاً مما سبق أن الدولة المملوكية أصبحت تعاني في آخر أيامها من أزمات اقتصادية حادة بسبب هذا الحصار الاقتصادي فضلاً عن تفشي الفساد بها ،
- ومن أسباب توجه العثمانيون أيضاً نحو المشرق الإسلامي تزايد قوة الشيعة في إيران " الدولة الصفوية " مما أنذر ببسط النفوذ الشيعي علي العالم الإسلامي السني وهذا ما دفع العثمانيون (إلي الخروج إلي المشرق العربي لحماية آسيا الصغري بصفة خاصة والعالم السني بصفة عامة)[١٠٣] وقد وجد سليم الأول تهاوناً كبيراً من الدولة المملوكية في مكافحة الشيعة في إيران بل إن هناك معلومات خطيرة وصلت إليه تؤكد أن هناك علاقات ورسائل متبادلة بين المماليك والدولة الصفوية الشيعية في إيران[١٠٤]
- في آخر أيام المماليك بالطبع
- نعم ، ومن هنا قرر سليم الأول ضم الدولة المملوكية التي ناصبته العداء ليضمن حماية ظهره قبل أن يتفرغ تماماً لقتال الدولة الصفوية ،
- فكم كان يبلغ عدد الولاة علي مصر خلال العصر العثماني ؟

---

[١٠١] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٢١٧

[١٠٢] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٢١٨

[١٠٣] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٢١٨

[١٠٤] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٢٢٥

- خلال فترة الحكم العثماني لمصر (تتابع علي مصر في هذه الفترة "١٣٦" من الولاة عاصروا "٢١" من السلاطين العثمانيين)١٠٥ وأول هؤلاء الولاة المذكورين في موسوعة حكام مصر هو خاير بك
- الذي كان نائباً للسلطان الغوري في حلب وكان قائد ميسرة جيشه في معركة مرج دابق الشهيرة
- نعم وأصبح يلقب بلقب خاير١٠٦ باشا بدلاً من خاير بك لأن والي مصر كان يلقب بالباشا تمييزاً له عن باقي البكوات من المماليك وكانت مدة ولاية خاير باشا خمس سنوات وثلاثة شهور (وخلال فترة ولايته علي مصر توفي السلطان سليم في ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠ م وتولي السلطنة من بعده السلطان سليمان القانوني الذي أبقي علي خاير باشا والياً علي مصر)١٠٧ ،
- هل يمكن أن نتوقف قليلاً عند خاير بك ؟

٣١. ملك الأمراء خاير بك الذي أصبح خاين بك

- كان كما قلنا الأمير خاير بك نائب حلب للسلطان الأشرف قنصوة الغوري ، وعندما وقعت معركة مرج دابق في شمال سوريا بين السلطان الغوري والسلطان العثماني سليم الأول ، تولي خاير بك قيادة الميسرة في جيش الغوري كما هو معروف ولكنه كان علي اتفاق مع السلطان العثماني ضد السلطان الغوري ، فانسحب بميسرة الجيش أثناء المعركة بدون مبرر وكان ذلك من أهم عوامل هزيمة جيش مصر في معركة مرج دابق أمام الجيش العثماني ، والذي ترتب عليها بعد ذلك ضم مصر للحكم العثماني ، وعن خيانة الأمير خاير بك يقول المؤرخ ابن إياس الحنفي : (وممن كان موالساً علي السلطان في الباطن خاير بك نائب حلب ، فإنه أول من كسر عسكر السلطان ، وانهزم عن ميسرته ، وتوجه إلي حماه ، ولما ملك ابن عثمان حلب أرسل خلفه ، فلما حضر إليه خلع عليه وصار من جملة أمرائه ، ولبس زي التراكمة ، وقص ذقنه ، وسماه السلطان العثماني (خاين بك) لكونه خان سلطانه وطاع ابن عثمان ، فلما جري ذلك تسحبت مماليك خاير بك ، وتوجهوا إلي مصر ، ودخل هو تحت طاعة ابن عثمان)[١٠٨]
- يبدو أن ابن إياس لم يترك هذا الموقف يمر هكذا دون أن يشير إليه
- إنها أمانة المؤرخ
- فما هي أهم القرارات التي اتخذها السلطان سليم الأول بعد سيطرته علي مصر ؟

٣٢. إجراءات سليم الأول في مصر

---

[١٠٥] موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة ١٠٤

[١٠٦] قام سليم الأول في ذلك الوقت بإطلاق لقب خاين بك علي خاير بك لأنه خان السلطان الغوري

[١٠٧] موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة ١٠٥

١٠٨ نقلاً عن كتاب (بدائع الزهور في وقائع الدهور) تأليف محمد بن أحمد بن إياس الحنفي

- أقام سليم الأول في مصر ثمانية أشهر إلا أياماً قلائل[١٠٩] ومن المؤكد أنه لاحظ مدي ما وصلت إليه مصر من تقدم وتطور في جميع المجالات مما يؤهلها إلي أن تصبح قوة عظمي لولا الفساد الذي انتشر بين حكامها ،
- يبدو أن سليم الأول نظر إلي مصر النظرة التي تكلمنا عنها من قبل حيث عرف قدراتها وعرف ما الذي يمكن أن تقدمه لمن يحكمها من إمكانيات جبارة
- بالتأكيد ولذلك قرر بعض الإجراءات تجاهها وأهمها توزيع السلطة بين عدة جهات بحيث لا يسيطر شخص واحد علي السلطة كلها في يده
- طبعاً مع فارق التشبيه تذكرنا هذه الإجراءات إلي حد كبير مع إجراءات الإسكندر المقدوني عندما قام بتوزيع السلطات في مصر كما تذكرنا أيضاً بموقف الإمبراطور أغسطس من مصر وخوفه الشديد من تحقيق الاستقلال إذا استقر بها حاكم قوي طموح
- وقد وضع سليم الأول قاعدة لنظام الحكم في مصر (وهي إيجاد سلطتين تتنازعان الحكم وتراقب كلتاهما الأخرى ، الأولي سلطة نائب السلطان " الوالي " والثانية سلطة رؤساء الجند ووضع أيضاً نواة السلطة الثالثة وهي سلطة البكوات المماليك الذي رجع إليهم حكم مديريات القطر المصري)[١١٠]

٣٣. نفوذ المماليك من سلاطين إلي بكوات

- فماذا حدث للمماليك ؟
- يؤكد المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي أن هذا النظام في الحكم لم يستمر كما وضعت قواعده من عهد الفتح العثماني (ولم يكن للديوان الكبير ولا للديوان الصغير عمل منظم في إدارة الحكومة بل تركت البلاد تتقسمها رؤساء الجند والولاة وانتهز المماليك فرصة استمرار التنازع والحروب بين الفريقين فأخذوا يعملون علي الانفراد بالحكومة فنظام الحكم السياسي في مصر قد تطور مع الزمن وانتهي التنافس بين السلطات الثلاث إلي تغلب البكوات المماليك ،
- ومتي حدث ذلك ؟
- حدث هذا التطور في النصف الثاني من القرن السابع عشر فاستأثر المماليك بالنفوذ والحكم وساعدهم علي ذلك ما صارت إليه السلطنة العثمانية من الضعف في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر بسبب حروبها المتواصلة واختلال شئونها الداخلية وفساد نظام الحكم فيها وزاد في نفوذهم كثرة تغيير الولاة العثمانيين وعزلهم)[١١١]
- ومن هنا عاد نفوذ المماليك مرة أخري في مصر ولكن ليست في صورة سلاطين ولكن في صورة بكوات

---

[١٠٩] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج١ صفحة ٢٨

[١١٠] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج١ صفحة ٢٩

[١١١] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج١ صفحة ٣٥

- نعم وجدير بالذكر أن من أشهر هؤلاء البكوات المماليك علي بك الكبير ومحمد بك أبو الذهب وإبراهيم ومراد بك ومحمد بك الألفي ، حيث وصل نفوذ المماليك إلي درجة من القوة لم تكن موجودة مع بداية ضم مصر للدولة العثمانية (قال الرحالة فانسليب يصف ما شاهده في مصر سنة ١٦٧٢ م من استئثار المماليك بالحكم : " إن كلمة البكوات في الديوان كانت نافذة بحيث لم يكن الباشا " الوالي العثماني " يخالف لهم أمراً وكانوا يملكون عزله)١١٢

- وكيف استفاد السلطان العثماني من ثروات مصر ؟

- نقل سليم الأول كل ما له قيمة في مصر من أموال وكنوز وأسلحة وخاصة ما كان بالقلعة من خزائن المال والكتب إلي اسطنبول١١٣ (وحمله إلي اسطنبول بالطريق البري علي آلاف الجمال وفي أعداد لا تحصي من المراكب)١١٤ ويقول د عبد المنعم ماجد عن سليم الأول (وفي سبيل القضاء علي مقومات مصر الحضارية سعي سليم إلي أن يفرغها من كل نابه فيها ، فسحب منها رجالها الحاذقين في المهن والحياة الحضارية ليحملهم معه إلي اسطنبول ، فيذكر المؤرخ ابن إياس أسماء الذي تقرر سفرهم من مصر إلي اسطنبول حيث خصص فصلاً في كتابه لمن توجه منهم إلي القسطنطينية علي حد قوله وهم من جميع نواحي مصر من المسلمين والقبط واليهود علي السواء منهم أصحاب الحرف والصناعات كالمهندسين والبنائين والنجارين والحدادين والسباكين والفعلة حيث أخذ سليم من هؤلاء جماعة كبيرة جداً لا يمكن حصر أعدادهم كذلك أخذ سليم الحذاق من صناع الزردخانة أي السلاح والذين يشتغلون بصناعة النسيج – – كما أخذ جماعة من التجار)١١٥ ومن هنا يتضح أن إجراءات سليم الأول التي اتخذها نحو مصر كان الغرض منها إفقادها أسباب القوة والحضارة حتي لا تقوم لها قائمة بعد ذلك قد تشكل خطراً علي دولته

- أو قد يكون السبب هو محاولة نقل الحضارة المصرية إلي اسطنبول والله أعلم

- المؤكد تاريخياً أن عدد المدارس والاهتمام بالعلم والتعليم في مصر قد انخفض بشدة خلال العصر العثماني بعد أن كان مزدهراً في العصر المملوكي ، وأصبح الجامع الأزهر هو المصد الوحيد للعلم في مصر تقريباً والله أعلم ، وكانت اللغة التركية في العصر العثماني هي السائدة وانتشرت المصطلحات التركية في مصر والأمة الإسلامية بشكل كبير مما أدي إلي تهديد اللغة العربية في الصميم ولكن وبحمد الله وفضله سبحانه وتعالي كان هناك من جعلهم الله أسباباً لحفظ اللغة العربية اللغة التي نزل بها القرآن الكريم والذي تعهد سبحانه وتعالي بحفظه ، وكان من بين الأسباب التي جعلها الله لحفظ هذه اللغة في ذلك الوقت والله أعلم الجامع الأزهر الشريف وإليك بعض ما قرأت لك عن هذا الجامع

---

١١٢ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج١ صفحة ٣٥ ، ٣٦

١١٣ طومان باي (د عبد المنعم ماجد) صفحة ١٨٩

١١٤ طومان باي (د عبد المنعم ماجد) صفحة ١٨٩

١١٥ طومان باي (د عبد المنعم ماجد) صفحة ١٩٢

العريق : (لكن الأزهر استطاع في العصر العثماني أن يحتفظ بمكانته العلمية السامية وأن يقوم بأعظم دور في نشر الثقافة العربية الإسلامية وغدا الأزهر أيام العثمانيين ملاذاً لعلوم الدين واللغة ومعقلاً حصيناً للغة العربية في وسط المحيط التركي بل إنه مكن أبناء العروبة من مغالبة لغة الأتراك ومقاومتها وردها عن التغلغل في المجتمعات العربية – – وتمتع الأزهر في العصر العثماني بمركز انفرادي أكد قيادته وزعامته للحياة العقلية في مصر وفي العالم الإسلامي)[١١٦] وهكذا أصبح يقال منذ ذلك الوقت (ويتردد علي الألسنة أن للمسلمين قبلتين قبلة دينية هي الكعبة الشريفة في مكة المكرمة وقبلة علمية هي الأزهر الشريف في القاهرة)[١١٧]

- إذا تأملنا ما يحدث اليوم في العالم في مجال الإعلام المسموع والمرئي سنجد العديد من القنوات التليفزيونية الناطقة باللغة العربية الفصحى والتي تبثها دول ذات وزن كبير في العالم فكلهم حريصون علي مخاطبة العرب ربما لأن العرب أهم مما يظنون بأنفسهم والطريف أن الطريقة الوحيدة كي يفهمك العرب جميعاً بمختلف لهجاتهم أن تخاطبهم جميعاً باللغة العربية الفصحى التي أهمل في حقها العرب أنفسهم ولكن تم حفظها علي يد غير العرب والله أعلم ، بل المدهش أن هؤلاء يخاطبون أطفال العرب أيضاً بقنوات أطفال ناطقة باللغة العربية الفصحى مما يقوي هذه اللغة عند الأطفال
- سبحان الله

٣٤. انتقال الخلافة

- وماذا حدث للخليفة العباسي ؟
- انتقلت الخلافة من العباسيين إلي العثمانيين ليتم الجمع بين السلطنة والخلافة
- بالرغم من أن الخلافة كانت في هذه الفترة مجرد رمز لتوحيد الأمة ولم يكن للخليفة العباسي نفوذ مؤثر علي السلطنة ؟
- بالتأكيد ، بل إن تحول الخلافة إلي مجرد رمز قد حماها من الإلغاء لفترة طويلة فقد تعاقبت الدول التي سيطرت علي الأمة الإسلامية دون أن تتأثر الخلافة العباسية بها فسيطرت علي الأمة لحين من الدهر الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية ثم الأيوبية ثم المماليك بل قامت أيضاً الدولة العثمانية وازدهرت في عصر الخلافة العباسية ولم تتأثر الخلافة العربية القريشية بكل هذا التقلب بين الدول إلي أن تم ضم مصر إلي الدولة العثمانية فتحولت الخلافة إليها ومن يدري فربما كانت الخلافة العباسية موجودة إلي

---

[١١٦] تاريخ المدارس في مصر الإسلامية (د عبد العظيم رمضان) صفحة ٦٦ [الجامع الأزهر ودوره في نشر الثقافة العربية الإسلامية – الأستاذة الدكتورة سيده إسماعيل كاشف]

[١١٧] تاريخ المدارس في مصر الإسلامية (د عبد العظيم رمضان) صفحة ٦٦ [الجامع الأزهر ودوره في نشر الثقافة العربية الإسلامية – الأستاذة الدكتورة سيده إسماعيل كاشف] صفحة ٦٦

الآن مستضافة في إحدي الدول الإسلامية في حالة ما إذا اكتفي العثمانيون بالسلطنة فقط دون الخلافة كما فعل من قبلهم من سلاطين غير عرب ،

- ولكننا فقدنا مجرد هذا الرمز بعد إلغاء الخلافة تماماً عند قيام الدولة العلمانية في تركيا
- نعم فلم يتم انتقال الخلافة إلي مكان آخر كما كان متبعاً مع الخلافة العباسية التي لم تكن تتأثر بتحول مقاليد السلطة من دولة إلي أخري والله أعلم ، وإذا تذكرنا معاً أحداث سقيفة بني ساعدة والتي أقر فيها الأنصار أن الخلافة لابد أن تكون في قريش التي اصطفاها المولي عز وجل ليبعث منها خاتم المرسلين صلي الله عليه وسلم وأصبح بعد ذلك خليفة رسول الله من قريش علي مر العصور المختلفة حتي انتقلت لأول مرة إلي عنصر غير عربي قريشي مع ضم مصر إلي الدولة العثمانية وسبحان الذي أحاط بكل شئ علماً (ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم)
- إذن لقد فقد العرب آخر ما تبقي لهم من دولتهم التي أسسوها لتكون دولة إسلامية وليست دولة عربية حسنا فمن هم أهم الولاة خلال العصر العثماني ؟

٣٥. الوالي العثماني سنان باشا

- وردت معلومات عن سنان باشا كأحد أهم ولاة مصر في العصر العثماني في موسوعة تاريخ مصر لأحمد حسين بالجزء الثالث ، حيث تولي هذا الوالي العثماني حكم مصر في سنة ١٥٦٨م – ٩٧٥هـ في عهد السلطان العثماني سليم خان الثاني ، ثم شغل بعد ذلك وظيفة الصدر الأعظم
- الصدر الأعظم هو الرجل الثاني بالدولة العثمانية أليس كذلك ؟
- بالطبع ، وأثناء تولي سنان باشا حكم مصر قامت الدولة العثمانية بتكليفه بقيادة حملة لليمن واستخلف علي مصر اسكندر الشركسي ، وقد نجح سنان باشا في مهمته في اليمن واستطاع أن يدخل صنعاء لأول مرة ، وأن يفتح جميع القلاع المستعصية ، وقد ظل في اليمن ينظم شئونه ويقر الأمن في نصابه لمدة عامين وبضعة شهور ، وأعيد سنان باشا إلي ولاية مصر بعد نجاحه في اليمن في أول صفر من سنة ٩٧٩هـ فخط في تاريخ الولاة العثمانيين في مصر أزهر صفحة إذ أعاد ترعة الإسكندرية التي كانت قد ردمت فحرمت الإسكندرية معين الحياة ، وبني وعمر وأنشأ جوامع وشوارع وحمامات ، واختص بولاق باهتمامه فشق فيها شارعاً وأنشأ وكالات للتجار ، وشيد جامعه الشهير الذي لا يزال قائماً ومعروفاً باسمه ، وهو من خير ما أنتج العهد العثماني ويعتبر هذا المسجد من التحف المعمارية القليلة من العصر العثماني
- فهل لديك معلومات عن هذا الجامع ؟
- قد وردت أبعاد هذا الجامع بموسوعة ويكيبديا كالآتي : يبلغ طول الجامع ٣٥ متر وعرضه ٢٧متر وقوام المسجد قبة مركزية كبيرة محاطة بثلاث أيوانات من الجهات الشمالية والجنوبية والغربية والجامع ليس له حرم بمعنى أنه لا يتقدمه أي فناء مكشوف والسبب في ذلك صغر المساحة حيث كان الجامع

يطل مباشرة على ثغر النيل وقد أستعاض مهندس الأثر عن الفناء بالأروقة وقد كان الجامع محاط من خارجه بأسوار كانت تحوي أبواب ، ويصف أمين باشا سامي عهد سنان باشا بقوله إن الرخاء شمل مصر في أيامه حتي وصل سعر الإردب القمح عشرة أنصاف ، وأعاد توزيع المستحقات للعلماء والفقراء والمرضي

- وماذا عن أبرز أمراء المماليك في العصر العثماني ؟

٣٦. المؤرخ البريطاني ستانلي لين بول يصف بعض أمراء من مماليك العصر العثماني

- ذكرنا أن المماليك في العصر العثماني تحولوا إلي أمراء وبكوات وكانوا قبل ذلك سلاطين وملوك في أيام المماليك البحرية والمماليك البرجية ، حتي خضعت مصر للحكم العثماني وأصبحت ولاية تابعة بعد أن كانت مملكة مستقلة ، وبالرغم من ذلك قام مماليك العصر العثماني بمحاكاة سابقيهم من سلاطين المماليك لينالوا المجد والشرف ولكن كان هناك فرق كبير وعن هذا الموضوع كتب المؤرخ والباحث البريطاني ستانلي لين بول ما يلي : (– – والواقع أنه يصعب علينا كشف أي فارق جوهري بين هؤلاء الأمراء المتأخرين ، وبين أولئك الذين ظهروا خلال العصر الذهبي لحضارة المماليك ، حقيقةً أن فرصهم المواتية كانت أقل ، لأنهم لم يقووا علي القتال في سوريا أو آسيا الصغري لمصلحتهم الخاصة ، وذلك لأن الخطط التي كانت ترسم في مصر علي الدوام للاستغلال الأجنبي ، كانت تستخدم كجانب ضئيل للجيوش العثمانية ، إلا أن من الواضح أن شخصياتهم وأعمالهم وميولهم كانت تشبه إلي أبعد الحدود ما كانوا عليه في القرنين السابقين لهم ، فقد كان الفرق إذن في الحكم لا في النوع ، ذلك أنهم لم يكونوا أناساً ذوي فرص عظيمة مثلما كان أسلافهم ، وإنما كانوا يشبهونهم في الجنس والخلق والعمل إلي حد بعيد ، والحقيقة أن بعضهم كان ذا شخصية قوية يمكن مقارنتها بشخصيات المدرسة القديمة ، فعثمان بك ذو الفقار – علي سبيل المثال – في النصف الأول من القرن الثامن عشر – – – في عام ١٧٣٩م أصبح أميراً للحج وهو من أشهر المناصب في مصر ، – – وكان عثمان بك هو أول أمير يجرؤ علي دعوة باشا مصر "العثماني" لوليمة في قصره ، وقد كان خضع بسيطرته بقية نبلاء مصر خضوعاً تاماً ، كما أنه كان يعقد مجلساً في قصره الخاص ليبحث أسباب الشكوي ، وكان يعاقب في صرامة وشدة كل حالات الاغتصاب والظلم ، لأنه هو نفسه كان نقياً نزيهاً ، كذلك كان يراقب مفتش الأسواق عن كثب ، ويحدد أسعاراً ثابتة للخبز وغيره من ضروريات الحياة ، ويتأكد من أن أموال البر تنفق في الأوجه الصحيحة ، ولقد كان سامياً في خلقه ، ذا أفكار وآراء نبيلة ، عادلاً ، قوياً ، نزيهاً ، ذا حياة شريفة ، أبياً كريماً ، بحيث أنه خلف من ورائه أثراً ، حينما تسببت مؤامرات خصومه في نفيه من مصر ، كان من نتيجته أن كان ينسب إليه عصر من العصور ، فقد كان القوم يقولون مثلاً : إن ذلك الشئ حدث بعد رحيل عثمان بك ببضعة سنوات ، أو لقد كان عمري كذا من السنين

حينما رحل عثمان بك ، ولقد كان رضوان بك الجلفي ، علماً بارزاً آخراً من أعلام القرن الثامن عشر ، فحينما كان يتولي السلطة هو ونائب آخر يدعي إبراهيم ، كانت البلاد تتمتع بسلام شامل ، وكان الطعام أرخص منه في أي وقت قبل ذلك ، وعلي الجملة فإن جميع الطبقات كانت تعيش في يسر ورخاء ، وكان كل رجل عظيم في تلك الأيام يفتح منزله مرتين كل يوم في الظهر والمساء لكل قاص ودان ، وذلك في بهو عظيم الاتساع ، وكان السيد وضيوفه يتصدرون المائدة ، ثم يليهم المماليك والأتباع ، وكان من العار الا يسمح لأي غريب بالدخول ما دام قد قدم بنفسه إلي هناك ، أما أيام الأعياد فكانت توزع أطباق كبيرة من الأرز وعسل النحل أو اللبن علي الفقراء ، كذلك كانت توزع الحلوي في أيام الجمع والاحتفالات الرسمية ، وكان أحد منازل رضوان الأنيقة يقع علي بركة الأزبكية التي كانت موجودة في ذلك الوقت ، وكانت تعلو ردهاته قباب بديعة الزينة ، فيها نقوش عربية من الذهب علي أرضية لونها أزرق ومرصعة بالزجاج باللون المتناسق الذي يكسبها روعة فوق الروعة ، كذلك فإنه بني أكشاكاً في حديقة بجوار قناة حيث كان قد حفر بركة وأقام جندلاً ، وهناك وحينما خمدت أطماعه وآماله كان ينغمس في الملذات التي كان يسر منها كثيراً ، والحقيقة أن رضوان لم يكن يهتم بالأخلاق مثلما كان يهتم عثمان بك)[١١٨]

- فما تفاصيل قصة علي بك الكبير الشهيرة ؟

٣٧. علي بك الكبير

- من أبرز الأحداث في العصر العثماني في مصر ما حدث في عهد الأمير المملوكي علي بك الكبير فأثناء قيام الدولة العثمانية بقتال روسيا والنمسا خلال القرن الثامن عشر كان شيخ البلد في مصر علي بك الكبير الذي انتهز فرصة حروب العثمانيين الكثيرة وانشغالهم بها وأعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية وإليك بعض ما كتبه الرافعى عن هذا الموضوع (فلما نشبت الحرب بين تركيا والروسيا سنة ١٧٦٨ جاهر بخلع يده من طاعة الدولة وأعلن استقلال مصر وامتنع عن دفع الخراج سنة ١٧٦٩م "١١٨٣هـ" وعزل الوالي التركي ومنع ورود الولاة العثمانيين وضرب النقود باسمه ودانت له مصر بحريها وقبليها وكان من مماليكه وأتباعه أحمد " باشا " الجزار ومحمد بك أبو الذهب وإسماعيل بك وحسن بك الجداوي وإبراهيم بك ومراد بك وغيرهم مما كانت لهم الأدوار الكبيرة علي مسرح الحوادث)[١١٩] ، (وكان علي بك طموح النفس واسع المطامع فجرد الجيوش وفتح معظم جزيرة العرب ونادي به شريف مكة " سلطان مصر وخاقان البحرين " وأوفد محمد بك أبا الذهب ليفتح باسمه سوريا ففتح معظمها ولكنه لم يكد يتم له فتح دمشق حتي انقلب علي علي بك الكبير واتفق مع الباب العالي وعاد

---

[١١٨] نقلاً باختصار عن كتاب سيرة القاهرة للمؤرخ البريطاني ستانلي لين بول صفحة ٢٣٧ ، ٢٣٨

[١١٩] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعى) ج١ صفحة ٣٧

إلي مصر ليستأثر بالحكم فيها وقامت الحرب بينه وبين سيده وانتهت بقتل علي بك سنة ١٧٧٣ وعادت مصر ولاية عثمانية وخلصت إمارتها لمحمد بك أبو الذهب واستقر شيخاً للبلد وكافأته تركيا بفرمان تثبيته في مشيخة البلد وتوليته حكم مصر وصار له الأمر والنهي في البلاد ورجعت تركيا إلي إرسال الولاة كما كان الأمر قديماً غير أن الوالي كان محجوراً عليه مسلوباً حوله وقوته ومحمد بك أبو الذهب يختار الوالي الذي يرتضيه والأمراء وقواد الجند وأعيان الدولة وكافة مماليكه وأتباعه إلي أن مات سنة ١٧٧٥ م "١١٨٩هـ " فخلفه في مشيخة البلد إبراهيم بك وقاسمه السلطة مراد بك)١٢٠ ومحمد بك أبو الذهب يوجد باسمه حالياً مسجد بجوار الجامع الأزهر وقد وصف الجبرتي محمد بك أبو الذهب عندما كتب عن حوادث سنة ١١٨٨ هـ "١٧٧٤م" فقال : (استهلت ووالي مصر خليل باشا محجور عليه ليس له في الولاية إلا الاسم والعلامة علي الأوراق والتصرف الكلي للأمير الكبير محمد بك أبو الذهب والأمراء وأعيان الدولة مماليكه وإشراقاته والوقت في هدوء وسكون وأمن والأحكام في الجملة مرضية والأسعار رخية وفي الناس بقية وستائر الحياء عليهم مرخية شعر :

وما الدهر في حال السكون بساكن – – – ولكنه مستجمع لوثوب)١٢١

- فماذا عن أحوال المصريين في ذلك العصر ؟
- كتب الرافعى يصف أحوال المصريين قبل دخول نابليون ما يلي (كان المسلمون والأقباط يشتركون علي السواء في احتمال ظلم الحكام وسوء الإدارة وشارك الأقباط إخوانهم المسلمين في الزراعة والصناعة والتجارة وتخصص الأقباط في الأعمال الحسابية والمالية فعهد إليهم البكوات المماليك والكشاف بتحصيل الضرائب وتقديرها)١٢٢ كما وصف الرافعى القاهرة في ذلك الوقت بقوله (كانت القاهرة ولم تزل أكبر مدن القطر المصري وعاصمته ومقر حكومته وكانت حدود العمران فيها تنتهي شمالاً من الحسينية إلي باب الحديد وجنوباً من القلعة إلي باب عرب اليسار إلي باب السيدة عائشة إلي جامع السيدة نفيسة فباب طولون فباب البغالة فباب السيدة زينب ، وشرقاً من القلعة فباب الوزير فباب الغريب فالحسينية ، وغرباً من باب الحديد إلي الأزبكية فباب اللوق فباب الشيخ ريحان فباب الناصرية فباب السيدة زينب ، وكان موقع المدينة يبعد أكثر من ألف متر عن شاطئ النيل وبينها وبينه مزارع وإذا أردت أن تعرف الفرق بين عمرانها في ذلك العصر وحدوده في العصر الحاضر فحسبك ملاحظة بعض المعالم المعروفة في العصرين فجامع الظاهر مثلاً وهو الكائن الآن بميدان الظاهر كان خارج باب الحسينية وخارج مباني القاهرة وكان باب الحديد نهاية حدود مباني القاهرة من الشمال الغربي والأزبكية والمباني التي حولها نهاية العمران غرباً والطريق بينها وبين بولاق مقفرة

---

[١٢٠] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعى) ج١

[١٢١] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٢ صفحة ٦٠٤

[١٢٢] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج١ صفحة ٦٥

خالية من العمران لذلك كانت بولاق تعد من ضواحي العاصمة كما كانت مصر القديمة أيضاً وكانت الطريق بين الناصرية ومصر القديمة مقفرة من المساكن ليس بها إلا مزارع وحدائق ولم يكن علي شاطئ النيل سوي بعض مبان قليلة كقصر إبراهيم بك " قصر العيني " تجاه الروضة وبجواره بيت لمحمد كاشف الأرناؤوطي وعن شماله بيت لمصطفي بك ، وكانت بولاق مرفأ القاهرة في الشمال ومصر القديمة مرفأها في الجنوب)١٢٣

- فهل ضاع سحر القاهرة القديم ؟
- يضيف الرافعى (وبالرغم مما أصاب البلاد والعاصمة من التأخر في خلال العصور فإن عظمتها القديمة قد تغلبت علي عوامل الفناء وسوء الإدارة فقد كانت أعظم بلاد الشرق قاطبةً بعد الأستانة وكان بها كثير من المساجد والعمائر الجميلة وكثير من القصور والمعاهد ودور الكتب الملحقة بها والحمامات وبها كثير من الأسواق التجارية الكبيرة والخانات والمخازن " الوكائل ")١٢٤ وبالمناسبة كان هناك أربعة ميادين رئيسية كبيرة منها ميدان قراميدان تحت القلعة وميدان الرميلة المجاور لقراميدان ويفصلهما باب اسمه قراميدان وميدان بركة الفيل وميدان الأزبكية " بركة الأزبكية " (وكان ميدان الأزبكية أو بركة الأزبكية كما كانوا يسمونها أجمل الميادين الأربعة تحيط به القصور البديعة يسكنها الأمراء والأعيان)١٢٥ وكان تقدير عدد سكان العاصمة القاهرة حوالي ٣٠٠٠٠٠ نسمة١٢٦ وفي تقدير آخر ٢٦٣٠٠٠ نسمة وكانت الإسكندرية ولازالت أهم وأكبر مدينة بعد القاهرة
- عفواً أريد المزيد من المعلومات عن بركة الأزبكية

٣٨. بركة الأزبكية

- لقد أبدع المؤرخون والرحالة والشعراء في وصف بركة الأزبكية ، فقال عنها الأديب والرحالة الفرنسي سافاري C.E.Savary وقد شهد بها احتفالات كسر الخليج إبان زيارته لمصر عام ١٧٧٦ واستقر بها ثلاث سنوات ، : (كان أكثر الازدحام بطبيعة الحال عند الأزبكية وهي أوسع مناطق المدينة ويبلغ محيطها أكثر من نصف فرسخ وتكون بحيرة رحبة محاطة بقصور البكوات وهي أجمل بيوت المدينة ، وتضاء بأنوار مختلفة الألوان وتسبح فوقها آلاف من المراكب ذات سوار تتدلي منها المصابيح المضيئة ، مكونة هالة من أضواء متحركة تتغير مشاهدها كل لحظة ، وتنسب الأزبكية إلي الأمير سيف الدين أزبك بن ططغ الأشرفي الظاهري الذي كان يقطن بالقرب من هذه المنطقة ، فأراد أن ينشئ مناخاً لخيوله وجماله ، فمهد ما كان بها من كيمان ، وحفر بها البركة المنسوبة إليه وأجري إليها

---

[١٢٣] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج١ صفحة ٦٧ ، ٦٨

[١٢٤] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج١ صفحة ٦٩

[١٢٥] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج١ صفحة ٦٩

[١٢٦] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج١ صفحة ٧٠

الماء من الخليج الناصري ، وجدد عمارة قنطرة خليج الذكر وبلغ ما أنفقه مائتي ألف دينار وشيد بها جامعاً (بالقرب من مدخل شارع الأزهر حالياً) بالإضافة إلي عدد من القصور والربوع والقياسر والحمامات والحوانيت حتي صارت مدينة علي انفرادها كما قال المؤرخ العلامة ابن اياس ، وذكر علي باشا مبارك أن مساحة البركة كانت ستين فداناً ، كما أشار الكاتب والرحالة دي تيفينو الذي زار القاهرة عام ١٦٥٦ وتحدث عن مشاهداته القاهرية في كتابه (رحلات في أوروبا وآسيا وأفريقيا) فبالقرب من الطريق المؤدية إلي بولاق استرعي انتباهه حي أسماه لزبيكة يقصد الأزبكية وقال إن الماء يبقي فيه نحو أربعة أو خمسة أشهر كل عام ، وشيدت حول البركة قصور رائعة الجمال للبكوات وأمراء البلاد ليمكثوا بها بضعة أيام من حين إلي آخر ، طلباً للراحة والاستجمام وقد أشار المؤرخ العظيم الجبرتي إلي شهرة الأزبكية كمركز للتنزه والملذات والمتع الليلية في وقت الفيضان ، كما أنها كانت منطقة جذب للطبقة البرجوازية من الأمراء والبكوات وكبار التجار والأعيان ، ومن أشهر القصور والدور التي كانت تشرف علي بركة الأزبكية دار السيد إبراهيم بن سعودي وكانت دار عظيمة عني بتشييدها ثم آلت إلي الأمير محمد بك الألفي سنة ١٧٩٦ فهدمها وتغالي في إعادة بنائها ولم يسكن بها سوي أيام حتي اغتصبها الفرنسيون وأقام بها نابليون واتخذها مقراً لقيادة الحملة ، أيضاً من الدور الشهيرة التي أوردها الجبرتي دار الشيخ عبد الله الشبراوي والسيد الدمرداش – – – كذلك شيد علي بك الكبير سنة ١٧٧٠ قصراً لزوجه الست نفيسة ، وقصر رضوان بك ، والدار العظيمة للست خاتون زوجة مراد بك وكانت ذات ثراء وعز وسيادة وكلمة نافذة وعلي الحافة كانت دور الشربيني قال عنها الجبرتي : إحدي دور المجد ، ألحقت بها مكتبة قيمة حافلة وكان مسموحاً فيها بالإطلاع والاستعارة خارجها ، ثم انتقلت ملكيتها للأمير رضوان كتخدا الجلفي فأدخل عليها كثيراً من التعديلات ووسع حدائقها وأباحها للنزهة ، – – – وعند الشروع في عملية تنظيم ميدان العتبة وفتح شارع محمد علي (القلعة) هدم جامع أزبك وكثير من البيوت والزوايا والحمامات والربوع والحوانيت وردمت البركة عام ١٨٦٤ بعد أكثر من أربعة قرون من حفرها ، وشيدت حديقة الأزبكية وأقيمت بها الجبلاية الصناعية وزرعت بها الأشجار النادرة ، أشرف علي تصميم الحديقة وتنفيذها المهندس باريل بك وهو الذي نظم حدائق الأورمان ، وصمم سراي الجيزة ، وأنشئ بالحديقة مسرح كوميدي في سنة ١٨٦٩ أنشئت دار الأوبرا الخديوية وكانت مساحة الحديقة نحو ٢١ فدان ، وفي ٢٧ إبريل سنة ١٩٥٤ امتد شارع ٢٦يوليو ليخترق الحديقة ويقسمها إلي شطرين وفتحت أبوابها لجماهير الشعب ، وأقيم بها مسرح للعرائس ومسرح ٢٦ يوليو ، أما مسرح الأزبكية (المسرح القومي) فقد كان موجوداً من قبل ، وكانت تديره شركة مصر للتمثيل والسينما إحدي شركات بنك مصر ، وكان بجوار المسرح داخل الحديقة مكان يستخدم سينما في الهواء الطلق صيفاً وللباتيناج شتاءاً[١٢٧]

---

١٢٧ نقلاً باختصار عن كتاب – القاهرة رحلة في المكان والزمان – تأليف عرفه عبده علي –تقديم الأديب الكبير جمال الغيطاني –

- إنها معلومات طريفة بالفعل ، فماذا يمكن أن يقال أيضاً عن العصر العثماني ؟
- أعتقد أن هناك الكثير الذي يمكن قوله عن العصر العثماني قبل أن نتركه ونتحدث عن الحملة الفرنسية ، فإذا ذكرنا العصر العثماني لابد أن نذكر أمير البنائين في ذلك العصر
- ومن يكون هذا الأمير ؟

٣٩. الأمير عبد الرحمن كتخدا أمير البنائين في العصر العثماني

- (عبد الرحمن كتخدا –من مماليك العصر العثماني– بنَّاء عظيم عالي الهمة في أيام العثمانيين، يعتبر في مقدمة الساعين في تجميل القاهرة وترصيعها بمبانيه. كان صاحب نفوذ قبل أيام علي بك الكبير، وقد ورث عبد الرحمن ميوله الفنية عن أبيه الذي استطاع أن يشيد مما جمعه من ثروة – مدرسة ومسجداً وسبيلاً بالقرب من بركة الأزبكية، وفي يوم افتتاحها ملأ حوضاً كبيراً وكل ما وصلت إليه يده من الأواني بالشراب المحلى بالسكر ليسقي الأهالي. وبنى منشئات خيرية أخرى.كان الأمير عبد الرحمن كتخدا مصر (محافظاً لها) في عام ١٧٤٤ وقد عشق البناء، فأنشأ وجدد كثيراً من المساجد والأسبلة والأضرحة. وقد اشتهر عبد الرحمن بما أدخله من زيادات في الجانب الشرقي من الأزهر، ومن بينها ضريحه الخاص وجزء من المدخل وخمسون عموداً من رواق القبلة ومنبر ومحراب جديدان وشيد مئذنتين وبابي الشورية والصعايدة وجمع عبد الرحمن كتخدا في أكثر مبانيه بين الجمال والفن، ويتجلى ذلك في سبيله الرائع الواقع عند ملتقى شارعي النحاسين والجمالية والمعروف باسمه حتى اليوم.
- نعم إنه من أروع المباني الأثرية في شارع المعز ، فهل لديك معلومات عنه ؟
- لهذا السبيل ثلاث واجهات بها ثلاث فتحات عقودها من الرخام الملون و "تواشيحها" من الرخام الدقيق موضوع عليها شبابيك نحاسية، ويعلو السبيل كُتَّاب ذو مظلات وحواجز من خشب الخرط. ويتضمن السبيل كتابات تحتوي على اسم المنشئ وتاريخ الإنشاء (١١٥٧هـ/١٧٤٤) أما حجرة السبيل فقد غشيت جدرانها بالقاشاني، وعلى جزء من جداره الشرقي رسم صورة الكعبة الشريفة. وأنشأ الأمير عبد الرحمن عند باب الفتوح مسجداً وصهريجاً وكتاباً، وفي مدخل الأزهر أعاد بناء المدرسة الطبرسية وجعلها مع مدرسة الأقبغاوية المقابلة لها من داخل الباب الكبير من أحسن المباني فخامة وبهاء، كما أنه بنى المشهد الحسيني، وأنشأ عند باب البرقية المعروف بالغريب مسجداً وصهريجاً وحوضاً وسقايةً ومكتباً، وشيد مسجداً بجهة الأزبكية ومكتباً وحوضاً. وبنى مشهد السيدة زينب، ومشهد السيدة سكينة والمشهد المعروف بالسيدة عائشة بالقرب من باب القرافة، والسيدة فاطمة والسيدة رقية، وعمر المدرسة السيوفية كما جدد المارستان المنصوري وغير ذلك من المساجد والأسبلة.ومن أجمل عمائره– دار سكنه بحارة عابدين وكانت من الدور العظيمة المحكمة الإتقان والبناء، لم تماثلها دار بمصر في

حسنها وزخرف مجالسها وبابها من النقوش والرخام والقاشاني، وغرس بها بستاناً بديعاً بداخله قاعة متسعة بوسطها نافورة مفروشة بالرخام. وموجز القول أن عدد المساجد التي بناها أو جددها عبد الرحمن كتخدا بلغ ثمانية عشر مسجداً، يضاف إليها الزوايا والأسبلة والسقايات والمكاتب والقناطر ..الخ.

- فماذا حدث لهذا الأمير ؟
- عظم شأن عبد الرحمن حتى استفحل أمر علي بك الكبير، فأخرجه منفياً إلى الحجاز وذلك في أول ذي القعدة عام ١١٧٨هـ (١٧٦٤) فأقام بالحجاز اثنتي عشرة سنة حتى أحضره يوسف بك أمير الحج في عام ١١٩٠هـ (١٧٧٦) بعد أن استولى عليه الهرم، فدخل إلى بيته مريضاً، فأقام فيه أحد عشر يوماً ثم مات، ودفن بالمدفن الذي أعده لجثمانه بجوار باب الصعايدة بالأزهر)١٢٨.
- رحمه الله ورحم جميع موتي المسلمين ، فهل هناك شخصيات أخري شهيرة في العصر العثماني
- هناك شخص ليس من الأمراء ولكن كانت له مكانة خاصة ، واسمه اسماعيل أبو طاقية شهبندر التجار
- لكم كنت أتمني أن أسمع أي معلومات عن شهبندر التجار وهو اللقب الذي له سحر خاص

٤٠. اسماعيل أبو طاقية شاهبندر التجار في العصر العثماني

- اتخذت الحياة العملية لإسماعيل أبو طاقية في مجال التجارة الدولية أبعاداً كثيرة منذ مطلع التسعينيات من القرن السادس عشر ، فعلي الصعيد الجغرافي ظل البحر الأحمر يمثل القطاع الأكبر لنشاطه التجاري ، ولكنه ما لبث أن امتد شرقاً إلي مخا باليمن ، ثم إلي الهند ، وكانت الشبكة التجارية التي أقامها تضم شركاء ووكلاء يسافرون بين القاهرة والهند ، أو إلي مكة وجدة ، حيث ينتدبون شريكاً من الشركاء هناك للسفر إلي الهند نيابة عنهم ، وهو ما كان يفعله غيره من تجار ذلك الزمان ، وكانت الهند عندئذ أقصي مركز تجاري في الشرق يتعامل معه تجار القاهرة ، وإضافة إلي ذلك ، أقام إسماعيل أبو طاقية شبكة تجارية أخري ضمت بعض مدن البحر المتوسط وامتدت إلي استانبول وسالونيك والبندقية ، فكان يصدر نسبة كبيرة من البضائع التي يجلبها من الهند إلي بعض موانئ الدولة العثمانية وأوروبا عن طريق الإسكندرية ورشيد ودمياط ، وكان له وكيل تجاري في أفريقيا ، مصدر تجارة الذهب وريش النعام والعاج ، وبلغ نشاطه مدينة كانو في نيجيريا
- سبحان الله ، كل هذه البلاد يتعامل معها هذا الرجل بدون انترنت أو تليفونات او اتصالات من اي نوع؟
- وفوق كل ذلك ، اهتم اسماعيل أبو طاقية بالتجارة المحلية ، وخاصة تجارة منطقة الدلتا ، وتنوعت البضائع التي أتجر بها تنوعاً كبيراً كالأحجار الكريمة وخاصة ياقوت سرنديب والذهب الذي جلبه من

---

١٢٨ نقلاً عن كتاب عبد الرحمن زكي، بناة القاهرة في ألف عام، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص ٧٨- ٨٠

كانو ، وعند نهاية القرن السادس عشر كانت التوابل السلعة الغالبة في التجارة وليس الأحجار الكريمة واحتل البن منزلة تقع بين النوعين وينسحب نفس الشئ علي السكر الذي كان اسماعيل أبو طاقية يصدره بكميات متزايدة في مطلع القرن السابع عشر ، كما أتجر بالمنسوجات علي نطاق واسع

- ومتي أصبح شهبندر التجار ؟
- توجت حياة إسماعيل أبو طاقية العملية عندما أصبح شاهبندر التجار عام ١٠٢٢هـ /١٦١٣م واحتفظ اسماعيل بالمنصب حتي وفاته عام ١٠٣٤هـ / ١٦٢٤م ، وقد مارس اسماعيل أبو طاقية مهام الشاهبندر باهتمام كبير ، فكان يتدخل في المسائل التي تهم التجار ويتوسط في المنازعات التي تنشب بينهم ويشهد علي معاملاتهم ، فكان حاضراً دائماً عند الحاجة إليه وكانوا يتوقعون مساعدته دائماً عند الأزمات
- فكيف كانت مظاهر سلوكه كشهبندر التجار ؟
- من الطريف أن نري كيف كان الشاهبندر يُستقبل عند قدومه إلي السوق كل صباح لممارسة عمله ، فقد جرت العادة أن يصحبه التجار إلي مقر الشاهبندر ويقرأون الفاتحة أمامه ويتمنون عليه يوماً طيباً ثم ينصرف كل منهم إلي متجره ، وتدل الحكاية علي أن الشاهبندر كان يتمتع بقدر كبير من التبجيل
- وهل كان كثير السفر والتنقلات خارج مصر ؟
- لا فقد أدار أبو طاقية تلك الشبكة التجارية من مقره بالقاهرة دون أن يضطر إلي مغادرتها ، سواء للسفر خارج البلاد أو إلي الأقاليم الداخلية التي تعامل معها
- إن ذلك والله عجيب
- بل الأعجب من ذلك أنه لم يزد المجال المكاني الذي تحرك فيه إسماعيل أبو طاقية خلال ممارسته العمل الروتيني اليومي عن مسافة بلغت حوالي كيلومتر واحد ،
- كيلومتر واحد ؟؟
- فكان يخرج من بيته الكائن بالقرب من سوق أمير الجيوش ، شمالي المدينة ، متخذا طريقه فيما وراء جامع الأقمر الفاطمي ، والمجموعة المعمارية للسلطان قلاوون في قلب المدينة ، حتي يصل إلي أحد حوانيته بسوق الوراقين ، أو بعض حواصله بوكالة الحمزاوي ، وقد يذهب من حين لآخر إلي الوكالة الكبري والوكالة الصغري وراء مجموعة قلاوون المعمارية ، ومن تلك المواقع زاول إسماعيل أبو طاقية نشاطه ، وارتبط بهذا الروتين اليومي ارتباطاً وثيقاً زياراته المتفرقة للمحاكم ، حيث كان يسجل الصفقات التي أبرمها في السوق أو الوكالة علي أوراق رسمية في سجلات المحكمة ، وهكذا كان أبو طاقية يدير شبكة تجارية امتدت عبر ثلاث قارات ، لقد حدثت تطورات عمرانية ملحوظة في زمن أبو طاقية ، ونظراً لأن معظم تلك التطورات حدثت علي يد التجار ، وتؤكد الانطباعات التي نخرج بها من كتابات الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مصر ، ويذكر مايكل هيبرر فون بريتن في ١٥٨٥م أن المدينة

كانت كبيرة ومزدحمة بالناس ، ولا شك أن انطباعاته جاءت علي وسط المدينة الذي كان أكثر أنحاء القاهرة ازدحاماً ، وبعد ذلك ببضع سنوات ، يذكر الرحالة الألماني يوهان فيلد الذي اقام بالمدينة فيما بين ١٦٠٦-١٦١٠م أن التجارة كانت بالغة الازدهار ، وأنه انبهر بالحوانيت المليئة بالتوابل والأحجار الكريمة والأخشاب الثمينة ذات الروائح الذكية والقلانس الجميلة والمنسوجات القطنية الرفيعة التي جاءت من الشرق كما شاهد المرجان والمنسوجات الصوفية التي جلبها البنادقة[١٢٩]

- إذن لم يكن العصر العثماني بكل هذا السوء الذي نسمعه عنه ؟
- بالتأكيد كل عصر له إيجابياته وسلبياته
- ولكن علي أي حال كان المماليك في موقف أقوي من الوالي العثماني أليس كذلك ؟
- هذا صحيح فمع الوقت ازداد نفوذ المماليك حتي أصبحوا قادرين علي عزل الوالي العثماني والإرسال للسلطان بطلب تغييره حيث يقوم شخص يطلقون عليه الأودة باشا بالذهاب إلي الوالي في القلعة مقر الحكم ويقول له الكلمة الشهيرة (انزل يا باشا) ويتم تعيين قائمقام لحين حضور والي جديد ، وأصبح منصب شيخ البلد هو أهم منصب في مصر والذي يشغله أحد أمراء المماليك (البكوات) ، وأصبحوا يتنافسون فيما بينهم للوصول لهذا المنصب
- ومن كان شيخ البلد قبل وصول نابليون بونابرت ومعه الحملة الفرنسية علي مصر ؟
- لقد كان هذا المنصب يشترك فيه اثنان من الأمراء وهما إبراهيم بك ومراد بك
- فمن المؤرخ الذي أرخ لتلك الفترة من تاريخ مصر ؟
- إنه عبد الرحمن الجبرتي رحمه الله ، وقد وصف الأسعار والأحوال في العام الذي وُلِد فيه كما سمعها من مشايخه في ذلك الوقت
- فماذا قال ؟

٤١. الجبرتي يصف أسعار السلع سنة ١١٦٧ هـ / ١٧٥٤م وهو العام الذي ولد فيه

- كتب الجبرتي في كتابه الشهير عجائب الآثار في التراجم والأخبار عن هذا الموضوع ما يلي : ،- - - ، ومصر في تلك المدة هادية من الفتن والشرور والإقليم القبلي والبحري أمن وأمان والأسعار رخية والأحوال مرضية ، واللحم الضاني المجروم من عظمه رطله بنصفين والجاموسي بنصف والسمن البقري عشرته بأربعين نصف فضة ، اللبن المنعاد كذلك والمكرر قنطاره بألف نصف والعسل القطر قنطاره بمائة وعشرين نصفاً وأقل ، والرطل البن القهوة بأثني عشر نصفاً والتمر يجلب من الصعيد في المراكب الكبار ويصب علي ساحل بولاق مثل عرم الغلال ويباع بالكيل والأردب ، والأرز أردبه بأربعمائة نصف ،

- [١٢٩] مقتطفات مختصرة نقلاً كتاب تجار القاهرة في العصر العثماني – سيرة أبو طاقية شاهبندر التجار – تأليف د نللي حنا – ترجمة وتقديم د رءوف عباس – الناشر الدار المصرية اللبنانية – الطبعة الأولي ١٩٩٧م

والعسل النحل قنطاره بخمسمائة نصف وشمع العسل رطله بخمسة وعشرين نصفاً وشمع الدهن بأربعة أنصاف والفحم قنطاره بأربعين نصفاً والبصل قنطاره بسبعة أنصاف وفسر علي ذلك ، يقول جامعه : أني أدركت بقايا تلك الأيام وذلك أن مولدي كان في سنة ١١٦٧هـ ولما صرت في سن التمييز رأيت الأشياء علي ما ذُكِر إلا قليلا وكنت أسمع الناس يقولون الشئ الفلاني زاد سعره عما كان في سنة كذا ، وذلك في مبادئ دولة إبراهيم كتخدا وحدوث الاختلال في الأمور ، وكانت مصر إذ ذاك محاسنها باهرة وفضائلها ظاهرة ولأعدائها قاهرة ، ويعيش رغداً بها الفقير وتتسع للجليل والحقير ، وكان لأهل مصر سنن وطرائق في مكارم الأخلاق لا توجد في غيرهم ، أن في كل بيت من بيوت جميع الأعيان مطبخين أحدهما أسفل رجالي ، والثاني في الحريم ، فيوضع في بيوت الأعيان السماط في وقتي العشاء والغداء مستطيلاً في المكان الخارج مبذولاً للناس ، ويجلس بصدره أمير المجلس وحوله الضيفان ، ومن دونهم مماليكه وأتباعه ، ويقف الفراشون في وسطه يفرقون علي الجالسين ويقربون إليهم ما بعد عنهم من القلايا والمحمرات ، ولا يمنعون في وقت الطعام من يريد الدخول أصلاً ويرون أن ذلك من المعايب ، حتي أن بعضي ذوي الحاجات عند الأمراء إذا حجبهم الخدام أنتظروا وقت الطعام ودخلوا فلا يمنعهم الخدم في ذلك الوقت ، فيدخل صاحب الحاجة ويأكل وينال غرضه من مخاطبة الأمير ، لأنه إذا نظر علي سماطه شخصاً لم يكن رآه قبل ذلك ولم يذهب بعد الطعام عرف أن له حاجة ، فيطلبه ويسأله عن حاجته فيقضيها له ، وإن كان محتاجاً واساه بشئ ، ولهم عادات وصدقات في أيام المواسم ، مثل أيام أول رجب والمعراج ونصف شعبان وليالي رمضان والأعياد وعاشوراء والمولد الشريف ، يطبخون فيها الأرز باللبن والزردة ويملأون من ذلك قصاعاً كثيرة ويفرقون منها علي من يعرفونه من المحتاجين ، ويجتمع في كل بيت الكثير من الفقراء فيفرقون عليهم الخبز ويأكلون حتي يشبعوا من ذلك اللبن والزردة ، ويعطونهم بعد ذلك دراهم ولهم غير ذلك صدقات وصلات لمن يلوذ بهم ، ويعرفون منه الإحتياج ، وذلك خلاف ما يعمل ويفرق من الكعك المحشو بالسكر والعجمية والشريك علي المدافن والترب في الجمع والمواسم ، كذلك أهل القري والأرياف فيهم من مكارم الأخلاق ما لا يوجد في غيرهم - - - ، فإن أقل ما فيهم إذا نزل به ضيف ولو لم يعرفه أجتهد وبادر بقراه في الحال وبذل وسعه في إكرامه وذبح له ذبيحة في العشاء ، وذلك ما عدا مشايخ البلاد والمشاهير من كبار العرب والمقادم ، فإن لهم مضايف واستعدادات للضيوف ، ومن ينزل عليهم من السفر والأجناد ، ولهم مساميح وأطيان في نظير ذلك خلفاً عن سلف إلي غير ذلك مما يطول شرحه ويعسر استقصاؤه

- كل هذا رائع ولكن هل كان المماليك في حالة تسمح لهم بالدفاع عن مصر عند حضور الحملة الفرنسية ؟

٤٢. المواجهة بين المماليك والجيش الفرنسي

- كانوا كمن توقف بهم الزمن عند أيام أسلافهم من سلاطين المماليك قبل خضوع مصر للحكم العثماني فكانوا يعيشون علي ذكريات أمجاد الانتصارات التاريخية القديمة علي التتار والصليبيين وغيرهم فلم يدركوا حجم التطور الهائل الذي وصل إليه جيش نابليون بونابرت ، فقد وصف الجبرتي عدم اهتمامهم عند سماعهم خبر قدوم الحملة الفرنسية علي مصر ، ولكي نحكم علي مدي التطور الذي حدث للجيش الفرنسي سنذكر آخر مواجهة تمت بين الجيشين المملوكي والفرنسي في معركة المنصورة وكان ما بين معركتي المنصورة (١٢٥٠م) وإمبابة (١٧٩٨م) حوالي ٥٤٨ سنة
- الذي أعرفه أن المعركتين كلاهما دارت بين الجيش الفرنسي والجيش المملوكي وإن كان الجيش المملوكي في معركة المنصورة كان بقيادة أيوبية ، وانتصر المماليك في معركة المنصورة علي الجيش الفرنسي وتم أسر الملك لويس التاسع واحتجازه بدار ابن لقمان بالمنصورة ،
- بينما انتصر الجيش الفرنسي في معركة إمبابة علي المماليك ، والفرق هائل بين المعركتين ، إنه فرق يوضح مستوي التدهور في أحوال مصر وأحوال المماليك أنفسهم ، ولقد ذكرنا العديد من الانتصارات الساحقة التي قام بها المماليك البحرية والمعارك الشرسة التي قام بها المماليك البرجية ، فلماذا لم يتمكن مماليك العصر العثماني من تحقيق بعض هذه الانتصارات ، وإن كان المؤرخ الذي وصف معركة الأهرام لم ينكر عليهم الشجاعة والبسالة ، ومن هنا يتضح أن صفة الشجاعة في القتال لم تتأثر مع الزمن ولكن الذي اختلف هو الجهل والتخلف[١٣٠]
- قبل أن نستمر في الحديث عن المعارك التي نشبت بين الحملة الفرنسية والمماليك أريد أن أعرف خلفيات هذه الحملة إن أمكن
- أعتقد أن هذه الحملة في الأساس كانت أحد مراحل الصراع بين بريطانيا وفرنسا فعندما نتأمل الصراع المسلح الذي كان دائراً بين بريطانيا وفرنسا لتحقيق المصالح الخاصة لكل منهما في الفترة التي سبقت الحملة الفرنسية علي مصر سنجد أن كلا من الدولتين الكبيرتين كانت حريصة علي أن تقع المعركة في المكان المفضل بالنسبة لها ، فكانت فرنسا هي الأقوي في البر وبريطانيا هي الأقوي في البحر ، بحكم موقعها كجزيرة فهي أمة بحرية في الأساس تهتم بالسفن والملاحة البحرية ، وكان لديها أسطول قوي يسيطر تماماً علي معظم بحار العالم ، أما فرنسا في ذلك الوقت فقد كان بها جنرالات علي أعلي مستوي من الكفاءة كالجنرال نابليون بونابرت الذي كان بارعا في قيادة الجيوش البرية وتحقيق الانتصارات تلو الانتصارات والذي تم اختياره لقيادة الحملة الفرنسية علي مصر والتي كان لها العديد من الأهداف التي وردت في كتب التاريخ وسوف نذكرها ونتأملها أيضاً في هذا الحوار إن شاء الله ،
- إذن فالمطلوب بالنسبة لفرنسا أن يصل جيش نابليون إلي مصر وبمجرد تواجده علي أرضها فلن يملك الإنجليز القدرة علي مواجهته براً

---

[١٣٠] تأملات عصرية في الحملة الفرنسية – محمد عرموش

- ولكن كانت المشكلة الكبري هي كيف يصل إلي مصر بحراً ويتعرض في الطريق إلي أسطول بريطانيا الرهيب ، فيضيع وتضيع معه أحلام فرنسا بل وأحلام نابليون نفسه ، وبالتالي كان التخطيط للحملة يتسم بسرية غير مسبوقة حتي أن جنود الحملة أنفسهم لم يعرفوا وجهة الحملة ، ولتوضيح ذلك سأتلو عليك بعض ما كتبه أحد ضباط الحملة في مذكراته لندرك مدي السرية التي اتسمت بها هذه الحملة أثناء توجهها من ميناء طولون إلي مصر
- وهل كتب هذا الضابط مذكراته حتي نهاية الحملة ؟
- نعم لحسن الحظ فقد استمر علي قيد الحياة حتي عاد إلي فرنسا وقد تم نشر مذكراته بعد ذلك
- فماذا كتب وهو في طريقه إلي مصر ؟

٤٣. علي متن السفينة ولا يعرفون إلي أين تتجه

- في مذكرات هذا الضابط ورد ما يلي : (- - وقد خيبت الطرق التي سلكناها كافة تكهنات بحارتنا ، وغيبت عنهم الغاية التي نستهدفها ، فإذا سرنا بمحاذاة الشاطئ قالوا إنها جنوة ، وإذا نأينا عنه فالذهاب إلي سردينيا ، هكذا راحت المزاعم تختلف في كل لحظة بيد أن كل هذا اللغط ما لبث أن توقف حينما صدر لنا أمر بالاتجاه صوب سردينيا وراح الجميع إثر هذا يتصايحون : (إذاً ستتم عملية الإنزال هذا المساء ومع صباح الغد سنكون أسياد هذه الجزيرة) ،
- أسياد هذه الجزيرة ، يا له من غرور ، عفواً استمر ولا تلقي بالاً لما أردده من كلمات
- وكم كانت دهشة هؤلاء العرافين حينما صدر أمر بالمضي صوب عرض البحر بعد عدة أيام أمضيناها في تلك المحطة وما لبثت اليابسة أن غابت من جديد عن ناظرينا وعاد ضباط البحرية يصيحون :(الآن لم يعد ثمة شك نحن نتجه إلي صقلية) ، ما لبثت أن سرت أنباء تفيد رؤية قلوع إنجليزية في الأفق وسرعان ما انتشر هذا الخبر وراحت تتناقله الأفواه همساً حتي خشينا أن تكون قافلة (سيفيتا فيشيا) التي كان مقرراً أن تلحق بنا عند سردينا قد سقطت في أيدي العدو وقد أدي ظهور تلك الأشرعة في الأفق إلي تدعيم مخاوفنا وصدر أمر لأسطولنا بتفقد الأمر فانطلقت السفينة سبارسيات واكتشفت أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد مراكب شراعية فصلتها بعض الرياح عن الأسطول ومع هذا دام القلق وتزايدت المخاوف ، بعد حين بلغنا مشارف صقلية وقد ظنها البحارة محطة الرسو نظراً للسرعة التي كنا نسير بها وراحوا يقولون : (الآن تأكد الأمر لابد أننا ذاهبون إلي مالطا) ، ربما تصدق تكهناتهم هذه المرة سوف نري ، وبينما نحن نسير كيفما شاءت الرياح وآلهة البحار لمحنا مرة أخري في الأفق سفناً لم تبد لنا فرنسية لابد أنها المفرزة الإنجليزية المتقدمة ، أصدر الأميرالاي أمراً بالاستكشاف فاطلقت سفينتنا من جديد ولمحت أربع سفن دنمركية تحمل القمح لجزيرة مالطا فاعترضنا مسيرتها مما جعلنا نعتقد أن تلك الجزيرة هي غايتنا بل أصبحنا شبه متأكدين من هذا ، هيأت لنا الرياح الاقتراب من هذه الجزيرة الشهيرة التي رحنا ننظر إليها وكأنها الأرض الموعودة وخاتمة مشوارنا ، في هذه الأثناء لمحنا

مراكب شراعية كثيرة ، قال أحدهم : (إنه الأسطول الإنجليزي) بينما طمأنه آخر بأنها سفن فرنسية وما لبثت شكوكنا أن تبددت بعد أن تعرفنا علي السفينة لاكوراجوز المكلفة بحراسة قافلة سيفيتا فيشيا التي ظلت محط اهتمامنا الدائم منذ أن ارتحلنا ، أخيراً لحقت بنا وهي في خير حال دون التعرض لأي هجوم أو تكبد أي خسائر فكانت سعادتنا غامرة وعلي الرغم من الوجود القوي للإنجليز في البحر الأبيض إلا أن الحظ حالفنا ولم نلقهم)[١٣١]

- وهل كان الأسطول الإنجليزي بالفعل يبحث عن هذه الحملة ؟

٤٤. نلسون يبحث عن الفرنسيين في البحر

- بالتأكيد كان الأسطول الإنجليزي بقيادة نلسون يبحث عن العمارة البحرية الفرنسية في البحر المتوسط ولم يتمكن من العثور عليها لمحافظة نابليون علي أسرار الحملة وقد وصل نلسون بالفعل إلي الإسكندرية قبل وصول الحملة الفرنسية ولم يمكِّنه المصريون من الانتظار بها ثم غادرها وعاد بعد أن تمكنت الحملة الفرنسية من احتلال مصر
- فقام الأسطول الإنجليزي بتدمير الأسطول الفرنسي في معركة أبي قير البحرية الشهيرة كما نعرف جميعاً ولكن قبل أن نتحدث عن هذه الأحداث دعنا نتأمل أولاً ما ورد في هذه المذكرات فهي تتضمن العديد من المعاني ،
- بالطبع كالثقة الغير عادية في القائد ، وهي الثقة التي تتأكد عندما يتواجد الجنود في عرض البحر معرضين لهجوم من أقوي أساطيل العالم في ذلك الوقت ، ولكنهم يعرفون أن لهم قائد علي أعلي مستوي ،
- كما يتضح من هذه المذكرات أن البحارة أنفسهم لم تكن لديهم أدني فكرة عن اتجاه الرحلة البحرية ، يا لها من سرية ، نابليون فقط هو الذي يعرف
- وقائد الأسطول بالطبع ، كما يتضح أيضاً بقليل من التأمل أن العمارة البحرية الفرنسية لم تكن تبحر في خط مستقيم إلي وجهتها بل كانت متعددة المناورات إلي الشمال أحيانا ثم إلي الجنوب أحياناً أخري حتي أن الأسطول البريطاني الذي كان يبحث عنها وصل إلي الإسكندرية قبل وصولها كما سنري ، وهذا يدل علي تسرب خبر إبحار السفن الفرنسية إلي الإنجليز ، وهو أمر طبيعي نظراً لضخامة العمارة البحرية الفرنسية وكثرة السفن التجارية وغيرها في البحر وتداول الأخبار وحركة السفر ،
- فكم بلغ عدد سفن هذه الحملة ؟
- كان جيش نابليون البري بالكامل بكل معداته وأسلحته محمول علي هذه السفن وكان جيش نابليون مكون من ٣٦ ألف مقاتل[١٣٢] وعدد السفن التي نقلتهم حوالي (ثلاثمائة سفينة يحرسها أسطول

---

[١٣١] مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية علي مصر – ترجمة وتقديم كاميليا صبحي

[١٣٢] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٨٢

مؤلف من ٥٥ سفينة حربية)١٣٣ فتأمل معي عزيزي القارئ كل هذا العدد من السفن يصل سالماً وفي سرية تامة إلي مصر ،

- يالها من عبقرية من قائد عسكري محنك يصطحب معه قائد اسطول خبير ، فماذا حدث عند وصول الأسطول الإنجليزي إلي الاسكندرية قبل وصول حملة نابليون ؟

٤٥. وصف الجبرتي لوصول الإنجليز إلي الإسكندرية

- سجل المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتي أحداث الحملة الفرنسية علي مصر بأسلوب ممتع للغاية وقد وصف لحظة وصول الأسطول الإنجليزي إلي الإسكندرية قبل وصول نابليون وكيف استقبله أهل الإسكندرية ودعنا نستمتع معاً بما كتبه الجبرتي ثم نتأمله ، وقد تضمن هذا الوصف أيضاً استياء الجبرتي من سنوات الحملة بشكل عام لأن هذا الوصف ورد مع بداية سرده لأحداث أول سنة من سنوات الحملة الثلاث حيث كتب الجبرتي يصف١٣٤ سنة ١٢١٣ هـ (- - وهي أولي سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالي المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} (١١٧) سورة هود ، وفي يوم الأحد العاشر من شهر محرم الحرام من هذه السنة "٢٤ يونيو ١٧٨٩م" وردت مكاتبات علي يد السعاة من ثغر الإسكندرية ومضمونها: أن في يوم الخميس ثامنه حضر إلي الثغر عشرة مراكب من مراكب الإنكليز ووقفت علي البعد بحيث يراها أهل الثغر وبعد قليل حضر خمسة عشر مركباً أيضاً فانتظر أهل الثغر ما يريدون وإذا بقايق واصل من عندهم وفيه عشرة أنفار فوصلوا البر، واجتمعوا بكبار البلد والرئيس إذ ذاك فيها والمشار إليه بالإبرام والنقض، السيد محمد كريم الآتي ذكره، فكلموهم واستخبروهم عن غرضهم فأخبروا: أنهم إنكليز حضروا للتفتيش علي الفرنسيس لأنهم خرجوا بعمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات ولا ندرى أين قصدهم فربما دهموكم فلا تقدرون علي دفعهم ولا تتمكنون من منعهم، فلم يقبل السيد محمد كريم منهم هذا القول وظن أنها مكيدة وجاوبهم بكلام خشن فقالت رسل الإنكليز: نحن نقف بمراكبنا في البحر محافظين علي الثغر لا نحتاج منكم إلا الإمداد بالماء والزاد بثمنه، فلم يجيبوهم لذلك وقالوا: هذه بلاد السلطان وليس للفرنسيس ولا لغيرهم عليها سبيل فاذهبوا عنا، فعندها عادت رسل الإنكليز وأقلعوا في البحر ليمتاروا من غير الإسكندرية وليقضي الله أمراً كان مفعولا)١٣٥

---

[١٣٣] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٨٤

[١٣٤] قد يكون بعض كلام الجبرتي غير مفهوم للبعض حالياً ولكن تأكد أن الذي لن تفهمه ستشعر بمعناه وبمعني كل حرف فيه

[١٣٥] عجائب الآثار في التراجم والأخبار (الجبرتي) ج٥ صفحة ١

- إذا تأملنا كلام الجبرتي سنجده يحمل العديد من المعاني ، منها جهل المصريين التام بالموقف الدولي وطبيعة الصراع بين بريطانيا وفرنسا ، ومنها أيضاً مدي اعتزاز المصريين في ذلك الوقت بانتمائهم للدولة العثمانية والسلطان العثماني ، وكذلك عدم إدراكهم بمقدار تطور الجيوش العالمية في ذلك الوقت والانخفاض الكبير في مستوي جيوش المماليك والدولة العثمانية مقارنة بجيوش بريطانيا وفرنسا ، كما يتضح من كلام الجبرتي مدي إيمانه بقضاء الله وقدره والصبغة الدينية في سرده للأحداث واستشهاده بآيات من القرآن الكريم
- أما هذه الأخبار فعندما وصلت إلي القاهرة انتشر القيل والقال بين الناس أما المماليك فلم يهتموا بشئ من ذلك علي حد تعبير الجبرتي (ولم يكترثوا به اعتماداً علي قوتهم وزعمهم أنه إذا جاءت جميع الفرنج لا يقفون في مقابلتهم وأنهم يدوسونهم بخيولهم)[١٣٦]
- وطبعاً هذا الكلام كله غرور وليس له أساس من الصحة لأن المماليك كانوا أضعف من أن يواجهوا جيشاً حضارياً قوياً مؤسس علي أسس علمية وأسلحة حديثة متطورة
- فضلاً عن أن المماليك لم يكونوا في حالة من قوة الإيمان علي ما يبدو لتجعلهم يثقون بالنصر فلم يكن لهم الحق في النصر سواء بأسباب الدنيا أو أسباب السماء والله أعلم
- فماذا كان سيحدث لو سمح محمد كريم رحمه الله للأسطول البريطاني بأن يبقي في الإسكندرية ليدافع عنها ؟

٤٦. وجهة نظر قابلة للتصحيح

- هذا السؤال له عدة إجابات كتبها بعض المؤرخين بل ذكرها الأديب يحيي حقي وهو يكتب عن جهل المصريين بالموقف الدولي حيث كتب تحت عنوان (وجهة نظر قابلة للتصحيح) ما ملخصه [١٣٧] : السؤال الذي يتردد في خاطري وأنا أقرأ تاريخ مصر الحديث هو عن مدي إلمام قادتها بالموقف الدولي ، فإن الجهل به كان – فيما أعتقد – سبب وقوعهم في أخطاء كثيرة وإصابتهم بخيبة أمل من جنس واحد ، مرة بعد مرة دون أن يتعظوا ، لم يتمثل الجهل المطبق بالموقف الدولي كما تمثل في إبراهيم بك ومراد بك حينما ظهر أسطول نلسون أمام الشواطئ المصرية وأرسل إليهما يقول إنه يطارد أسطول نابليون الذي أبحر لغزو مصر ، لم يسأل أحد من هو نابليون ؟ ولماذا يريد غزو مصر ؟ ولماذا تطارده حضرتك ؟ ، قالا له إن مصر كنانة الله في أرضه وهي منيعة لأنها من بلاد الدولة العلية ، حسباها زعقة أو كرشة بين اثنين من العصبجية لا شأن لمصر بهما ، ومع أن مصلحة المماليك توحدت ومصلحة إنجلترا في صد عدوان فرنسا علي مصر ، فإن مراد بك وزميله لم يحاولا أن يلعبا

---

[١٣٦] عجائب الآثار في التراجم والأخبار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٢

[١٣٧] من كتاب (صفحات من تاريخ مصر) للكاتب الكبير يحيي حقي

ورقة نلسون ضد نابليون ، كانا يجهلان كل الجهل الصراع القائم بين إنجلترا وفرنسا ، وعاد نلسون من حيث أتي دون أن يظفر بإنسان يفهم عنه ،

- فهل فهم المصريون بعد ذلك هذا الصراع ؟
- يضيف يحيي حقي : – ليس في الجبرتي أي دليل علي أن مصر أدركت أن سبب غزو نابليون لأرضها هو –قبل كل شئ– لكسر شكيمة إنجلترا في أوروبا والمحيطات كذلك لم ينطق نابليون للمصريين بكلمة واحدة تعينهم علي فهم الموقف الدولي ودور مصر فيه ، لعله وجدهم دون مستوي الفهم ، هناك كتب في التاريخ عنوانها (لو أن .....) ، فمن الجائز أن يكون من بين فصولها محاولة الإجابة علي السؤال الآتي : (ماذا كان سيحدث لو أن مراد بك وزميله سمحا لنلسون بانتظار نابليون أمام شواطئ مصر بحيث يتم تحطيم أسطول نابليون في موقعة أبو قير قبل الغزو لا بعده؟) ، لك أن تتخيل ما تشاء فإني لا أحب هذه التخمينات لأنها سفسطة فارغة – – – – – – – –
- إنه نفس السؤال الذي يحيرني
- ويضيف أيضاً فيقول : من الخطأ إطلاق وصف (القادة) علي إبراهيم بك ومراد بك ، لم يكن كل منهما في حقيقة الأمر إلا شيخ منصر همه السلب والنهب وامتلاء جوفه وخزائنه ، فليس بعجيب عليهما هذا الجهل المطبق بالموقف الدولي ودور مصر فيه
- فما الإجابات الأخري التي ذكرت أنها ترد علي هذا السؤال ؟
- توجد إجابة أخري في كتاب آخر اسمه (تاريخ مصر الحديث والمعاصرمن الحملة الفرنسية إلي ثورة ١٩٥٢) يؤكد فيه الكاتب علي أن رفض محمد كريم السماح للإنجليز بالبقاء في الإسكندرية للدفاع عن مصر قد تسبب في جلاء الحملة عن مصر بعد ثلاث سنوات فقط
- وكيف ذلك ؟ وماذا كتب ؟
- لقد كتب ما ملخصه[١٣٨] : الملاحظة الأولي التي تفرض نفسها علي أي قارئ لجهاد الشعب المسلم في مصر ضد الحملة الفرنسية هو أن جهاد الشعب المسلم كان من القوة والاستمرار والدأب والشمول بطريقة فذة ومذهلة ، وإذا قلنا إن جهاد الشعب المسلم في مصر ضد الحملة الفرنسية كان فريداً – – لما كان ذلك افتناناً وإعجاباً زاد علي الحدود التي تقتضيها دواعي البحث العلمي ، فصحيح أن حيوية الشعب المسلم في مصر كانت دائماً متقدة للكفاح ضد كل تدخل أجنبي قبل الحملة الفرنسية وبعد الحملة الفرنسية ، وذلك بحكم توقد روح الجهاد الإسلامي داخل النفوس وبحكم العقلية الإسلامية التي كانت لا تزال سائدة ، وبرغم فترات الحكم الفاسد الطويلة ، إن الكفاح الشعبي في مصر ضد الحملة الفرنسية كان رائعاً ، بل إنه نجح في طرد تلك الحملة نهائياً في غضون ثلاث سنوات لم ينقطع فيها الكفاح يوماً ، ذلك الكفاح الذي شارك فيه الفلاحون واتجار وعلماء الأزهر والحرفيون وأولاد البلد

[١٣٨] نقلاً عن كتاب (تاريخ مصر الحديث والمعاصرمن الحملة الفرنسية إلي ثورة ١٩٥٢)– د محمد مورو

والمجاذيب ، بل والمسلمون من غير المصريين الذين وجدوا في مصر وقتها ، أو وفدوا إليها خصيصاً لممارسة الجهاد في سبيل الله

- أنا لا أريد أن أقطع الحديث ولكن لم أجد حتي الآن الإجابة الشافية علي سؤالي ، استمر في القراءة علي أي حال فهي وجهة نظر تستحق التأمل

٤٧. أسباب اندحار الحملة في ثلاث سنوات بينما استمر الإنجليز سبعين سنة

- اندحرت الحملة الفرنسية عن مصر في ثلاث سنوات واستمر الاحتلال الإنجليزي لمصر سبعين عاماً وتزيد ، – – إن القراءة العلمية والموضوعية لأوراق الكفاح الشعبي المصري ضد الحملة الفرنسية تعطينا الأسباب لذلك النجاح والتنوع والإبداع في عملية الكفاح الشعبي ، فمن ناحية ، وهذا أول الأسباب كان العلماء وعموم الأمة في حالة من التوحد مذهلة وخطيرة كانت عموم الأمة تعرف قيادتها الشرعية وهي العلماء ، فكان الأزهر رمزاً لقيادة الأمة ، وكانت تركيبة السلطة في مصر والتوازنات وقتها تجعل العلماء والعامة في خندق واحد بالتوازي أو في مواجهة الحكومة (الوالي –المماليك–حسب الأحوال) ، ولقد حاول المستعمر دائماً ، عن طريق مباشر ، أو عن طريق حكام محليين مغفلين أو عملاء أن يقصم هذه الرابطة بين العلماء والأمة لأنه أدرك أنه بدون فصم هذه العلاقة لا أمل له في احتلال البلاد ، ومن ناحية ثانية ، وهو سبب أيضاً هام جداً ، كانت الصيغة المصرية للحكم تجعل من الوالي والمماليك طبقة منفصلة تماماً ومنعزلة عن الجماهير ، ولا يمكن لها بحكم تراثها ونواميسها أن تتدخل في حياة العامة ، وأن عموم الأمة والعلماء كانوا في حالة شبه مستقلة فيما عدا ما يؤدي من ضرائب ، بمعني أن السلطة الحاكمة لم يكن لها برنامج ثقافي تقدمه أو قدرة علي فذلكة برامج سياسية
- بالفعل أعتقد أن أمراء المماليك في ذلك الوقت لم يكونوا علماء أو فلاسفة أو مفكرين أو دعاة لأي فكرة ، بل يحكمون ويجمعون الضرائب فقط والله أعلم ، إنها رؤية جديدة تماماً لذلك العصر أهم من الإجابة علي سؤالي ، استمر في القراءة جزاك الله خيراً
- بل العكس كانت تخضع للتوجيه الثقافي للعلماء وبالتالي فقد كان العقد الشعبي سليماً لم يعان من القمع الثقافي السلطوي
- لم تكن هناك قنوات إذاعية أو تليفزيونية أو إعلام موجه من أي نوع
- وهو ما جعل استجابة –الشعب– سريعة ضد الغزو الأجنبي ، أضف إلي ذلك أن تركيب السلطة جعلها غير قادرة علي منع الناس من المقاومة لأنها لم تكن سلطة تتدخل في الصغيرة والكبيرة أو تحاول كما فعلت الحكومات العلمانية بعدها أن تصوغ عقل الأمة وحركتها ، وهناك العامل الأهم وهو أن تلك الفترة كانت المماليك فيها في حالة ضعف ، لأن قيادتهم تمثلت في مملوكين شقيين متفككين هما مراد بك وإبراهيم بك ، وضعف السلطة المركزية هنا جاء لصالح حركات المقاومة ، لأنه دائماً كانت السلطة القوية تمنع الناس من المقاومة بدعوي أنها ستقوم بها ، ومن ناحية ثالثة فإن العقلية الإسلامية التي

كانت تحكم الأمة ، برغم فساد السلطة ، لم تكن قد تعرضت لتلك الحملة البشعة التي قام بها الاستعمار ومدارس التغريب العميلة التي تم زرعها فينا لتؤدي مهمتها في تغريب الأمة وإفقادها هويتها ، كانت الأمة ما زالت تملك هويتها وكان علماؤها ومثقفوها لم يتم تغريبهم بعد

- لذلك استمر الإنجليز في مصر أكثر من سبعين عاماً بعد أن عبثوا بعقول المصريين وأنشأوا نخبة مثقفة طبقاً لأغراضهم وأفقدوا الناس هويتهم ، فسبحان الله ، كان المصريون أثناء الحملة الفرنسية علي فطرتهم السوية رغم تخلفهم ومحتفظون بهويتهم رغم ضعفهم فتعاملوا مع الفرنسيين كما ينبغي ، يا له من تحليل ، ونحن نحاول ربما إلي الآن البحث عن هويتنا ، عفواً استمر
- كانت روح الجهاد ما زالت متقدة ، وروح الإسلام البسيطة تعمل ، كان الفلاح البسيط يعرف أن هذا الفرنسي كافر –معتدي– إذن لابد من قتاله ، وكانت كلمات الفرنسيين الكفرة ، الفرنجة الأجانب ، كلمات ذات مضامين ومدلولات ولعل هذا يوضح الفرق بين حركة الكفاح اليومي إبان الحملة الفرنسية وحركة السكون المؤقتة التي شهدتها فترات أخري في تاريخنا المعاصر – – – قبيل وصول الحملة الفرنسية إلي الإسكندرية جاء نلسون قائد الأسطول الإنجليزي إلي المدينة وحذر حاكمها السيد محمد كريم من أن هناك حملة فرنسية كبيرة في الطريق وعرض حمايته علي المدينة ولكن السيد محمد كريم ، أحد نماذج أمتنا الأفذاذ ، رفض العرض الإنجليزي ، وبديهي أن هذا الموقف للسيد محمد كريم كان موقفاً صحيحاً ، وكان موقفاً يعبر عن الوعي والوطنية ، لقد فهم السيد محمد كريم قبل افتتاح جامعات تدريس الاستراتيجيات والتكتيك ، أن الصراع بين مستعمرين لن يكون أبداً لصالحه ، وأنه لو سمح للإنجليز بدخول الإسكندرية لما خرجوا منها ، ووفر السيد محمد كريم بوعي فذ استعماراً مبكراً ، لقد وعي السيد محمد كريم أن الإنجليز والفرنسيين ما هم إلا شكلان من أشكال السيطرة الاستعمارية وأن التناقض بينهما لن يكون لصالحنا يوماٍ ، وأن وعود أمثال هؤلاء لا يمكن الاعتماد عليها وهو درس لم يستوعبه معظم حكامنا حتي الآن
- نحن لا نستوعب أي دروس من أي نوع علي أي حال إلا من رحم ربي
- وقد يقول قائل : وهل أفاد هذا الموقف في منع الإسكندرية من السقوط في يد الفرنسيين ؟ وهل كان محمد كريم أصلاً يملك القوة ما يسمح له بالاعتماد علي قواه الذاتية في صد الفرنسيين ؟ ، ولكن العقلية الإسلامية وروح الشرف والمبادئ والنظرة الاستراتيجية ، لا تتعجب ، فهي كذلك بالفعل ، جعلت السيد محمد كريم يدرك أن روح المقاومة هي الأهم وأن المحافظة علي روح المقاومة هي الكفيلة بإخراج الفرنسيين في النهاية حتي ولو احتلوا في البداية مدينة الاسكندرية ، ولكن الاعتماد علي قوة خارجية سيضعف كثيراً من روح المقاومة التي هي الأهم ، وسيجعلنا نكسب مكسباً سريعاً ثم نقع أسري احتلال انجليزي في النهاية ، ولعل هذا يكون درساً للذين يراهنون علي أمريكا وروسيا في أيامنا هذه لإخراج إسرائيل من فلسطين المحتلة ، وصل الفرنسيون إلي الإسكندرية وكان هناك عدم تكافؤ واضح

في القوي بين الطرفين ، فعدد المقاتلين الفرنسيين كان ٥٠ ألفاً ، وعدد المدينة كلها لم يتعد ١٠ آلاف نسمة ، أما الإمكانات العسكرية علي مستوي التسليح فقد كانت الهوة شاسعة – – ومع هذا قرر محمد كريم أن يقاوم وقررت جماهير الإسكندرية أن تقاوم ، ويمكننا أن نفهم مدي عمق المقاومة إذا ما قرأنا هيرولد : (أنه من النادر أن يصاب قائدان هذه الإصابات في الدقائق الخمس الأولي لأية حملة حربية ، المقصود كليبر ومينو وهما من كبار قواد الحملة وقد قادا الحملة فيما بعد عقب رحيل نابليون) وقد تعرض نابليون ذاته للقتل كما أن نابليون نفسه يصف المقاومة بقوله : (إن كل بيت كان قلعة) ، كتب الجنرال مينو : (إن الأعداء قد دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة وثبات عظيم) – – وخرج الرصاص من المساجد خرج الرصاص وخرجت الأحجار وخرجت روح المقاومة من كل شبر في المدينة ، ومع هذا سقطت المدينة ولكن روح المقاومة لم تسقط

- إن كل من مات شهيداً في الإسكندرية لم يعرف ماذا حدث بعد ذلك ولكنه قد سجل موقفه قبل أن يموت دون أن يهتم بأن يعرف نتيجة القتال
- قام الفرنسيون عقب سقوط المدينة بعمليات الذبح والقتل كعادة الحضارة الغربية ، يقول أدجوتاتن جنرال بوابية أحد هيئة أركان الحرب العامة – – – ذبحنا الرجال والنساء والكبار والصغار وحتي الأطفال عن بكرة أبيهم وبعد نحو أربع ساعات هدأت ثورة جنودنا في النهاية ، – – قاومت المدينة وانهزمت فاستمرت مصر تقاوم إلي أن انتصرت ، ولو لم تقاوم المدينة لسقطت إرادة القتال ، واستمرت بعد ذلك المقاومة السرية ، – – – وتم اتهام محمد كريم بقيادة هذه المقاومة وتم إرساله إلي نابليون لمحاكمته ، وأصدر نابليون أمراً بإعدامه وسمح له بأن يفتدي نفسه بدفع غرامة مالية فلم يقبل السيد محمد كريم وقد نصحه المستشرق فانتور كبير تراجمة الحملة الفرنسية بأن يدفع الغرامة وقال له : (إنك رجل غني فماذا يضيرك أن تفتدي نفسك بهذا المبلغ ؟) ، فأجابه السيد محمد كريم : (إذا كان مقدرا علي أن أموت فلا يعصمني من الموت أن أدفع هذا المبلغ وإذا كان مقدرا لي الحياة فعلام أدفعه) ، وظل علي إصراره إلي أن نُفِّذ فيه الحكم رمياً بالرصاص وهكذا يكون الشموخ وهكذا تكون صلابة المجاهدين ، الموت مرفوع الرأس والتسليم بقضاء الله تعالي – – ولم يقتصر بالطبع جهاد الشعب المسلم ضد الحملة الفرنسية علي الإسكندرية ولكن أينما صارت الحملة ظهرت المقاومة
- هذا عن الشعب فماذا عن إبراهيم بك ومراد بك وسط كل هذا ؟

٤٨. إبراهيم بك ومراد بك من وجهة نظر الأستاذ جمال بدوي

- ننتقل إلي ما كتبه الأستاذ جمال بدوي عنهما ، فقد كتب تحت عنوان كذاب الزفة يصف إبراهيم بك ومراد بك آخر من سيطر من بكوات المماليك علي حكم مصر في العصر العثماني ما ملخصه : (كان هذان المملوكان الغاصبان – إبراهيم بك ومراد بك – يتمتعان بكمية هائلة من السفالة وقلة الحياء فهما أسدان جسوران علي الشعب المصري المسالم المستكين ولا يتورعان عن حرق القرى وتدمير

المزروعات وهتك الأعراض وسبي النساء وسفك الدماء وتشريد الناس في الفلوات من أجل حفنة ريالات ولكنهما كانا أرنبين هزيلين في ساحة الوغى فما إن يبدأ وطيس القتال حتي يطلقا سيقانهما للريح تاركين المصريين العزل كالأيتام علي مائدة اللئام ، فإذا زال الخطر وانقشع العدو عاد المماليك ليستأنفوا مظالمهم وجبروتهم بعد أن يقسموا بأغلظ الأيمان أنهم تابوا وأنابوا ولن يعودوا سيرتهم الأولي والمؤسف أن المصريين كانوا يصدقونهم ، فيسلمون إليهم رقابهم مرة أخري ، كان إبراهيم بك أكثرهما دهاء ومكراً ولذلك لم يورط نفسه في معركة غير محسوبة ، أما مراد بك فكان كما وصفه الجبرتي " يغلب عليه طبعه الخوف والجبن مع التهور والطيش والتورط في الإقدام مع عدم الشجاعة ، ولم يعهد عنه أنه انتصر في حرب باشرها أبداً علي ما فيه من الإدعاء والغرور والكبر والخيلاء والصلف والظلم والجور " ولقد دلت جميع الأحداث علي أن هذا الأمير المتسلط كان مغروراً إلي حد البلاهة " همباكاً " إلي درجة العبط " جعجاعاً " في تقدير بطولته وقدرته علي سحق الألوف بضربة واحدة من سيفه – – – ولذلك تشاءم المصريون عندما علموا أنه سوف يتصدي لملاقاة جيش نابليون أثناء زحفه علي القاهرة قادماً من الإسكندرية لأنهم كانوا يعرفون أن قائدهم " كذاب زفة " ولن يصمد طويلاً في المعركة

- وكان مراد بك قد صرح قبل خروجه إلي المعمعة بأن الفرنسيين مثل حبات الفستق لا يصلحون إلا للكسر والأكل)١٣٩
- هل يمكن قبل أن نستمر في سرد أحداث الحملة المثيرة ونترك مراد بك ليستمتع بأكل الفستق أن نتوقف قليلاً لنستعرض ما كتبه المؤرخون عن الأسباب الحقيقية للحملة الفرنسية علي مصر ؟

٤٩. ولكن ما هي الأسباب الحقيقية لهذه الحملة ؟

- لا مانع علي الإطلاق ، لنقرأ كتب التاريخ ونتأمل معاً أهم الأسباب التي أدت إلي شن هذه الحملة علي مصر وهذه الأسباب قد تبدو مختلفة وكثيرة ومن وجهات نظر عديدة
- أعشق تعدد وجهات النظر حول موضوع واحد
- عموماً سوف أذكر لك وجهات النظر وأنا أقف علي الحياد تماماً وأترك لك تأملها بنفسك فمثلاً ذكر الرافعى عن هذه الأسباب ما يلي (الحملة الفرنسية هي دور من أدوار التنازع الذي قام بين فرنسا وإنجلترا علي الفتح والاستعمار ذلك التنازع الذي يرجع عهده إلي القرن السابع عشر واستمر خلال القرن الثامن عشر ثم اتخذ طوراً جديداً بعد الانقلاب العظيم المعروف بالثورة الفرنسية ، إن الثورة الفرنسية قد دكت معالم النظام القديم في فرنسا وكان من نتائجها سقوط الملكية وإعلان الجمهورية سنة ١٧٩٢ م)١٤٠ وأكد الرافعى أن أوروبا تحالفت ضد فرنسا حتي تمنع هذا الزحف الثوري من الحدوث في باقي الدول الأوروبية

---

[١٣٩] مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٢٣ ، ٢٤

[١٤٠] تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج١ صفحة ٧١

- تمنع هذا الزحف الثوري من الحدوث في باقي الدول إن هذا المعني يذكرني بالكثير
- ولكنها لم تتمكن من الوقوف أمام قائد عسكري بارع من الطراز الأول وهو نابليون بونابرت الذي استطاع هزيمة الدول الأوروبية (لكن انجلترا التي كانت أقوي الحلفاء شكيمة وأشدهم مراساً بقيت بحكم موقعها الجغرافي وسيادتها في البحار بمأمن من ضربات نابليون وانتصاراته ففكر في ميدان حرب يقهر فيه انجلترا فوجد أن مصر هي ذلك الميدان - - - فخُيِّل إليه أن يُشيِّد علي ضفاف النيل دولة شرقية عظيمة تحقق ما كان يجيش في صدره من الآمال الكبار ويصل منها إلي ضرب إنجلترا عدوة فرنسا اللدود في ذلك الحين)١٤١
- إنه رأي منطقي فماذا عن الآراء الأخري ؟
- أما الدكتور علي الصلابي فله رأي آخر فهو يضيف إلي هذه الأسباب سبب آخر مهم وهو أن هذه الحملة هي أحد الضربات الموجهة إلي الأمة الإسلامية بشكل عام حيث كتب ما يلي (انتهز أعداء الإسلام تدهور الدولة العثمانية فاستغلت فرنسا ذلك الضعف وأرسلت حملتها المشهورة بقيادة القائد المشهور نابليون بونابرت ، كانت تلك الحملة صدي للثورة الفرنسية ومتأثرة بأفكارها الثورية وقد اصطحب نابليون معه مجموعة كبيرة من العلماء الفرنسيين في حملته هذه بلغ عددهم ١٢٢ عالماً)١٤٢
- يبدو أن الدولة العثمانية قد تركت فراغاً وسيسعي الأقوياء إليه
- بالتأكيد إن هذا هو ناموس الحياة منذ نشأة الحياة .. فطالما أن هناك فراغاً في جهة ما .. فلا تلوم من يملأه
- حتي إذا كان هذا الفراغ هو مكان انتظار سيارتك أمام منزلك ، أعتذر عما قلت ، استمر
- ويؤكد الدكتور الصلابي أن هؤلاء العلماء قد تأثروا بأفكار روسو وفولتير ومنتسكيو أبرز مفكري الثورة الفرنسية والمعروفون بانتمائهم للمحافل الماسونية اليهودية من خلال ما رفعوه من شعارات وأفكار تعادي في مجموعها الدين فهم ضد أي دولة تقوم علي مبادئ دينية (وبالتالي فإنه من السذاجة أن نقبل ما يروجه كتاب التاريخ من أن الهدف الرئيسي لهذه الحملة كان قاصراً علي ضرب المصالح البريطانية في الشرق)١٤٣ ويؤكد أيضاً أن الهدف ليس عسكرياً فقط وأن هناك أسباباً أخري فيقول (ومن هنا كانت أهداف الحملة خليطاً من أهداف اقتصادية وتوسعية وسياسية ودينية أو بالأحرى غزو عسكري وفكري ولهذا اصطحب نابليون معه في حملته هذا الحشد الهائل من العلماء)
- فهل هناك آراء أخري ؟

---

١٤١ تاريخ الحركة القومية (الرافعى) ج١ صفحة ٧٣

١٤٢ الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٣٨٨

١٤٣ الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٣٨٨

- أما رأي الكاتب الكبير جمال بدوي فكتب ما يلي عن هذا الموضوع : (لم تكن الحملة الفرنسية علي مصر بقيادة نابليون بونابرت عام ١٧٩٨ م تحمل الصبغة الصليبية التي كانت للحملات السابقة التي اجتاحت الشرق الإسلامي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بل يمكن وصف حملة نابليون بأنها كانت " لا دينية " إذا قورنت بحملة سلفه لويس التاسع – – لقد جاء نابليون إلي مصر باسم الثورة الفرنسية الكبرى المناهضة للدين والتي ثارت في وجه الكنيسة ورجالها بنفس العنف الذي واجهت به طبقة النبلاء والإقطاع)[١٤٤]
- ومن هنا نفهم أن نابليون هاجم الكنيسة فهل من المعقول أن يحترم الإسلام ؟
- ، وهكذا وعلي أي حال بدأت الحملة الفرنسية علي مصر بقيادة نابليون وقد تخللها العديد من الأحداث المثيرة التي أرجو أن نتأملها معاً برؤية عصرية لنتابع الصدام الحضاري بين شعب متخلف بائس وجيش متقدم قوي ونذكر ما حدث بين المماليك والجيش الفرنسي
- بمناسبة الحديث عن الملك لويس التاسع وحملته ، تذكرت ما قاله الشاعر الذي هدد الفرنسيين بعد فشلهم وعودتهم لبلادهم مهزومين وحذرهم من وجود دار بن لقمان علي حالها والقيد باق والطواشي صبيح ، فهل تذكر هذه الأبيات
- بالتأكيد ولكن يبدو أن الذي بقي علي حاله هو جيش المماليك نفسه فهو لم يتطور وظل منتظر عودة الفرنسيين ومعهم أرقي ما وصل إلي العلم من سلاح وعتاد في ذلك الوقت
- نعود لما توقفنا عنده ، وهو سقوط الإسكندرية

٥٠. التعليق علي سقوط الاسكندرية في يد نابليون

- نعم تم احتلالها ولكنها لم تسقط بسهولة كما ذكرنا فقد كانت الإسكندرية في أسوأ حالاتها من ناحية الدفاعات العسكرية بل من جميع النواحي نتيجة لإهمال القلاع والحصون والمدافع التي بها حتي أن قنصل فرنسا في مصر أرسل قبل ذلك تقريراً عن حالة الإسكندرية العسكرية وذكر فيه (إن مرافئ الإسكندرية خالية من القلاع والمدفعية والذخائر – – أما قلعة المنارة " قلعة قايتباي " في ظاهرها فخمة ولكنها تكاد تكون خالية من الحامية ومن الذخائر والمدفعية، والمدفعية الباقية لا تصلح للضرب ولا تستعمل إلا في أيام الأعياد)[١٤٥] ومن هذا التقرير يتضح مدي ضعف الإسكندرية قبل وصول نابليون ، (وهكذا شاءت الأقدار أن ينجو نابليون وجنوده من أسطول الأميرال نلسن فاقتربت العمارة " البحرية " من مياه الإسكندرية يوم ٣٠ يونيو ١٧٩٨)[١٤٦]
- وبالطبع علم نابليون بأن الإنجليز كانوا في الإسكندرية قبل وصوله

---

[١٤٤] مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٢٧

[١٤٥] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ١٦٢

[١٤٦] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ١٦٧

- نعم ، (فخشي عودة الأميرال نلسن ومباغتته بأسطوله في عرض البحر فأمر بالمبادرة إلي إنزال الجنود للبر واختار لمرسي عمارته ونزول جنوده جهة العجمي التي تبعد عن الإسكندرية غرباً نحو اثني عشر كيلومتراً)١٤٧ واستمر إنزال القوات طول الليل ثم في الصباح قاموا بمحاصرة المدينة والهجوم عليها بقسوة ولم تستسلم المدينة بسهولة بل كان القتال شرس وعنيف والمقاومة علي أشدها حتي أن نابليون نفسه كاد أن يلقي مصرعه كما ذكرنا ، وقد (كتب الجنرال برتييه في رسالته إلي وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ ٦ يوليو سنة ١٧٩٨ م يصف احتلال الفرنسيين للإسكندرية فقال : إن الأهالي دافعوا عن أسوار المدينة دفاع المستميت وقد أصيب في هذه الموقعة الجنرال كليبر بعيار ناري في جبهته فجرح جرحاً بليغاً وأصيب الجنرال منو بضربة حجر أسقطته من أعلي السور فنالته رضوض شديدة – – وقتل اللواء ماس وخمسة ضباط آخرون، وقدر نابليون خسائر الجيش الفرنسي في مهاجمة الإسكندرية في رسالته إلي حكومة الديركتوار " الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت " بثلاثين إلي أربعين قتيلاً وثمانين إلي مائة جريح وقدرها بعد ذلك في مذكراته بثلاثمائة بين قتيل وجريح)١٤٨
- أتعجب من كثرة المعلومات التي وردت عن الحملة علي لسان الفرنسيين أنفسهم
- هذا صحيح فقد كان الكثير منهم يكتب مذكرات ويوميات لكل ما يحدث كما لم تنقطع الرسائل بينهم وبين فرنسا كلما أتيحت الفرصة لذلك ، والأعجب أن كليبر نفسه قبل مقتله كان يكتب يومياته وقد تم استخدامها أيضاً في التأريخ للحملة
- ولكن لماذا كانوا يحرصون علي عملية التدوين ؟
- لا أعرف ولكني أعتقد أن حملة كهذه إلي بلاد الشرق الساحر الذي طالما قرأوا عنه الأساطير كانت تمثل لهم مغامرة كبري مثيرة تستحق التسجيل والتدوين والله أعلم
- أتخيل لو كان في تلك الايام أجهزة تليفون محمول مزودة بكاميرات تصوير لكانوا قد عادوا بالعديد من الصور ومقاطع الفيديو ولأمتلا الانترنت بجميع تفاصيل الحملة
- لا أعتقد أنهم كانوا سيصورون ما يرتكبونه من فظائع وجرائم بشعة توضح مدي همجيتهم ووحشيتهم وحضارتهم المادية الزائفة التي تخلو من القيم والمبادئ وتاريخهم الدموي معروف في الجزائر المعروف ببلاد المليون شهيد
- فماذا كتب الجبرتي عن احتلال الإسكندرية فمن المؤكد أن أسلوبه كان ممتعاً في الوصف ؟

٥١. رواية الجبرتي عن احتلال الإسكندرية

- وصف الجبرتي وصول الفرنسيين ومراكبهم فقال (فلما دخل الليل تحولت منهم مراكب إلي جهة العجمي وطلعوا إلي البر ومعهم آلات الحرب والعساكر فلم يشعر أهل الثغر وقت الصباح إلا وهم

---

[١٤٧] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ١٦٩

[١٤٨] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ١٧١

كالجراد المنتشر حول البلد فعندها خرج أهل الثغر – – فلم يستطيعوا مدافعتهم ولا أمكنهم ممانعتهم ولم يثبتوا لحربهم – – ورجع أهل الثغر إلي التترس في البيوت والحيطان ودخلت الفرنج البلد وانبث فيها الكثير من ذلك العدد كل ذلك وأهل البلد لهم بالرمي يدافعون وعن أنفسهم وأهليهم يقاتلون ويمانعون فلما أعياهم الحال وعلموا أنهم مأخوذون بكل حال وليس ثم عندهم للقتال استعداد لخلو الأبراج من آلات الحرب والبارود وكثرة العدو وغلبته طلب أهل الثغر الأمان)[١٤٩]

- يا له من وصف يدعو إلي التأمل
- وهكذا تم احتلال الإسكندرية وترك نابليون بها الجنرال كليبر الجريح ومعه قوة من الجيش لتأمينها وإخضاع ما حولها من قرى وبلدان ، وزحف نابليون بجيشه في اتجاه القاهرة ليواجه جيش المماليك ويحتل باقي مصر
- فماذا حدث بعد ذلك ؟
- لقد نشر نابليون أول منشور إلي الشعب المصري
- فماذا كتب فيه ؟

٥٢. المنشور الفرنسي للشعب المصري

- درس نابليون مصر وأحوالها جيداً قبل حضوره وأحضر معه مطبعة عربية ومترجمين علي أعلي مستوي واستخدم المطبعة وهو لازال في البحر في طريقه إلي مصر وطبع نسخ عديدة من أول منشور لتوزيعه بمجرد الوصول إلي مصر حتي لا يضيع الوقت في الطباعة وحتي لا تحول أعمال القتال دون تنفيذها، وكان هذا المنشور يؤكد أن نابليون قد أتي إلي مصر لقتال المماليك فقط لأنهم يسيئون معاملة التجار الفرنسيين وأعلن أنه لم يأتي لقتال الشعب المصري نفسه وحاول في هذا المنشور أن يستثير القومية المصرية لفصل الشعب المصري عن الأمة الإسلامية كما أثار فيهم الحقد علي المماليك لما يتمتعون به من رفاهية الدنيا ونعيمها وشمل المنشور أيضاً تهديد واضح بحرق أي قرية تقف في طريقه كما تودد في هذا المنشور للسلطان العثماني ويعتبر هذا المنشور أكبر دليل علي أن نابليون كان معتقد بل متأكد من مدي سذاجة وتخلف الشعب المصري
- لقد اشتقت لأعرف ما جاء في هذا المنشور العجيب
- إليك مقتطفات من هذا المنشور لتتأمل ما جاء فيه ولكن أرجو عدم المقاطعة حتي نناقشه معاً:(بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه، من طرف الفرنساوية المبني علي أساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته يعرف أهالي مصر جميعاً أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية، يتعاملون بالذل والاحتقار في حق

[١٤٩] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٢

الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي فحضر الآن ساعة عقوبتهم – – هذه الزمرة المماليك يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها فأما رب العالمين القادر علي كل شئ فإنه قد حكم علي انقضاء دولتهم، يا أيها المصريون قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين وأنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالي وأحترم نبيه والقرآن العظيم وقولوا أيضاً لهم : إن جميع الناس متساوون عند الله وأن الشئ الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب ماذا يميزهم عن غيرهم حتي يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شئ أحسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم ولكن بعونه تعالي من الآن فصاعداً لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها وسابقاً كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك ، أيها المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبري وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصاري علي محاربة الإسلام – – ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام الله ملكه – – طوبي ثم طوبي لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلي مراتبهم طوبي أيضاً للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين ولكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون علي المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقاً إلي الخلاص ولا يبقي منهم أثر – المادة الأولي : جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التي يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذي هو أبيض وكحلي وأحمر، المادة الثانية : كل قرية تقوم علي العسكر الفرنسي تحرق بالنار)[١٥٠] هذا المنشور به مواد أخري وفي نهايته يطلب نابليون من الشعب المصري أن يشكروا الله لانقضاء دولة المماليك

- لقد لعب نابليون علي الوتر الحساس وذكر عدة حقائق في هذا المنشور ولكنها كلمة حق يراد بها باطل ، ولاحظ أيضاً أن الدولة العثمانية رغم كل شئ كانت لازالت مرهوبة الجانب وكان للسلطان خليفة المسلمين مكانته أيضاً

[١٥٠] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٤ ، ٥ ، ٦

- وقد علق الأستاذ جمال بدوي علي هذا المنشور فقال : (- - ولم يكن المصريون وحدهم هم الذين فضحوا زيف نابليون ، فالعلماء والقادة وكبار الضباط الذين صحبوه في حملته كانوا يعلمون مدي كذبه ، وكانوا يسخرون منه وهو عاكف علي ظهر الأسطول يدبج صيغة المنشور قبل أن يدفع به إلي المطبعة العسكرية لتطبعه بالعربية والتركية والفرنسية ، وتحفظ السجلات الفرنسية رسالة القائد البحري " جوبير " إلي وزير بحرية فرنسا والتي يقول فيها : " لعلكم أيها الباريسيون تضحكون حين تقرءون هذا المنشور الإسلامي الذي وضعه قائدنا الأعلي ولكنه لم يعبأ بكل سخريتنا من المنشور " ، بل إن نابليون نفسه ، اعترف في أخريات أيامه ، بأن هذا المنشور كان قطعة من الدجل " ولكنه دجل من أعلي طراز " وعندما كان يجتر ذكرياته وهو سجين في سانت هيلانة ، اعترف لأحد أخصائه بما فعل ، وبرر سلوكه بأن " علي الإنسان أن يصطنع الدجل في هذه الدنيا لأنه السبيل الوحيد إلي النجاح " وتلك طبيعة الطغاة الذين يستخفون بالشعوب ، ولا يدركون الحقيقة إلا بعد أن يزول عنهم السلطان فيموتوا كمدا)[١٥١]
- إذا تأملنا هذا المنشور مرة أخري سندرك حقيقة ذكرها نابليون ربما بقصد أو بدون قصد عندما قال عن مصر أنها الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها مثله كما أشار أيضاً في منشوره إلي عظمة التاريخ المصري عندما قال : وسابقاً كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع
- أعتقد أنه محق تماماً في هذا ولكن النوايا تختلف بالطبع
- فماذا حدث عندما واجه نابليون المماليك ؟

٥٣. معركة إمبابة

- قد وردت تفاصيل عجيبة عن المعركة التي دارت بين المماليك والفرنسيين في الكتاب الخامس من سلسلة كتب –صفحات من تاريخ مصر– وهو بعنوان تاريخ مصر من عهد المماليك إلي نهاية حكم اسماعيل – تأليف المستر جورج يانج – تعريب : علي أحمد شكري – الطبعة الثانية ١٩٩٦ – مكتبة مدبولي – ويؤكد المؤرخ جورج يانج في هذا الكتاب أن فن المماليك العسكري قد صار عتيقاً ويقول : وقد نشعر بالعطف علي ما أظهره المماليك من الإقدام والبسالة عند مهاجمتهم لنابليون ، وقد رأي نابليون أن احتلال مصر عسكرياً لن يكلفه متاعب كبيرة لأن الجيش الفرنسي وعدده حوالي ٤٠٠٠٠ زحف بطريق الصحراء بشكل مربع مجوف علي القاهرة وكان رسل المدنية الحديثة –علماء الحملة– المائة والاثنان والعشرون في قلب الجيش بينما جيش المماليك في عرض الأفق ووقف المماليك يرمقون العدو بنظرة الاحتقار والإزدراء ،

[١٥١] مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٣٠

- حتي هذه اللحظة لم يكتشف المماليك مدي تفوق جيش نابليون ؟
- الأعجب من ذلك أنهم كانوا يعيشون في الماضي قلباً وقالباً حتي أن أحدهم تقدم للمبارزة بالسيف (هل من مبارز ؟)
- وهل يُعقل هذا ؟
- نعم ، فقد كتب المستر جورج يانج في كتابه : - - وأخيراً برز أحدهم ظاناً أن عصر الفروسية ما يزال باقياً وقد لبس عدة الحرب الكاملة المطرزة بالحرير وتقدم إلي الفرنسيين حتي صار علي بضع خطوات منهم ، وهنالك طلب مبارزة الكولونيل ، ولكن الفرنسيين وقد أضناهم الحر والجوع والعطش – أجابوا علي طلب المبارزة بإطلاق الرصاص من بنادقهم فتركوا صاحبنا نصير الفروسية مجرد سلب ملطخ بالدماء ، وما كانت معركة الأهرام التي نشبت علي أثر ذلك وحاول فيها المماليك منع دخول الفرنسيين إلي القاهرة سوي تكرار لهذا الحادث ولكن علي مقياس أكبر ، فقد اشترك فيها نحو ١٠٠٠٠ من فرسان المماليك وبضعة آلاف من المشاه الإنكشارية وعدد من المقاتلين المصريين ولكن كان نصيبهم جميعاً الهزيمة ثم الغرق في مياه النيل ، هذا في حين أن خسائر الفرنسيين لم تتجاوز المائة ، علي أن بكوات المماليك لم يجيدوا الكر والفر فقط بل كثيراً ما اقتحموا مربعات القادة الفرنسيين – ديزيه ورينييه ولكن هذا الاستبسال كانت نتيجته الفناء الأكيد ،
- الفناء الأكيد سبحان الله ، فقد كانوا يقولون قديماً الكثرة تغلب الشجاعة ، أما الآن فالتكنولوجيا تغلب الشجاعة ، اللهم إلا إذا نصرت الله وأخذت بالأسباب فهو سبحانه سينصر من ينصره
- بالتأكيد فقد قال أحد العلماء أن المولي عز وجل قد أعطي أسباب الدنيا للجميع ، فمن يأخذ بها سيحقق نتائج سواء كان مؤمن أو كافر ، أما أسباب السماء فلا يعطيها سبحانه إلا للمؤمنين فقط بعد أن يعدوا كل ما يستطيعونه من أسباب الدنيا
- هل كانت هذه المعركة هي أول مواجهة بين الجيشين ؟
- لا بل التقوا في شبراخيت قبل ذلك وانهزم مراد بك ومن معه وحترقت مراكبه في النيل
- لقد قرأت أن هذه المعركة تسمي معركة الأهرام وليس معركة إمبابة فما حقيقة ذلك ومتي تمت ؟
- جدير بالذكر أن هذه المعركة المعروفة باسم معركة الأهرام أو معركة إمبابة تمت في يوم ٢١ يوليو سنة ١٧٩٨ نزل الفرنسيون علي بعد ميلين من إمبابة فكانوا بين النيل والأهرام وإمبابة أمامهم ، وفيها مراد بك وجنوده وهم بدروعهم البراقة وملابسهم الزاهية ، فلما رأي بونابرت حسن استعدادهم التفت إلي جنوده وقال جملته المأثورة : اعلموا أن خمسين قرناً تنظر إليكم من قمم هذه الأهرامات وتراقب حركاتكم تنظر ما سيصبح عليه أمركم مع هؤلاء المماليك - -
- يبدو أن ملابس المماليك قد جعل نابليون يتذكر كتب التاريخ

- ثم أمر فرقة الجنرال ديزيه بالتقدم نحو اليمين والفرق الأخري نحو اليسار – – لكن مراد بك أدرك سر هذه المناورة فأمر أيوب بك الدفتردار بالهجوم ، فهجم أيوب بك وهو يصيح : ويل لكم أيها الملاعين ، قد ساقكم كبرياؤكم إلي أرضنا – – إننا سنملأ القبور بأجسادكم ونجعل هذا اليوم يوماً تذكره أعقابكم من بعدكم – – – – ودارت المعركة إلي أن تقهقر المماليك وقتل أيوب بك وفر مراد بك إلي الصعيد واستولي بونابرت علي إمبابة
- وسقطت إمبابة كما سقطت الإسكندرية
- لا فهناك فرق كبير فالإسكندرية كان يدافع عنها الشعب المصري بقيادة مصرية خالصة وكانت روح الجهاد والمقاومة في أوجها ولم تسقط هذه الروح بسقوط المدينة وتكبد الفرنسيون معاناة ومشقة حتي سقطت الإسكندرية ، أما معركة الأهرام وإمبابة فقد كانت بين الحملة وبين المماليك بقيادة مراد بك وليس محمد كريم وأترك لك التأمل عندما تعلم بعد ذلك أن مراد بك قد وقع اتفاقية دفاع مشترك مع الجنرال كليبر بعد رحيل نابليون
- فماذا كتب الجبرتي عن المواجهة التي تمت بين المماليك والحملة الفرنسية ؟

٥٤. وصف الجبرتي لاحتلال العاصمة :

- وصف الجبرتي القتال بين الفرنسيين والمماليك فقال (وفي يوم الأحد غرة شهر صفر "١صفر ١٢١٣هـ /١٥يوليو ١٧٩٨م" وردت الأخبار بأن في يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر محرم التقي العسكر المصري مع الفرنسيس فلم تكن إلا ساعة وانهزم مراد بيك ومن معه ولم يقع قتال صحيح وإنما هي مناوشة من طلائع العسكرين بحيث لم يقتل إلا القليل من الفريقين واحترقت مراكب مراد بك بما فيها من الجبخانة والآلات الحربية – – فلما عاين ذلك مراد بك داخله الرعب وولي منهزماً وترك الأثقال والمدافع وتبعته عساكره ورجعوا طالبين مصر ووصلت الأخبار بذلك إلي مصر فاشتد انزعاج الناس وركب ابراهيم بك إلي ساحل بولاق)[١٥٢]
- الجبرتي رحمه الله يقصد بكلمة مصر العاصمة ؟
- نعم فقد كان يتحدث عن أول مواجهة بين مراد بك والجيش الفرنسي في النيل بالقرب من شبراخيت وكانت عبارة عن تبادل لإطلاق القنابل بين المراكب وكاد أن ينهزم الأسطول الفرنسي " النهري" لشدة المقاومة من الأهالي المسلحين علي شاطئ النيل من الجانبين
- إذن فقد اشترك الشعب في هذه المعركة ؟

[١٥٢] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٧

- نعم فقد كانوا أكثر خطورة علي الفرنسيين من المماليك ، لولا دقة الإصابة للمدافع الفرنسية التي أصابت السفينة التي تحمل مستودع البارود فتم نسفها بشكل بشع أثار رعب المماليك وأدي إلي انسحابهم،
- ثم وقعت المعركة الثانية وهي التي تسمي معركة إمبابة أو الأهرام بعد ذلك ؟
- نعم وقد سميت كذلك كما ذكرنا لأن جيش مراد بك كان ممتد من إمبابة إلي الأهرام غرب النيل أما ابراهيم بك فكان مع جيشه وباقي أهل العاصمة في ساحل بولاق علي الشاطئ الشرقي للنيل يراقبون ما يحدث في الغرب وتمت هزيمة المماليك وانسحابهم بعد أن أحرقوا مراكبهم الممتلئة بالذخائر كي لا تقع في يد الفرنسيين وشعر من في شرق النيل بالرعب لسببين أولاً لهزيمة المماليك وثانياً لظنهم أن حريق المراكب عبارة عن حريق أشعله الفرنسيون في المساكن الموجودة غرب النيل
- فماذا كتب الجبرتي عن ذلك ؟
- إليك بعض ما وصفه الجبرتي عن هذا الحدث (ثم إن الطابور الذي تقدم لقتال مراد بك انقسم علي كيفية معلومة عندهم في الحرب وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطاً بالعسكر من خلفه وأمامه ودق طبوله وأرسل بنادقه المتتالية والمدافع واشتد هبوب الريح وانعقد الغبار وأظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الريح وصمت الأسماع من توالي الضرب بحيث خيل للناس أن الأرض تزلزلت والسماء عليها سقطت)[١٥٣]
- وفر الناس وفر المماليك
- والمشكلة الكبري أن كل من خرج من القاهرة وقع في مصيبة كبري وتم نهبه وسرقة كل ما يملك حتي ملابسه بواسطة العربان ، يضيف الجبرتي : (وكانت ليلة وصباحها في غاية الشناعة جري فيها ما لم يتفق مثله في مصر ولا سمعنا بما شابه بعضه في تواريخ المتقدمين – – ولما أصبح يوم الأحد المذكور "٢٢يوليو١٧٩٨م" والمقيمون لا يدرون ما يُفعل بهم ومتوقعون حلول الفرنسيس ووقوع المكروه ورجع الكثير من الفارين وهم في أسوأ حال من العري والفزع فتبين أن الإفرنج لم يعدو إلي البر الشرقي وأن الحريق كان في المراكب المتقدم ذكرها فاجتمع في الأزهر بعض العلماء والمشايخ)[١٥٤]
- فماذا كان قرار المشايخ وهم زعماء الشعب بعد توليهم المسئولية عقب انسحاب المماليك من المشهد؟

٥٥. رسالة مشايخ الأزهر لنابليون

- اجتمع علماء الأزهر وأرسلوا رسالة إلي الجيش الفرنسي فرحب بها نابليون وأرسل إليهم يطمئنهم ويتودد إليهم وبهذا تم عبور الجيش الفرنسي نهر النيل واستلم العاصمة وسكن نابليون في بيت محمد

---

[١٥٣] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ١١

[١٥٤] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ١٤

بك الألفي بالأزبكية وقد كان خالياً بالطبع وهرب مراد بك إلي الصعيد وأصبح بعد ذلك يسبب متاعب كثيرة للجيش الفرنسي في الجنوب ،

- فماذا فعل نابليون في القاهرة بعد احتلالها ؟
- أسس نابليون ديوان من المشايخ والأعيان في مصر كحكومة وطنية ولكن لم يكن لها سوي الرأي الاستشاري الذي لا يؤخذ به علي أي حال وكان الغرض الحقيقي منها أن تكون حلقة الاتصال مع الشعب المصري ، كما أسس نابليون المجمع العلمي الذي ضم علماء الحملة وكانت مهمته الأساسية هي الرد علي أسئلة نابليون وحل مشاكل الحملة بأساليب علمية ودراسة المواقف المختلفة بأسلوب دقيق مبني علي حقائق ومعلومات دقيقة وبدأ يجمع معلومات عن كل شئ في مصر وكان الجيش الفرنسي أثناء تقدمه في اتجاه العاصمة يواجه من الأهالي أنفسهم مقاومة أشرس من مقاومة المماليك ، ووصف الجبرتي كفاح الشعب المصري وبذله الأموال لتمويل الحرب ضد الفرنسيين فقال : (بحيث أن جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما في قوتهم وطاقتهم وسمحت أنفسهم بإنفاق أموالهم فلم يشح في ذلك الوقت أحد بشئ يملكه ولكن لم يسعفهم الدهر)[١٥٥]
- إذن فقد استقرت الأمور لنابليون فماذا حدث بعد ذلك ؟
- لقد حدثت كارثة للحملة الفرنسية في أبي قير
- تقصد تدمير الأسطول الفرنسي ؟

٥٦. معركة أبو قير البحرية

- نعم ، قال الرافعي : (علي مقربة من الإسكندرية وفي منتصف المسافة تقريباً بينها وبين رشيد في خليج أبو قير وقعت يوم أول أغسطس سنة ١٧٩٨م الواقعة البحرية الشهيرة بواقعة أبو قير بين الأسطول الإنجليزي بقيادة الأمير نلسن والأسطول الفرنسي بقيادة الأميرال برويس وانتهت بتحطيم الأسطول الفرنسي وتدمير معظم سفنه وأسر الباقي ومقتل أميراله وخيرة رجاله ونحو أربعة آلاف من بحارته فكانت هذه الواقعة كارثة عظمي أصابت البحرية الفرنسية وقضت علي آمال فرنسا في بسط سيادتها علي البحر المتوسط وكانت في الوقت نفسه أشد ضربة أصابت الحملة الفرنسية في مصر)[١٥٦]
- وأخيراً استطاع نلسن أن يلتقي بأسطول فرنسا وتدميره
- بل والقيام بحصار بحري لمصر بحيث يقطع صلة الحملة الفرنسية عن وطنها في فرنسا وقد أضعف ذلك بالطبع من الروح المعنوية للجنود لولا أن معهم قائد من نوع خاص يمكنه التغلب علي الصعوبات والمحن ولديه مواهب خاصة لا تتوفر في الكثير من القادة

---

[١٥٥] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٨

[١٥٦] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٢١٥

- فماذا فعل نابليون بعد هذه الكارثة التي حلت بالأسطول الفرنسي ؟
- لقد حاول التودد والتقرب من الشعب المصري وشغله عما حدث
- فماذا فعل ؟

٥٧. نابليون والاحتفالات الدينية في مصر

- من الثابت تاريخياً أن نابليون اهتم بإحياء الموالد والاحتفالات الدينية ولكن السبب في ذلك يختلف من وجهة نظر كل مؤرخ وطبقاً لرؤيته فمثلاً يقول الرافعي : (كان نابليون يسعى بكل الوسائل إلي كسب قلوب المصريين واستلال الضغينة منها وتخفيف حدة النفرة والكراهية التي كانت تبدو عليهم منذ احتلال الفرنسيين للبلاد ومن الوسائل التي ابتكرها إقامته الحفلات والأفراح لإدخال السرور إلي قلوبهم ولعله كان يدرك ميل المصريين الفطري إلي الابتهاج والانشراح -- - فأراد أن يصل إلي قلوبهم عن طريق التفريج وكان له غرض آخر من إقامة المهرجانات والحفلات ذلك حين أراد أن يحجب عن الشعب أثر النكبة التي حلت بأسطوله في واقعة أبو قير البحرية ويتظاهر بأنه لا يكترث لها ويتودد إلي زعماء الشعب ليكسب ثقتهم في تلك الأوقات العصيبة بعد أن أصبح محصوراً في القارة الأفريقية)[١٥٧]
- كان هذا رأي الرافعي فماذا كان رأي الجبرتي شاهد العيان ؟
- لقد كان له رأي آخر فعندما تكلم عن أحد الموالد قال : (فلما فتح أمر الموالد والجمعيات ورخص الفرنساوية ذلك للناس لما رأوا منه من الخروج عن الشرائع واجتماع النساء وإتباع الشهوات والتلاهي وفعل المحرمات أعيد هذا المولد مع جملة ما أعيد)[١٥٨]
- فقد عادت إذن هذه الموالد بقرار فرنسي
- نعم وكان هناك إصرار عجيب من نابليون علي إحياء هذه الموالد ويدعمها بالمال
- كيف ؟
- فمثلاً يقول الجبرتي : (سأل صاري عسكر عن المولد النبوي ولماذا لم يعملوه كعادتهم ؟ فاعتذر الشيخ البكري بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال فلم يقبل وقال " لابد من ذلك " وأعطي له ثلثمائة ريال فرانسة معاونة وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل واجتمع الفرنساوية يوم المولد ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم ودبادبهم - - وعدة آلات ومزامير مختلفة الأصوات مطربة وعملوا في الليل حراقة نفوط وسواريخ تصعد في الهواء)[١٥٩] كما وصف الجبرتي أيضاً ما كان يحدث في مولد الحسين رضي الله عنه فقال : (ويوم الأحد سادسه نادي القبطان الفرنساوي الساكن بالمشهد الحسيني علي

---

[١٥٧] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٢٥٣

[١٥٨] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ١٣٨

[١٥٩] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٢٤، ٢٥

أهل تلك الخطة وما جاورها بفتح الحوانيت والأسواق لأجل مولد الحسين وشدد في ذلك وأوعد من أغلق حانوته بتسميره وتغريمه عشرة ريال فرانسة)١٦٠ ويضيف الجبرتي متأسفا (فيصفون أكتافهم في أكتاف بعض – – ويلتوون وينتصبون ويرتفعون وينخفضون ويضربون الأرض بأرجلهم كل ذلك مع الحركة العنيفة والقوة الزائدة – – فيقع في المسجد دوي عظيم ، هذا مع ما ينضم إلي ذلك من جمع العوام وتحلقهم بالمسجد للحديث والهذيان وكثرة اللغط والحكايات والأضاحيك والتلفت إلي حسان الغلمان الذين يحضرون للتفرج والسعي خلفهم والافتنان بهم ورمي قشور اللعب والمكسرات والمأكولات في المسجد – – فيصير المسجد بما اجتمع فيه من هذه القاذورات والعفوش ملتحقاً بالأسواق الممتهنة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم)١٦١

- **وهل نجح نابليون في استمالة المصريين بعد كل هذا ؟**
- قال الرافعي : (أراد نابليون إذن أن يجتذب إليه قلوب المصريين ويتودد إليهم ويكسب ثقتهم لأنه كان علي يقين أنه ما لم يفز بثقتهم وميلهم فلا يستطيع أن ينشئ علي ضفاف النيل دولة عربية تخضع لحكمه مهما أوتي من قوة الجند والسلاح لكن نابليون قد خاب في تحقيق هذا الأمل وكان إخفاقه راجعاً إلي أن الأمة المصرية لم تذعن للحكم الفرنسي ولم تطمئن إليه بحال من الأحوال ولم تُخدع في حقيقة الأغراض التي كان يرمي إليها نابليون من الحملة وتلك فضيلة تدل علي مبلغ الحيوية الكامنة في الأمة والواقع أن نابليون مع تلك الوعود التي كان يمني بها المصريين في منشوراته وبياناته لم يكن يقصد في الحقيقة إلا فتح مصر وإخضاعها لتكون أداة لتحقيق أطماعه في الشرق والغرب – – ولقد دل تاريخ هذا الفاتح العظيم علي أنه لم يبر بوعده لأمة من الأمم التي فتح بلادها بل كان يهزأ بحرية الأمم ويتخذ من الشعوب سلعة يساوم بها تحقيقاً لأطماعه في الفتح والسلطان – – وقد واجهت الحملة مقاومة عنيدة اعترف بها مؤرخو الحملة من الفرنسيين أنفسهم وفي هذا الصدد يقول المسيو مارتان أحد مهندسي الحملة وأحد أعضاء لجنة العلوم والفنون الذين صحبوا نابليون إلي مصر : بالرغم من احتلال الفرنسيين لعاصمة مصر فإنهم لم يستقر لهم قرار في البلاد وكان مركزهم فيها مزعزعاً ومحفوفاً بالمتاعب ولم يترك الأهالي وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية إلا اتبعوها وقد ذهب كثير من الفرنسيين ضحية هذه المقاومة)١٦٢ ويمكن القول أن المصري آنذاك كان لا يمكنه الثقة بأي شخص لا يؤمن بالله مهما كانت القوانين البشرية التي يخضع لها ويعمل لها ألف حساب ومهما كانت المبادئ التي يؤمن بها فهو عندما يطبق القانون يطبقه علي بني جنسه فقط في أغلب الأحيان ولن يتورع عن فعل الأفعال القبيحة والبشعة بضحاياه أما الذي يخاف الله فإنه يتقي الله في جميع الظروف

---

[١٦٠] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٦٧

[١٦١] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٦٧

[١٦٢] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ١٥٢ ، ١٥٣

ومع جميع البشر ويطبق منهج الله وأوامره حتي علي ألد أعداءه لأن مراقبة المولي عز وجل للعبد دائمة ومؤكدة {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} (١٩) سورة غافر فلا يستطيع الهرب من رقابته عز وجل كما يتهرب غير المؤمن من رقابة البشر وقوانينهم كلما أتيحت له الفرصة

- هل يمكن أن تعطيني مثلاً علي مقاومة المصريين للحملة بعيداً عن الإسكندرية والقاهرة حتي ولو كان في تاريخ خارج سياق تسلسل الأحداث ؟
- بالتأكيد يمكن أن أقرأ لك موقف عجيب من مواقف المقاومة كمجرد نموذج بعيداً عن العاصمة
- ومن أي الكتب اخترت هذا النموذج ؟

٥٨. نموذج من نماذج المقاومة بعيداً عن العاصمة

- من كتاب (ودخلت الخيل الأزهر) وهو من أروع الكتب التي أرخت للحملة الفرنسية حيث ورد به ما يلي : (- - والذي حدث أنه لما سقط المماليك وأفاقت الجماهير علي انهيارهم حملت هي مسئولية الدفاع عن وطنها ووجودها ، وفي بني عدي وصل (داف) إليها في ١٨ أبريل ١٧٩٩ ألفي أهلها جميعاً يحملون السلاح ويتحضرون للوثبة والقتال ، فاشتبك الفريقان في معركة حامية دارت رحاها في طرقات بني عدي وبيوتها التي حصنها الأهالي وجعلوا منها شبه قلاع كان الرصاص ينهال منها علي الجنود فلقي الجيش الفرنسي ببني عدي من المقاومة ما لم يلق مثله في كثير من البلاد ، واستمر القتال إلي الليل ، وانتهت المعركة بغلبة المدافع والنيران الفرنسية علي مقاومة الأهالي ، ذلك أن الفرنسيين لما عجزوا عن الاستيلاء علي بني عدي لجأوا إلي وسيلة الحريق التي اتبعوها في ابنود وغيرها فأضرموا النار فيها ، فامتدت إلي بيوتها كافة وأصبحت البلدة كأتون من نار ، وبهذه الوسيلة تغلب الجيش الفرنسي علي مقاومة بني عدي واحتلها الجنود وأمعنوا في أهلها قتلاً ونهباً
- يبدو أن أسلوب الحملة لم يتغير في قمع أي قرية أو مدينة
- قال الجنرال برتييه رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية في مذكراته (أصبحت بني عدي أكواماً من الخرائب وتكدست جثث القتلي في شوارعها ، ولم تقع مجزرة أشد هولاً مما حل ببني عدي وقدر الجنرال دافو عدد القتلي من الأهالي بألفي قتيل ويقدرهم ديزيه في تقريره إلي نابليون بنحو ثلاثة آلاف) ، وهناك واقعة شهيرة ينتبه لها دائماً المؤرخون الغربيون وبعض المصريين ، ولو أن الاهتمام بها وقف عند حد الإعجاب بغلام فلاح مصري يسرق بنادق الجيش الفرنسي ويرفض الاعتراف علي محرضيه ويتحمل الضرب بصبر عجيب ففي (الفقاعي) –قرية تابعة لمركز ببا في مديرية بني سويف علي الضفة الغربية للنيل بالصعيد– تقدم أحد غلمان القرية وتغفل جنود الجنرال ديزيه كما تغفل جواسيسه بقيادة يعقوب واستولي علي بنادقهم ، فرآه جندي آخر وتعقبه وهو يحمل بندقية إلي أن أدركه وضربه بالسيف علي ذراعه ، وساقه جريحاً إلي الجنرال ديزيه للاقتصاص منه ، وهنا تسجل المصادر الفرنسية (وهي وحدها التي سجلت الواقعة) حواراً يبدو أنه أذهل قادة جيش الاحتلال من غلام لم

تتجاوز سنه الثانية عشرة ، عاري الجسد تقريباً ، حافي القدمين علي بعد مئات الأميال من الشاطئ الأوروبي جريحاً مضروباً بالسيف في ذراعه وساقه ، يمسك به جندي فرنسي ووسط معسكر كامل من المقاتلين المسلحين بأسلحة أوروبا الحديثة ، فعندما سأله الجنرال عما دعاه إلي إرتكاب هذا العمل ، أجاب الغلام رابط الجأش ناظراً إلي السماء : إن الله القادر علي كل شئ قد أمره بذلك ، فسأله الجنرال عمن حرضه علي فعلته ؟ فقال لم يحرضني أحد وإنما ألهمني الله أن أفعل ما فعلت ، ثم رفع رأسه ونظر إليه وقال في هدوء وثبات : دونك رأسي فاقطعوه ، فدهش الجنرال من شجاعته ، واكتفي بأن يجلده بالسوط ثلاثين جلدة – – فجُلد الغلام لا يتأوه ولا يتململ ، وقد قص الجنرال بليار حكايته في يومياته قائلاً : إن هذا الغلام إذا عُني بتربيته كان ذا شخصية نادرة المثال ، وروي المسيو فيفان دينون حكاية هذا الغلام في رحلته ، – –ونرجح أن الغلام كان يتبع تنظيماً ما إذ لا يُعقل أنه كان يسرق البنادق لحسابه الخاص ولا شك أن أهم ما كان يعنيه ونجح فيه هو عدم إفشاء سر هذا التنظيم[١٦٣]

- إن ما ذكرته يغني بالفعل عن الكثير من الأمثلة الخاصة بالمقاومة ، فكيف قامت ثورة القاهرة ضد الحملة الفرنسية والمعروفة تاريخياً بثورة القاهرة الأولي ؟

٥٩. ثورة القاهرة الأولي ضد الحملة الفرنسية

- يقول الرافعي : (إن سلوك نابليون مع المصريين خالف في كثير من المواطن ما وعدهم به في منشوراته وبياناته لقد كان ينعى علي المماليك ظلمهم فانظر ماذا فعل هو في إرهاق الأهالي بالضرائب والمغارم)١٦٤ لقد فرض نابليون علي المصريين ضرائب فوق طاقتهم (وقد تفنن الفرنسيون في ابتزاز الأموال ومصادرة الممتلكات بمختلف الوسائل)١٦٥ كما فرض ضريبة لم تكن معروفة من قبل في مصر وهي الضريبة العقارية (ومن مظالم الفرنسيين التي أحرجت الصدور أنهم أخرجوا كثيراً من أصحاب البيوت من بيوتهم بحجة حاجتهم إليها وهدموا كثيراً من المباني والآثار والمساجد بحجة تحصين القاهرة)١٦٦
- فماذا كان دور الديوان الذي أسسه نابليون من المشايخ والعلماء ؟
- حاول الديوان الذي أسسه نابليون من المشايخ إلغاء هذه الضرائب أو حتي تخفيفها ولكنه فشل (ومن المظالم التي أثارت نقمة الناس اعتقال الفرنسيين للسيد محمد كريم حاكم الإسكندرية الوطني والحكم عليه بالإعدام ، والواقع أن الفرنسيين كانوا يسرفون في قتل الناس ليدخلوا الرهبة في قلوب الأهالي

---

[١٦٣] نقلاً باختصار عن كتاب ودخلت الخيل الأزهر – محمد جلال كشك

[١٦٤] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٢٦٠

[١٦٥] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٢٦١

[١٦٦] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٢٦٥

ويحملوهم علي الخضوع والإذعان)١٦٧ ونتيجة لكل هذا وغيره قامت الثورة في القاهرة وكان الجامع الأزهر هو المكان الرئيس لها ومصدرها وتم قتل الجنرال ديبوي حاكم القاهرة والعديد من الجنود الفرنسيين وسيطر الثوار علي أبواب القاهرة الرئيسية مثل باب زويلة وباب الفتوح ويقول الرافعي (أسلفنا أن عدد من قتلهم الفرنسيون من سكان العاصمة في إخماد الثورة بلغ علي أرجح الروايات أربعة آلاف ولا جدال في أن قمع الثورة في مدينة اشتهر أهلها بالوداعة والسكينة ما كان يدعوا إلي إفناء هذا العدد الكبير من السكان – – علي أنك إذا تأملت في الفظائع التي ارتكبها الفرنسيون بعد تسليم المدينة وإخلادها إلي السكينة وجدتها أبعد ما تكون عن مقتضيات الحرب والقتال ولهي أجدر أن تعتبر من ضروب التنكيل والانتقام)١٦٨

- فماذا كتب الجبرتي عن هذا ؟
- إليك بعض ما كتبه الجبرتي عن هذه الأحداث : (وتتابع الرمي من القلعة والكيمان حتى تزعزعت الاركان وهدمت في مرورها حيطان الدور وسقطت في بعض القصور ونزلت في البيوت والوكائل وأصمت الآذان بصوتها الهائل ، فلما عظم هذا الخطب وزاد الحال والكرب ركب المشايخ الى كبير الفرنسيس ليرفع عنهم هذا النازل ويمنع عسكره من الرمي المتراسل ويكفهم كما تكف المسلمون عن القتال والحرب خدعة وسجال فلما ذهبوا اليه واجتمعوا عليه عاتبهم في التأخير وأتهمهم بالتقصير فاعتذروا اليه فقبل عذرهم وأمر برفع الرمي عنهم وقاموا من عنده وهم ينادون بالامان في المسالك وتسامع الناس بذلك فردت فيهم الحرارة وتسابقوا لبعضهم بالبشارة واطمأنت منهم القلوب وكان الوقت قبل الغروب ، :وأما أهل الحسينية والعطوف البرانية فانهم لم يزالوا مستمرين وعلى الرمي والقتال ملازمين ولكن خانهم المقصود وفرغ منهم البارود والافرنج اثخنوهم بالرمي المتتابع بالقنابر والمدافع الى ان مضى من الليل نحو ثلاث ساعات وفرغت من عندهم الادوات فعجزوا عن ذلك وانصرفوا وكف عنهم القوم وانحرفوا
- فماذا فعلوا مع الجامع الأزهر مركز المقاومة الأول ؟
- يقول الجبرتي : وبعد هجعة من الليل دخل الافرنج المدينة كالسيل ومروا في الازقة والشوارع لا يجدون لهم ممانع كأنهم الشياطين أو جند ابليس وهدموا ما وجدوه من المتاريس ودخل طائفة من باب البرقية ومشوا الى الغورية وكروا ورجعوا وترددوا وما هجعوا وعلموا باليقين ان لا دافع لهم ولا كمين وتراسلوا ارسالا ركبانا ورجالا ثم دخلوا الى الجامع الازهر وهم راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع والاواني والقصاع والودائع والمخبآت

---

١٦٧ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٢٦٧

١٦٨ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج١ صفحة ٢٨١

بالدواليب والخزانات ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الارض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها وأحدثوا فيه وتغوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه أخرجوه وأصبح يوم الثلاثاء فأصطف منهم حزب بباب الجامع فكل من حضر للصلاة يراهم فيكر راجعا ويسارع وتفرقت طوائفهم بتلك النواحي افواجا واتخذوا السعي والطواف بها منهاجا وأحاطوا بها احاطة السوار ونهبوا بعض الديار بحجة التفتيش على النهب وآلة السلاح والضرب وخرجت سكان تلك الجهة يهرعون وللنجاة بأنفسهم طالبون وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد ان كانت أشرف البقاع وكثير من الناس ذبحوهم وفي بحر النيل قذفوهم ومات في هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لا يحصى عددها الا الله

- إنا لله وإنا إليه راجعون فماذا حدث بعد ذلك ؟
- يقول الجبرتي : فركب المشايخ أجمع وذهبوا لبيت صارى عسكر وقابلوه وخاطبوه في العفو ولاطفوه والتمسوا منه أمانا كافيا وعفوا ينادون به باللغتين شافيا لتطمئن بذلك قلوب الرعية ويسكن روعهم من هذه الرزية فوعدهم وعدا مشويا بالتسويف وطالبهم بالتبيين والتعريف عمن تسبب من المتعممين في اثارة العوام وحرضهم على الخلاف والقيام فغالطوه عن تلك المقاصد فقال على لسان الترجمان نحن نعرفهم بالواحد فترجوا عنده في اخراج العسكر من الجامع الأزهر فأجابهم لذلك السؤال وأمر باخراجهم في الحال
- واضح أن نابليون كان يعرف أن هناك من يقود المقاومة من المشايخ
- بالطبع فقد كان هناك مشايخ يتحدثون معه وهناك من يقاومه في السر ، لذلك قال نحن نعرفهم بالواحد ثم أن نابليون قام بتوزيع منشور علي لسان المشايخ إلي الشعب المصري
- ماذا تقصد بكلمة علي لسان المشايخ ، ألم يكتبوه بالفعل أم أنه قد كتبه ونسبه إليهم
- أعتقد أن هناك من كان يتعاون معه في صياغته ولكن لا أعتقد أن جميع المشايخ وافقوا أو حتي علموا بكتابة هذا المنشور
- علي أي حال ماذا جاء في هذا المنشور ؟

٦٠. رسالة إلي الشعب علي لسان المشايخ

- قال الجبرتي : واستهل شهر جمادى الثانية بيوم السبت سنة ١٢١٣ فيه كتبوا عدة اوراق على لسان المشايخ[١٦٩] وارسلوها الى البلاد والصقوا منها نسخا بالاسواق والشوارع وصورتها : نصيحة من كافة علماء الإسلام بمصر المحروسة ، نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ونبرأ إلي الله من الساعين في الأرض بالفساد ، نعرف أهل مصر المحروسة من طرف الجعيدية وأشرار الناس حركوا

[١٦٩] قد يقصد الجبرتي بتعبير علي لسان المشايخ أنها في الأساس من قيادة الحملة الفرنسية وزعموا أنها من علماء المسلمين

الشرور بين الرعية وبين العساكر الفرنساوية بعدما كانوا أصحاباً وأحباباً بالسوية ، وترتب علي ذلك قتل جملة من المسلمين ونهبت بعض البيوت ، ولكن حصلت ألطاف الله الخفية وسكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند أمير الجيوش بونابرته ، وارتفعت هذه البلية لأنه رجل كامل العقل عنده رحمة وشفقة علي المسلمين ومحبة إلي الفقراء والمساكين ولولاه لكانت العساكر – الفرنساوية – أحرقت جميع المدينة ونهبت جميع الأموال وقتلوا كامل أهل مصر ، فعليكم أن لا تحركوا الفتن ولا تطيعوا أمر المفسدين ولا تسمعوا كلام المنافقين ولا تتبعوا الأشرار ولا تكونوا من الخاسرين سفهاء العقول الذين لا يقرأون العواقب لأجل أن تحفظوا أوطانكم وتطمئنوا علي عيالكم وأديانكم ، فإن الله سبحانه وتعالي يؤتي ملكه من يشاء ويحكم ما يريد ، ونخبركم أن كل من تسبب في تحريك هذه الفتنة قُتِلوا عن آخرهم وأراح الله منهم العباد والبلاد ، ونصيحتنا لكم أن لا تلقوا بأيديكم إلي التهلكة واشتغلوا بأسباب معيشتكم وأمور دينكم وادفعوا الخراج الذي عليكم والدين النصيحة والسلام

- هل من الممكن أن أراجع معك بعض ما يلفت النظر في هذا المنشور الذي جاء علي لسان المشايخ ؟
- الله وحده يعلم إذا كانوا قد كتبوه فعلاً أم كتبه أحد علماء الحملة المستشرقين أم صاغه أحد المشايخ الموالين للحملة
- علي أي حال أريد أن أسأل عن بعض الموضوعات التي جاءت في هذا المنشور أياً كان من كتبه ،
- لا مانع علي الإطلاق
- قد ورد بالمنشور الاستعاذة بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، فهل هذه كانت فتنة ؟ أو بعبارة أخري هل مقاومة الحملة الفرنسية محل اجتهاد وبحث والذين ماتوا فيها ماتوا علي طريق الحق دون ان يشاهدوا أي نتائج لما فعلوه ؟
- إن مقاومة المحتل مشروعة بالفعل وليس في الإسلام فقط بل أعتقد أنها مشروعه دولياً وإنسانياً ، وفي العالم كله ، فلا يلوم أحد شعب يقاوم المحتلين والمغتصبين لبلاده ، ولقد فعلها الفرنسيون أنفسهم خلال احتلال ألمانيا لبلادهم في الحرب العالمية الثانية
- فعلي من تجب المقاومة وكيف تتم ؟
- هذا هو محل الاجتهاد والله أعلم وليس مبدأ المقاومة في حد ذاته ، فكل شخص يقاوم بما يستطيع دون أن يعرض نفسه لما هو فوق طاقته وطبقاً لمدي ضعف أو قوة إيمانه ، فتبدأ من الإنكار بالقلب وعدم التهليل للباطل ونصره ثم الدعاء علي المحتلين في السر ثم في العلن ثم الكلمة ونشر الوعي وتتدرج حتي تصل للقتال
- ومن الذي يحدد مدي استطاعة كل فرد في المقاومة ؟
- إن الله وحده هو الذي يعلم مدي استطاعة كل إنسان في فعل أو عدم فعل أي شئ في الحياة ، فأنا مثلاً قد أقول لك أنني لا أستطيع أن أفعل شئ معين وقد أكون أستطيع فلا يعلم سرائر الأنفس

وإمكانياتها إلا الله ، أما أنت فعليك أن تصدق ما أقوله لك وتأخذ بظاهر أقوالي وتترك سريرتي إلي الله سبحانه وتعالي والله أعلم

- إذن إنها لم تكن فتنة علي الإطلاق ولم يلتبس فيها الحق بالباطل فكان الحق واضحاً وضوح الشمس ، ولكن ردود الأفعال قد اختلفت طبقاً لاجتهاد كل فرد علي حدة ، ولكن ما رأيك في وصف نابليون في هذا المنشور بأنه رجل كامل العقل عنده رحمة وشفقة علي المسلمين ومحبة إلي الفقراء والمساكين ولولاه لكانت العساكر – الفرنساوية – أحرقت جميع المدينة ونهبت جميع الأموال وقتلوا كامل أهل مصر ؟
- إنه كلام مبالغ فيه جداً وإن كان من كتبه أحد علماء المسلمين فقد يكون قد تعرض لما لا يمكن أن يطيقه من تهديدات له ولعائلته أو تهديدات عامة تمس الشعب ، وإما أن يكون منافقاً خالصاً يريد أن يحصل علي منافع دنيوية والله أعلم
- لماذا تفترض حسن النية أولاً قبل سوء النية
- يجب أن يحسن المسلم الظن بالمسلمين ويفترض حسن النية دائماً ويلتمس الأعذار لهم فالله وحده يعلم ما هم فيه من ابتلاء فمن اجتهد منهم وأخطأ أو أصاب فأجره علي الله
- فهل تعرف نماذج لمقاومة الفرنسيين للألمان أثناء الاحتلال الألماني لفرنسا ؟ رغم أن هذا خارج موضوعنا وسياق الأحداث التي تسردها
- لقد شاهدت العديد من الأفلام الوثائقية عن هذا الموضوع فضلاً عن الأفلام العادية التي توثق أحداث الحرب العالمية الثانية ولكنني للأسف لم أقرأ سوي موقف واحد فقط صادفني أثناء مطالعتي لكتاب بعيد تماماً عن هذا الموضوع ، وهو موقف من خيال الكاتب ولكنه يدل علي الكثير من المعاني وهو كتاب للأستاذ العقاد رحمه الله وكتب هذا الموقف في سياق سرده لبعض المواقف الطريفة فقد كان الكتاب يتحدث عن النوادر والطرائف في الأساس
- فماذا كان اسم هذا الكتاب وما الموقف الذي ورد فيه ؟
- الكتاب اسمه جحا الضاحك المضحك وعنوان القصة أربعة في مقصورة قطار : فتاة حسناء وامرأة عجوز ، وكهل فرنسي وضابط ألماني ، أثناء احتلال الألمان باريس ، ودخل القطار نفقاً فسُمِع في المقصورة صوت قبلة وصفعة ، فقالت المرأة العجوز لنفسها : ما أطهرها من فتاة ، وقالت الفتاة الحسناء لنفسها : عجباً له يُقبّل العجوز ولا يقبّلني ؟ ، وقال الضابط الألماني : يا له من فرنسي خبيث ، غنم القبلة وغنمت أنا الصفعة ، وقال الفرنسي : لقد نجوت بها ، قبّلت ظاهر كفي ، وصفعت الألماني ، ولم يتهمني أحد
- إنها قصة طريفة بالفعل وإن كان صفع الألماني علي وجهه هو غاية ما يتمناه الفرنسي في ذلك الوقت حتي في قصة خيالية ، وعلي أي حال فهي قصة جعلتنا نسترخي قليلاً

- المقصود هنا أن جميع القصص والروايات والأفلام التي وثقت للاحتلال الألماني لفرنسا كانت تؤكد أن الشعب الفرنسي لم يكف عن المقاومة ولم يتهمه أحد أن المقاومة عمل غير مشروع

٦١. محاولة إثارة أول فتنة طائفية في مصر

- فماذا كان موقف المسيحيين في مصر من كل هذه الأحداث ؟
- استطاع الفرنسيون أن يخلقوا العداوة بين المسلمين والمسيحيين بالرغم من أن المسيحيين واليهود كانوا يعيشون في أمان مع المسلمين في مصر منذ قرون طويلة وإليك بعض مقتطفات مما قرأت عن هذا الموضوع (نجح الفرنسيون في استثارة العناصر القبطية المسيحية علي معاونة الحملة بمختلف الوسائل)[١٧٠] ، (أسرفت بعض الطوائف غير الإسلامية في مصر في تأييد الفرنسيين إسرافاً وصل إلي حد تكوين فرقة عسكرية من أبناء هذه الطوائف وقام الضباط والجنود الفرنسيون بتدريبهم علي النظم العسكرية الأوروبية وتزويدهم بالأسلحة الحديثة ثم ألحقت هذه الفرق بجيش الاحتلال الفرنسي لسد النقص في عدده – – وقد نظر الشعب المصري إلي هذه الفرق علي أنها أدوات لدعم الاحتلال الفرنسي لمصر وتزعم هذه الفرق المعلم يعقوب حنا إذ كون فرقاً عسكرية من الأقباط وكانوا يرتدون زياً مشابهاً لزى الجنود الفرنسيين)[١٧١]
- المعلم يعقوب ، أعتقد أنه أشهر خائن في تاريخ مصر ، ولكن بالطبع لا يعبر موقفه وموقف وفرقته عن موقف باقي المسيحيين في ذلك الوقت
- وكان سبب لجوء الفرنسيون لهذا الأسلوب هو محاولة تمزيق النسيج المصري المترابط
- فماذا فعلوا أيضاً ؟
- كما سعي رجال الحملة إلي زعزعة الدين في نفوس الشيوخ والعلماء المسلمين بعرض نماذج من الحضارة الغربية عليهم ،
- وهل قاموا بإلغاء تطبيق الشريعة الإسلامية في مصر ؟
- لأول مرة في تاريخ مصر الإسلامية يتم حكم المصريين بقانون وضعي من صنع البشر (فقد وضع نابليون في فترة إقامته في مصر قانوناً جديداً يحكم به المسلمون غير شريعة الله قانوناً مستمداً من التشريع الفرنسي وحصر تشريع الله في أمور الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث وكانت تلك هي المرة الأولي في تاريخ المسلمين التي يحكمهم فيها قانون غير قانون الله يضعه وينفذه قوم غير المسلمين – – وكان هذا بدء الهزيمة الحقيقية ، هزيمة العقيدة وبدء انحسارها في عالم الواقع الذي أحدثته الحملة الفرنسية في نفوس المصريين ، انبهاراً بقوة السلاح أولاً ، وانبهاراً بالمطبعة التي جاء بها نابليون إلي مصر وانبهاراً بالتنظيمات التي أحدثها وفي كلمة واحدة انبهاراً بكل ما جاء من الغرب

---

[١٧٠] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٣٩٠

[١٧١] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٣٩١

وكل ما ليس بإسلام وكانت هذه هي الهزيمة الحقيقية الكاملة التي مهدت لكل ما أحدثه الاستعمار – – بعد ذلك من تدمير مخرب في حياة المسلمين وعقيدتهم وأفكارهم ومشاعرهم وسلوكهم في واقع الحياة لذلك لم يكن طرد الفرنسيين من مصر أو انسحابهم حدثاً حقيقياً في عالم الواقع بعد هذه الهزيمة الداخلية التي خلفتها الحملة الفرنسية في نفوس المسلمين)١٧٢

- أعتقد أن هذا هو الذي يمثل الفتنة الحقيقية ، فماذا كان موقف الخليفة العثماني ؟

٦٢. الخليفة العثماني يدعو للجهاد

- (كان الهجوم الفرنسي علي مصر يعتبر أول هجوم صليبي علي ولاية عربية من ولايات الدولة العثمانية في التاريخ الحديث ، وعلي الفور أعلن السلطان سليم الثالث الجهاد علي الفرنسيين الصليبيين " ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨م" واستجاب لدعوته المسلمون في الحجاز والشام وشمال أفريقيا)١٧٣ ولم يكن موقف الأمة الإسلامية علي ما يبدو في ذلك الوقت مثل ما كان من قبل فدعوة الجهاد كان يقابلها استجابة واسعة النطاق كثيرة العدد والعدة كأيام المسلمين الأوائل فقد كانت الاستجابة تكفي لتكوين جيوش جرارة من المجاهدين كما كان يحدث وأقرب مثال علي ذلك عندما اجتمع المجاهدين مثلاً حول صلاح الدين أو حول السلطان الأشرف خليل بن قلاوون وغيرهم من السلاطين أما عندما وجه الدعوة للجهاد الخليفة العثماني السلطان سليم الثالث فلم تكن الاستجابة برغم حدوثها ترقي لنفس مستوي الاستجابة التي كانت تحدث من قبل ، بل وفقدت التنسيق فيما بينها عند احتدام القتال والأغرب من ذلك أن الجيوش العثمانية نفسها كانت تفقد القيادة العسكرية الناجحة فنري الجيوش التي تنقل براً تأتي في توقيت مختلف عن الجيوش التي تنقل بحراً وكل قوة منهم تواجه الفرنسيين وحدها دون حشد لجميع القوي ،

- فكيف حدثت حركة الجهاد ضد الحملة الفرنسية ؟

- خرج من الحجاز حوالي ستمائة مجاهد بقيادة شخص يُدعي محمد الكيلاني وركبوا البحر إلي القصير وانضموا إلي جيش مراد بك وتسببوا في خسائر للجيش الفرنسي في صعيد مصر كما خرج من ليبيا مجموعة من المجاهدين بقيادة المهدي الدرناوي (وضم إليه رجال القبائل من أولاد علي والهنادي وغيرهم ، وانحاز إليه سكان القرى التي مر بها فسار بهذه الجموع المسلحة حتي وصل إلي دمنهور)١٧٤ وقد انتصر انتصار كبير علي الحامية الفرنسية بدمنهور ثم وصلت إمدادات من الجيش الفرنسي للدفاع عن دمنهور ومواجهة المجاهدين ووقعت معركة شرسة وعنيفة وصفها أحد مؤرخي الحملة الفرنسية نفسها فكتب (إن عدد رجال المهدي كانوا خمسة عشر ألف مقاتل من المشاة وأربعة

---

[١٧٢] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٤٠١

[١٧٣] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٣٩٢

[١٧٤] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٥٢

آلاف من الفرسان ، وإن القتال استمر سبع ساعات كان فيها أشبه بمجزرة فظيعة وهذه الواقعة من أشد الوقائع التي واجهها الفرنسيون في القطر المصري ،أظهر فيها أتباع المهدي من الفلاحين والعرب شجاعة كبيرة واستخفافاً بالموت لا نظير له)١٧٥

- فماذا كان رد فعل الحملة الفرنسية ؟
- واجه الفرنسيون هذه الأزمة باهتمام بالغ وحشد غير عادي للقوات والإمدادات حتي استطاعوا اجتيازها بصعوبة شديدة ، ومن هنا يتضح أن الجيوش العثمانية والمجاهدين لم تكن تجمعهم قيادة واحدة أو حتي تنسيق أو تزامن في القتال
- ومتي قرر نابليون الزحف بالجيش في اتجاه فلسطين ؟
- (كان نابليون يعمل جهده لتجنب الحرب مع تركيا وسعي بكل الوسائل في مودتها والتفاهم وإياها)١٧٦ ولكنه فشل في إقناع الدولة العثمانية بالغرض من حملته علي مصر وعندما شعر بخطر الجيش العثماني وزحفه في اتجاه مصر براً وبحراً قرر أن يبادر هو باحتلال سوريا وملاقاة أي تهديدات عثمانية قبل وصولها وبالفعل قام بحملة كبيرة علي سوريا وفلسطين واستمر يقاتل ويحقق انتصارات ويكسب أراضي جديدة وحدثت مذبحة يافا ثم الفشل في اقتحام عكا
- وما تفاصيل ما حدث في يافا ؟

٦٣. نابليون ومذبحة يافا ١٧٩٩م

- ورد عن هذا الموضوع في كتاب ودخلت الخيل الأزهر – للأستاذ محمد جلال كشك ما ملخصه : وحالما استولي هؤلاء الجنود (البواسل) علي المدينة ودخلوها ، أعملوا السيف في نحو ٢٠٠٠ جندي من الحامية كانوا يحاولون التسليم ، وراح الفرنسيون يقتلون أعداءهم كالمجانين طوال ذلك المساء كله والليل كله وفي صباح الغد ، فالرجال والنساء والأطفال والمسيحيون والمسلمون ، وكل من له وجه انسان سقط صريع جنونهم ، كما قال (مالو) ، الذي ما زالت الصفحات التي كتبها في وصف هذا المشهد البشع تتجاوب بشعور الفزع والخزي : – – وفي يافا كان النهب والسلب شق البطون وهتك أعراض البنات وهن مازلن في أحضان أمهاتهن المائتات – – كل هذا وشر من هذا وقع في يافا في ٧ ، ٨ مارس ١٧٩٩م أما نابليون فكان تعليقه الهادئ (بلغت سورة الجند قمتها فأعملوا السيف في كل إنسان وقاست المدينة بعد نهبها جميع الأهوال التي تقاسيها مدينة مقتحمة)
- وهل هذا طبيعي أن يحدث عند اقتحام أي مدينة من وجهة نظر نابليون ؟
- يقول الكاتب : – – ونابليون لم يخطئ في اعتبار ما جري في يافا قانوناً عاماً بالنسبة لسلوك الحضارة الغربية ، ولكننا –وبكل تواضع– نرفض اعتبار ذلك السلوك البربري قانوناً عاماً للسلوك

---

[١٧٥] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٥٣ ، ٥٤

[١٧٦] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٢٠

البشري ، وبالذات ، فإن حضارتنا أثبتت العكس – – حضارتنا عندما دخلت ذات المدن لم ترتكب هذه الأعمال ، وكان الفارق مجرد ١٢ قرناً إلي الوراء ، وإذا كان ذبح أهل يافا بالسيف لا يستوقف المؤرخين الغربيين كثيراً ، لانشغالهم بما يسمونه (مذبحة يافا) فإن هذه المذبحة بدأت باثنين من ياوران بونابرت هما (بوهارنييه) و (كروازييه) أرسلهما نابليون إلي المدينة ليريا ما الذي يمكن عمله لإعادة النظام إلي ربوعها ، وناداهما الجنود والترك من نوافذ القلعة بعد أن تبينوهما من حزاميهما العسكريين ، وصاح الترك بأنهما علي استعداد للتسليم إذا وُعدوا بألا يُعاملوا كما عومل بقية أهل يافا ، وأعطي الشابان علي مسئوليتهما تأكيدات شفوية بأن رجال الحامية لن يُقتلوا ، وعلي هذا الوعد خرج الجنود وسلموا سلاحهم ، فلما رأي بونابرته ياوريه يعودان مع بضعة آلاف من الأسري اصفر وجهه وقال ساخطاً : (ماذا يريدانني أن أفعل بهم ؟ ما هذا الذي صنعاه) ، وبقية القصة معروفة وشائعة إذ أمر أمر نابليون بذبح الثلاثة آلاف – – الأسري العزّل الذين مُنحوا أماناً باسم الشرف الفرنسي ، ولكن في حضارة لا تؤمن بأن أفرادها سواسية كأسنان المشط يسعي بذمتهم أدناهم ، نُفِذ الإعدام بدقة تامة ، ومن المسلم به أن ٢٥٠٠ شخص قُتلوا لا لضرورة قاهرة بل تحقيقاً لراحة وإحداثاً لتأثير متعمد ، ويترك لنا الميجور (ديترون) كشف حساب كذلك الذي نجده في أوراق ربة بيت مدبرة ، أو في دفتر توفير طالب نجيب ، ففي حساب الميجور الفرنسي نجد هذه الأرقام : في ٧ مارس مات أثناء الهجوم أكثر من ٢٠٠٠ تركي ، في ٨ مارس رمي بالرصاص ٨٠٠ تركي ، وفي ٩ مارس رمي بالرصاص ٦٠٠ تركي ، وفي ١٠ مارس رمي بالرصاص ١٠٤١ تركياً ، الجملة ٤٤٤١ تركياً

- إنها مجرد أرقام بالنسبة له
- وكتب المواطن (بيروس) إلي أمه : (إن قيام الجنود الحانقين بعد اقتحام مدينة والاستيلاء عليها عنوة بأعمال السلب والنهب والحرق والتقتيل كيفما اتفق أمر تقتضيه قوانين الحرب ، والإنسانية تسدل قناعاً علي هذه الفظائع ، ولكن صدور الأمر بعد انقضاء يومين أو ثلاثة علي الهجوم وبعد أن تهدأ سورة الغضب ، في وحشية هادئة بقتل ٣٠٠٠ رجل استسلموا لنا بسلامة نية تلك جريمة بشعة ستشجبها الأجيال القادمة ما في ذلك ريب – – أن نحو ٣٠٠٠ رجل ألقوا سلاحهم فسيقوا علي الفور إلي معسكرنا – – – وصدرت التعليمات المشددة للجنود بألا يسرفوا في الذخيرة فبلغت بهم الوحشية أن أعملوا فيهم الطعن بالسنكي وقد وجدنا بين الضحايا أطفالاً كثيرين تشبثوا –وهم يموتون– بآبائهم وسيُعلّم هذا المثال أعداءنا أنهم لا يستطيعون الركون إلي صدق نية الفرنسيين) ، وفي يوم ٨ مارس وهو اليوم الثاني من أيام المذبحة أرسل الله الطاعون علي الجيش الفرنسي وصبه علي رءوسهم ، ويتساءل مؤرخ سيرة نابليون عن نوعية هذا الرجل الذي أمر بالقتل في هدوء بالسناكي وقام في اليوم التالي بنفس الهدوء بزيارة مستشفي الجنود الفرنسيين المصابين بالطاعون ، أما نحن فلا نجد أي حيرة – – إن ممثلي الحضارة الغربية لم يحسوا أبداً بأن الكائن الملون مكتمل الإنسانية ، ومن ثم

فذبحه لم يشكل أبداً جريمة إنسانية ، ولا نفي عن الذابحين رقة مشاعرهم ولا شكك في حسن سلوكهم البشري ، بل إننا نجد صورة مثالية لهذا التفكير الذي يدين قتل الهمج للبشر ويفخر بإبادة المتمدينين للهمج الذين هم نحن ، أبو عبيدة قائد الجيش العربي في الشام لم يقتل أسيراً واحداً ولا أعمل السيف في المدنيين

- ربما يفسر ذلك صمود حامية عكا وأهلها بعد ذلك أمام الجيش الفرنسي وفشله في اقتحامها رغم وعوده لهم بالأمان ، ولكن أكثر ما لفت نظري فيما سبق عندما قال : (الكائن الملون مكتمل الإنسانية) ، فكما لو كان يقول : لا تنخدع في مظهره فهو كائن يشبه الإنسان ولكنه ليس كذلك علي الإطلاق ومن ثم قتله ليس جريمة إنسانية
- هذا صحيح ، وقد استمر نابليون في تقدمه إلي أن توقف أمام عكا ووواليها في ذلك الوقت أحمد باشا الجزار ، حيث قام نابليون بفرض حصار علي عكا ولكنه فشل في اقتحامها كما نعلم جميعاً وبدون الخوض في التفاصيل ارتد نابليون إلي مصر بعد أن فقد خيرة رجاله تحت أسوار عكا
- فماذا كانت خسائر الحملة ؟
- (بلغ عدد القتلى الفرنسيين ٢٢٠٠ قتيل منهم ١٢٠٠ قُتلوا في المعارك وخاصة في حصار عكا و ١٠٠٠ ماتوا من الأمراض وبلغ عدد الجرحى ٢٥٠٠ جريح ومريض)١٧٧ وكعادته كقائد ناجح لم يهتز نابليون لهذه الكارثة علي الأقل أمام جنوده وبرر جميع المواقف لصالحه وأرسل رسالة للشعب المصري يوضح فيها أسباب عودته إلي مصر ، وقد قام نابليون بتسميم عدد من جنوده المرضي حتي لا يشكلون عبئاً علي الحملة وحتي لا يقعوا في الأسر
- وبالطبع أثار ذلك الكثير من الجدل بين الفرنسيين
- بالتأكيد وإليك بعض ما جاء عن هذا الموضوع بنفس الكتاب حيث كتب المؤلف ما يلي : بل لعل هذه التفرقة بين مشاعر الإنسان شمال البحر الأبيض ، وآلام الإنسان جنوبه ، هذه التفرقة التي تميز الحضارة الغربية ، تحمل الجواب علي سؤال هيرولد ، الذي يبدو في تساؤله أكثر سذاجة من سذاجة شيوخ الأزهر المزعومة ، ، فهو عندما يناقش واقعة أمر نابليون بتسميم حوالي خمسين جندياً فرنسياً كانوا مصابين بالطاعون وميئوساً من شفائهم وذلك قبيل إخلاء يافا ، ولعجز الجيش المنسحب أو عدم استعداده لحملهم وهم يحملون هذا المرض المرعب وتجنباً لوقوعهم في يد ((الهمج)) ، ، يتساءل هيرولد دهشاً عن أسباب اختلاف المؤرخين حول قرار الإعدام هذا ، واستنكار أنصار نابليون إقدام البطل علي اتخاذ مثل هذا القرار ، ، يقول هيرولد : (من الصعب أن نفهم لماذا أثارت هذه المسألة كل هذا الجدل المشبوب ، فحتي لو كان بونابرت قد أمر بقتل بضع عشرات من مرضي الطاعون الميئوس من شفائهم رحمة بهم ، فلا ريب في أن عملاً كهذا يمكن تبريره أكثر من ذبح آلاف من أسري الحرب

---

[١٧٧] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٣٣

وهو ما أمر به في يافا قبل ذلك بعشرة أسابيع)، ، ، ولا مجال للدهشة فالجدل مفهوم جداً والاستنكار طبيعي من جانب المعلقين الغربيين ، فقرار نابليون المستنكر موجه ضد ((الإنسان)) الغربي ، ولذلك يتعرض لنقد شديد لتحديد مدي انطباقه علي المفاهيم الإنسانية ، أما القرار الآخر الصادر بذبح ٣٠٠٠ مسلم فهو يتناول ((الهمج)) ، ((الكائنات التي خُلِقت علي هيئة إنسان لتسهيل مهمة الإنسان الغربي)) ، الإنسان الحقيقي المكلف باستغلال هذه الكائنات وحسن الانتفاع بها

- في الحقيقة لا أجد بالفعل تعبير أفضل مما قاله هذا المؤلف عن الحضارة الغربية ، ولكن لماذا تم استخدام السناكي والسيوف في قتل معظم الأسري ؟
- لتوفير الذخيرة
- نعم فسوف يحتاجونها بالطبع عند عودتهم إلي مصر لقتل المزيد من الشعب المصري فهل لديك نص الرسالة التي أرسلها نابليون إلي مصر من أمام عكا ؟

٦٤. رسالة نابليون من أمام عكا

- لقد وردت رسالة نابليون إلي الشعب المصري بعد فشله في اقتحام عكا سنة ١٢١٤ هجرياً يعلمهم فيها بقرار عودته من أمام عكا إلي مصر في كتاب عجائب الآثار للجبرتي حيث كتب ما يلي : ثم دخلت سنة أربع عشر ومائتين وألف ، استهل شهر المحرم بيوم الأربعاء فيه حضر جماعة من الفرنسيس إلي العادلية فضربوا خمسة مدافع لقدومهم ، فلما كان في ثاني يوم عملوا الديوان وأبرزوا مكتوباً مترجماً ونسخته : صورة جواب من العرضي١٧٨ قدام عكا ، وفي سابع عشرين فريبال الموافق لحادي عشر شهر الحجة ١٢١٣ (١٥مايو١٧٩٩) من بونابرته ساري عسكر أمير الجيوش الفرنساوية إلي محفل ديوان مصر ، نخبركم عن سفره من بر الشام إلي مصر ، فإني بغاية العجلة بحضوري لطرفكم نسافر بعد ثلاثة أيام تمضي من تاريخه ونصل عندكم بعد خمسة عشر يوماً وجائب معي جملة محابيس بكثرة وبيارق ومحقت سراية الجزار (أحمد باشا الجزار والي عكا في ذلك الوقت) وسور عكا وبالقنبر هدمت البلد ما أبقيت فيها حجراً علي حجر وجميع سكانها انهزموا من البلد إلي طريق البحر والجزار مجروح ودخل بجماعته داخل برج من ناحية البحر وجرحه يبلغ لخطر الموت ، ومن جملة ثلاثين مركباً موسوقة عساكر الذين حضروا يساعدون الجزار ثلاثة غرقت من كثرة مدافع مراكبنا وأخذنا منها أربعة موقرة مدافع والذي أخذ هذه الأربعة فرقاطة من بتوعنا والباقي تلف وتبهدل والغالب منهم عدم وإني بغاية الشوق إلي مشاهدتكم ، لأني بشوف أنكم عملتم غاية جهدكم من كل قلبكم لكن جملة فلاتية دائرون بالفتنة لأجل ما يحركون الشر في وقت دخولي ، كل هذا يزول مثل ما يزول الغيم عند شروق الشمس ، ومنتوره مات من تشويش هذا الرجل صعب علينا جداً والسلام ،

---

[١٧٨] المعسكر

منتوره هذا ترجمان ساري عسكر وكان لبيباً متبحراً ويعرف باللغة التركية والعربية والرومية والطلياني والفرنساوي ، ولما عجز الفرنساوية عن أخذ عكا وعزموا علي الرجوع إلي مصر أرسل بونابرته مكاتبة إلي الفرنساوية المقيمين بمصر يقول فيها إن الأمر الموجب للانتقال عن محاصرة عكا خمسة عشر سبباً :

الأول الإقامة تجاه البلدة وعدم الحرب ستة أيام إلي أن جاءت الانكليز وحصنوا عكا باصطلاح الافرنج

الثاني الستة مراكب التي توجهت من الاسكندرية فيها المدافع الكبار أخذها الانكليز قدام يافا

الثالث الطاعون الذي وقع في العسكر ويموت كل يوم خمسون وستون عسكرياً

الرابع عدم الميرة لخراب البلاد قريب عكا

الخامس وقعة مراد بك مع الفرنساوية في الصعيد مات فيها مقدار ثلثمائة فرنساوي

السادس بلغنا توجه أهل الحجاز صحبة الجيلاني لناحية الصعيد

السابع المغربي محمد الذي صار له جيش كبير وادعي أنه من سلاطين المغرب

الثامن ورود الانكليز تجاه الاسكندرية ودمياط

التاسع ورود عمارة الموسقو قدام رودس

العاشر ورود خبر نقض الصلح بين الفرنساوية والنيمساء

الحادي عشر ورود جواب مكتوب منا لتيبو أحد ملوك الهند كنا أرسلناه قبل توجهنا لعكا

الثاني عشر موت كفرللي الذي عملت المتاريس بمقتضي رأيه وإذا تولي أمرها غيره يلزم نقضها ويطول الأمر وكفرللي هذا هو المعروف بأبي خشبة المهندس

الثالث عشر سماع أن رجلاً يقال له مصطفي باشا أخذه الانكليز من اسلامبول ومرادهم أن يرموه علي بر مصر

الرابع عشر أن الجزار أنزل ثقله بمراكب الانكليز وعزم علي أنه عندما تملك البلد ينزل في مراكبهم ويهرب معهم

الخامس عشر لزوم ومحاصرة عكا ثلاثة شهور أو أربعة وهو مضر لكل ما ذكرناه من الأسباب انتهي

وفي يوم الثلاثاء سابعه حضر جماعة أيضاً من العسكر بأثقالهم وحضرت مكاتبة من كبير الفرنساوية أنه وصل إلي الصالحية وأرسل دوجا الوكيل ونبه علي الناس بالخروج لملاقاته بموجب ورقه حضرت من عنده يأمر بذلك

- واضح أن الجبرتي قد نقل بأمانة كل ما استطاع أن يصل إليه من محتويات الرسالة ، ولكن يبدو أن نابليون كان متأثراً بما حدث أمام عكا ، فماذا حدث بعد ذلك ؟

٦٥. معركة أبو قير البرية ورحيل نابليون

- وصل جيش عثماني بحراً إلي أبي قير وقام باحتلال قلعتها يوم ١٧ يوليو سنة ١٧٩٩ م مما اضطر نابليون إلي التوجه إلي الإسكندرية وهاجم الجيش العثماني بشراسة و (كانت هزيمة العثمانيين في هذه الموقعة أشبه بكارثة فقد فقدوا من القتلى والغرقى والجرحى نحو ثمانية آلاف وبلغ عدد الأسري نحو ثلاثة آلاف وغنم الفرنسيون مدافع الجيش العثماني وذخائره وفقد الفرنسيون ٢٥٠ قتيلاً وجرح منهم سبعمائة وخمسون)[١٧٩] وبعد هذه المعركة قرر نابليون السفر إلي فرنسا نظراً لاضطراب الأحوال بها وترك قيادة الحملة إلي الجنرال كليبر كما أعطاه الإذن للتفاوض مع العثمانيين واتخاذ القرار المناسب بل إن نابليون نفسه عرض الصلح علي العثمانيين قبل سفره وترك رسالة بمثابة شرح وافي لجميع التفاصيل لكليبر كما ترك رسائل أخري لعدة جهات منها الجنرالات والمشايخ
- وكل رسالة بالطبع لها مضمون يتناسب مع المرسل إليه ،
- أما أهم هذه الرسائل فتلك التي تركها لكليبر وكان سفر نابليون في البحر بمثابة مخاطرة كبيرة بحياته نظراً لوجود الأسطول الإنجليزي في البحر المتوسط حيث ذكر لكليبر في نهاية رسالته (أما أنا فإني أغادر مصر والأسف يملأ قلبي – – وإن مصلحة الوطن ومجده وواجب الطاعة لندائه والحوادث المحزنة التي وقعت أخيراً كل ذلك يلجئني إلي أن أغامر بنفسي وسط أساطيل الأعداء لأصل إلي أوروبا علي أني سأكون معك بقلبي وفكري)[١٨٠]
- من الواضح جداً أن الدولة العثمانية قد فشلت فشل ذريع في طرد الحملة الفرنسية من مصر
- بالتأكيد وقد أدركت أن ذلك لابد أن يتم بمساعدة بريطانيا وهذا ما حدث بالفعل كما سنري
- لقد أشار نابليون بالفعل إلي تحصين عكا باصطلاح الإنجليز وهو ما يؤكد وجود دعم بريطاني لعكا من اتجاه البحر وبالتالي كان الحصار من البر فقط ،
- نعم وواضح في رسالته من أمام عكا أيضاً ركاكة أسلوب الرسالة وسوء مستوي الترجمة نظراً لمقتل المترجم الخاص بنابليون والذي أشار إلي مقتله في أسف (منتورة مات) ، كما أن هزيمة الجيش العثماني في معركة أبي قير البرية وأسر قائده ومقابلته لنابليون أتاح للأخير معرفة الموقف الدولي الذي هو معزول عنه تماماً والأحوال في أوروبا بشكل عام وشعر بأهمية سفره لإنقاذ الموقف هناك
- إذن فقد كان لقاء نابليون بالقائد العثماني المهزوم في أبي قير هو الوسيلة الوحيدة التي عرف من خلالها الموقف الدولي في أوروبا ووضع فرنسا بالنسبة له وأدرك أهمية سفره لإنقاذ الموقف من وجهة نظره ، فماذا كتب الجبرتي عن سفر نابليون ؟
- لقد تعجب الجبرتي من سفر نابليون في البحر مع تربص الأسطول الإنجليزي فقد ذكرنا أن الأسطول البريطاني قام بتدمير أسطول وسفن الحملة الفرنسية في معركة أبي قير البحرية الشهيرة وبالتالي تم

---

[١٧٩] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٦٨

[١٨٠] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٨٧

عزل الحملة تماماً عن الوطن الأم في فرنسا ، وبالرغم من ذلك سافر نابليون عندما شعر بضرورة توجهه إلي فرنسا في ذلك الوقت فقام بترك عدة رسائل أهمها بالطبع للجنرال كليبر الذي قرر أن يخلفه في قيادة الحملة ، وسافر في سرية تامة إلي فرنسا ، وقد حاول الجبرتي الوقوف علي ملابسات هذا الموضوع كمؤرخ ولكنه لم يتمكن من ذلك ، وفيما يلي رواية الجبرتي وهو يكتب عن أحداث هذا اليوم فيقول : وفيه ورد من بونابارته ساري عسكر الفرنساوية كتاب من الإسكندرية خطاباً لأهل مصر وسكانها ، فأحضر قائمقام دوجا الرؤساء المصرية وقرأ عليهم الكتاب ، مضمونه أنه سافر يوم الجمعة حادي عشرين الشهر المذكور إلي بلاد الفرنساوية لأجل راحة أهل مصر وتسليك البحر فيغيب نحو ثلاثة أشهر ، ويقدم مع عساكره فإنه بلغه خروج عمارتهم ليصفوا له ملك مصر ويقطع دابر المفسدين ، وأن المولي علي أهل مصر وعلي رياسة الفرنساوية جميعاً كليبر ساري عسكر دمياط ، فتحير الناس وتعجبوا في كيفية سفره ونزوله البحر مع وجود مراكب الانكليز ووقوفهم بالثغر ورصدهم الفرنساوية من وقت قدومهم الديار المصرية صيفاً وشتاء ، ولكيفية خلوصه وذهابه أنباء وحيل لم أقف علي حقيقتها

- يا له من مؤرخ أمين لا يريد أن يكتب إلا ما هو متأكد من صحته ، فماذا كتب عن كليبر ؟
- كتب ما يلي : - - وفي يوم السبت تاسع عشرينه قدم ساري عسكر كليبر صبيحة ذلك اليوم فضربوا لقدومه المدافع من جميع القلاع وتلقته كبار الفرنساوية وأصاغرهم وذهب إلي بيت بونابرته الذي كان ساكناً به وهو بيت الألفي بالأزبكية وسكن مكانه ، وفيه ذهب أكابر البلد من المشايخ والأعيان لمقابلة ساري عسكر الجديد للسلام عليه فلم يجتمعوا به ذلك اليوم ووعدوا إلي الغد ، فانصرفوا وحضروا في ثاني يوم فقابلوه فلم يروا منه بشاشة ولا طلاقة وجه مثل بونابرته ، فإنه كان بشوشاً ويباسط الجلساء ويضحك معهم [١٨١]
- فهل لديك معلومات عن الجنرال كليبر ؟

٦٦. الحملة تحت قيادة الجنرال كليبر

- هوالجنرال جان باتيست كليبر – Jean-Baptiste Kléber ، ولد في 9 مارس 1753 وقتل في 14 يونيو 1800 ، وقد أيقن كليبر أن احتلال مصر والبقاء بها شبه مستحيل مع انقطاع الاتصال مع فرنسا فلا يوجد أسطول قوي يؤمنه هو وجنوده كما أن هناك عداء شديد بين الشعب المصري وبين الحملة الفرنسية

[١٨١] نقلاً عن كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار – عبد الرحمن الجبرتي – صفحة ٥٢٣

- بالتأكيد فلم تعد تنجح محاولات الخداع والتودد للشعب فقد ظهر الوجه القبيح للحملة الفرنسية ولم يعد ممكناً وضع أي نوع من أنواع الأقنعة الزائفة ،
- وبالتالي قرر الصلح مع الدولة العثمانية التي فشلت في إخراج الحملة الفرنسية من مصر وحدها وقررت التحالف مع الإنجليز لطرد الفرنسيين من مصر وكان هذا التحالف بطبيعة الحال من أشد ما يقلق كليبر ،
- فماذا فعل كليبر ؟
- أرسل كليبر رسالة إلي الصدر الأعظم يوسف باشا الذي جاء علي رأس جيش ضخم ، وبالفعل تم الاتفاق علي ما يسمي بمعاهدة العريش التي كانت تنص علي أن يغادر الجيش الفرنسي مصر سالماً بسفن يتم توفيرها من الجانب العثماني وبتكاليف يتم دفعها وجمعها من الشعب المصري
- يا له من شعب مسكين
- لقد كان شعب مصر سعيداً بجمع أموال ترحيل الفرنسيين ، ولكن لم تتم هذه المعاهدة بسبب الإنجليز حيث كانوا يريدون أن يقوم الجيش الفرنسي بتسليم نفسه كأسري حرب ولا يريدون له الرحيل بهذا الأسلوب ونجح الإنجليز بالفعل في إفشال المعاهدة مما أدي إلي حدوث معركة بين الجيش العثماني والجيش الفرنسي في منطقة عين شمس حيث كان الجيش العثماني قد اقترب كثيراً من العاصمة وفي انتظار استلامها من الفرنسيين
- تسليم أنفسهم كأسري حرب ، يا له من شرط مهين ينم عن مدي العداء الشديد بين الدولتين ، فماذا حدث في عين شمس ؟

٦٧. معركة عين شمس وثورة القاهرة الثانية

- انتصر كليبر علي الجيش العثماني في معركة عين شمس انتصار ساحق وقام بمطاردته في اتجاه الشرق غير أن مجموعة من الجيش العثماني بقيادة نصوح باشا تركت ساحة القتال وتوجهت إلي القاهرة حيث أثار نصوح باشا الشعب ضد الفرنسيين ، فعندما عاد كليبر إلي القاهرة بعد مطاردته للجيش العثماني وجد القاهرة كلها في حالة ثورة عارمة
- هل هي المعروفة بثورة القاهرة الثانية ؟
- نعم ، والتي كانت بمساعدة العثمانيين وتحريضهم ، حيث قام كليبر بقمع الثورة بشكل وحشي واستخدم ما أعده نابليون من قلاع وتجهيزات حول العاصمة بعد ثورة القاهرة الأولي ، وجدير بالذكر أن الثورة لم تكن بالقاهرة وحدها بل امتدت إلي عدة مدن وقري بطول مصر وعرضها وبالتالي كانت في منتهي الخطورة مما أدي إلي رد فعل فرنسي عنيف وقاسي ،
- وتم قمع الثورة بالطبع والمبالغة في القتل أليس كذلك ؟

- استطاع كليبر إخضاع الوجه البحري بالكامل أما الوجه القبلي بقيادة مراد بك فقد يأس تماماً من إخضاعه ولذلك قام بعقد اتفاقية مع مراد بك بحيث يتولي مراد حكم الصعيد ويأمن جانبه بل واتفقا علي الدفاع المشترك ضد أي عدوان علي أي منهما
- الدفاع المشترك يا للمهزلة
- وهكذا اتضحت حقيقة مراد بك الذي اتفق مع الفرنسيين علي أن يقوم بإمداد الفرنسيين بالكميات اللازمة من القمح والشعير والحبوب من الجنوب وكان قبل ذلك يمنع وصولها إليهم ،
- وهكذا قام كليبر بتحييد مراد بك تماماً فماذا حدث خلال هذه الثورة ؟

٦٨. الفظائع الفرنسية في قمع ثورة القاهرة الثانية

- لا بد هنا أن نذكر بعض ما ارتكبه الفرنسيون من جرائم لا تمت للإنسانية بصلة بل وتزيد بشكل مبالغ فيه عن متطلبات قمع الثورة ،
- لقد قلنا أن ما يفعله الفرنسيون ليس له علاقة بالإنسانية ، فماذا كتب المؤرخون عن قمع هذه الثورة؟
- لقد وصفها الجبرتي باستفاضة ملخصها ما يلي : (وجري علي الناس مالا يُسطر في كتاب ولم يكن لأحد في حساب)
- يا له من وصف معبر
- وكتب الرافعي : (أسرف الفرنسيون في ارتكاب الفظائع لإخماد الثورة ولجأوا إلي الطريقة الوحشية التي اتبعوها في كثير من المواطن وهي إضرام النار في الأحياء الآهلة بالسكان وإرسالها علي المدينة وأهلها موتاً أحمر فأحدثت الحرائق تخريباً فظيعاً في القاهرة واحترقت أحياء برمتها وتهدمت بيوت عامرة ودفنت تحت أنقاضها عائلات بأكملها)[١٨٢] وهكذا تم إخماد الثورة (وأصبح الجنرال كليبر حاكماً بأمره في البلاد وهو الذي كان قبل شهرين يعد معدات الرحيل عنها ولكن السياسة الإنجليزية هي التي غيرت سير الأمور وتسببت في نقض معاهدة العريش ومنعت الجنود الفرنسية من السفر إلي فرنسا فأشعلت نار الحرب ثانية)[١٨٣]
- واضح أن الإنجليز حتي الآن لم يشتركوا في قتال حقيقي مع العثمانيين ضد الفرنسيين علي أرض مصر ولكنهم كانوا يكتفون بتحريك الأحداث والمراقبة ،
- نعم ، وسوف تلاحظ بعد ذلك أن هناك فرق كبير بين قتال العثمانيين وحدهم ضد الفرنسيين وبين القتال المشترك مع الإنجليز ضد الفرنسيين حيث كانت المعارك تدور بقيادة إنجليزية تساعد الدولة العثمانية التي أصبح يطلق عليها الرجل المريض
- إذن فقد وافقت في النهاية الدولة العثمانية علي ما لم يوافق عليه السيد محمد كريم رحمه الله

---

[١٨٢] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ١٥٠

[١٨٣] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ١٥٢

- نعم فقد أدركت أن الإستعانة بالإنجليز ضرورية لطرد الحملة الفرنسية من مصر
- فماذا حدث بعد ذلك ؟

٦٩. مقتل كليبر وتولية الجنرال مينو القيادة

- كان لابد من الإطاحة بالطاغية الذي لا يهتم بإراقة دماء الآلاف من الآمنين في بيوتهم والذين حتي لم يشتركوا في أي ثورة من أي نوع وتم قتلهم بدم بارد ، وقد استطاع أحد طلبة الأزهر الشريف وهو سليمان الحلبي أن يقتل رأس "الأفعى الفرنسية" الجنرال كليبر ،
- وبالطبع كان هذا العمل البطولي الرائع من الأعمال التي هزت كيان الجيش الفرنسي بالكامل في مصر
- بالتأكيد ، بل وكان ذلك تمهيداً لنهايتهم في مصر
- كيف ؟
- لم يجد الفرنسيون قيادة بعد ذلك علي نفس مستوي نابليون وكليبر مما أدي إلي فشل الحملة في مصر ، لأن نابليون قد اختار كليبر لقيادة الحملة ولكن لم يتمكن كليبر من اختيار من يصلح لخلافته فقام الجنرالات باختيار أقدمهم ، بينما قيادة حملة كهذه يجب أن لا تخضع للأقدمية ولكن للكفاءة وقد فشلت الحملة بالفعل كما سنري
- وكيف وقع هذا الحدث ؟
- وقع هذا الحدث في حديقة منزل القائد العام بالأزبكية وتم محاكمة سليمان الحلبي وبعض طلبة الأزهر الذين اتهمهم الفرنسيون بأنهم علموا نية سليمان الحلبي ولم يقوموا بالإبلاغ عنه ،
- وتولي الجنرال مينو القيادة العامة للجيش الفرنسي في مصر
- نعم ، ولكن ليس بسبب كفاءته ولكن لمجرد أنه أقدم الجنرالات المتبقين في مصر ، وقبل أن نترك مسألة مقتل كليبر وإعدام سليمان الحلبي وبعض طلبة الأزهر ،أريد أن أذكر لك نص الحكم الذي أصدرته المحكمة فقد (حكمت بإحراق يد سليمان الحلبي اليمني ثم إعدامه علي الخازوق وترك جثته تأكلها الطير وإعدام شركائه الأربعة بقطع رءوسهم وإحراق جثثهم بعد الإعدام مع مصادرة أموال المتهم الغائب عبد القادر الغزي" ولم يكن له مال")[١٨٤] واعتبر الفرنسيون الجامع الأزهر مصدراً للعنف
- ليس الفرنسيون فقط الذين يعتبرون الجامع الأزهر مصدر للعنف ، فكل من احتل مصر رأي ذلك ، ولكن ألا يستحق التأمل في أن قاتل كليبر طالب أزهري ولكنه ليس مصرياً ؟
- لقد كانت أمة واحدة في ذلك الوقت وأوجاعها واحدة وكانت كالجسد الواحد الذي ورد في الحديث الشريف لنبي هذه الأمة صلي الله عليه وسلم
- فماذا حدث للأزهر الشريف ؟

---

[١٨٤] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ١٧٠

- كان الفرنسيون كل فترة يفتشون الأزهر وينتهكون حرمته ويضيقون الخناق علي من فيه بحجة التفتيش علي الأسلحة ، مما أدي إلي اتخاذ المشايخ قرار بإغلاق الجامع الأزهر ورأوا أن هذا القرار سيحمي الأزهر من هذه الانتهاكات التي لا تليق به ويمنع الريبة التي كانت في نفوس الفرنسيين في كل ما هو أزهري ، وقدم العلماء هذا الاقتراح للفرنسيين وبالطبع وافق الفرنسيون علي طلبهم وتم إغلاق الأزهر من ٢١ يونيو ١٨٠٠ م إلي أن صدر قرار بفتحه في يونيو سنة ١٨٠١ في نهاية الحملة الفرنسية
- وكما يقال بيدي لا بيد عمرو ، حسناً ، فقد وصلنا إلي الجنرال مينو آخر قادة الحملة

٧٠. الجنرال مينو ونهاية الحملة الفرنسية علي مصر

- تولي الجنرال مينو قيادة الحملة الفرنسية Jacques François Menou وكان مينو قد أعلن إسلامه وتزوج من مسلمة من رشيد أثناء وجوده كحاكم لرشيد وتظاهر بتمسكه بشعائر الدين الإسلامي وأطلق علي نفسه اسم " عبد الله جاك مينو "
- الجنرال عبد الله جاك مينو يا لها من سخرية من الشعب
- وكان مينو بعد توليه حكم مصر يعتقد أن الفرنسيين لابد أن يقيموا في مصر بشكل دائم فقد كان (من دعاة اتخاذ مصر مستعمرة فرنسية)[١٨٥] ، وفرض مينو علي المصريين ضرائب وإتاوات فادحة وذاق الشعب المصري المرار وكَثُرَت هجرة المصريين من بلادهم هرباً من كثرة المظالم والنهب والإرهاق والتخريب وكانت سياسة مينو بصفة عامة تنم عن أنه قائد فاشل بالرغم من أنه حاول القيام بعدة مشروعات في مصر
- هل لديك أمثلة علي هذه المشروعات ؟
- سوف أذكر لك مثال واحد فقط قد يكون فيه الكفاية فقد (فكر في إنشاء مصنع للجوخ في القاهرة لسد الحاجة الماسة إلي الأجواخ التي انقطع ورودها من أوروبا بسبب الحصار البحري لكن أعضاء اللجنة الإدارية عارضوا في قبول العمال المصريين في هذا المصنع بحجة الضرر الذي يلحق الصناعة الفرنسية إذا عرف المصريون أسرارها وكتبت اللجنة رسالة في هذا الصدد قالت فيها : إن مقدرة المصريين في تقليد المبتكرات الصناعية من شأنها أن تضر بالمصانع الفرنسية)[١٨٦]
- مصلحة فرنسا بالنسبة لهم مقدمة علي مصلحة الحملة نفسها ، فماذا حدث بعد ذلك ؟
- تم إجراء استعدادات ضخمة عثمانية إنجليزية لطرد الفرنسيين من مصر ووصلت بالفعل قوات إنجليزية إلي أبى قير واستطاعت هزيمة من بها من الفرنسيين وواصلت الزحف ووقعت معركة شرسة في

---

[١٨٥] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ١٧٩

[١٨٦] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ١٨٩ ، ١٩٠

المنطقة المعروفة حالياً بسيدي جابر بالإسكندرية وانتهت بهزيمة الفرنسيين هزيمة قاسية علي الرغم من كثرة عدد القتلى الإنجليز

- أخيراً تمت المواجهة براً الإنجليز والحملة الفرنسية
- نعم ولكن بمساعدة العثمانيين وكذلك لم يلتقوا بقائد فرنسي من وزن نابليون وكليبر
- فماذا كان رد فعل مينو؟
- ظل الصراع دائر بين الإنجليز والفرنسيين في الإسكندرية مما أدي إلي ارتباك الجنرال مينو بالقاهرة وكان مينو كما ذكرنا أقل كفاءة بكثير من نابليون وكليبر في القيادة فقام بإصدار أوامر متضاربة وتشتت جيشه في عدة مواقع ومدن (فكانت القوات الفرنسية موزعة بين القاهرة والجيزة والصالحيه والمنصورة وميت غمر ومنوف والبرلس والرحمانية والوجه القبلي ولما تحقق مينو من نزول الإنجليز إلي البر عزم آخر الأمر علي السير لملاقاتهم)[١٨٧] ووصل مينو ومعه نصف الجيش الفرنسي إلي الإسكندرية ولكن بعد أن تم هزيمة الفرنسيين بمعركة سيدي جابر
- فمن تولي قيادة الحملة في القاهرة ؟
- انقسم الفرنسيين تحت قيادتين أحدهما الجنرال مينو في الإسكندرية والثاني الجنرال بليار في القاهرة وكان كل منهم يواجه جيشاً كبيراً ، وكان العثمانيون قد هزموا جيش بليار بالقرب من بلبيس فعاد منسحباً وتحصن بالقاهرة بينما كان مينو يواجه التحالف العثماني الإنجليزي في الإسكندرية ، وجدير بالذكر أن بليار أرسل إلي مراد بك يستنجد به ويطلب منه تنفيذ اتفاقية الدفاع المشترك التي وقعها مع كليبر ،
- وهل قام مراد بك بمساعدته ؟
- كان مراد بك في ذلك الوقت قد أصابه الطاعون ومات وكان موت مراد بك ضربة كبيرة أصابت آمال الفرنسيين علي حد تعبير الرافعي لأنهم فقدوا بموته حليفاً قوياً كان يمكن أن يمدهم بالقوة اللازمة
- فلماذا لم يتحالفوا مع من جاء بعد مراد بك من أمراء المماليك
- لم يتمكن الفرنسيين من التحالف مع خليفة مراد بك وكان اسمه عثمان بك الطنبورجي الذي رأي أن كفة العثمانيين والإنجليز هي الأرجح
- إنها نهاية الحملة بالفعل
- نعم فقد اجتمع الجنرال بليار مع مجلس الحرب ليتشاوروا في الموقف الحرج الذي تورطوا فيه وقرروا التفاوض مع العثمانيين والإنجليز وتم بالفعل توقيع اتفاقية الجلاء في ٢٧ يونيو ١٨٠١ بعد مفاوضات استمرت أربعة أيام (وأن يكون جلاء الجنود بأسلحتهم وأمتعتهم ومدافعهم وذخائرهم بطريق فرع رشيد

---

[١٨٧] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ١٩٧

ومن رشيد وأبو قير يبحرون إلي فرنسا علي نفقة الحلفاء)١٨٨ وقام العثمانيون والإنجليز بتوفير المراكب والسفن اللازمة لرحيلهم ، علي أن يسري هذا الاتفاق بين بليار والحلفاء علي الجنرال مينو وجيشه بالإسكندرية في حالة موافقته علي بنوده ،

- وهل وافق مينو علي هذا الاتفاق ؟
- لا بل رفضه تماماً واتهم بليار بالتفريط في الشرف الحربي ، واستمر مينو في عناده وقتاله للحلفاء (علي أنه لم يمض خمسون يوماً علي تسليم القاهرة حتي أذعن الجنرال مينو للتسليم بشروط أسوأ من الشروط التي قبلها الجنرال بليار)١٨٩ وهكذا غادرت الحملة الفرنسية مصر بغير رجعة ولكن بعد أن لفتت نظر بريطانيا العظمي لموقع مصر الذي أصبح حلماً لبريطانيا قامت بتحقيقه بعد ذلك في سنة ١٨٨٢ م
- بل ولفتت نظرها أيضاً إلي مدي ضعف الدولة العثمانية فيما أعتقد
- بالتأكيد ، ولكن هل تسمح لي أن أسألك أنا عن الحملة الفرنسية ؟
- لا مانع ، فهل هو امتحان لتطمئن علي مجهودك في الحوار ؟
- ليس امتحان بل أود أن تحدثني عن ملخص عام للحملة الفرنسية حتي استمر في الحوار وأنا مطمئن

٧١. ملخص عام للحملة الفرنسية

- تلاحقت الأحداث في مصر خلال الحملة الفرنسية وتطورت الحملة وتوجهت إلي الشام وفشلت في احتلال عكا وعادت إلي مصر ثم وقعت معركة أبي قير البرية بين نابليون والجيش العثماني وانتهت بهزيمة العثمانيين ثم غادر نابليون مصر وترك القيادة للجنرال كليبر الذي حاول التفاوض مع العثمانيين لانسحاب الحملة من مصر دون خسائر ولم يرغب الإنجليز في مغادرة الحملة بهذا الأسلوب حيث رغبت في استسلام الجيش الفرنسي كأسري حرب فقامت بإفشال المفاوضات بين الفرنسيين والعثمانيين ووقع الصدام بين كليبر والعثمانيين في معركة عين شمس وانتهت بهزيمة العثمانيين ثم قامت ثورة القاهرة الثانية بمساعدة العثمانيين وقام كليبر بقمعها بقسوة أشد من قمع الثورة الأولي التي كانت في عهد نابليون ، ووقّع كليبر معاهدة مع مراد بك لما كان يسببه من مشاكل وخسائر للجيش الفرنسي في صعيد مصر ولتحييده أثناء قتال العثمانيين ، ثم تم قتل كليبر علي يد سليمان الحلبي أحد طلبة الأزهر وتم تولي الجنرال مينو قيادة الحملة وأعلن إسلامه وتزوج من فتاة من رشيد ثم واجه التحالف الذي تم بين العثمانيين والإنجليز لطرد الفرنسيين من مصر واستمر الصراع إلي أن قام الإنجليز والعثمانيين بهزيمة الفرنسيين في الإسكندرية وفي الوقت الذي استسلم فيه القائد الفرنسي

---

[١٨٨] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٢١٧ ، ٢١٨

[١٨٩] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٢٢٣

في القاهرة وانسحب بالقوات الفرنسية تاركاً مينو في الإسكندرية يواجه قوات التحالف الإنجليزي العثماني ثم أجبرته الهزيمة علي توقيع معاهدة استسلام وتم مغادرة الحملة بالكامل إلي فرنسا

- إنه تلخيص رائع بالفعل ، وإذا استكملنا هذا العرض الملخص سنقول أن الحملة قد غادرت مصر تاركة عدة قوي تتصارع علي السلطة ، وهكذا انتهت الحملة الفرنسية علي مصر
- لا شك أن الحملة الفرنسية كان لها دور كبير في إيقاظ قوة الشعب ، فما هي القوي الأخري التي تصارعت علي السلطة ؟
- (جلا الفرنسيون عن مصر بعد احتلال ثلاثة أعوام وشهرين فتنازع السلطة في البلاد ثلاث قوات مختلفة المصالح متباينة الأغراض ، اتحدت وقتاً ما علي محاربة الفرنسيين ولما تم لها النصر عليهم بدأت كل قوة تعمل علي تحقيق أطماعها في وادي النيل هذه القوات الثلاث هي الأتراك والإنجليز والمماليك)[١٩٠]
- الأتراك والإنجليز والمماليك ، من صنفهم هذا التصنيف ؟
- هذا ما ذكره الرافعي في كتابه كما ذكر أيضاً ما يلي : (تلك القوات التي تنازعت النفوذ والسلطة في مصر وهناك قوة رابعة ظهرت علي مسرح النضال السياسي وأخذت تنمو ويشتد ساعدها دون أن تأبه لها تلك القوات الثلاث أو تحسب لها حساب علي أنها القوة الثابتة الخالدة المؤيدة بحقها الشرعي في تقرير مصير البلاد وتلك هي قوة الشعب المصري)[١٩١]
- الرافعي هنا يؤكد علي القومية المصرية بالتحديد وهذا مفهوم طبقاً لتوجهاته القومية
- علي أي حال كان بالطبع علي رأس هذا الشعب مجموعة من الزعماء البارزين مثل السيد عمر مكرم والسيد محمد السادات والشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ محمد الأمير والشيخ سليمان الفيومي والشيخ مصطفي الصاوي والشيخ محمد المهدي والسيد أحمد المحروقى ، أما الشخص الوحيد الذي استطاع أن يكسب ثقة الشعب المصري متمثلاً في زعماءه واستطاع بهذه القوة الرابعة التي راهن عليها أن يواجه باقي القوي الأخري ويفوز بحكم مصر هذا الشخص هو محمد علي باشا
- محمد علي باشا ، هكذا وصل الحوار إلي عصر أسرة محمد علي ، فكيف حضر إلي مصر ؟
- حضر محمد علي إلي مصر عندما قام السلطان العثماني بتجميع جيش كبير لقتال الحملة الفرنسية في مصر وطلب من كل حاكم ولاية أن يرسل قوة لتنضم إلي هذا الجيش (صدر الأمر إلي متصرف قولة بتقديم ما لديه من الجنود فألف كتيبة من ثلثمائة جندي انضم محمد علي في سلكها)[١٩٢] ووصلت هذه القوة مع مثيلاتها تحت قيادة حسين قبطان باشا إلي أبي قير في شهر مارس سنة ١٨٠١ م علي

---

[١٩٠] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٢٢٩

[١٩١] تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج٢ صفحة ٢٣٢

[١٩٢] تاريخ الحركة القومية ج٢ (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٢٥٨

متن السفن العثمانية وقد عاصر محمد علي عندما حضر إلي مصر كل الأحداث التي تكلمنا عنها وحتي جلاء الحملة الفرنسية والفترة التي تلت رحيل الحملة الفرنسية مباشرة وحتي وصوله للحكم لتبدأ مصر فترة جديدة من تاريخها

- دعنا قبل أن نتحدث عن محمد علي وكيف وصل للحكم نلقي نظرة علي تأثير الحملة الفرنسية علي الشعب المصري من حيث انبهاره بما شاهده من حضارة مادية قد تكون عرضته لفتنة من نوع خاص
- أنا أفهم تماماً ما تعنيه ، وسوف أحاول أن أوضح لك ما أعرفه عن هذا الموضوع ، والذي أُطلِق عليه (لطمة حضارية علي وجه الشعب المصري)

٧٢. لطمة حضارية علي وجه مصر

- بالتأكيد إن الانبهار بالحضارة الغربية قد يزعزع الثقة في النفس لدي البعض ، خاصة إذا كانت الفجوة الحضارية هائلة
- سنستعرض معاً ونتأمل حجم الفجوة الحضارية بين مصر وفرنسا في ذلك الوقت وكيف أن مصر كشعب لم يكن له أي ذنب في ذلك ، وسوف أوضح مدي انبهار المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتي بما شاهده من أمور جعلته يعترف ويقول عن بعض ما شاهده أنها أمور لا تسعها عقول أمثالنا ،
- لاحظ أن الجبرتي لم يكن من طبقة العامة والغوغاء ولكنه يعتبر محسوب علي النخبة المثقفة في مصر فإذا حدث له هذا الانبهار وتلك الدهشة فما الذي حدث لباقي البسطاء من الشعب المصري ؟
- سأتلو عليك ما كتبه الكاتب الكبير يحيي حقي [١٩٣] عن المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتي ، في كتابه الممتع صفحات من تاريخ مصر فتحت عنوان ٥ديسمبر سنة ١٧٩٨م ، كتب ما ملخصه : ، – – من حسن الحظ أن كان يعيش في مصر حينئذ رجل ، لا أعرف من أجدادنا أحداً يفوقه في قدرته علي تملك حبي وإعجابي وعلي تثبيت الإعتزاز ببلدي في قلبي ، هذا هو الجبرتي مؤرخ مصر العظيم ، ومن حسن الحظ أيضاً أنه كان يمثل أرقي ما وصلت إليه الحضارة الشرقية – – – – – بل إن المهم أن ذهنه كان متفتحاً لا يشله الغرور أو التعصب ، فنحن بإزاء شهادة رجل مثقف متزن حكيم نشأ في بيت من أرقي بيوت القاهرة في ذلك العهد ، إنني اعتبر يوم ٥ديسمبر سنة ١٧٩٨م من أهم أيام مصر الحديثة ولهذا اتخذته عنواناً لهذه الكلمة ، ففي ذلك اليوم خرج الجبرتي من داره ليتفرج علي ما يفعله الفرنسيون في هدم المباني لشق طرق حديثة في قلب العاصمة ، – – – – فلما رجع لداره كتب لنا ما يلي :– – فعلوا هذا الشغل الكبير والفعل العظيم في أقرب زمن ، كانوا يصرفون الرجال من بعد الظهيرة ويستعينون في الأشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ السهلة التناول ، المساعدة في

[١٩٣] نقلا عن كتاب صفحات من تاريخ مصر –طبعة يناير ٢٠٠٨ – نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع– من صفحة ٣٥ وما بعدها وتحت عنوان ٥ديسمبر سنة ١٧٩٨م

العمل وقلة الكلفة ، كانوا يجعلون بدل الغلقان والقصاع عربات صغيرة ويداها ممتدتان من الخلف يملؤها الفاعل تراباً أو طيناً أو حجارة من مقدمها بسهولة ، بحيث تسع مقدار خمسة غلقان ، ثم يقبض علي خشبتيها المذكورتين ويدفعها أمامه فتجري علي عجلتها بأدني مساعدة إلي محل العمل فيميلها بإحدي يديه ويفرغ ما فيها من غير تعب ولا مشقة وكذلك لهم فئوس وقزم محكمة الصنعة متقنة الوضع ، غالب الصناع من جنسهم ولا يقطعون الأحجار والأخشاب إلا بالطرق الهندسية علي الزوايا القائمة والخطوط المستقيمة ، ،

- عربة يد ذات عجلة أمامية واحدة تبهر الجبرتي
- نعم بالفعل فقد علق الكاتب الكبير يحيي حقي علي ما كتبه الجبرتي فقال : هكذا كانت تعيش مصر في عالمها المقفل إلي حد أن عربة نقل صغيرة بعجلة أمامية واحدة بدت للجبرتي كأنها معجزة شيطانية ، ينبغي ألا نقتصر علي الابتسام بمحبة لسذاجة الجبرتي ، بل نتأمل قوله بإمعان ، ففي وصفه دلالة بينة علي الفروق العميقة بين عقلية الشرقي وعقلية الغربي ، فلو كان محله رجل أوروبي وشاهد مثلاً علي تفوق الإنتاج لما انشغل حتي ذلك الوقت إلا بحساب الفرق بين أجر العمل اليدوي والعمل الآلي ، وقاس هذا الفرق بمقياس الفائدة المئوية لقرض يستدينه لشراء الآلة الحديثة ولا يعكر مزاجه في التفكير في مصير العامل الذي ستوفره الآلة ، هذه هي العقلية التي قامت عليها عظمة النظام الرأسمالي ، وأما الجبرتي فإن أورد لفظ الكلفة في كلامه ، فمن الواضح أنه لم يكن معنياً إلا بأثر الآلة في التخفيف من سخرة الإنسان في العمل الجسماني
- إنها الرحمة التي تعتبر الفرق بين الحضارة الشرقية والحضارة الغربية في العديد من الأمور
- يضيف الكاتب فيقول : - - لم يكتف الجبرتي بالفرجة علي شق الطرق يوم ٥ديسمبرسنة ١٧٩٨ فهو قد ذهب أيضاً في اليوم ذاته –ياله من يوم عظيم– إلي المجمع العلمي الفرنسي - - - ثم عاد لداره ووصف لنا ما شاهده بدهشة طفل ساذج كما سنري ، فهل أنا مبالغ إذا قلت إن الصدمة العقلية العنيفة بين الشرق والغرب حدثت يوم ٥ديسمبر١٧٩٨ ، استيقظت مصر وأدركت أن هناك علماً حديثاً غير علمها القديم وأن هذا العلم الحديث - - هو سر غلبة الغرب علي الشرق ، مصر في ذلك اليوم هي الجبرتي
- مصر في ذلك اليوم هي الجبرتي ، يا له من تعبير رائع من أديب مبدع ، فهل لديك ما حدث للجبرتي في المجمع العلمي ؟ لأنني أعتقد أن زيارة الجبرتي لهذا المجمع جاءت إطار حرصه علي كتابة تاريخ مصر كشاهد عيان فرأي أن هذا يتطلب زيارته لكل الأماكن المسموح له بزيارتها حتى يسجل كل ما يراه ويسمعه من باب الأمانة العلمية والله أعلم
- بالفعل قام الجبرتي بزيارة المجمع العلمي الفرنسي وتم استقباله بحفاوة بالغة وترحاب لأن علماء فرنسا كانوا يرحبون بزيارة أي مصري يريد أن يتعرف علي المجمع العلمي

- حتي يصاب بذُل الجهل وخضوع التخلف للتقدم علي ما يبدو فالإبهار العلمي من أقوي وسائل إخضاع الشعوب وتحطيم أي أمل لهم في المقاومة فعندما تشاهد بعينيك أموراً علمية تفوق إمكانياتك العقلية بكثير فبالتأكيد سوف ترهب فاعليها،
- أو قد يكون السبب في الترحيب مختلف لأن العلماء يهتمون بالعلم أكثر من أي شئ آخر ولا يوظفونه سياسياً أو عسكرياً ، أما الجبرتي فعندما وصف ما رآه في هذا المجمع وكتبه في كتابه الشهير كان في حالة من التعجب لا مثيل لها وسوف أتلو عليك مقتطفات قصيرة مما كتبه الجبرتي عن هذا المجمع لتحكم بنفسك علي قوة اللطمة الحضارية التي تعرضت لها مصر علي وجهها المتخلف في ذلك الوقت ، يقول الجبرتي : (وإذا حضر إليهم بعض "المسلمين" ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول إلي أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم وخصوصاً إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعاً للنظر في المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير وكرات البلاد والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم مما يحير الأفكار)[١٩٤] ، (ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة، فصب منها شيئاً في كأس ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخري فعلا الماءان وصعد منه دخان ملون حتي انقطع وجف ما في الكأس وصار حجراً أصفر فقلبه علي البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه ثم فعل كذلك بمياه أخري فجمد حجر أزرق وبأخري فجمد حجر أحمر ياقوتياً وأخذ مرة شيئاً قليلاً جداً من غبار أبيض ووضعه علي السندال وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة انزعجنا منه فضحكوا منا ، وغير ذلك من أمور كثيرة وبراهين حكيمة تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع
- (براهين حكيمة تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع) ، يا له من تحليل ينم عن وعي ورقي في الفكر
- يضيف الجبرتي : - - - ومثل الفلكة المستديرة التي يديرون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدني شئ كثيف ويظهر له صوت وطقطقة وإذا مسك علاقتها شخص ولو خيطاً لطيفاً متصلاً بها ولمس آخر الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخري ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجة سريعة، ولهم فيها أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا)[١٩٥]

---

[١٩٤] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٥٧

[١٩٥] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٥ صفحة ٦٠

- لا أجد ما أقول بعد كلام الجبرتي إلا رحم الله علماء الإسلام في فترة ازدهار الحضارة الإسلامية رحم الله جابر بن حيان أستاذ الكيمياء الأول في الوقت الذي لم يعرف فيه العالم شيئاً عن الكيمياء ، ورحم الله ابن خلدون أستاذ علم الاجتماع ورحم الله الخوارزمي أبو علم الجبر وغيرهم من علماء بغداد والقاهرة في نهاية القرن الثاني الهجري وبداية القرن الثالث الهجري ولا حول ولا قوة إلا بالله
- هذا صحيح فمبادئ وأسس معظم العلوم الحديثة قد وضعها علماء مسلمون
- هل قام علماء الحملة بحصر تعداد سكان مصر في تلك الفترة ؟

٧٣. تعداد سكان مصر طبقاً لتقدير علماء الحملة الفرنسية [١٩٦]

- يقول العالم الفرنسي ج دي شابرول : (كان تقدير عدد سكان مصر علي الدوام عرضة لأخطاء خطيرة ، وقد وقع أغلب المؤرخين المحدثين والقدامي في مبالغات كبيرة يمكن لأي توصيف بسيط للأماكن أن يدحضها وإلي جانب الخدمات التي قدمتها الحملة الفرنسية للعلوم والفنون والآثار في مصر ، فإنها قد حثت كذلك علي استخدام الإحصاء في الأبحاث والدراسات التي تتخذ موضوعا لها أحد الأمور الهامة ، وهكذا أمكن التوصل ليس فقط إلي تحديد مساحة الأراضي المنزرعة والقابلة للزراعة بطريقة أقرب إلي الموضوعية ، بل وكذلك عدد القري والكفور التي تغطي وادي النيل كما أمكن بالمثل تقدير تعداد السكان في مصر ، وكذا تعداد سكان مدنها الهامة ، وبخلاف ما جمعته أثناء وجودي في مصر من معلومات فقد استعرت هنا بعض التفاصيل من الدراسة التي كتبها جومار Jomard عن تعداد السكان في مصر الحديثة مقارناً بتعداد السكان في مصر القديمة ، وحيث أن جومار قد أقام حساباته علي معطيات أكثر دقة عن تلك التي جمعت حتي الآن ، وحيث أنه أبان عدد الموتي وخصوبة السيدات ومقدار الضرائب واستهلاك الحبوب بالإضافة إلي أمور أخري هامة ذات طابع اقتصادي وسياسي فإنه قد توصل بذلك إلي نتائج نعتبرها قريبة من الحقيقة ، - - -وسوف أكتفي هنا بإيراد فقرة من ملخصه تضم نتيجتين متقاربتين وصل إليهما عن طريقين مختلفين: إن تحديد المساحة الحقيقية للأرض المزروعة ثم حصر عدد السكان في جزء محدد من مساحة البلاد يؤدي ، بعد تعميم هذه النسبة وإضافة الناتج الإجمالي إلي عدد سكان القاهرة ، إلي نتيجة شبه مؤكدة وهي أن تعداد سكان مصر يبلغ ٢٤٤٢٢٠٠ نسمة ، أما الطريقة الثانية فقد بنيت أن عدد قري مصر يبلغ ٣٦٠٠ قرية وأن متوسط سكانها هو ٥٣٤ شخصا لكل قرية ، أي أن تعداد سكان القري يبلغ ٢١٠٢٤٠٠ نسمة ، وبإضافة سكان المدن إلي ذلك الرقم فإن تعداد مصر يبلغ ٢٤٦٧١٠٠وحسب ما سبق فقد تحدد تعداد سكان مصر بحوالي ٢.٥ مليون من السكان ولا يدخل ضمن ذلك مطلقاً عدد العربان الذين يعمرون الصحراوات والذين لا يمكن

---

[١٩٦] من كتاب موسوعة وصف مصر – المصريون المحدثون – الجزء الأول –الطبعة الثالثة – ١٩٩٢ تأليف علماء الحملة الفرنسية – ترجمة زهير الشايب – الكتاب الأول – دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثون – تأليف ج دي شابرول الفصل الأول – لمحة عامة عن الطقس والسكان وعن تقاليد وعادات المصريين – 2عن السكان وطبقاتهم المختلفة ، باختصار من صفحة ٢٢ إلي صفحة ٢٤ ------:

إخضاعهم لتعداد دقيق ، لكن مسيو جوبير Jaubert من جهة أخري يقدر عدد الفرسان العربان حسب الإحصاء الذي قام به بـ ٢٧٠٠٠ فارس ، فإذا ما أضفنا إليهم نفس العدد لأشخاص راجلين وعدداً يتناسب مع ذلك من السيدات والأطفال فإن مجموع تعداد أبناء قبائل العربان سوف يرتفع إلي ١٣٠٠٠٠ نفس ، --كانت القاهرة في عام ١٧٩٨ تضم ما بين ٢٥٠-٢٦٠ ألفاً من الأشخاص بما في ذلكالمماليك والتجار الأجانب ، وقد قدر تعدادها بحسب إحصاء تم قبل مجئ الحملة الفرنسية بـ ٣٠٠٠٠ نسمة)

- إن أكثر ما لفت نظري في ما قلت ليس الأعداد والأرقام ولكن قول هذا العالم : ،(وحيث أن جومار قد أقام حساباته علي معطيات أكثر دقة عن تلك التي جمعت حتي الآن) ، مما يدل علي اعترافه بوجود حسابات أكثر دقة من حساباته ، ففضل كتابة نتائج تختلف عن حساباته ، وهي تعتبر أمانة علمية
- بلا شك أن هناك من العلماء من ينسب لنفسه حسابات ودراسات وأبحاث لم يقم بها ، بل قام بنقلها بالكامل بنتائجها دون الإشارة إلي صاحب الفضل الحقيقي فيها ، وأخشي أن يتحول البحث العلمي في مصر حالياً لمجرد نقل أبحاث علماء الخارج بنتائجها للحصول علي درجات علمية غير مستحقة
- هل تخشي أم أن ذلك قد حدث بالفعل ؟
- الله أعلم ، إذا كان هذا قد أصبح ظاهرة عامة أم لا ، ولكنني سمعت عن حدوث بعضه أحياناً وليست لدي مصادر موثوقة بحدوثه فلا أستطيع الجزم بحدوث ذلك
- بمناسبة الدراسات والأبحاث العلمية ، هل أطمع في الإلمام ببعض ما كتبه علماء الحملة عن مصر وشعبها وآثارها وما إلي ذلك مما درسوه في مصر ؟
- بالتأكيد يمكن أن سنستعرض ونتأمل معاً بعض ما كتبه علماء الحملة الفرنسية في كتابهم الموسوعي الضخم (وصف مصر) لنعرف حجم المجهود في هذا الكتاب ومدي تعمق هؤلاء العلماء في تفاصيل الشئون المصرية في كافة المجالات ، فبالرغم من أن نابليون قد أحضرهم في الأساس لحل مشاكل الحملة ، ولكنهم كتبوه بدافع حب العلم لدراسة كل شئ في مصر وتسجيله ، وقد تمت ترجمة هذا الكتاب إلي اللغة العربية بواسطة الأستاذ زهير الشايب ثم استكملت العمل فيه ابنته مني زهير الشايب
- سأكون سعيد جداً إن قرأت لي بعض ما ورد في هذا الكتاب الشهير

٧٤. مقتطفات من كتاب وصف مصر

- إليك أولاً بعض ما ورد في مقدمة هذا الكتاب ثم بعد ذلك سنقرأ بعض فقرات قليلة من الكتاب دون ترتيب معين لنتأملها معاً
- كلي آذان صاغية ، ولكن اسمح لي أثناء القراءة بترديد أي عبارة تعجبني فهو أمر لا إرادي ، كما يمكنني التعليق أو الاستفسار ، ومن المؤكد أنك ستفهم الفرق بين الترديد والتعليق والاستفسار

- علي أي حال ، كتبت الاستاذة مني زهير الشايب في مقدمة الطبعة الثالثة من كتاب وصف مصر في أكتوبر ١٩٩٢ ما ملخصه : لقد مضي علي صدور هذا الكتاب في طبعته الأولي من الترجمة العربية أكثر من خمسة عشر عاماً ، لاقي خلالها –ولا يزال– الاهتمام المتزايد من القارئين والمتخصصين ، ولعل السبب وراء هذا الاهتمام يتضح لنا مما ذكره فورييه في مقدمة الطبعة الفرنسية حيث يقول : (لم يسبق لأي بلد آخر أن خضع لأبحاث بمثل هذا الشمول وهذا التنوع ، وفضلاً عن ذلك فليست هناك بلاد أخري جديرة بأن تكون موضوعاً لأبحاث كهذه ، فمعرفة مصر أمر يهم في الحقيقة كل الأمم المتحضرة) ، وإذا كان لعلماء الحملة الفضل والتقدير لتأليف هذا الصرح الفريد ، فقد أتاح المترجم الفرصة لأناس كثيرين –لا سيما المصريين– كي يعرفوا قدر هذا الوطن العظيم ، الشامخ علي مر العصور ، انتهي كلام أو بعض كلام الأستاذة مني زهير الشايب
- أكثر ما لفت نظري في كلامه عبارة (فليست هناك بلاد أخري جديرة بأن تكون موضوعاً لأبحاث كهذه)
- أما ما كتبه الأستاذ زهير الشايب نفسه في مقدمة كتابه في فبراير ١٩٧٦ فقد اخترت لك منه ما يتعلق بما ذكره علماء الحملة عن الدين الإسلامي من وجهة نظرهم وكيف عالج المترجم هذا الأمر حيث كتب ما يلي : ولقد آثرت هنا أن أقدم ترجمة كاملة أمينة نصاً وروحاً لكل ما ذكره المؤلف خاصاً بنا وبمعتقداتنا ، وسوف يلاحظ القارئ أنني قد آثرت عدم التدخل إلا في أضيق نطاق ممكن لاعتبارات لا بأس من طرح بعضها : ١ – أننا هنا بصدد أثر علمي هام ينبغي أن يحظي بالاحترام ، ٢ – أنه ليس كل ما يقال عنا صحيحاً علي إطلاقه ، وإن كان ينبغي علينا في كل الأحوال ألا نخشي أية فكرة صحيحة ، ٣ – أنه قد آن الأوان لنواجه بشجاعة ما يقال عنا ، فتجاهل ذلك أو الصمت عنه ليس هو الوسيلة المثلي ، فذلك الموقف لن يعني إلا تسليمنا ولو بشكل سلبي بصحته ، ومعرفة ما يقال عنا هي أفضل وسيلة لمواجهته بل ودحضه ، ٤ – أن الأقوياء لا يخافون معرفة ما يقال بشأنهم ، ولا أظن أحدا يجادل في قوة عقيدتنا ، وأنني فيما فعلت إنما كنت أصدر عن تقديس كبير للإسلام ولنبيه الكريم صلي الله عليه وسلم ، كما أنني واثق أنني فيما التزمت به من أمانة في النقل كنت أقرب ما يكون إلي روح الإسلام ، الذي ينهض أول ما ينهض علي الإقناع العقلي ، والذي كانت أول آية في كتابه الكريم تدعو إلي القراءة والفهم والذي لا يستوي –بنص آياته– الذين يعلمون والذين لا يعلمون ،
- من كلام الأستاذ زهير الشايب يتضح مدي هجوم علماء الحملة علي الإسلام وإلا لما كتب كل هذه التبريرات في مقدمة كتابه
- وأضاف الأستاذ زهير الشايب في نهاية مقدمته ما يلي : وبرغم كل شئ فإن واجب الأمانة يقتضي بأن أعترف بما يأتي : ١ – أنني قد حذفت من الجزء الخاص بالأقباط نصف جملة وجدت أن اللياقة تقتضي حذفها ، ٢ – أنني حذفت هامشاً كاملاً أثار –عند نشره بمجلة الثقافة– ردود فعل لم أكن أتوقعها ، ولا يتجاوز هذا الهامش أربعة سطور ، ٣ – أنني حذفت آخر عبارة في الكتاب (حوالي سطر

ونصف) إذ وجدت من الأفضل ألا تترك هذه الجملة طعماً مريراً في حلق القارئ ، بعد صحبة ممتعة مع مؤلف حاول جهده أن ينصفنا طيلة مؤلفه

- تعتقد ما هي العبارة الأخيرة في الكتاب الذي قام بحذفها ؟
- من المؤكد أنها تسئ بشكل عام للشعب المصري ، ولا سبيل لمعرفة هذه العبارة إلا إذا عدنا للنسخة الأصلية من الكتاب باللغة الفرنسية
- علي أي حال لقد عرفنا من خلال أحداث الحملة وما فعلوه بمصر والمصريين وجهة نظرهم الحقيقية عن الشعب المصري أو دعنا نقول الشعوب المسلمة بشكل عام ، وما كتبوه عن مذبحة يافا فيه الكفاية ، فما هي أول فقرة ستختارها لنستعرضها معاً
- ورد في كتاب وصف مصر وصف للصناعة المصرية كالآتي : (وقبل الدخول في تفاصيل فنون الصناعة ، ينبغي أن أنوه بالمقدرة المتميزة للغاية لدي الصناع المصريين ، فهم يملكون علي وجه الخصوص تلك الموهبة التي تثير إعجابنا لدي الصينيين ، موهبة المحاكاة المتقنة لأعمال الآخرين إلي درجة ينتج عنها في بعض الأحيان عدم القدرة علي التمييز بين التقليد والأصل ، ومن ناحية أخري فنحن نعرف أيضاً أن المصريين يعتادون العمل وهم جالسون ، وهم في نفس الوقت يعملون بخفة في صناعات مما لا يستطيع صناعنا أن يقوموا به في أوضاع مماثلة)[١٩٧]
- هذه شهادة من علماء الحملة الفرنسية تؤكد أن المصريين كانوا علي أتم الاستعداد للتقدم في مجال الصناعة إذا اتيحت لهم الفرصة لذلك ولكن لم تكن هناك قيادة واعية توجههم ، أو قل لا توجد إرادة سياسية لتحقيق ذلك ، فماذا ورد أيضاً بكتاب وصف مصر بدون ترتيب ؟
- لقد وردت فقرة عن اندهاش علماء الحملة الفرنسية من التسامح بين الأديان في مصر علي عكس ما كانوا يعتقدون – كما ما يلي : (----- وسنعجب لأن العامة الجاهلة الموسومة بالتعصب لا تلعن اليهود ، أو المسيحيين من الكاثوليك والأقباط والأرمن والسوريين والروم .. إلخ ، لأنها ألفت مشاهدتهم في جميع الأيام منتشرين بأعداد كبيرة ، يتاجرون بحرية في الشوارع والأسواق والأماكن العامة ، وتنتشر الأحياء التي يسكنها الأقباط والإفرنج والروم واليهود في كل أجزاء المدينة ، دون أن تحميها أية أسوار خاصة ، وكل طائفة لها كنائسها التي تمارس فيها شعائرها في سلام ، ودون أي نوع من المضايقات ، وهذه أيضاً مسألة لدينا عنها في أوروبا تصورات قل أن تطابق الواقع – – وتقع حارة النصارى – أحد أحياء الأقباط – جنوب ميدان الأزبكية أما أكبر أحيائهم التي تحمل هذا الاسم فيقع شمال هذا الميدان نفسه – – وللمسيحيين الروم كنيستهم قرب الحمزاوى في الغرب ، ولهم أيضاً حي يسمي حارة الروم إلي الشرق من السكرية – – والحي اليهودي – حارة اليهود – شديد الاتساع

---

[١٩٧] صفحة ٢٤٩ موسوعة وصف مصر – الجزء العاشر– تأليف علماء الحملة الفرنسية – ترجمة وتحقيق زهير الشايب ومني زهير الشايب – مكتبة الأسرة ٢٠٠٢

والازدحام – ومن اللافت للنظر بدرجة كبيرة أن يوجد مسجد في قلب هذا التجمع اليهودي الكثيف ويوجد بالحي اليهودي عشرة معابد –)[198]

- وهل كانوا يعتقدون أن كل أهل دين من الأديان يتحميهم أسوار خاصة ؟ ، ، يبدو أنهم لا يعرفون شيئاً عن الإسلام وعلاقته بباقي الأديان السماوية ، ولكن هل هناك وصف للتجارة في ذلك الوقت ؟
- بالطبع فقد ورد بالجزء الأول من موسوعة وصف مصر – صفحة ٢٥٦ ، ٢٥٧ ما ملخصه كالآتي : (– – – وتشتمل تجارة التصدير المصرية أساساً علي : الأرز والبن وجلود الماعز والأقمشة والقطن والسكر والقمح والعقاقير الطبية والخضروات الجافة ، وكانت الحنة مرغوبة بكثرة في كل البلاد ، وكان جزء من مالية مصر يذهب إلي تركيا لتسديد الجزية التي يدفعها الباشا للسلطان ، مع ما يرسل من هدايا كان يقدمها للوزراء والمقربين من السلطان ، حتي يثبت في مكانه ، – – – وكان ميزان العلاقات التجارية بين مصر وأوروبا لصالح مصر بشكل كبير
- أرجو أن تتأمل معي هذه الجملة (وكان ميزان العلاقات التجارية بين مصر وأوروبا لصالح مصر) سبحان مغير الأحوال
- إذ لم تكن مصر تدفع أموالاً علي الإطلاق ، وكان المقابل دائماً يتم في صورة بضائع ، بينما كانت أوروبا مضطرة في معظم الأحيان إلي دفع الأموال ، وكانت فرنسا ترسل الأصواف وصبغة النيلة والأسلحة ومختلف المواد اللازمة لصناعة الحدايد والنحاس ، أما البندقية فكانت تصدر لمصر العملات الذهبية الإيطالية والخرز والمرايا ، أما ألمانيا فكانت ترسل البورسلين والأواني الزجاجية والمواد اللازمة لصناعة الحدايد والنحاس ، – – أما تجارة الهند ومكة – علي العكس من ذلك – مكلفة لمصر – – ولكي نعطي للقارئ فكرة موضوعية عن تجارة مصر ، نضع تحت يده جداول مختلفة ، نوضح فيها بالتفصيل كل مواد الاستيراد والتصدير التي تغذي هذه التجارة ، وتعود هذه الأرقام إلي عام ١٧٧٥م ، – – – – وقد أورد علماء الحملة الفرنسية هذه الجداول من صفحة ٢٥٨ إلي صفحة ٢٦٣ بالجزء الأول من الموسوعة –)[199]
- لا داعي لقراءة كل هذه الجداول ولكن يكفي أهم ما جاء فيها
- أهم ما جاء في هذه الجداول هو أن فرنسا كانت تستورد القمح المصري ، فقد ورد في الجزء الرابع الذي يصف الزراعة والصناعات والحرف والتجارة في مصر ، بيان ما تقوم مصر بتصديره واستيراده من أصناف وأنواع التجارة المختلفة ، ومما يلفت النظر ما جاء تحت عنوان (تجارة مصر مع فرنسا) فقد كتب علماء الحملة الفرنسية ما يلي : الواردات : كان يصدر من فرنسا إلي القاهرة سلع مختلفة تنتجها

---

[198] موسوعة وصف مصر – مقتطفات مختارة من الجزء العاشر– تأليف علماء الحملة الفرنسية – ترجمة وتحقيق زهير الشايب ومني زهير الشايب – مكتبة الأسرة ٢٠٠٢

[199] نقلاً باختصار عن الجزء الأول من كتاب موسوعة وصف مصر – تأليف علماء الحملة الفرنسية – ترجمة زهير الشايب

المصانع الوطنية بالإضافة إلي بضائع متنوعة ، قادمة من بلاد أجنبية ، وخزنت في مرسيليا ، وكانت أهم البضائع الفرنسية تشتمل علي أجواخ لانجدوق المعروفة باسم لندران درجة أولي وثانية ، وكذلك علي أجواخ من سيدان ومن لوفييه وآب فيل ، ومنسوجات من ليون محلاة بجالونات ذهبية وفضية ، – – – – ثم يستمر المؤلف الفرنسي في وصف المنتجات التي تقوم مصر باستيرادها من فرنسا إلي أن يصل إلي بند الصادرات المصرية إلي فرنسا فيقول : الصادرات : تصدر مصر إلي فرنسا : الأرز والقمح والزعفران وملح النشادر والنطرون والصودا والقطن المغزول والأقمشة القطنية والكتانية من مختلف الأصناف والسنامكي وجلود الجاموس والأبقار والجمال ، وبخلاف هذه السلع المنتجة أو المصنوعة في مصر كانت الأخيرة تصدر إلي فرنسا أيضاً السلع الآتية والتي كانت تعد مستودعاً لها ، وهي تشتمل علي السلع القادمة من أواسط أفريقيا ، عن طريق دارفور وسنار : الصمغ ، التمر هندي ، العاج ، ريش النعام ، وكمية ضئيلة من تراب الذهب (التبر) – – وكان الأرز يصدر في العادة عن طريق دمياط – – –أما القمح الذي يصدر إلي فرنسا فكان يخزن أولاً في رشيد ، ومن هناك يرسل في مراكب إلي أبي قير والإسكندرية ، ومنها يبحر القمح في السفن التي تشكل قافلة المشرق – – – وكانت السفن اليونانية علي وجه الخصوص ، ومن مختلف جزر الأرخبيل ، هي التي تستخدم في نقل القمح من فرنسا حين عانت إيطاليا من نقص الغلال – – في منتصف القرن الماضي ، وتقدر الكمية التي صدرت من القمح خلال سنوات القحط الثلاث ، والتي أصابت هذه المناطق ، بنحو ثمانين ألف أردب ، وفرض مراد بك ، وهو الذي كان يحصل علي عائد جمرك رشيد ، رسم خروج قدره ١٨٠ مديني عن كل أردب من القمح[٢٠٠]

- أعتقد أن مصر لم تعاني طوال تاريخها من الحاجة للقمح إلا في العصر الحديث ، وسبحان الله
- ومن أهم ما ورد من فقرات في هذا الكتاب الضخم وصف علماء الحملة الفرنسية للشعب المصري في ذلك الوقت وقد ذكرته لك في بداية حوارنا
- فماذا عن وصفهم للمماليك ، أم أن كل كلامهم كان عن الشعب المصري فقط ؟
- لقد قام علماء الحملة الفرنسية بتوضيح أسباب عدم تكاثر المماليك في مصر وإليك بعض ما ورد في كتاب وصف مصر عن هذا الموضوع : – – – – يمكن للزوجة المصرية أن تصبح أماً فيي سن الثانية عشرة ، لكنها تصل لذلك في العادة في سن الرابعة عشرة . وتظل في سنواتها المقبلة تقدم الأدلة علي خصوبتها المذهلة – – ولكننا نستطيع القول – لكي نقدم نسبة دقيقة – بأن كل مصرية تتزوج تنجب طفلاً كل ثلاثة أعوام ، ويقيم ذلك نوعاً من التعويض بالنسبة للسيدات اللاتي يمرضن ، أو اللاتي يتميزن بخصوبة قليلة ، ، ، والعقم التام شديد الندرة في هذه البلاد ، – – – –وتتم الولادة عن

[٢٠٠] نقلاً عن كتاب (موسوعة وصف مصر – جزء الزراعة والصناعة والتجارة) تأليف ب س جيرار من علماء الحملة الفرنسية – ترجمة زهير الشايب – الجزء الرابع – مكتبة الأسرة ٢٠٠٢ – مقتطفات من صفحة ٣٠٤ إلي صفحة ٣١٠

طريق القابلات وهي علي الدوام حوادث سعيدة ، وعندما لا تستطيع امرأة – بعد أن تكون استنفذت كل الوسائل – أن تتمتع بسعادتها في أن تكون أماً ، أو أن تحتفظ بالأبناء الذين أتت بهم إلي هذا العالم ، فإن التبني يعوضها عن ذلك الحرمان – – – ويقوم الموت بحصد أطفال العائلات الأجنبية علي وجه الخصوص ، فالمماليك واليونانيون والعثمانيون والأوروبيون وكافة أبناء الأجناس التي لا تنتمي لهذا الوطن يموتون في العادة دون ذرية تخلفهم ، وذلك إذا ما تناسلوا فيما بينهم ، أما عندما يتزوجون من سيدات هذا البلد فإن بمقدورهم أن يتمتعوا بمباهج الأبوة ، دون أن يستطيعوا مع ذلك أن يتطلعوا إلي أن ينالوا نعمة أن يتركوا بعدهم ذرية كبيرة العدد ، ، – – – وهكذا يمكن القول بأن هذا الشعب يدين بوجوده لخصوبة نسائه ، بينما يصعب علي الأجناس الأخري أن تستمر علي قيد الحياة في هذه البلاد ، ، وسوف نقدم الدليل علي ذلك في الجدول الآتي عن حالة أهم الأسر المملوكية : اسماعيل بك : لم يترك إلا بنتاً واحدة ، إبراهيم بك : له طفلان علي قيد الحياة ، قاضي أغا : أنجب أحد عشر طفلاً ، بقي منهم أربعة علي قيد الحياة ، مراد بك ، أيوب بك الصغير وأيوب بك الكبير ، الألفي بك ، محمد بك المنفوخ ، عثمان بك تباس ، عثمان بك الشرقاوي ، عثمان بك الأشقر ، عبد الرحمن بك ، عثمان بك البرديسي ، عثمان بك الطمبورجي ، حسن بك الجداوي ، صالح بك ، إبراهيم بك الوالي ، محمد بك العبدولي ، كل هؤلاء بلا أطفال ، ، محروق بك بن إبراهيم بك : له طفلة واحدة علي قيد الحياة ، علي بك الكخيا : له طفلة واحدة علي قيد الحياة وكذلك سليمان بك ، أحمد بك الكرارجي : لم ينجب أطفال علي الإطلاق ، ونفس الشئ بالنسبة لعثمان بك حسن ، وكذلك سليم بك أبو دياب ، وقاسم بك ، حسن كاشف الشركسي لم يخلف سوي طفل أعمي ، محمد أغا : أنجب اثنين وعشرين طفلاً لم يبق منهم علي قيد الحياة سوي طفل واحد ضعيف البنية

- يا لها من إحصائية عجيبة بالفعل
- ومن هذه الإحصائية نري كيف كان عدد أطفال المماليك الذين يبقون علي قيد الحياة ضئيلاً ، ويمكننا من جهة أخري أن نعد أسراً أجنبية أخري كثيرة لم تكن بأسعد حظاً من ذلك ، وهذا دليل علي أن الوطنيين وحدهم في مصر هم الذين لديهم فرصة البقاء عن طريق التناسل ، ويبدو أن طبيعة المناخ تلفظ بعناد بذور الأجناس الغريبة
- ربما يفسر ذلك قيام المماليك بشراء المزيد من المماليك بصفة مستمرة من أسواق الرقيق في ذلك الوقت ، وماذا ورد أيضاً في هذا الكتاب من موضوعات ؟
- لقد وردت فقرة عن إعجاب علماء الحملة الفرنسية باحترام الشيخوخة في مصر ، فقد ورد في الجزء الأول من كتاب وصف مصر عن هذا الموضوع ما ملخصه : قد لا يكون من المناسب أن نبحث عن ممارسة الفضائل الطبيعية عند الشعوب المتحضرة ، حيث تتوافق الأنانية والمصالح – وهما أبناء الحضارة الشرعيين –مع أضواء المعرفة ، إذا صح القول ، ذلك أن أفق المعارف عند الشعوب كلما

اتسع كلما ابتعدت هذه الشعوب عن حياة الطبيعة ، ولا ينبغي أن نمضي بهذه الفكرة بحد أبعد من ذلك ، ومع أننا لا ننتوي هنا أن نعقد مقارنة متعسفة ، فإنه ينبغي علينا القول بأن الشرقيين وإن كانوا قد أهملوا تعلم العلوم والآداب ، فقد استطاعوا علي الأقل أن يحتفظوا ببعض آثار من العادات والفضائل البدائية ، وإلا ، فهل ثمة عند أمم الشرق ما يستوجب المديح أكثر من ذلك الاحترام العميق الذي يكنونه نحو الشيخوخة ؟ ، ويتميز المصري علي وجه الخصوص بهذا الشعور النبيل ، – – –– – – وفي مقابل ذلك ، فإن المفكر يستطيع أن ينعي علي الشعوب الأوروبية – التي تطورت صناعاتها ومعارفها لحد مذهل – هذه اللامبالاة الشديدة نحو الشيخوخة – – – ونستعير هنا ، حول هذا الموضوع ، بعض الافكار التي وردت علي لسان مؤلف كتاب رسائل عن مصر Lettres sur L'Egypte الذي انتقدنا بمرارة وأحياناً تحامل صارم ، وترسم أقواله بدقة ذلك الفرق الكائن بين أفكار وعادات شعوب الشرق ، وبين مثيلاتها عند شعوب الغرب ، بخصوص الشيخوخة : إن الشيخوخة عند كل الشعوب المتحضرة ، حيث يعيش الإنسان وسط عائلته فترة أقل ، لا تلقي من الاحترام نفس ما تلقاه في مصر ، بل إنها تكاد تكون في معظم الأحيان نقيصة ، حيث ينبغي علي ذي الشعيرات البيضاء أن يصمت أمام غرور الشباب ومباهاته ، وأن يلعب دور طفل حتي يمكن تحمله في داخل نطاق العائلة ، فما أن يحس الإنسان عندنا بأن سنوات العمر قد بدأت تثقل كاهله ، حتي يري نفسه وقد أصبح عبئاً ثقيلاً علي أولئك الذين يدينون بوجودهم له ، يري نفسه وقد أنكر عليه حق الرعاية وأغلقت دونه القلوب ، وترتجف من برودة الوحدة روحه ، أما المشاهد التي كنت أراها هنا في مصر قد اضطرتني أن أقدم لكم النقيض المقابل ، فهنا في مصر ، يبتسم العجوز وهو يلقي الاحترام ، يبتسم برغم وطأة وضعف هذه الشيخوخة – لأحفاده وهم يأتون لمداعبته ، وينشرح صدره وهو يري أربعة أجيال تهرع نحوه لتقدم إليه ما تفرضه عليها الشفقة الحنون ، فيتذوق بذلك بهجة الحياة حتي آخر لحظة من لحظات عمره ، وفي واقع الأمر فإن الأوروبيين لا يمكنهم أن يرضوا عن أنفسهم بثقة وإعجاب عندما يرون هذا الاحترام الذي يبلغ مرتبة التقديس ، – – –فهؤلاء الناس الذين نطلق عليهم ذلك النعت المقزز المرعب : المتوحشون البرابرة ، يقدمون لنا في هذا الخصوص مثالاً يجدر بالاحتزاء ، علي أجمل الفضائل ، فكل شئ في كبار السن يفصح عن المهابة والأهمية ، فإذا تكلموا أنصت الجميع لما يقولون في احترام شديد ، ويترجم العرب كلمة Vieillard (مسن–عجوز) بكلمة : شيخ ، وهو لقب شرف يوحي بمعني التشريف والسيادة ، والكلمة الأولي في كل العائلات المصرية للأكبر سناً ، – – – وفضلاً عن ذلك فإن الشرق – الذي نتفق علي أنه مهد الحضارات – كان مسرحاً للتقاليد الأبوية القديمة ، – – وإذا كانت أوروبا هي وطن الفنون ومسرح ملذات الشباب ومغامراته ، فإن الشرق ، – ومصر بوجه خاص – هو علي نحو ما ، جنة الشيوخ

- ألم يعلم هؤلاء معني بر الوالدين في الإسلام والعطف علي الصغير وتوقير الكبير ، لماذا لم يفسر علماء الحملة كل هذه السلوكيات تفسيراً دينياً ، ألم تقل أنهم قد درسوا ديننا وتعاليمه ،
- ربما كان يمنعهم من ذلك المكابرة وإنكار الأديان بشكل عام
- علي أي حال تكفي هذه الفقرات من كتاب وصف ولنبدأ الحديث عن محمد علي باشا
- ولكن هناك موضوعات أخري طريفة يمكن أن تنال إعجابك عن أحوال مصر والمصريين في ذلك الوقت
- مثل ماذا؟
- مثل وصف علماء الحملة لحمامات الساونا علي الطريقة المصرية فتحت عنوان الحمامات العامة كتب علماء الحملة الفرنسية ما يلي : يمكن أن نحصي أكثر من مائة حمام بالقاهرة ، يواظب السكان علي الذهاب إليها ، وبخاصة في الشتاء ، - - إذ يسمح الصيف للطبقة الدنيا منهم بالتطهر والاغتسال في النهر حيث تكون مياهه شبه فاترة ، أما الشتاء ببرده فإنه يحرمهم من هذه الوسيلة الاقتصادية ، وهنا يتوجه إلي الحمامات ، حوالي مرة كل أسبوع ، أولئك القادرون منهم ، ليحصلوا بمصاريف زهيدة علي متعة يطمح إليها الفقراء والأغنياء معاً ، أما رجال الطبقة الممتازة ، أو بالأحري أولئك الذين يحوزون ثروة كبيرة . فإنهم يمتلكون في بيوتهم حمامات خاصة ، وبرغم ذلك فإن هذا لا يمنعهم من أن يلتقوا بين الحين والحين في الحمامات العامة ، ليروحوا عن أنفسهم فيما بينهم ، - - - - ويوجد بكل حمام مغطس ملئ بمياه شديدة السخونة ، وبعد أن ينتهي المرء من استحمامه يغطس فيه للحظات ، وطريقة الاستحمام التي تتبع هناك تختلف عن طريقتنا نحن في ذلك ، فبعد أن يدخل المرء ، يستقبله الخدم في الحجرة الأولي حيث يودع ملابسه ، ويعقد حول جسمه فوطة بسيطة ، ثم يقاد إلي ممر يشعر وهو سائر فيه بوهج الحرارة يشتد شيئاً فشيئاً لتصبح قوية عند اقترابه من الحجرة الثانية ، وهناك يجد نفسه وسط سحابة من بخار ساخن معطر يخترق مسام كل جسمه ، ويرقد علي قطعة من قماش صوفي فيقترب منه علي الفور خادم يلبس في يده قفاز ، أو يمسك بفوطه من صوف ناعم ، وعندما يتأكد أن البخار قد اخترق كل المسام بشكل كاف ، يبدأ بأن يطقطق كل مفاصل الوافد وتكاد هذه العملية لا تسبب سوي ألم خفيف تعوضه تلك الليونة التي تحدثها بعد ذلك في حركة الجسم ، ويستطيع الأوروبيون الذين لم يعتادوا مثل هذه العملية ويخشون نتائجها ، أن يرفضوها بمطلق حريتهم ، وبعد ذلك يدلك الخادم الجسم بالقفاز أو قطعة الصوف التي بيده ، ويكون التدليك قوياً لحد يظن معه المرء أن جلده سينفصل عن جسمه ، ويتوالي سقوط خيوط سوداء ، إذ يتخلص الجسم من كل الوساخات التي كانت عالقة به ، بل إن المسام نفسها تتخلص من أقل شئ يمكن أن يسدها ، وفي أثناء هذه العملية يكون النزيل الصبور غارقاً في عرقه ، ثم يقتاد بعد ذلك إلي حجرة مجاورة ليبقي وحده ، ويغتسل بمياه تأتي من عيني مياه إحداهما ساخنة ومياه الأخري باردة ، ثم يرتدي قميصاً ليعود في النهاية إلي الحجرة الأولي ، حيث يقدم له الخادم وهو جالس علي أريكته النارجيلة وفنجاناً

من القهوة ، وعندما يحين خروجه تكون ملابسه قد تعطرت بدخان خشب الصبر ، وترش رأسه وكل جسمه برغاوي صابون معطر ، – – – –ويقوم مدير الحمام بتعطير الحجرات وإعداد ماء الورد ، ويحصل عادةً مقابل كل هذه الخدمات علي ما يكفيه ، إذا كان رواده من الأثرياء ، ونادراً ما يكون مكان الاستحمام واحداً بالنسبة للجنسين ، إذ ينقسم المبني إلي قسمين لكل منهما مدخل مستقل ، وفي الحالة الأولي يخصص لكل من الجنسين موعد خاص ، وتذهب النساء عادةً إلي الحمام في وقت متأخر ، وما إن يدخلن حتي تعلق قطعة من قماش مطرزة أو سجادة لتنبه الجمهور إلي حضورهن ، ومنذ ذلك الوقت لا يمكن لأي رجل أن يدخل ، ويستبدل بكافة الخدم الذكور علي الفور وبدون استثناء خادمات – – ٢٠١

- إنها معلومات طريفة بالفعل لم أكن أعرف عنها شيئاً ، فماذا كتبوا أيضاً
- لقد قام علماء الحملة الفرنسية بوصف الأسبلة في القاهرة : بالجزء العاشر من موسوعة وصف مصر وفي صفحة ٢١٢ وما بعدها وتحت عنوان الكتاتيب ، الأسبلة ، والأحواض العامة ورد ما ملخصه : – – – – ذكرت من قبل أن الأسبلة والكتاتيب العامة بالقاهرة ، قد نتجت معظمها عن منشآت –– لأمراء وأثرياء كرسوها لصالح سكان هذه المدينة الكبيرة وراحتهم ، وقد لا تكون هناك مدينة في أوروبا تضم هذا العدد من الأسبلة ، ونلاحظ في هذه الأبنية أعمدة الرخام والنقوش الرائعة ، وكذلك حليات من الحجر والبرونز ، ومنها يحصل الناس في جميع الفصول ومجاناً علي احتياجاتهم من الماء الذي يحمل إليها بمشقة بالغة من الفرع الأقرب من النيل ، حيث تصادفنا في الشوارع الجمال المخصصة لهذه الخدمة بدون انقطاع ، وفضلاً عن الأحواض التي يغترف منها الماء بوفرة يوجد في خارج هذه الأبنية سبيل مصاصة يرتشف المارة منه الماء لتخفيف ظمئهم ، أما الأعمدة التي تزدان بها واجهات هذه الأسبلة فمن المألوف أن تكون قطعاً من الرخام الأبيض نفذت في أيطاليا ، وهي ملساء أحياناً ، وقد تكون حلزونية الشكل أحياناً ، أو ذات شكل مضلع أحياناً أخري ، وكثيراً ما يجمع بين هذه الأشكال ، مع حليات من البرونز الذهبي اللون ، كما أن نوافذ السبيل نفسها مزودة بقضبان من البرونز مشغولة بمهارة ، وعلي الجدران نقوش محفورة تخلد اسم صاحب السبيل ، والأسبلة عبارة عن ثلاثة طوابق ، أولها الموجود تحت سطح الأرض ، وهو عبارة عن خزان واسع تصب فيه قرب المياه التي تحملها الجمال ، أما الطابق العلوي فيرفعه عدد من الدعامات أو الأعمدة ، وهكذا تضم هذه الأقبية عدداً ضخماً من الأعمدة الجرانيتية والحجرية جمعت من المباني القديمة ، ولست أشك في أننا لو قمنا بفحصها لوجدنا من بينها قطعاً قديمة بالغة الأهمية ، وعدد هذه المنشآت النافعة كبير وهو يبرهن علي أن روح الإحسان في الشرق أكثر انتشاراً من تصورنا المعتاد ، وسيكون تعداد هذه الأسبلة إطالة مفرطة ، وسأقتصر علي ذكر أهمها وأكثرها فخامة فيما يتصل بالعمارة ، – – –– – ويبلغ العدد

[٢٠١] نقلاً باختصار عن كتاب موسوعة وصف مصر تأليف علماء الحملة الفرنسية ترجمة زهير الشايب الجزء الأول من صفحة ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠

الإجمالي للأسبلة ، أو تلك التي قمت بزيارتها علي الأقل ، مائتين وخمسة وأربعين سبيلاً ، تتميز ببنائها الرائع ، وغالباً ما يعلو السبيل طابق يضم مدرسة مجانية (كتاب) أسسها رجل الإحسان نفسه الذي أنشأ السبيل ، وتحمل اسمه أيضاً ،

- من حسن الحظ أن هناك العديد من الأسبلة موجودة حتي الآن وتشهد بعظمة ورقي فن البناء في تلك العصور ، فهل هناك موضوعات أخري تريدني أن أعرفها من كتاب أو موسوعة وصف مصر ؟
- يمكن أن نكتفي بهذا القدر ونبدأ في الحديث عن أحداث ما بعد رحيل الحملة الفرنسية
- لا مانع علي الإطلاق ، فماذا حدث بعد رحيل الحملة ؟

٧٥. عندما تولي محمد علي باشا حكم مصر

- خمس سنوات تقريباً (١٨٠١-١٨٠٥م) هي الفترة بين جلاء الحملة الفرنسية وبين تولي محمد علي باشا حكم مصر وكانت أحوال مصر خلال هذه السنوات الخمسة في غاية الاضطراب فقد تصارعت عدة قوي علي الحكم والطريف أن محمد علي شخصياً كان وراء هذه الاضطرابات والعقل المدبر لها أو علي الأقل لمعظمها فكان يستخدم جميع الوسائل المتاحة من قوة ودهاء ليضمن عدم سيطرة أحد الفرق المتصارعة وعدم استقرار الأمور لأي فريق منهم في مصر كما كان يتقرب من الزعامة الشعبية ويراهن عليها فالشعب هو القوة الباقية التي يمكن أن تمنحه حكم مصر وسط كل هذه الصراعات وكانت الحملة الفرنسية قد أشعلت روح الجهاد في الشعب المصري وتسببت في إفاقته من سباته العميق ربما دون أن تقصد
- ولكن من هو محمد علي وما هي الأساليب التي استخدمها ليصل إلي حكم مصر وما الذي دار خلال هذه السنوات الخمسة ؟
- ولد محمد علي سنة ١٧٦٩ م٢٠٢ ونشأ بمدينة قولة من ثغور مقدونيا وكان منذ صغره يبدو عليه النبوغ والجرأة واقتحام المخاطر وروح المغامرة منذ التحق بالجيش وكان يميل إلي حل المواقف والمشاكل الصعبة بطرق غير تقليدية تعتمد علي الذكاء الحاد وسرعة البديهة وانتهاز الفرص المناسبة بغض النظر عن أي اعتبارات أخري ، ومارس محمد علي لفترة تجارة الدخان مما جعله يكتسب خبرة كبيرة في المسائل التجارية والاقتصادية وكان لا يعرف القراءة والكتابة ، ثم ترك محمد علي تجارة الدخان وعاد مرة أخري إلي الحياة العسكرية وعندما قام السلطان العثماني بتجميع جيش كبير لقتال الحملة الفرنسية في مصر طلب من كل حاكم ولاية أن يرسل قوة لتنضم إلي هذا الجيش (صدر الأمر إلي متصرف قولة بتقديم ما لديه من الجنود فألف كتيبة من ثلثمائة جندي انضم محمد علي في سلكها)٢٠٣ ووصلت هذه القوة مع مثيلاتها تحت قيادة حسين قبطان باشا إلي أبي قير في شهر مارس

---

[٢٠٢] تاريخ الحركة القومية ج٢ (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٢٥٦ [وهذه السنة ولد بها نابليون أيضاً]

[٢٠٣] تاريخ الحركة القومية ج٢ (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٢٥٨

سنة ١٨٠١ م علي متن السفن العثمانية ومنذ ذلك التاريخ شهد محمد علي كل الأحداث وحتي جلاء الحملة الفرنسية وكان محمد علي من ذلك الطراز من القادة الذين عرفوا إمكانيات مصر جيداً وعلي حد تعبير الأستاذ جمال بدوي عنهم (وضعوا أيديهم علي مفتاح شخصيتها فباحت لهم بسرها وجعلت منهم حكاماً يلهج بذكرهم التاريخ)[٢٠٤] ، وعندما تقرأ عن الأحداث التي مرت بها مصر خلال السنوات الخمسة التي أعقبت جلاء الفرنسيين عن مصر تشعر أن محمد علي كان يلعب بالنار في جرأة وشجاعة يحسد عليها ، وكان الرجل الثاني في القوة الألبانية الموجودة بمصر ضمن قوات الجيش العثماني ،

- فهل قام السلطان العثماني بتعيين والي علي مصر بعد جلاء الحملة الفرنسية ؟
- نعم لقد قام السلطان العثماني بتعيين عدة ولاة علي مصر خلال هذه الفترة واحداً تلو الآخر ولكن لم يصمد أحد منهم وسط الظروف التي كانت تحيط به ، وكان أول والي بعد جلاء الحملة الفرنسية مباشرة هو خسرو باشا ثم أحمد باشا ثم علي باشا الجزائرلي أما آخر والي فكان اسمه خورشيد باشا وكل هؤلاء لم يتمكنوا من فرض سيطرتهم علي مصر وقد يكون السبب في ذلك هو محمد علي نفسه
- فماذا كتب المؤرخون عن هذا الموضوع ؟
- يقول عن هذه الفترة المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي (كان محمد علي هو الرأس المدبر للحملة علي خسرو باشا ثم علي أحمد باشا ثم علي علي باشا الجزائرلي ، ولكنه ظل بعيداً عن الميدان وترك عثمان بك البرديسي " من زعماء المماليك " يأتمر بعلي باشا الجزائرلي ويتولي أمر قتله ليحتمل تبعة هذا العصيان الخطير في نظر الباب العالي إذا ما جاء وقت الحساب ، والواقع أن مقتل الجزائرلي كان فيه القضاء علي مظهر السلطة العثمانية في مصر وبذلك تخلص محمد علي من إحدي القوتين اللتين كان يعمل علي سحقهما ولم يبق أمامه إلا قوة المماليك فبدأ العمل علي التخلص منها وتمهيداً لهذه الغاية ترك لزعماء المماليك السلطة ظاهراً حتي يحملهم تبعة الحكم ومساوئه ويجعلهم هدفاً لسخط الشعب)[٢٠٥]
- يا له من داهية

٧٦. كيف تلاعب محمد علي باشا بعثمان بك البرديسي ؟

- يوجد كتاب اسمه (الفرعون الأخير محمد علي) لكاتب يُدعي جيلبرت سينويه وترجمة عبد السلام المودني وقد تناول الكاتب في كتابه العديد من الأمثلة علي مكر ودهاء محمد علي فيقول مثلاً عما فعله محمد علي بعثمان بك البرديسي أحد أمراء المماليك عندما طالبه الجند برواتبهم وحدثت اضطرابات عديدة بسبب ذلك : (– – وفي ظل هذا الجو المأساوي ، يدفع محمد علي بالبرديسي

---

[٢٠٤] محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ٣٣

[٢٠٥] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج٢ صفحة ٢٨٥

التعيس إلي الواجهة ، ويكاد يصير حاكماً للبلاد ، ففي السابع من شهر ربيع الأول أي الثاني والعشرين من شهر أيلول لسنة ١٨٠٤ يدخل الشريكان إلي العاصمة ، فتستقبلهما الجموع الغاضبة التي تشتكي الفاقة والعوز ، وأمام حالة اليأس الكبيرة هذه ، يأمر البرديسي محمد علي بفتح مخازن الغلال من توه وتوزيع الحبوب المخزونة فيها ، مَن مِن الرجلين سيستفيد من هذا القرار ؟ البرديسي بحسب جبارتي ، لكن ما من شك أن محمد علي سيحظي بحصة هامة من رضي الشعب ، ألم يكن هو من يوزع القمح في النهاية ؟ لكن ومهما يكن الأمر ، فلحد الساعة لم تحل المشاكل بعد ، فعلي البرديسي أن يستجيب لمطالب الجنود المتعددة والمتكررة بتأدية رواتبهم المتأخرة ، وهكذا يجتمع مجلس لدي إبراهيم باي ، ويتم اتخاذ قرار بتقسيم المبالغ المستحقة بين الأمراء بحسب مواردهم ، ولكن هذا لم يكن كافياً أيضاً ، فيرغم البرديسي علي الرفع من ضريبة علي تجار القاهرة ، وأيضاً علي تجار العاصمة من الأجانب وبالتالي ستسبب الإذاية للقناصلة – – – وهكذا فقد كان يتم الاستيلاء علي بضائع التجار تحت أنظارهم الحزينة وتباع بأبخس الأثمان ، – – – – ولاستدرار دعم الجيش يعمد البرديسي إلي إضافة ضريبة جديدة علي المواطنين ، وهي النقطة التي أفاضت الكأس ، وتحولت القاهرة في الأيام التي أعقبت ذلك ، إلي بركان يغلي فاندلعت المواجهات في كل مكان فيها تقريباً وارتفعت الأصوات المتوحدة من المآذن تعلن "ما الذي تريد إضافته إلي شقائنا يا برديسي" (إيش تاخد من تفليسي يا برديسي) وقام الرجال والنساء علي السواء بطلاء أيديهم بطلاء أزرق علامة علي الحداد ، وأغلقت الدكاكين ، وزاد نهب المرتزقة أكثر من أي وقت مضي ، والاستيلاء علي البراجي القادمة من مصر العليا أو السفلي ، وتوجهت الجموع إلي الأزهر ، مكان تجمع الشعب في الأزمات العظمي ، وتأهبت الأيادي للانقضاض لكن لم يحدث أبداً ، وهو ما يثبت حسن تدبير محمد علي ، وتحت تأثير موجة الغضب العارمة ، أن توجه أحد باللوم إلي الباشا القادم الذي كان يفرك يديه خلف الكواليس ، فقد حانت لحظة إلقاء البرديسي في الجحيم ، وهكذا قام بتوزيع الألبان التابعين له في العاصمة وكلفهم بمهمة منع المماليك من إيذاء الجماهير ، وبدأ الشعب الصغير يهتم من قريب بهذا الحامي الذي أرسلته العناية الإلهية ، ويستدعي البرديسي المستشيط غضباً العلماء ووجهاء العاصمة ويحملهم شاتماً مسئولية ما يقع من أحداث ، فيدافع محمد علي عن العلماء ويعلن بحسم عن أن الحكومة هي من عليها تحمل أداء رواتب الجنود وليس الشعب المصري وبهذا الموقف يبرهن للوجهاء أنه لا يخشي أن يعارض المماليك في سبيل الدفاع عن مصالح الشعب ، وبطريقة غير محسوسة لا يمنح للشعب صورة المنقذ فقط بل والمنقذ بلا طموح)[٢٠٦]

- أعتقد إنه ليس من المروءة أن تكون لديك رؤية لحل مشاكل وأزمات شعب مطحون ولا تقدم الحلول أو حتي مقترحات للحلول بل وتفتعل أزمات غير موجودة، لمجرد أن تثبت فشل من في السلطة ، كي

[٢٠٦] (الفرعون الأخير محمد علي) تأليف جيلبرت سينويه –تقديم ديروش نوبلكور–ترجمة عبد السلام المودني

تتولي أنت السلطة بدلاً منه ، فمصالحك الشخصية أهم من الصالح العام الذي يمكن أن ترعاه وأنت خارج السلطة أيضاً ، وعلي أي حال لقد قمت باختيار فقرة من كتاب يوضح تماماً ما كنت استفسر عنه ، فماذا حدث للتعيس البرديس بعد ذلك وإبراهيم بك ؟

- **لقد لاذوا بالفرار بعد أن أرسل إليهم محمد علي جنوده الألبان للضغط عليهم والمطالبة برواتبهم المتأخرة هم أيضاً (وأُسقِط في أيدي المماليك ورأوا أنفسهم حيال قوتين ثورة الأهالي من جهة وجنود محمد علي من جهة أخري فلم يجدوا سبيلاً للنجاة سوي الفرار من القاهرة)[٢٠٧]**
- **إذن فقد خلا الجو تماماً لمحمد علي**
- **بالتأكيد ، (كانت الفرصة سانحة ليحقق محمد علي آماله ويتولي سلطة الحكم في مصر فالمماليك قد دالت دولتهم والقوة التركية قد تلاشت من البلاد والوالي التركي في القلعة سجين وليس ثمة قوة حربية سوي الألبانيين " الأرناؤوط " الذين تحت قيادته ولكن محمد علي كان طويل الأناة بعيد النظر فرأي ألا يصل إلي سلطة الحكم بقوة الجند وآثر أن ينتظر حتي يصل إلي تلك الغاية بإرادة الشعب وبذلك يبرهن أنه لم يناوئ المماليك لمطامع شخصية بل لمحض الصالح العام فيزداد الشعب تعلقاً به)[٢٠٨]**
- **ومن أصبح والياً رسمياً علي مصر وسط كل هذا ؟**
- **(وصل خورشيد باشا إلي بولاق في أواخر مارس سنة ١٨٠٤ وهو خامس من تقلد ولاية مصر – – فأولهم خسرو باشا وقد خلع ، ثم طاهر باشا وقد قتل ثم أحمد باشا وقد طرد ثم علي باشا الجزائرلي وقد قتل ، ثم خورشيد باشا وفي عهده قامت الثورة)[٢٠٩] ، (وكان خورشيد باشا سئ الرأي فاسد التدبير ميالاً إلي الظلم غير مكترث بميول الشعب معتمداً علي القوة الغشوم – – تعددت مظالمه فتدخل العلماء غير مرة لرفعها عن الناس – ففي عهده قوي سلطان العلماء وبلغ نفوذهم أقصي مداه حتي أثاروا الشعب واقتلعوا بقوته الوالي عن كرسي ولايته وأجلسوا محمد علي مكانه ولم يسبق لهم هذا النفوذ من قبل)[٢١٠] وهكذا ثار الشعب علي الوالي خورشيد باشا بالقوة وكان زعيم الثورة وقائدها هو السيد عمر مكرم الذي أعطي السلطة لمحمد علي بعد أن أخذ منه العهود والمواثيق أن يعدل بين الناس وأن يحكم البلاد بما يرضي الله ،**
- **فماذا كان رد فعل السلطان العثماني**
- **لقد أرسل الشعب المصري إلي السلطان العثماني يطلب منه تعيين محمد علي والياً علي مصر واستجاب السلطان لرغبة الشعب وأرسل فرماناً بتولية محمد علي حكم مصر ،**
- **ونزل خورشيد باشا أخيراً من القلعة ؟**

---

[٢٠٧] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٢٩٣

[٢٠٨] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٢٩٣

[٢٠٩] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٢٩٤

[٢١٠] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٢٩٦

- لم تتوقف الحرب بين الشعب والوالي إلا عند وصول هذا الفرمان من الأستانة يوم ٩ يوليو سنة ١٨٠٥ م٢١١ ونزل خورشيد باشا من القلعة وهو يعتبر آخر والي تم تعيينه بإرادة السلطان العثماني قبل تولي محمد علي ، أما محمد علي فكان تعيينه بإرادة الشعب وقبل كل هذا وبعده إرادة المولي عز وجل
- إذن فقد وصل محمد علي باشا للحكم في مصر والتقت مصر بشخصية بارزة غير عادية
- هذا صحيح فقد تكلمنا من قبل عن كبار القادة عندما يحضرون إلي مصر علي اختلاف دياناتهم ومذاهبهم وكيف ينظرون إلي مصر نظرة خاصة ويرون بها ما لا يراه الآخرون إنها الشخصيات البارزة التي تكلمنا عنها من قبل مثل مينا ومنتوحتب الثاني وأحمس الأول والإسكندر المقدوني وبطليموس الأول والإمبراطور أغسطس الروماني وسيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه وأحمد بن طولون وأبو بكر الإخشيد والمعز لدين الله الفاطمي وصلاح الدين الأيوبي وسيف الدين قطز والظاهر بيبرس والأشرف خليل بن قلاوون والسلطان سليم الأول العثماني ونابليون بونابرت وغيرهم من القادة الذين عرفوا إمكانيات مصر جيداً
- كل قائد من هؤلاء القادة نظر إلي مصر نظرة مختلفة مع اختلاف نية كل منهم تجاهها فمنهم من اتخذها عاصمة لملكه واستغل إمكانياتها ومنهم من قام بتقليم أظافرها وتجريدها من مقوماتها قبل أن يعود إلي عاصمة ملكه لتصبح ولاية تابعة له ، ومنهم من سخرها لخدمة الإسلام والمسلمين لتصبح عضواً قوياً في جسد الأمة الإسلامية المترابطة ومنهم من حقق بها مجد شخصي وجعلها عزبة خاصة له ولأولاده من بعده ،
- بالطبع وكل واحد منهم أحبها وقّدر لها قدرها ولكن هناك فرق بين من يحب حب صاحب العزبة لعزبته ومن يحبها لوجه الله وابتغاء مرضاته ،
- والسؤال هو أين محمد علي من كل هؤلاء وما هي الغاية التي كان يحلم بتحقيقها وإذا كان محمد علي قد نفذ مبدأ الغاية تبرر الوسيلة فماذا كانت غايته وما هي الوسائل التي استخدمها لتحقيق غايته ؟
- عندما تقرأ عن الأحداث التي مرت بها مصر خلال السنوات الخمسة التي أعقبت جلاء الفرنسيين عن مصر تجد أن محمد علي كان يلعب بالنار في جرأة وشجاعة يحسد عليها ، وكان قد تم جلاء الإنجليز عن مصر ولكن ليس بسبب ما يحدث بها ولكن بسبب ما يحدث في أوروبا فقد أجبرتهم الظروف الدولية في أوروبا وفعاليات الاتفاق مع فرنسا علي مغادرة مصر ولكن بعد أن عرفت قيمة موقعها جيداً ، وكان الإنجليز يرغبون في تولي محمد بك الألفي حكم مصر وكان الألفي العدو اللدود لمحمد علي وكان يعمل له ألف حساب
- لماذا الألفي تحديداً ؟

---

[٢١١] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٣١٤

٧٧. محمد علي باشا ومحمد بك الألفي

- كان محمد علي يكره المماليك بشدة ويعمل علي سحقهم تارة ومهادنتهم تارة أخري وكان أخطرهم بالنسبة له محمد بك الألفي الذي كان قد غادر مصر مع الإنجليز وعاش فترة في لندن واتفق معهم علي حكم البلاد بدعم منهم وعاد إلي مصر ليواجه محمد علي وكان محمد علي يعتبره أصعب عقبة في طريقه للحكم بل كان يتفادى الصدام به في أي مواجهه عسكرية بقدر الإمكان ، وكان الألفي يمتاز بالذكاء الحاد والشجاعة وحسن القيادة وربما كان سينهض بمصر علي الطريقة الإنجليزية في حالة ما كان قد وصل إليه الحكم كما نهض بها محمد علي ولكن علي الطريقة الفرنسية كما سنري ،
- أي أن محمد علي رجل فرنسا والألفي رجل بريطانيا في مصر فهل دعمت فرنسا محمد علي ليصل للحكم ؟
- (وهنا لابد أن نعرض لرواية ذكرها بعض المؤلفين الفرنسيين وإليها يرجعون صعود نجم محمد علي وتقلده ولاية مصر فيقولون أن المسيو ماسيو دلسبس لما عين قنصلا لفرنسا في مصر أخذ يبحث عن رجل تؤيده فرنسا وتشد أزره وتساعده علي تقلده حكم مصر وإنه لم يكن يعرف أحدا في مصر فسأل قواس القنصلية واسمه عمر أغا عن الرجل المنشود فدله علي محمد علي لأنه يعرفه من قبل فكتب دلسبس إلي حكومته يوصيها بشد أزر محمد علي ومساعدته علي تقلده ولاية مصر -)[٢١٢] وينفي المؤرخ الرافعي هذه القصة تماماً ويقول أنها غير صحيحة بالرغم من أنه لا ينفي أن فرنسا كانت تقف مع محمد علي بعد توليه الحكم ، فيقول (أما كون فرنسا رأت من مصلحتها السياسية أن تشد أزر محمد علي بعد تقلده الولاية وتؤيده ضد دسائس السياسة الإنجليزية فهذه مسألة أخري لا علاقة بينها وبين حكاية عمر أغا)[٢١٣] ،
- فما المشاكل التي واجهت محمد علي ؟
- كان المماليك يسيطرون علي صعيد مصر وكانت الحرب تدور بينهم وبين قوات محمد علي ومن ناحية أخري حاول الإنجليز بالتنسيق مع الدولة العثمانية إعادة المماليك للحكم وتولية محمد بك الألفي الذي كان قد عاد إلي مصر وسيطر علي الفيوم وبالفعل وصل أسطول عثماني إلي الإسكندرية في أول يوليو سنة ١٨٠٦ ومعه والي جديد علي مصر اسمه موسي باشا ليقوم بالدور الذي كان يقوم به الولاة قبل الحملة الفرنسية أيام حكم زعيم المماليك كشيخ للبلد ،
- فماذا فعل محمد علي ليحل هذه المشكلة ؟
- لجأ محمد علي إلي زعماء الشعب مرة أخري ، وبدون الدخول في التفاصيل استطاع زعماء الشعب إلغاء قرار السلطان وتثبيت محمد علي في حكم مصر ، وتفرغ محمد علي للمماليك حيث لجأ معهم إلي

---

[٢١٢] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٢٩٣

[٢١٣] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٢٩٤

أسلوبه الذي برع فيه وهو الدهاء والحيلة (فأخذ يعمل علي فصم عراهم مستخدماً التنافس القديم بين زعماءهم)٢١٤ واستمرت المشاكل والحروب والحيل والمكر بين محمد علي والمماليك وكان أخطرهم عثمان بك البرديسي ومحمد بك الألفي ، وكان الألفي قد حاصر دمنهور واقترب من رشيد والإسكندرية في انتظار وصول الحملة الإنجليزية لتتعاون معه كي يصل لحكم مصر والتي جاءت بالفعل سنة ١٨٠٧م (حملة فريزر) ولكنها وجدته قد مات وفشلت الحملة وتم مقاومتها ببسالة لا نظير لها وكان الألفي قد مات بعد موت عثمان بك البرديسي بحوالي شهرين ،

- فماذا كان رد فعل محمد علي عندما علم بوفاة الألفي ؟
- إليك بعض ما رواه الجبرتي عندما وصف موت الألفي (من تمام سعد محمد علي باشا الدنيوي حتي أنه قال في مجلس خاصته " الآن ملكت مصر " ولما مات الألفي ارتحلت أجناده ومماليكه وأمراؤه وارتفعوا ناحية قبلي فسبحان الحي الذي لا يموت)٢١٥
- عجيب أمر هؤلاء المماليك إنهم يلتفون حول شخص وليس دعماً لفكرة أو سياسة محددة فإذا اختفي هذا الشخص أو مات تفرقوا في الحال
- كان محمد الألفي هو الوحيد تقريباً الذي لم يجرؤ محمد علي على مواجهته عسكرياً في ميادين القتال وسبب سعادة محمد علي بموته أن من تبقي من أمراء وزعماء المماليك لم يكن علي نفس مستوي الألفي وكان من السهل علي محمد علي أن يستقطبهم لصالحه بإعطاء كل أمير منهم الأمان علي نفسه وعلي ممتلكاته وأن يسكن معزز مكرم في العاصمة وله مكانته من التقدير والاحترام طالما أنه لا يسعي للوصول للحكم ولا يبغي سوي الحياة الكريمة الآمنة ،
- ولكنه تخلص من هؤلاء أيضاً بعد ذلك في مذبحة القلعة الشهيرة كما هو معروف
- لم يبق أمام محمد علي سوي التخلص من الجنود الأرناءوط الذين زاد تمردهم وكادوا أن يقتلوه عندما ثاروا عليه لتأخر رواتبهم حتي أن محمد علي انتقل من سراي الأزبكية سراً إلي القلعة بحيث لم يشعر به الجنود المتمردين ولجأ محمد علي لزعماء الشعب كي يحلون له مشكلة تأخر رواتب الجنود
- سبحان الله ، إن محمد علي يلجأ إلي الشعب كلما واجهته مشكلة غير قادر علي حلها ، فليته التزم بما وعدهم به بعد ذلك
- (ولما كانت خزانة الحكومة خالية من المال قرروا " أي زعماء الشعب " أن يتحمل الأهالي هذه الإتاوة الجديدة – – فجبيت الإتاوة ودفعت للجنود واستتبت السكينة مؤقتاً علي حساب الأهالي)٢١٦
- ما أنكر فعله أمام زعماء الشعب أيام البرديسي قام به وبواسطة نفس الزعامة الشعبية

---

[٢١٤] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٤٣

[٢١٥] عجائب الآثار في التراجم والأخبار (الجبرتي) ج ٧ صفحة ٣٨

[٢١٦] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٧٩

- كانت هذه المشكلة التي أثارها الجند من الأسباب الرئيسية التي جعلت محمد علي يفكر جدياً في تأسيس جيش نظامي والتخلص من هؤلاء الجنود غير النظاميين في المعارك التي سنذكرها إن شاء الله في الحجاز والسودان كما يقول الرافعي (وأخذ يتحين الفرص لإنفاذ فكرته فكان من وسائل تحقيقها إرسال أخلاط الجيش غير النظامي إلي الحملات البعيدة في الحجاز والسودان وبذلك أخذ يتخلص منها تدريجياً تمهيداً لتأسيس الجيش المصري)[٢١٧] ،
- إذن فقد كان الشعب المصري وزعماءه يقفون مع محمد علي في كل مشكلة بداية من توليته حكم مصر رسمياً بعد عزل خورشيد باشا بالقوة ، مروراً بمقاومة فرمان تعيين موسي باشا ثم قتال حملة الإنجليز في رشيد والحماد ثم حل مشكلة ثورة الجند ،
- كل هذا قام به الشعب من أجل محمد علي وكان زعماء الشعب يقفون مع محمد علي باشا في كل شئ عدا ظلم الشعب مما كان يسبب له الإزعاج أحياناً

٧٨. محمد علي يتخلص من الزعامة الشعبية والمماليك الموالين له

- إذن فقد كانت الزعامة الشعبية صداع في رأس الباشا فكيف تخلص منها ؟
- يقول عبد الرحمن الرافعي : (من الراجح أن محمد علي باشا كان يميل في ذات نفسه إلي التخلص من الزعامة الشعبية التي أجلسته علي قمة المجد ، لأن هذه الزعامة كانت في هذه السنوات الأولي من حكمه بمثابة سلطة ذات شأن تستقصي عليه وتراقب أعماله مراقبة مستمرة وكانت ملجأ الشاكين ممن ينالهم الظلم – – ولئن كان محمد علي مديناً للزعامة الشعبية بولاية الحكم وتثبيته وتذليل العقبات التي اعترضته وإحباط الدسائس والمؤامرات التي تدبر له فإن السلطة في ذاتها من شأنها أن تطغي صاحبها وتنزع به إلي الاستبداد بالأمر ، فمحمد علي بعد أن استقر في الحكم وثبتت أقدامه طمحت نفسه إلي الاستبداد بالأمر وبدأ يشعر بالغضاضة من تدخل العلماء وأهل الرأي في شئون الحكم وسعيهم في دفع المظالم عن الناس)[٢١٨] ،
- هذا ما كتبه الرافعي فماذا كتب الجبرتي عن هذا الموضوع ؟
- يقول الجبرتي : (ولما انقضي هذا الأمر واستقر الباشا وأطمأن خاطره وخلص له الإقليم المصري – – فأول ما بدأ به أنه أبطل مسموح المشايخ والفقهاء ومعافي البلاد التي التزموا بها – – واغتروا بذلك واعتقدوا دوامه وأكثروا من شراء الحصص من أصحابها بدون القيمة وافتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم إلا بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء – – واتخذوا الخدم والأعوان – – وانقلب الوضع فيهم بضده وصار ديدنهم واجتماعهم ذكر

---

[٢١٧] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٧٩

[٢١٨] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٨١

الأمور الدنيوية والحصص والالتزام – – وأوقع مع ذلك زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد علي الرياسة)٢١٩ ،

- **إذن فقد شغلهم بالدنيا**
- ليس كلهم بالطبع فيؤكد الرافعي أن السيد عمر مكرم لم يخضع لمغريات محمد علي باشا (فلم تلن قناته للمنافع والمغريات ولم تزعزعه الكوارث والتهديدات وقد ظل يمثل النزاهة والاستقامة حتي آخر نسمة من حياته وأيده في مسلكه بعض الشيوخ ولكن أغلبيتهم قد انصرف إلي أسباب المنافع والاستكثار من الأموال والضياع والدور والقصور)٢٢٠ ،
- **يا له من أسلوب خبيث بالفعل**
- أما المؤرخ جمال بدوي فكتب يقول عن هذا الموقف ما يلي (فبعد تولية محمد علي وانفراده بالحكم ونكوصه عن العهود والمواثيق التي أقسم علي احترامها كان عليه أن يزيح عمر مكرم ثم ينفيه إلي دمياط وطنطا تنفيذاً لتعليمات مكيافيللي التي تنصح الأمير بأن يطيح بكل الذين ساعدوه علي الوصول إلي الحكم ووجد محمد علي تشجيعاً وتأييداً – بل تحريضاً – من مشايخ الأزهر للخلاص من عمر مكرم مقابل انعامات رخيصة أغدقها عليهم ثم استردها منهم بعد أن استخدمهم في التآمر علي زعيمهم وعندما ذهبوا إليه محتجين علي إلغاء امتيازاتهم لم يجدوا منه سوي أقذع العبارات وهي نتيجة طبيعية لمن يبيع نفسه ثم يعجز عن استردادها مرة أخري بعد أن تكون النفس قد تلوثت وفسدت)٢٢١
- **لقد عبر الأستاذ جمال بدوي عن كل ما كنت أريد قوله بأسلوبه الرائع ، فهل هناك آراء أخري ؟**
- هناك تعليق علي هذا الموضوع كالآتي : (– – هناك عدداً من العبر والدروس التاريخية التي يجب أن يعيها كل مسلم في تلك الحادثة ، أولها أنه كان من الطبيعي أن يتجه محمد علي إلي محاولة التخلص من زعماء الأمة الذين جاءوا به كي يسهل عليه أن يجمع من الضرائب ما شاء وأن ينفذ سياساته بدون حساب لمعارضة للجماهير ، وأن ينفرد بالسلطة ، وبديهي أن زعماء الأمة الشرفاء وعلي رأسهم السيد عمر مكرم لم يحسبوا حسابات لذلك اليوم اعتماداً علي الجماهير أو استناداً إلي ثقتهم في حسن نية محمد علي ، ونحن هنا لابد أن نقرر حقيقتين ، أولهما : أنه لا يمكن في الحياة السياسية الاعتماد علي حسن نية الحكام ، فالسلطة في حد ذاتها مفسدة ومهما كان ورع الشخص فإن السلطة ربما تفسده ، وكان من الضروري تطوير النظام السياسي بشكل يحمي الأمة من تقلبات النفوس أمام خمر السلطة ، وإغراء القوة ، وكان الزعماء في ذلك الوقت بالذات يمتلكون حركة جماهيرية حققت من القوة والاتساع ما يكفل لها ذلك لو أرادت ، والحقيقة الثانية : أنه كان لابد من تحويل الحركة

---

[٢١٩] عجائب الآثار (الجبرتي) ج٧ صفحة ١١٣ ، ١١٤

[٢٢٠] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٨٣

[٢٢١] محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ١٣ ، ١٤

الجماهيرية إلي مؤسسة ذات تنظيم يكفل لها الاستمرار ولا يجعلها عرضة للمؤامرات وتقلبات بعض المشايخ تحت إغراء المال أو الحسد ، - - - وبتلك المؤامرات الدنيئة استطاع محمد علي أن يتخلص من السيد عمر مكرم ، ليس هذا فحسب ، بل إنه باستخدام بعض المشايخ في الإيقاع بالسيد عمر مكرم كان قد أجهز علي المؤسسة الأزهرية بكاملها ، فالجمهور رأي في عملهم معني الخيانة والغدر ، محمد علي نفسه احتقرهم بعد ما قبضوا المال لقاء عملهم هذا ، وهكذا استطاع محمد علي الداهية أن يتخلص من الزعيم وأن يسقط هيبة العلماء أمام الجماهير ، - - - وربما يكون هذا العمل قد أفاد محمد علي علي المستوي الشخصي ، ولكن هذا العمل كان التوطئة الأولي للقابلية للاستعمار ، ففصم العلاقة بين العلماء وبين الجماهير قد أفقد الطرفين إيجابيتهما ، وباتت الجماهير بلا قيادة شرعية تعمل من خلالها في التصدي للاستعمار أو الاستبداد ، وبهذا العمل حقق محمد علي للاستعمار هدفاً كان من الصعب تحقيقه ووضع اللبنة الأولي في القابلية للاستعمار ، فلو كان محمد علي قد اغتال عمر مكرم أو اعتقله أو قتل العلماء أو سجنهم لكان تخلص من العلماء ، ولكنه لم يكن قد قضي علي كيان هام كان ضرورياً للصمود في ذلك الوقت العصيب أمام العدو التاريخي المتربص بنا ، وسواء قصد محمد علي ذلك أم لم يقصد فإن النتيجة كانت مروعة علي أمتنا وعلي استقلالنا)[٢٢٢]

- إنها كارثة بالفعل أن يفقد الناس الثقة بالمشايخ والعلماء ، فسوف يتركون فراغاً في حياة الناس وسيشغله غيرهم وما أدراك من هم غيرهم ، فبالفعل لو كان قتلهم كان سيتخلص منهم دون أن تهتز الثقة في الأزهر ، ولكنه قام بتشويه صورتهم أمام الناس وأخرج أسوأ ما فيهم فتخلص منهم ومن مؤسسة الأزهر ككل ، إنه تعليق مهم ومؤثر أيضاً ، وبالطبع لم يحدث هذا مع المماليك فقد قتلهم دون الحاجة لتشويه سمعتهم فهو ليس في حاجة لذلك فقد فعل ذلك أيام عثمان بك البرديسي

٧٩. مذبحة القلعة

- بالفعل فبعد أن كسر محمد علي شوكة المشايخ وقام بنفي كبيرهم السيد عمر مكرم خارج القاهرة بعيداً عن الأحداث قرر أن يتخلص من الأمراء والقادة المماليك الذين أعطاهم الأمان وجعلهم يتركون ساحات القتال وسكنوا بالقاهرة وعاشوا حياة كريمة غير متطلعين للحكم فقام بدعوتهم لحضور احتفال ضخم وفخم بالقلعة لوداع ابنه أحمد طوسون باشا الذي كان متوجهاً علي رأس جيش لمهمة خارج البلاد وكان يوم الجمعة أول مارس سنة ١٨١١م[٢٢٣] (وقبل ابتداء الحفلة دخل البكوات المماليك علي محمد علي باشا في قاعة الاستقبال الكبري فتلقاهم بالبشر والحفاوة وقدمت لهم القهوة وشكرهم الباشا علي إجابتهم دعوته وألمع إلي ما ينال ابنه من التكريم إذا ما ساروا معه في موكبه فأجابوه بالشكر -

[٢٢٢] نقلاً عن كتاب تاريخ مصر الحديث – ١٧٩٨-١٩٥٢- صفحات من كفاح الشعب المسلم في مصر – د محمد مورو

[٢٢٣] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١٠٨

-- وعندئذ نهض المماليك وساروا إلي حيث يأخذون مكانهم في الموكب الفخم)٢٢٤ وكان الموكب يتواجد به مجموعات من الجنود تسير أمام وخلف مجموعة المماليك ، وكان يمر بمنطقة شديدة الضيق بالقلعة وفي نهايتها باب خرج منه مقدمة الموكب ثم تم إغلاقه علي المماليك والجنود وانهال عليهم ضرب النار من أعلي الأماكن المجاورة لهذا الممر الضيق

- فماذا فعل المماليك عندما وقعوا في هذا الكمين ؟
- (لم يستطع المماليك دفاعاً عن أنفسهم ولم يكن لديهم الوقت ولا القدرة علي الحركة أو الرجوع القهقرى أو النزول عن جيادهم لضيق المكان الذي حصروا فيه ولأنهم جاءوا الاحتفال من غير بنادق ولا رصاص ولم يكونوا يحملون سوي سيوفهم وهيهات أن تعمل السيوف في ذلك الموقف شيئاً فانصب عليهم الرصاص وحصدهم حصداً وجاءهم الموت من كل مكان)٢٢٥ ،
- فكم كان عددهم تقريباً ؟
- (وهكذا دخل القلعة في صبيحة ذلك اليوم أربعمائة وسبعون من المماليك وأتباعهم قُتِلوا جميعاً ولم ينج منهم إلا واحد اسمه أمين بك فإنه كان في مؤخرة الصفوف)٢٢٦ وقفز بجواده من فوق سور القلعة وتلقي الجواد الصدمة ونجا هو وفر متنكراً إلي أن وصل سوريا فيما بعد ، وكانت المذبحة مؤامرة محكمة من محمد علي استطاع أن يقتل فيها من لم يستطع أن يقتله في ساحات القتال حيث الأماكن المخصصة للقتل الشريف ،
- أن ما فعله الباشا هو غدر بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني
- بالتأكيد ، وقد علق المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي علي هذه المذبحة فكتب الآتي : (تلك هي الواقعة الشهيرة بمذبحة القلعة ونحن هنا لا نريد أن ندافع عن المماليك -- ولكن مهما بلغت سيئاتهم فإن القضاء عليهم بوسيلة الغدر أمر تأباه الإنسانية ولو أن محمد علي باشا استمر في محاربتهم وجهاً لوجه حتي تخلص منهم في ميادين القتال لكان ذلك خيراً له ولسمعته)٢٢٧ ، ويقول المسيو جومار وهو الذي جعله محمد علي باشا مديراً لأول بعثة مدرسية مصرية في فرنسا (لو أمكن محو تلك الصحيفة الدموية من تاريخ مصر لما صار محمد علي هدفاً لأحكام التاريخ القاسية -- -
- فماذا كان تأثير هذه المذبحة علي الشعب المصري ؟

---

[٢٢٤] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١٠٩

[٢٢٥] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١١٠

[٢٢٦] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١١١

[٢٢٧] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١١٤

- يقول الرافعي: ومن جهة أخري فإن الفتك بالمماليك علي هذه الصورة الرهيبة قد كان له أثر عميق في حالة الشعب النفسية لأن مذبحة القلعة أدخلت الرعب في قلوب الناس وكان من نتائجها أن استولت الرهبة علي القلوب فلم يعد ممكناً إلي زمن طويل أن تعود الشجاعة والطمأنينة إلي نفوس الناس)٢٢٨
- وكيف استطاع الجبرتي رحمه الله أن يؤرخ لهذه الأحداث في ظل سيطرة الباشا؟

٨٠. محمد علي والجبرتي

- يقول المؤرخ الكبير جمال بدوي : (لم يكن عبد الرحمن الجبرتي مؤرخاً حكومياً يكتب ما يرضي الحاكم ولكنه كان مؤرخاً شعبياً من الطراز الأول يسجل ما يراه في أمانة ودقة دون ابتغاء مرضاة السلطة أو خوفاً من سخطها ومثل هذا المسلك الأخلاقي لم يكن مما يعجب الحكام لأن الحاكم يريد من المؤرخين المعاصرين له أن يحرقوا له البخور وينتحلوا البطولات ويزيفوا الحقائق فيجعلوا من مخازيه مجداً ومن سوءاته عزاً فإن لم يفعلوا سخط عليهم وعصف بهم وهذا ما فعله محمد علي الكبير عندما نمي إلي علمه ما كتبه الجبرتي عنه في صفحات ذاعت وشاعت وتداولتها أيدي الناس فلم يرحم شيخوخته وأوعز إلي أعوانه فاغتالوا ابنه خليل أثناء سيره في شارع شبرا وارتاع الرجل وهو يتلقي جثمان ابنه الصريع وفهم بذكائه دوافع الجريمة فامتلأت نفسه هماً وكمداً وظل البقية الباقية من أيامه يبكي ابنه حتي أبيضت عيناه من الحزن فكف بصره كما كفت يده عن الكتابة إلي أن وافاه الأجل فغادر الدنيا حزيناً مكلوماً عام ١٨٢٥م)٢٢٩ ،
- لقد كنت أتوقع بالفعل أن الجبرتي رحمه الله ليس لن يكون له مكان في دولة محمد علي
- (لقد ساء الجبرتي أن يري محمد علي وقد تملكته نزعة الشره إلي الأموال فيصادرها دون سند من الشريعة ثم هو لا يتورع عن جمع الأموال بأخس الوسائل حتي لو تطلب الأمر شراء المحاصيل من الفلاحين بأسعار زهيدة وفرضها علي الناس بأسعار باهظة)٢٣٠ ،
- فهل كان الجبرتي ضد محمد علي دائماً ؟
- الطريف أن الجبرتي لم يكن ضد محمد علي باستمرار بل إنه كان يذكر أعماله النشيطة ويصفه بالهمة العالية في المشاريع الكبري التي كان يقوم بتأسيسها فمثلاً ذكر الآتي عن أحد مشاريع محمد علي :(وكان له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان فلو وفقه الله لشئ من العدالة علي ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه)٢٣١

---

[٢٢٨] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١١٤صفحة ١١٥

[٢٢٩] مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٣٩

[٢٣٠] مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٤٠

[٢٣١] عجائب الآثار (الجبرتي) صفحة ٤١٠

- أعجوبة زمانه وفريد أوانه ، يا له من تعبير ، علي أي حال لقد حان الوقت لنتحدث عن عصر محمد علي باشا وكيف قام بتأسيس مصر الحديثة كما يقولون ، فأي الكتب ستختارها لنقرأ منها عن هذا العصر المثير ؟
- في الواقع أن في حيرة شديدة لكثرة الكتب التي تؤرخ لعصر محمد علي ، فكيف أختار منها ما يناسبك
- لا داعي للحيرة فنحن علي أي حال لن نتمكن من قراءة كل ما كُتِب عن محمد علي في هذا الحوار وبالتالي يكفي أن نقرأ فقرة واحدة من كل كتاب متوفر معك حالياً
- لا مانع وإذا تذكرنا أي نقطة مهمة أخري خلال الحوار فسوف نبحث عنها ، أما أهم ما يجب أن تعرفه عن تأسيس مصر الحديثة في عصر محمد علي فهو السبب الرئيس الذي كان وراء كل هذه النهضة في كافة المجالات ونال عناية فائقة من محمد علي
- وما هو ؟

٨١. محمد علي وتأسيس مصر الحديثة

- إنه الجيش ولا شك فعن هذا الموضوع يقول الرافعي : (- - - ليس في منشآت محمد علي باشا ما نال عنايته مثل الجيش المصري ، ويكفيك دليلاً علي مبلغ تلك العناية أن منشآته الأخري متفرعة عنه والفكرة في تأسيسها أو استحداثها إنما هي استكمال حاجات الجيش فهو الأصل وهي التبع فتقرير محمد علي باشا إنشاء مدرسة الطب مثلاً يرجع في الأصل إلي تخريج الأطباء الذين يحتاج إليهم الجيش وكذلك دور الصناعة ومصانع الغزل والنسيج كان غرضه الأول منها توفير حاجات الجيش والجنود من السلاح والذخيرة)[٢٣٢] ، ومن هنا يتضح أن المدارس والبعثات العلمية إلي الخارج وبناء المصانع والاهتمام بالنواحي الاقتصادية بشكل عام كان بسبب الجيش فهو الدافع وراء معظم هذه الإنجازات إن لم يكن كلها ، (وقد ساعد تكوين طبقة تعلمت تعلماً عالياً قبل إنشاء المدارس الابتدائية والثانوية أن الأزهر كفل إمداد المدارس العالية والبعثات بالشبان المتعلمين الذين حازوا من الثقافة قسطاً يؤهلهم لتفهم دروس المدارس العالية في مصر أو في أوروبا فكان الأزهر خير عضد للتعليم العالي)[٢٣٣]
- إذن فقد كان الأزهر الأساس في نهضة مصر في عهد محمد علي
- بالتأكيد ، لأن محمد علي لم يجد غير الأزهر كنواة لتنفيذ مشروعه الكبير وأساس متين يبني عليه ، وكانت أول مدرسة عالية أنشئت في عصر محمد علي هي مدرسة الهندسة بالقلعة سنة ١٨١٦م ثم توالت بعد ذلك المدارس علي كافة مستوياتها وانتشرت في أنحاء البلاد (والظاهر أن مدرسة القلعة لم تف علي مر السنين بحاجات البلاد إلي المهندسين أو أن برنامجها لم يكن وافياً بالمرام ، فأنشأ محمد

[٢٣٢] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٣٢١
[٢٣٣] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٣٩٧

علي في سنة ١٨٣٤م مدرسة أخري للمهندسخانة في بولاق وعين أرتين أفندي أحد خريجي البعثات العلمية وكيلاً لها – – وفي سنة ١٨٣٨م أسندت نظارتها إلي المسيو لامبير بك " الفرنسي " لغاية سنة ١٨٤٩م – ، – وأسس محمد علي مدرسة الطب سنة ١٨٢٧ إجابة لاقتراح الدكتور كلوت بك " الفرنسي " وكان مقرها في أول عهدها بأبي زعبل لوجود المستشفي العسكري بها من قبل)٢٣٤ كما تم إنشاء مدرسة للصيدلة والولادة ومدرسة الألسن هذا بالإضافة إلي المدارس الحربية والبحرية (لما تقدمت المدارس العالية والخصوصية التي أنشأها محمد علي واتسع نطاقها رأي أن ينشئ لها إدارة خاصة سميت " ديوان المدارس " سنة ١٨٣٧م وكان موجوداً من قبل باسم مجلس شوري المدارس وقد ساعد علي تنظيم هذه الإدارة تخرج نوابغ أعضاء البعثات وعودتهم إلي مصر)٢٣٥

- هذا عن التعليم فماذا عن الصناعة ؟
- اهتم محمد علي باشا بالصناعة الحربية فأسس مصانع للأسلحة والمدافع بالقلعة ومخازن بارود وقنابل ومصنع بنادق بالحوض المرصود وأقام معمل للبارود في المقياس بطرق جزيرة الروضة وكذلك في أماكن أخري عديدة ، كما اهتم محمد علي بملابس الجند وتصنيعها ومهمات الجيش بشكل عام ، وجدير بالذكر أن محمد علي أنشأ الأسطول المصري واهتم بصناعة السفن الحربية في ترسانة بولاق ودار الصناعة الكبري بالإسكندرية كما اهتم اهتماماً بالغاً بإقامة القلاع والاستحكامات للدفاع عن مصر (فأصلح قلعة صلاح الدين بالقاهرة وشحنها بالمدافع وبني علي مقربة منها قلعة أخري علي ذروة جبل المقطم تعرف بقلعة محمد علي وتشرف علي الأولي وأصلح قلاع الإسكندرية وأنشأ غيرها واستدعي من فرنسا لهذا الغرض مهندساً حربياً في فن الاستحكامات يسمي المسيو " جليس " وأنعم عليه برتبة البكوية ، وجعله باشمهندس الاستحكامات)٢٣٦
- لقد كان اعتماده علي الخبراء الفرنسيين واضحاً جداً ، فماذا عن الإنجازات في مجال الري والزراعة ؟
- من إنجازات محمد علي أيضاً ترعة المحمودية " نسبة للسلطان محمود " وغيرها من الترع في شمال وجنوب مصر كما أنشأ الجسور العديدة والقناطر كما أنه قام بتحويل نظام الري من ري بالأحواض إلي ري دائم بعد أن أنشأ القناطر الخيرية (كانت أراضي الوجه البحري – – تروي بطريق الحياض كري الوجه القبلي فلا يزرع فيها إلا الشتوي ولا يزرع الصيفي إلا علي شواطئ النيل أو الترع القليلة المشتقة منه وقد أخذ محمد علي في تغيير هذا النظام تدريجياً إذ أخذ في شق الترع وتطهيرها وإقامة الجسور علي شاطئ النيل ليضمن توفير مياه الري في معظم السنة وصارت الترع تروي الأراضي في غير أوقات الفيضان جهد المستطاع ولاسيما بعد إقامة القناطر عليها – – وقد توج محمد علي أعمال

---

[٢٣٤] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٤٠٠

[٢٣٥] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٤٠٤

[٢٣٦] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٣٥٠

الري التي أقامها بإنشاء القناطر الخيرية واسمها يغني عن التعريف فإنها قوام الري الصيفي في الوجه البحري وهي وإن كانت آخر أعماله في الري إلا أنها أعظمها نفعاً وأجلها شأناً وأبقاها علي الدهر أثراً)٢٣٧ ، كما قام محمد علي بتوسيع نطاق الزراعة وغرس الأشجار واهتم بتحسين زراعة القطن وأدخل أنواعاً جديدة تصلح للنسيج واستقدم خبير فرنسي لتنظيم مصانع النسيج وكان اسمه المسيو " جومل "

- أما عن صناعة النسيج فحدث ولا حرج فقد أنشأ العديد من المصانع مثل مصنع الخرنفش ومصنع أمشاط الغزل بحي السيدة زينب ومصنع الجوخ ببولاق ومصنع الحرير ومصنع الحبال ونسيج الصوف والعديد والعديد من المصانع في عدة مدن وقري مصرية ، وبالإضافة إلي مصانع النسيج أنشأ محمد علي مصانع أخري مثل معمل سبك الحديد في بولاق ومصانع ألواح النحاس ومعامل السكر في الوجه القبلي ومصانع النيلة وغيرها ، وكان يشرف علي معظم هذه المصانع خبراء أجانب ،
- إنها إنجازات ضخمة بلا شك فماذا عن المنشآت المعمارية ؟
- اهتم محمد علي بتشييد المباني العامة كالقصور والمصانع ودور الحكومة وما إليها (فمن ذلك أنشأ بالقلعة قصره الشهير " قصر الجوهرة " الذي كان مقر الحكم في عهده وقصر شبرا وسراي رأس التين بالإسكندرية)٢٣٨ ، وبني جامع كبير بالقلعة الذي تم دفنه فيه بعد ذلك ، (وأنشأ مدينة الزقازيق لمناسبة بناء قناطر بحر مويس وعني بشئون البلاد الصحية – – وأنشأ المستشفيات والمحاجر الصحية علي النظام الأوروبي)٢٣٩ ، وجدير بالذكر أن محمد علي أنشأ مطبعة كبيرة في بولاق وكانت تطبع بها الجريدة الرسمية " الوقائع المصرية " وكانت تصدر بالعربية والتركية ثم بالعربية فقط كما كانت هناك مطابع أخري صغيرة في أماكن متفرقة
- يتضح من كل هذا أن محمد علي قد قام بإنشاء العديد والعديد من المشاريع الضخمة والتي تنم عن مدي مثابرته واجتهاده وهمته العالية كما كان يعتمد علي الخبراء الأجانب وخاصة الفرنسيين في معظم هذه المشاريع كما ساعده في ذلك خريجي البعثات من المصريين بلا شك ، فماذا كتبوا أيضاً عن محمد علي وإنجازاته ؟
- في الحقيقة هناك كتاب عن محمد علي كتبه الأديب والمؤرخ إلياس الايوبي (١٨٧٤-١٩٢٧) يصف بإيجاز بليغ أهم إنجازات محمد علي حيث كتب ما ملخصه : أما ما كان من نقله مصر إلي بيئة غير البيئة التي وجدها فيها فقد عمل ذلك :أولاً بأن أقلع عن طريقة الحكم التي سبقت عهده فاحتاط بديوان مؤلف من نخبة الرجال المحنكين دعاه الديوان الخديوي ، ثانياً أنشأ من أبناء البلد جيشاً زاهراً مدرباً علي الطريقة الغربية ، بالرغم من صعاب كانت الواحدة منها كافية لتفل الحديد وتدك الجبال – – وأنشأ

---

[٢٣٧] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٣٩٤

[٢٣٨] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٥١٠ ، ٥١١

[٢٣٩] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٥١١

بجانب هذا الجيش عمارة بحرية فخمة جولت الراية المصرية مهابة معظمة في مياه البحر المتوسط ومياه البحر الأحمر وأنشأها من العدم وبالرغم من من عدم وجود مادة واحدة لديه من المواد اللازمة لبنائها ، ثالثاً بأن جدد بجدة المعارف بتغييره برامج التعليم وطرقه ، ففتح محمد علي المدارس تتري ، ابتدائية وثانوية وعالية ، فالمدارس الابتدائية كانت سبعاً وأربعون ، والمدارس الثانوية والعالية والخصوصية كانت أربعاً وعشرين ، منها مدرسة القصر العيني ومدرسة اللغات ومدرسة المعادن ومدرسة الطب البيطري ومدرسة الطب والتوليد ومدرسة الموسيقي إلخ ، ولم يكتف بذلك بل أرسل البعثات تلو البعثات إلي المعاهد الأوروبية ، وإضافة إلي المدارس إقامة المعامل والمصانع في طول البلاد وعرضها ، لتتمكن البلاد من الاستغناء جل الاستطاعة عن الواردات الأجنبية ، رابعاً بأن غطي وجه القطر بالأشغال والأعمال المفيدة فمن سد أبي قير إلي سد الترعة الفرعونية إلي سد فتحة بحيرة المنزلة إلي تقوية جسر قشيش وهو الذي كان يصون مديرية الجيزة من الغرق إلي بناء جسر لسد قطع في البحر اليوسفي ، إلي تعزيز قنطرة اللاهون ، إلي حفر الترع العديدة وأهمها المحمودية والخطاطبة ومسد الخضراء والنعناعية والسرساوية والباجورية والبوهية والمنصورية والشرقاوية إلي إقامة قناطر حاجزة عليها ومسهلة للري ، إلي بناء الترسانة وحوض تصليح السفن ، وتشييد قناطر بحر شبين ، والقناطر الخيرية الكبري وهي معجزة أعماله ، إلي ابتناء الحصون والقلاع علي السواحل المصرية وابتناء السرايات العديدة ، وأهمها سراي رأس التين ، وسراي شبرا ، وسراي قصر النيل ، إلي الشروع في تحويل الأزبكية إلي منتزه عمومي إلي غير ذلك من الأعمال العظيمة التي غيرت وجه القطر تغييراً محسوساً ، خامساً بأن هدم الحواجز التي كانت العصور السالفة قد أقامتها بين تعامل الغرب والشرق ومكن العالمين من الاختلاط معاً لا بالإتجار الواسع فحسب بل بالاحتكاك اليومي ، فحبب إلي الغربيين المجئ إلي القطر واستغلال رؤوس أموالهم في أرضه ، وإنشاء مدارس لأولاهم علي سطحه ، وفتح أمام قومه أبواب السفر إلي الغرب ، والتعرف بحاله والاقتباس عنه ، سادساً بأن سن قانوناً للبلد كل مواده متشربه بالرغبة في فتح عصر جديد للأمه[٢٤٠] ،

- أكثر ما لفت نظري في كل هذه البنود أنه قال أن محمد علي فتح أمام قومه أبواب السفر إلي الغرب ، والتعرف بحاله والاقتباس عنه ، فكيف سمح له الغرب بكل هذا ؟
- لقد اتضح بعد ذلك نواياهم كما سنري
- حسناً فلنتحدث عن البعثات في عصر محمد علي وكيف تابعها وكيف تأثر المصريون بالغرب

٨٢. البعثات العلمية في عهد محمد علي

[٢٤٠] مقتطفات مختصرة جداً نقلاً عن كتاب محمد علي سيرته وأعماله وآثاره بقلم إلياس الايوبي

- قام محمد علي بإرسال العديد من البعثات العلمية إلي أوروبا بشكل عام وفرنسا بشكل خاص وكانت هذه البعثات تنقل العلوم الحديثة والأفكار الجديدة من أوروبا إلي مصر (وقد بلغ عدد الطلبة جميعاً الذين أوفدهم محمد علي إلي أوروبا من سنة ١٨١٣م إلي سنة ١٨٤٧م ٣١٩ تلميذاً منهم ٢٨ في الرسالات الثلاث الأولي ابتداء من سنة ١٨١٣م إلي سنة ١٨٢٥م و ٢٩١ في البعثات الكبري ابتداء من سنة ١٨٢٦ فيكون مجموعهم ٣١٩ تلميذاً وهو عدد عظيم إذا قيس بدرجة الثقافة التي بلغتها مصر في ذلك العصر وعظيم في نتائجه لأن هذه البعثات كان لها أوفر قسط في نهضة مصر الإجتماعية والعلمية والاقتصادية والحربية والسياسية)[٢٤١] وكان محمد علي يتابع بنفسه أخبار المبعوثين في الخارج بل ويرسل إليهم الرسائل التي تحفزهم علي اكتساب العلوم ،
- وهل لديك نص أحد هذه الرسائل ؟
- إليك مقدمة أحد هذه الرسائل : (قدوة الأماثل الكرام الأفندية المقيمين في باريس لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم ننهي إليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم وكانت هذه الجداول المشتملة علي شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة لم يفهم منها ما حصلتموه في هذه المدة – –)[٢٤٢] ومن البعثات التي أرسلها محمد علي إلي فرنسا بعثة مشهورة باسم بعثة الأنجال لأنها كانت تضم عدداً من أبناء وأحفاد محمد علي منهم الأمير اسماعيل ابن ابراهيم باشا والذي أصبح بعد ذلك خديوي مصر الشهير الذي كان متأثراً بكل ما هو فرنسي خلال فترة حكمه كما سنري إن شاء الله
- فماذا عن الشيخ رفاعة الطهطاوي ؟
- (يقول علي باشا مبارك " إن محمد علي باشا طلب إلي الشيخ العطار – شيخ الجامع الأزهر – أن ينتخب من علماء الأزهر إماماً للبعثة الأولي يري فيه الأهلية واللياقة ، فاختار الشيخ رفاعة لتلك الوظيفة)[٢٤٣]
- أي أن الشيخ رفاعة لم يذهب ليتلقى العلوم ولكنه ذهب في وظيفة محددة ؟
- هذا صحيح ولكنه استطاع أن يغترف من مناهل العلم في فرنسا علي حد تعبير الرافعي وتعلم اللغة الفرنسية ودرس التاريخ والجغرافية والفلسفة والآداب الفرنسية
- لاحظ معي أن الذي درسه الشيخ رفاعة يتعلق بتكوين الأفكار أكثر منه تعلقاً بالعلوم الحديثة
- نعم وقد تأثر بمفكري فرنسا وانبهر انبهاراً شديداً بالحضارة الغربية وتعجب كيف وصل هؤلاء إلي هذه المستويات العلمية الراقية وقرأ مؤلفات فولتير وجان جاك روسو ومونتسكيو وراسين
- أعتقد أنه قد تعرض لفتنة من نوع خاص جداً

---

[٢٤١] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٤٠٩

[٢٤٢] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٤١٠

[٢٤٣] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٤٣١

- نعم فقد ، كان مفكرو أوروبا متحررين من تعاليم الأديان السماوية واعتمدوا علي العقل فقط في صياغة منهج الحياة في أوروبا وكان ذلك رد فعل عنيف علي سيطرة الكنيسة في العصور الوسطي والتي كانت تحرم العلم والبحث العلمي والتفكير عموماً وكانت لفترة كبيرة سبباً في تخلف أوروبا عن العالم كله في الوقت الذي كانت فيه الأمة الإسلامية علي أعلي مستوي من التقدم العلمي في جميع المجالات لأن الدين الإسلامي لا يعوق العلم والبحث العلمي أو كما يقول الدكتور محمد عمارة : (ذلك أن الإسلام قد تميز عن غيره بأنه " دين " لا يقوم بغير " دنيا " وشريعة لا تكتمل إلا في مجتمع ووطن ونظام وعمران ، فالكثير من فرائضه الكفائية والاجتماعية لا تقام إذا نحن اكتفينا بالمساجد والمحاريب ، فالعلم بالإسلام يقتضي ويستوجب تحصيل العلم المدني الشرعي ، وفريضة علي الأمة الإسلامية إقامة مؤسسات العلم ، التي بدونها لا تكتمل إقامة الدين ، - - - وإذا كنا مكلفين بإقامة الدين فإن إقامة كامل الإسلام لا تتأتي إلا في مجتمع مستكمل لشرائط العمران ، المادية منها والروحية والأدبية ، بل إن إقامة الشعائر والمناسك والعبادات علي النحو الأمثل ، وفي حضور قلبي يجعلها خالصة لله ، لا يتأتي إلا إذا انتظمت شئون الدنيا ، وتحققت شروط الأمن المادي والمعنوي للعابدين العاكفين الراكعين الساجدين ، وذلك حتي يتمكنوا من إفراد المعبود بالعبادة ، واستخلاص القلوب العابدة من المعوقات الدنيوية التي تحول دون الحضور في العبادات) [٢٤٤]
- فهل تأثر الطهطاوي بالأفكار الأوروبية ؟
- من أفضل ما قرأت لتوضيح مدي تأثر الشيخ رفاعة بالأفكار الأوروبية ما ورد في كتاب " محمد علي وأولاده " للأستاذ جمال بدوي عندما تكلم عن فشل الحملة الفرنسية في نقل الأفكار الأوروبية إلي الشعب المصري بينما نجح في ذلك رفاعة بك فيقول جمال بدوي (ولو دققنا في طبيعة السنوات الأربع التي تلت الحملة الفرنسية لن نجد أثراً واحداً يدل علي تغلغل الأفكار الأوروبية بين المصريين ولن نسمع عن فولتير أو روسو أو مونتسكيو أو نظم الانتخابات والعقد الاجتماعي وإرادة الأمة إلا بعد أن يعود الشيخ رفاعة الطهطاوي من رحلته الميمونة إلي باريس في عام ١٨٣١م أي بعد ثلاثين عاماً بالتمام والكمال من رحيل الحملة)[٢٤٥]
- إذن فقد كان عصر محمد علي –علي نحو ما– امتداد ثقافي لعصر الحملة الفرنسية ، حيث قبل المسلمون من حاكم مسلم ما لم يقبلوه من بونابرت
- بالفعل يمكن اعتبار أن عصر محمد علي كان بمثابة بداية لحملة فرنسية جديدة علي مصر ولكنها حملة ثقافية فهي استكمال للحملة العسكرية التي شنها نابليون علي مصر فقد كان هناك خبراء في

---

[٢٤٤] من كتاب العطاء الحضاري للإسلام للدكتور محمد عمارة صفحة ٩٧ ، ٩٨ (سلسلة اقرأ – دار المعارف – العدد ٦٢٦– سنة ١٩٩٧)

[٢٤٥] محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ٩

عدة مجالات من فرنسا في مصر كما كان هناك مبعوثين من مصر إلي فرنسا ولم تكن العلوم الطبيعية فقط هي التي يتم نقلها ولكن كانت عملية تغيير الأفكار بشكل واضح مما يؤثر علي بعض الثوابت الإسلامية الراسخة ، فقد كان كل ما تحتاجه مصر هو العلم الطبيعي فقط مثل الهندسة والطب – – إلخ أما الهوية والتاريخ والمعتقدات فلم نكن في حاجة لأن نتعلمها من أحد ،

- جدير بالذكر أن أوروبا عندما نقلت العلوم الطبيعية عن العلماء المسلمين قبل ذلك لم تنقل معها الأفكار الإسلامية ولكنها اكتفت بالعلوم الطبيعية فقط ،
- علي أي حال فإن الشيخ رفاعة قد عاد من فرنسا وقام بحركة ترجمة واسعة ومؤلفات كثيرة ، وبالمناسبة كان له كتاب شهير يصف فيه عاصمة فرنسا " تخليص الإبريز في وصف باريس " (والذي ميز فيه بين "الوضعية الغربية " اللادينية ، وبين " علوم التمدن المدني " الموضوعية والمحايدة ، فقال عن باريس وبلاد الفرنجة :

أيوجد مثل باريس ديار شموس العلم فيها لا تغيب
وليل الكفر ليس له صباح أما هذا وحقكم عجيب

-
- إنه يتعجب من وجود شموس العلم مع ليل الكفر ، فيا لها من صدمة مربكة بالفعل
- ويستكمل الشيخ رفاعة الطهطاوي وصفه فيقول : (– – فهذه المدينة ، كباقي مدن فرنسا وبلاد الإفرنج العظيمة ، مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات ، وإن كانت من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية ، إن أكثر أهل هذه المدينة إنما له من دين النصرانية الاسم فقط ، حيث لا يتبع دينه ، ولا غيرة له عليه ، بل هو من الفرق المحسنة والمقبحة بالعقل ، أو فرقة من الإباحيين الذين يقولون ، إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب ، ولذلك فهو لا يصدق شئ مما في كتب أهل الكتاب لخروجه عن الأمور الطبيعية)[٢٤٦]
- ويستنكر الشيخ رفاعة بالطبع هذه الأفكار
- نعم ، ويؤكد أن (الذين حكّموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التي ركنوا إليها تحسينا وتقبيحاً ، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود بتعدي الحدود ، فينبغي تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع ، لا بطرق العقول المجردة ، ومعلوم أن الشرع الشريف لا يحظر جلب المنافع ولا درء المفاسد ، ولا ينافي في المتجددات المستحسنة التي يخترعها من منحهم الله تعالي العقل وألهمهم الصناعة – –)
- أعتقد أنه يري أنه لا يصح الاعتماد فقط علي العقل لوضع منهج حياة للإنسان علي الأرض دون الرجوع إلي تعاليم ومنهج المولي عز وجل الخالق الحكيم فهو سبحانه سيد هذا الكون وليس البشر

---

[٢٤٦] الثوابت والمتغيرات في اليقظة الإسلامية الحديثة – للدكتور محمد عمارة – صفحة ٢٨ ، ٢٩ – دار نهضة مصر – سلسلة التنوير العدد ١٨ (نقلاً عن الأعمال الكاملة للشيخ رفاعة الطهطاوي – ج٢ – صفحة ١٥٩ وما بعدها – طبعة بيروت سنة ١٩٧٣)

فليس من حق البشر أن يفعلوا ما يعتقدون أنه صواب إذا تعارض مع أوامر المولي عز وجل لأن العقل البشري له حدود يجب أن يقف عندها ،

- بالتأكيد ويثق ثقة مطلقة في أوامر المولي عز وجل وينفذها بلا تردد حتى إذا لم يعرف الحكمة من وراءها ، {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ} (٧١) سورة المؤمنون
- وهكذا قامت النهضة الأوربية علي مجموعة من أفكار المفكرين الذين وضعوا منهج بشري للحياة علي الأرض وتحرروا من تعاليم الأديان السماوية ، {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} (٩) سورة محمد
- الطريف أنه وسط كل هذا حضر إلي مصر في عهد محمد علي أتباع سان سيمون
- ومن هو سان سيمون ؟

٨٣. السان سيمونية في مصر

- (نشأ سان سيمون منذ طفولته متمرداً علي تعاليم الكنيسة الكاثوليكية ثائراً علي الظلم الاجتماعي الذي تفشي بعد سقوط الثورة " الفرنسية " في أحابيل الدكتاتورية فعكف علي دراسة العلوم البحتة – – وتوقف مبهوراً أمام إنجازات العلامة الإنجليزي نيوتن فاتخذ منه نبياً لدين جديد هو دين العلم أو دين نيوتن ودعا إلي نبذ العقائد والأخلاق الكاثوليكية لتحل محلها عبادة العلم ودعا إلي قيام مجتمع تكون السلطة العليا فيه للعلماء والفنانين ورجال الصناعة ، والصناعة عنده لا تعني الميكنة واستخدام الآلة وإنما تعني العمل المنتج في كافة صوره – – ودعا إلي استخدام الموسيقي كوسيلة من وسائل التثقيف الخلقي والصناعي)[٢٤٧] وقد حاول الانتحار مرة وفشل (وفي زعمه أن الله قد أوجد نيوتن بجانبه وأسند إليه إدارة شئون البرية واستغرق في تأملاته وشطحاته حتي خيل إليه أن الله يحدثه ويوحي إليه بفكرة الديانة الجديدة)[٢٤٨]
- يبدو أن الأمور ستزداد سوءاً ، فإلي ماذا يدعو أيضاً ؟
- كان سان سيمون يدعوا إلي حكومة واحدة للعالم كله ويريد توصيل العالم كله وربطه بقنوات مائية منها قناة السويس بمعني أن سان سيمون وأتباعه كانوا يحلمون بقناة السويس قبل أن يتم حفرها بفترة كبيرة ، وقد مات سان سيمون مات سنة ١٨٢٥م وحاول أتباعه نشر أفكاره وكانوا يحلمون بالسفر إلي الشرق والشرق بالنسبة لهم هو مصر وكان محمد علي علي ما يبدو قد فتح أبوابها أمام الغرب وبالتالي كان هذا تشجيعاً لأتباع سان سيمون علي السفر إلي مصر
- فمتي حضروا إلي مصر ؟

---

[٢٤٧] محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ٧٤

[٢٤٨] محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ٧٥

- (وصلت الدفعة الأولي من أتباع سان سيمون إلي الإسكندرية في شهر سبتمبر ١٨٣٣م وعلي رأسها الأب انفانتان علي ظهر سفينة ترفع علي ساريتها علم مدرسة سان سيمون وتضم عدداً من الخبراء والمتخصصين في كافة العلوم ولدي وصول السفينة إلي ميناء الإسكندرية أعلن انفانتان : نعم إنني جئت إلي مصر لأقوم بتوصيل البحرين بعضهما ببعض وتدعيم اتجاه عزيز مصر " محمد علي " الدكتاتوري في إلغاء الملكية الوراثية في الأرض الزراعية)[٢٤٩] وعندما تم عرض فكرة مشروع قناة السويس علي محمد علي رفضه تماماً لأن المشروع يتطلب الحصول علي قروض من البنوك الأجنبية وهو يخشي أن تخضع مصر لضغوط الديون الخارجية لأن محمد علي كان يريد تأسيس دولة مستقلة قوية علي أسس علمية لا تخضع لأي جهة خارجية وليس معني أنه أراد أن يؤسس دولته علي الطريقة الأوربية وعلي المنهج والفكر الأوروبي ليس معناه الخضوع لأوروبا مالياً أو عسكرياً كما فعل أحفاده فيما بعد كما سنري ، وعلي أي حال كان محمد علي في ذلك الوقت يفكر في إقامة القناطر الخيرية ، ولكن لم ييأس أتباع سان سيمون وقرروا تنفيذ مشاريع أخري في المجال الزراعي والصناعي " والاجتماعي " والجدير بالذكر أن دليسبس الكبير " والد فرديناد دليسبس " قد تقدم بمشروع قناة السويس لمحمد علي ورفضه أيضاً ، ثم تم عرض المشروع بعد ذلك علي سعيد باشا عندما تولي حكم مصر ووافق عليه وتم افتتاح قناة السويس في عهد الخديوي اسماعيل كما نعرف ،
- ولكن دليسبس نسب هذا المشروع لنفسه
- نعم نسبه لنفسه وتنكر لدور أتباع سان سيمون كما ورد في كتاب الأستاذ جمال بدوي " محمد علي وأولاده " نقلاً عن كتاب آخر اسمه " أتباع سان سيمون وفلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها في مصر " الذي ألفه عالم الاجتماع المصري الدكتور محمد طلعت عيسي
- ولكن كيف أسس محمد علي الجيش المصري ؟

٨٤. تأسيس الجيش المصري

- ذكرنا أن الجيش المصري كان السبب والدافع الرئيس وراء كل هذه الإنجازات والبعثات والمدارس ، فكيف تم تجنيد الفلاحين المصريين في جيش محمد علي عفواً أقصد في جيش مصر ، حيث اضطر محمد علي لتجنيد الفلاحين المصريين
- اضطر ؟
- نعم وأكرر مرة أخري " اضطر " محمد علي لتجنيد المصريين في الجيش النظامي الذي قرر تأسيسه والذي يؤكد هذا الاضطرار ما ورد في كتاب الرافعي عن عصر محمد علي فقد ذكر محاولات محمد علي لتأسيس جيش نظامي من غير المصريين ففي سنة ١٨١٥م حاول محمد علي تحويل الجنود الغير

---

[٢٤٩] محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ٧٧

نظاميين " الباشبوزق " إلي جنود نظاميين ولكنه فشل بسبب تمردهم وعصيانهم للأوامر وعدم تعودهم علي النظام والطاعة وكادوا ان يطيحوا به ، ثم أجّل محمد علي مشروعه لتأسيس الجيش النظامي لوقت آخر ، ثم حاول تجنيد عدداً كبيراً من السودانيين ولكن لم تنجح المحاولة مرة أخري بسبب وفاة معظمهم بسبب الأمراض ربما لتغيير الجو الذي اعتادوا عليه واختلاف أحوال المعيشة وأخيراً قرر محمد علي تجنيد الفلاحين المصريين ولكن لم يبدأ التجنيد إلا بعد أن قام بإعداد النواة الأولي من الضباط بمساعدة سليمان باشا الفرنساوي (وبدأ في العمل بأن قدم إليه خمسمائة من خاصة مماليكه ليدربهم علي أن يكونوا ضباطاً في النظام الحديث وطلب إلي بعض رجاله أن يحذوا حذوه ويقدموا من عندهم من المماليك ، فاجتمع لدي الكولونيل " سيف " – سليمان باشا الفرنساوي – ألف من هؤلاء وأولئك أخذ يدربهم مدة ثلاث سنوات علي فنون الحرب وأساليبها الحديثة فصاروا نواة الجيش النظامي إذ تكونت منهم الطائفة الأولي من الضباط)[٢٥٠]

- **فأين تمت هذه التدريبات ؟**
- اختار محمد علي مدينة أسوان لتكون مكان التدريب بعيداً عن الأنظار والدسائس وحتي إذا فشلت التجربة لا يشمت فيه أحد والله أعلم (وقد عني محمد علي بأمر هذه المدرسة وتنظيمها وإمدادها بما تحتاجه من الأدوات والأسباب فهي أول مدرسة حربية أنشأها لتكوين الجيش المصري النظامي)[٢٥١] وقد واجه بالطبع سليمان باشا الفرنساوي صعوبات كثيرة حتي استطاع أن يحقق الهدف المرجو من هؤلاء الضباط ، وبعد أن تكونت طبقة الضباط بدأ في تجنيد السودانيين في ثكنات في بني عدي بالقرب من منفلوط وقد تكلم علي باشا مبارك عن أحد هذه الثكنات في كتابه الشهير " الخطط التوفيقية " التي يوضح تاريخ جميع المنشآت والمباني والآثار الهامة في مصر ومما ذكره عن بني عدي ما أورده الرافعي (وقد أشار علي باشا مبارك إلي هذه الثكنات في كلامه عن بني عدي بقوله : " وبها أثر قصر كان بناه محمد لاظ أوغلي مدة إقامته هناك بالعساكر بعد قيامهم من ناحية أسوان " فلابد أن يكون هذا القصر الذي بقي أثره إلي حين تأليف الخطط التوفيقية أحد المباني التي أقيمت في بني عدي حينما شرع محمد علي في اتخاذها مكاناً لتدريب الجنود علي النظام الحديث)[٢٥٢] وبعد أن مات معظم المجندين السودانيين كما سبق القول شرع محمد علي في تجنيد المصريين

- **فمن يكون محمد لاظ أوغلي ؟**
- كان محمد لاظ أوغلي الشهير باسم لاظوغلي وله تمثال في أحد ميادين القاهرة حالياً كان يشغل منصب نائب محمد علي ووكيله وهذا المنصب كان يسمي الكتخدا ولذلك كان الجبرتي عندما يتكلم عن

---

[٢٥٠] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ٣٢٧

[٢٥١] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ٣٢٧

[٢٥٢] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ٣٢٩ ، ٣٣٠

لاظوغلي يقول كتخدا بك وهناك لقب آخر مرادف لكلمة كتخدا وهو لقب الكخيا فهو يعني أيضاً النائب أو الوكيل وكان لاظوغلي من أشد الرجال إخلاصاً ومعاونة لمحمد علي وخاصة في بداية حكمه لمصر

- هل كان محمد علي يحتقر المصريين ؟
- يقول الأستاذ جمال بدوي : (وإذا كنا – نحن المصريين – نحمد لمحمد علي هذه الخطوة " تجنيد المصريين " التي كان لها ما لها في ترسيخ الحس القومي إلا أن الأمانة التاريخية تقتضينا أن نسجل لمحمد علي قسوته في تجنيد الفلاحين المصريين وانتهاجه طرقاً غير إنسانية في جمع الفلاحين قسراً وقهراً وتقييدهم في الحبال وسوقهم كالدواب إلي معسكرات التجنيد ، يقول المؤرخ العسكري محمد فيصل عبد المنعم في كتابه " مصر تحت السلاح " إن المتتبع للطريقة التي اتبعها محمد علي لتجنيد المصريين يلاحظ بجلاء مدي احتقاره للمصريين الذين كان يدعوهم بالفلاحين وامتهانه لآدميتهم رغم أن هذا الشعب بذاته هو الذي اختاره وانتخبه لحكمه)[٢٥٣]
- فماذا كان تأثير قرار تجنيد المصريين علي من حول محمد علي من أتراك ؟
- أثار قرار تجنيد المصريين قلق القادة الأتراك وتحدثوا مع محمد علي في ذلك (وصارحوه بمخاوفهم من الإقدام علي هذه الخطوة التي لا تحمد عقباها ولكنه طمأن خواطرهم بأن تجنيد المصريين يقتصر علي مستوي " الأنفار " أي الجنود فقط أما رتب الضباط والقادة فستبقي حكراً علي الأتراك ومن معهم من الشركس والألبان والأكراد وكل الفئات التي ورثت الامتيازات من المماليك)[٢٥٤]
- فهل نجح المصريون كجنود في الجيش المصري ؟
- لقد أثبت الجنود المصريين كفاءة لا نظير لها في حروب حقيقية تحت قيادة ابراهيم باشا خارج القطر المصري (وقال كلوت بك في كتابه : ربما يُعد المصريون أصلح الأمم لأن يكونوا من خيرة الجنود لأنهم علي الجملة يمتازون بقوة الأجسام وتناسب الأعضاء والقناعة والقدرة علي العمل واحتمال المشاق ومن أخص مزاياهم العسكرية وصفاتهم الحربية الامتثال للأوامر والشجاعة والثبات عند الخطر والتذرع بالصبر في مقابلة الخطوب والمحن والإقدام علي المخاطر والاتجاه إلي خط النار)[٢٥٥] وذكر كلوت بك حوادث عدة تأييداً لهذا الوصف ، ولكن كلوت بك لم يعتبر المصريين أهلاً للقيادة واعتبر كونهم جنود فقط هو الأفضل وبرر عمل محمد علي في إقصائهم عن المراتب السامية في الجندية وإسنادها إلي الأتراك والمماليك بينما رأي المارشال مارمون الذي زار مصر في رحلته أن المصريين يصلحون للقيادة ولكن خوف محمد علي في البداية من زيادة نفوذهم هو الذي جعله لم يبدأ بهم كضباط في الجيش ولكنه اكتفي بكونهم جنود فقط

---

[٢٥٣] محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ٩٣ ، ٩٤

[٢٥٤] المرجع السابق صفحة ١٣١

[٢٥٥] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ٣٤٦

- فمتي كانت أول مرة يصبح فيها المصريون ضباط بالجيش المصري ؟
- في عهد سعيد باشا ابن محمد علي
- ولكنه لم يصل للحكم بعد إبراهيم باشا أليس كذلك ؟
- نعم فقد تولي عباس الأول الحكم قبل عمه سعيد لفرق السن بينهما فقد كانت الولاية لأكبر أبناء الأسرة العلوية سناً وليس أكبر أبناء محمد علي
- فهل تسمح بأن تلخص بيان حكام مصر من أسرة محمد علي طبقاً لترتيب وصولهم للحكم قبل أن نخوض في سرد الأحداث التي تمت في عصر هذه الأسرة ؟

٨٥. بيان أسماء حكام مصر من أسرة محمد علي باشا

- لا مانع علي الإطلاق ، وفيما يلي الأسماء بالترتيب : ١ – والي مصر (محمد علي) باشا فترة الحكم حوالي ٤٣ سنة من١٨٠٥/٥/١٧ إلي١٨٤٨/٩/١ توفي في ١٨٤٩/٨/٢، ٢ – والي مصر (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) فترة الحكم حوالي شهرين من ١٨٤٨/٩/٢إلي١٨٤٨/١١/١٠توفي في ١٨٤٨/١١/١٠ ، ٣ – والي مصر (عباس حلمي) الأول ابن (أحمد طوسون) باشا ابن (محمد علي) فترة الحكم حوالي ٦ سنوات من ١٨٤٨/١١/١٠ إلي ١٨٥٤/٧/١٣ اغتيل في يوليو ١٨٥٤ توفي والده أحمد طوسون باشا في حياة محمد علي ، ٤ – والي مصر (محمد سعيد) باشا ابن (محمد علي) كان أصغر من عباس الأول ابن اخيه وحكم مصر حوالي ٨.٥ سنة من ١٨٥٤/٧/١٤إلي ١٨٦٣/١/١٨ توفي في يناير ١٨٦٣ ، ٥ – والي ثم خديوي مصر الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر حوالي ١٥.٦ سنة من ١٨٦٣/١/١٩ إلي أن تم عزله سنة ١٨٧٩/٦/٢٦ توفي سنة ١٨٩٥ بالآستانة ودفن بالقاهرة وفي عهده تم افتتاح قناة السويس
- ٦ – خديوي مصر الخديوي (محمد توفيق) ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر حوالي ١٠.٥ سنة من ١٨٧٩/٦/٢٦ إلي ١٨٩٢/١/٧ توفي سنة ١٨٩٢ وفي عهده قامت الثورة العرابية واحتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢ ، ٧ – خديوي مصر الخديوي (عباس حلمي) الثاني ابن الخديوي (محمد توفيق) ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر حوالي ٢٢ سنة من ١٨٩٢/١/٨ إلي ١٩١٤/٩/١٩ توفي سنة ١٩٤٤ عزله الإنجليز مع بداية الحرب العالمية الأولي ، ٨ – سلطان مصر السلطان (حسين كامل) ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر حوالي ٣ سنوات من ١٩١٤/١٢/١٩ إلي ١٩١٧/١٠/٩ أعلنه الإنجليز سلطاناً لتستقل مصر رسمياً عن الدولة العثمانية تماماً وفرضوا الحماية علي مصر وتوفي سنة ١٩١٧ ، ٩ – سلطان ثم ملك مصر الملك (فؤاد) الأول ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر حوالي ١٩ سنة من ١٩١٧/١٠/٩ إلي ١٩٣٦/٤/٢٨ قامت في عهده ثورة ١٩١٩ وفي عهده تم رفع الحماية الإنجليزية عن مصر وتوفي

سنة ١٩٣٦ ، ١٠ – ملك مصر الملك (فاروق) الأول ابن الملك (فؤاد) الأول ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر حوالي ١٦ سنة من ١٩٣٦/٤/٢٨ إلي ١٩٥٢/٧/٢٦ تنازل عن العرش لابنه تحت ضغط ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وتوفي في إيطاليا سنة ١٩٦٥ ودفن في مصر بمسجد الرفاعي ١٩٣٦، ١١ – ملك مصر تحت الوصاية الملك (أحمد فؤاد) الثاني ابن الملك (فاروق) الأول ابن الملك (فؤاد) الأول ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر تحت والوصاية سنة واحدة تقريباً من ١٩٥٢/٧/٢٦ إلي ١٩٥٣/٦/١٨ تم إعلان الجمهورية يوم ١٩٥٣/٦/١٨ وكان الملك طفلاً صغيراً تحت الوصاية

- بالتأكيد هذا البيان من موسوعة حكام مصر للدكتور ناصر الأنصاري
- هذا صحيح
- من الواضح وجود العديد من الأسماء المركبة في هذه الأسرة مثل محمد توفيق أو أحمد فؤاد
- نعم فقد كان ذلك معروف عن أسرة محمد علي ، والآن حان الوقت كي نتحدث عن حروب محمد علي في المنطقة
- ولكن قبل أن تبدأ أريد أن أذكرك أنهم قد ماتوا جميعاً دون أن يعرفوا نهاية هذه الأسرة
- لقد ماتوا بالتأكيد مات رعاياهم وأعداءهم وحلفاءهم وسأموت أنا أيضاً وستموت دون أن تعرف ما الذي سيحدث ، فلا تشغل بالك بما سيحدث وسجل موقفك فقط مما يحدث حالياً قبل أن تموت كما قلنا في بداية هذا الحوار
- ولكن هل أنت مع الرأي القائل بأن كل عصر يجب أن يعيد كتابة التاريخ طبقاً لرؤيته ، أي أن كتاب التاريخ يكون مختلف من عصر إلي عصر مع مراعاة ثبات الأحداث التاريخية نفسها ودون إضافة أو حذف أي حدث ، فقط رؤية الحدث هي التي تختلف طبقاً لطبيعة كل عصر ؟
- نعم لقد قرأت هذا الرأي وأنا مقتنع به جداً فنفس الحدث الذي يراه أهل عصر بطريقة معينة قد يراه أهل عصر آخر بطريقة مختلفة ، فالأهم أن يتم كتابة التاريخ ليستفيد منه الناس في جميع العصور ، ولقد قرأت لك في بداية حوارنا ما كتبه د حسين مؤنس عن هذا الموضوع تحت عنوان (التاريخ حوار بين الماضي والحاضر)
- نعم أتذكر ما قاله فبالفعل إن كل حدث تاريخي ترويه يجعلني أقارنه علي الفور وأُسقطه علي ما يحدث حالياً ربما بشكل تلقائي ولا أستطيع أن أقاوم هذا
- وأذكرك ببعض ما قاله د حسين مؤنس[٢٥٦] حيث أكد أنه من البديهي أن أي مؤرخ ذكي يتحري دائماً أن يكتب ما يكتب من التاريخ علي صورة تنفع معاصريه ، أو تكون ذات قيمة ونفع علي الأقل
- حسناً فلنكمل حوارنا عن عصر محمد علي ونري الأحداث بروح العصر الذي نعيش فيه

---

[٢٥٦] أنظر الجزء الأول من هذا الكتاب

- (نري) فقط الأحداث بروح العصر الذي نعيش ولكن (لا نحكم) عليها إلا بروح العصر الذي حدثت فيه ، فمن الظلم أن تحكم علي شخصية تاريخية طبقاً للأحوال والظروف الموجودة حالياً
- فهمت ما تعني ، فما هي أول حرب سنتحدث عنها من حروب محمد علي باشا ؟
- فلنتحدث عن الحرب الوهابية
- فما سببها وكيف بدأت وكيف انتهت ؟

٨٦. الدولة السعودية الأولي والدعوة الوهابية

- فشلت الدولة العثمانية في السيطرة علي الحجاز بعد أن قويت شوكة الدولة السعودية الأولي التي تبنت الدعوة الوهابية مما جعل الدولة العثمانية تطلب من محمد علي إرسال جيش للسيطرة علي مكة والمدينة وإخضاع الوهابيين وكان محمد علي مشغول بمشاكله الداخلية في مصر لفترة ليست بالقصيرة فكان يعتذر للسلطان العثماني عن عدم إمكانية دفع حملة إلي الأراضي الحجازية إلي أن أتيحت له الفرصة لإرسال حملته الشهيرة بقيادة ابنه طوسون باشا ،
- ولكن ما هو موضوع الدعوة الوهابية وما هو أصل الحكاية ؟
- هذا ما سأحاول أن أقصه عليك باختصار شديد من المراجع التي تتناوله ، فمثلاً يقول الدكتور علي الصلابي : (ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد التميمي سنة ١١١٥هـ / ١٧٠٣م في بلدة العيينة الواقعة شمال الرياض – – ونشأ علي حب العلم فطلبه منذ صغره وأظهر نبوغاً وتميزاً فحفظ القرآن الكريم ودرس الفقه الحنبلي والتفسير والحديث – – ورحل في طلب العلم – وعندما رجع إلي حريملاء ببلاد نجد بدأ دعوته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاشتغال بالعلم والتعليم والدعوة إلي عقيدة التوحيد الصافية وحذر من الشرك ومخاطره وأنواعه وأشكاله)[٢٥٧] ، (استطاع محمد بن عبد الوهاب أن يتحالف مع الأمير محمد بن سعود الذي قام بماله ورجاله من أجل دعوة التوحيد وكان هذا التحالف علي أسس متينة واستطاع الشيخ أن يواصل دعوته للناس بالتعليم والرسائل والوعظ ، يدعو إلي إزالة المنكر وهدم قباب القبور وسد ذرائع الشرك وتحقيق العبودية لله وحده وظلت الدعوة مسالمة متأنية تطرق القلوب برفق وأناة وتدعو إلي الله بالحكمة والموعظة الحسنة – – ولكنه رأي أن اللين يقابل بالشدة وأن الصدق يقابل بالكذب والموعظة الحسنة يرد عليها بالمؤامرات)[٢٥٨] وهكذا قرر الشيخ بمعاونة الأمير محمد بن سعود أمير الدرعية أن يدافع عن دعوته بالقوة ، وحققت الدعوة نجاحاً كبيراً (وبعد وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب واصلت الدعوة مسيرها وساندها آل سعود بقوة السلطان وتحولوا إلي الحجاز)[٢٥٩] وفي عام ١٨٠٣ م دخل

---

[٢٥٧] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٤١٦

[٢٥٨] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٤١٧

[٢٥٩] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٤١٨

السعوديون مكة وبعدها بعامين ضم السعوديون المدينة المنورة وقامت بالفعل الدولة السعودية الأولي التي تأسست علي أسس سلفية وبلغت الدولة في زمن سعود بن عبد العزيز منتهي القوة وخضع لها معظم شبه الجزيرة العربية ، ويقول الدكتور علي الصلابي عن أعداء الدعوة الوهابية :(فقام الذين اعتقدوا بالبدع والخرافات علي أنها من دين الإسلام بالتصدي لدعوة الشيخ ومقاومتها وليست هذه المقاومة من جهة واحدة أو من طرف معين بل من كل الجهات ومن كل الأطراف ، أتت من قبل المشايخ الذين يتمسكون بالنفوذ الذي يعطيهم إياه العامة وأهل الجهالة ، ويبغون المحافظة علي ما هم عليه من البدع والخرافات ظانين أنها من الدين ، أتت من سدنة القبور ، أتت من المستفيدين من صناديق النذور ، أتت من الذين يعيشون علي الأطعمة والأموال التي تقدم لهم في موالد الأموات والزيارات وأتت أيضاً من الذين يعتقدون أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد أتي بدين جديد يخالف ما اعتادوا عليه وأولئك كانوا منتشرين بأنحاء الدولة العثمانية كلها وفي العالم الإسلامي أجمع)[٢٦٠]

- فهل منع الوهابيون الناس من الحج كما يقال ؟
- كان الوهابيون يمنعون أي وفد من وفود الحجيج يأتي بالطبل والزمر والموسيقي فقد كانت هذه السلوكيات منتشرة في ذلك الوقت ، أما من يأتي للحج بأسلوب عادي وطبيعي فلا يمنعونه من الحج وأشيع في ذلك الوقت أن الوهابيين قد منعوا الناس من الحج
- وبالطبع عندما فشلت الدولة العثمانية في القضاء علي هذه الدعوة بالقوة أمرت محمد علي بقتالهم

٨٧. محمد علي يقضي علي الدولة السعودية الأولي

- وهكذا قامت الحرب بين محمد علي والوهابيين ودارت معارك عديدة تخلص فيها محمد علي من معظم الجنود الغير نظاميين وسافر بنفسه في أحد مراحل الحرب إلي الحجاز وبالمناسبة لقد بدأ هذه الحرب طوسون باشا واستكملها بعد ذلك ابراهيم باشا وكلاهما من أبناء محمد علي
- طوسون باشا هو الذي كان سفره ذريعة لدعوة المماليك بمذبحة القلعة ؟
- نعم ولكنه لم يسافر في ذلك الوقت الذي حدثت فيه المذبحة وسافر بعد ذلك بفترة ثم عاد ومات في حياة أبيه
- من المؤكد أن موته كان صدمة كبيرة للباشا أليس كذلك ؟
- هذا صحيح حتي أن أحداً لم يجرؤ أن يبلغه الخبر عندما حدث كما يقول علي باشا مبارك في كتابه الممتع الخطط التوفيقية في سياق حديثه عن السبيل الذي أقامه محمد علي كصدقة جارية علي روح ابنه طوسون وهذا السبيل موجود حتي الآن بشارع المعز ويقع عند ناصية حارة الروم

[٢٦٠] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٤١٩

- لقد شاهدته بالفعل من قبل وأعجبني جداً فهو تحفة معمارية بحق ولم أكن أعرف ملابسات بناءه ، فهل يمكن أن تقرأ لي ما كتبه علي باشا مبارك عن هذا الحدث ؟
- ولكننا نتحدث عن الحرب الوهابية
- لا توجد مشكلة سوف نستكمل الحديث عنها بعد ذلك ، كما أن طوسون باشا كان قائد هذه الحرب

٨٨. علي مبارك يوضح سبب بناء سبيل محمد علي الموجود بالغورية [٢٦١]

- يقول علي مبارك في خططه التوفيقية وهو يصف منطقة الغورية : - - - ثم بعد مسافة صغيرة يجد باب حارة الروم بجوار سبيل الباشا المعروف بسبيل العقادين أنشأه العزيز محمد علي باشا سنة ست وثلاثين ومائتين وألف علي روح ابنه طوسون باشا وهو سبيل كبير مبني بالرخام وفوقه مكتب جُعِل مدرسة لتعليم الأطفال القرآن والخط والنحو والرياضة والألسن ولهم خدمة وخوجات وامتحان سنوي مثل المدارس الملكية والصرف عليه من جهة ديوان الأوقاف العمومية كغيره من باقي المكاتب الأهلية ، وطوسون باشا المذكور هو كما في الجبرتي المقر الكريم المخدوم أحمد باشا الشهير بطوسون ابن حضرة الوزير محمد علي باشا مالك الأقاليم المصرية والأقطار الحجازية والثغور وما أضيف إليها ،
- يبدو أنني سأستمتع أسلوب علي باشا مبارك وسأطلب منك قراءة المزيد من كتابه ، عفواً للمقاطعة استمر في القراءة من فضلك
- سافر المترجم إلي البلاد الحجازية وحارب الوهابية فكانت النصرة له ولما عاد إلي مصر أراد أن يسافر إلي جهة رشيد فأخذ العساكر وسافر إلي جهة الحماد وجعل عرضي خيامه هناك ، وصار يتنقل من العرضي إلي رشيد ثم إلي برنبال وأبي منضور والعزب وكان صحبته من مصر أرباب الآلات المطربة المغنين وهم إبراهيم الوراق والحبابي وقشوة ومن يصحبهم من باقي رفقائهم ثم ذهب ببعض خواصه إلي رشيد ومعه الجماعة المذكورون فأقام أياماً وحضر إليه من جهة الروم جوار وغلمان قاصون فانتقل بهم إلي قصر برنبال ، ففي ليلة حلوله بها نزل به ما نزل من المقدور فتمرض بالطاعون وتململ به نحو العشر ساعات وانقضي نحبه وذلك ليلة الأحد سابع شهر القعدة سنة احدي وثلاثين ومائتين وألف وحضر خليل أفندي قوللي حاكم رشيد وعندما خرجت روحه انتفخ جسمه وتغير لونه فغسلوه وكفنوه ووضعوه في صندوق ووصلوا به في السفينة منتصف ليلة الأربعاء عاشره وكان والده بالجيزة فلم يتجاسروا علي إخباره فذهب إليه أحمد أغا أخو كتخدا بيك فلما علم بوصوله ليلاً استنكر حضوره في ذلك الوقت فأخبره عنه أنه ورد إلي شبرا متوعكاً فركب في الحين القنجة وانحدر إلي شبرا وطلع إلي القصر وصار يمر بالمخادع ويقول أين هو فلم يتجاسر أحد أن يخبره بموته

---

[٢٦١] من كتاب الخطط التوفيقية –علي باشا مبارك – الجزء الثاني – صفحة ٢٨ ، ٢٩

- إنه موقف صعب بالفعل أن تواجه الباشا بخبر موت ابنه بالطاعون ، ولكن أعتقد أنه من السهل أن تخبره بموت العديد من أبناء الشعب المصري بالطاعون دون أن تخاف من رد فعله والله أعلم وعلي أي حال رحم الله الباشا وابنه وجميع موتي المسلمين
- وكانوا ذهبوا به وهو في السفينة إلي بولاق ورسوا به عند الترسخانة وأقبل كتخدا بيك علي الباشا فرآه يبكي فانزعج انزعاجاً شديداً ونزل السفينة فأتي بولاق آخر الليل وانطلقت الرسل لإخبار الأعيان فركبوا بأجمعهم إلي بولاق وحضر القاضي والأشياخ والسيد المحروقي ثم نصبوا تظلكاً ساتراً علي السفينة وأخرجوا الناروس ونصبوا عوداً عند رأسه وضعوا عليه تاج الوزراة المسمي بالطلخان وانجروا بالجنازة من غير ترتيب والجميع مشاه أمامه وخلفه وليس فيها من جوقات الجنائز المعتادة كالفقهاء وأولاد المكاتب والأحزاب شئ ، من ساحل بولاق علي طريق المدابغ وباب الخرق علي الدرب الأحمر علي التبانة إلي الرميلة فصلوا عليه بمصلي المؤمنين وذهبوا به إلي المدفن الذي أعده الباشا لنفسه[٢٦٢] ولموتاه كل هذه المسافة ووالده خلف نعشه ينظر إليه ويبكي
- سبحان الحي الذي لا يموت ، محمد علي باشا يبكي
- ومع الجنازة أربعة حمير تحمل القروش وربعيات الذهب ودراهم أنصاف عددية ينثرون منها علي الأرض وساقوا أمام الجنازة ستة رؤوس من الجواميس الكبار وأخرجوا لاسقاط صلاته خمسة وأربعين كيساً تناولها فقراء الأزهر ، ولما وصلوا إلي المدفن هدموا التربة وأنزلوه فيها بتابوته الخشب لتعسر إخراجه منه بسبب انتفاخه وتهرّيه حتي أنهم كانوا يطلقون حول تابوته البخور والرائحة غالبة علي ذلك ، وامتنع الناس بالأمر عليهم من عمل الأفراح ودق الطبول ونوبة الباشا واسماعيل باشا وطاهر باشا ، وأقاموا عليه العزاء عند القبر مدة أربعين يوماً ومات وهو مقبل الشبيبة لم يبلغ العشرين وكان أبيض جسيماً بطلاً شجاعاً جواد له ميل لأولاد العرب منقاداً لملة الإسلام وكان يعترض علي أبيه في أفعاله تخافه العسكر وتهابه رحمه الله تعالي
- رحم الله جميع موتي المسلمين ، إذن فقد استكمل إبراهيم باشا الحرب الوهابية بعد عودة طوسون ثم وفاته

٨٩. كيف وصف الجبرتي والرافعي الحرب الوهابية بقيادة إبراهيم باشا

- قد وصف الرافعي هذه الحرب بالتفصيل وذكر في نهاية وصفه لهذه الحرب ما يلي (انتهت الحرب الوهابية بانتصار الجيش المصري وبسط نفوذ مصر في بلاد العرب وكانت هذه الحرب من أشق حروب مصر في عهد محمد علي وأكثرها ضحايا وأعظمها نفقات وقد تخللها هزائم ومواقف عصيبة كادت تقضي علي الحملة المصرية فإن الجيوش التي جردها محمد علي استهدفت للخطر في مواطن عدة

[٢٦٢] من المعروف أن محمد علي باشا عندما مات تم دفنه في الجامع الذي أقامه في قلعة صلاح الدين بالقاهرة

وخاصة في هزيمة " الصفراء " الأولي وحصار "الرس" عندما استعصت علي ابراهيم باشا وفي حصار الدرعية وعندما التهمت النار ذخائر الحملة تحت أسوارها ففي تلك المرات الأربع كادت الحملة المصرية تقع في الأسر لولا أن القيادة الوهابية كان يعوزها الحزم والكفاية والنظام ومن الأسباب التي أدت إلي اضمحلال قوة الوهابية ضعف عبد الله بن سعود " الذي تولي القيادة بعد والده أثناء الحرب " والأموال التي بذلها طوسون وإبراهيم ومحمد علي واشتروا بها ذمم البدو فإن القبائل التي انحازت إلي جانب الجيش المصري قد عاونته معاونة كبيرة)٢٦٣

- لم يختلف أسلوب إبراهيم باشا وطوسون باشا عن أسلوب والدهما فهو يعتمد عادةً علي الأموال والتفرقة بين الصفوف
- وهكذا باختصار شديد تم توضيح ملخص ما حدث وبالمناسبة كان من شروط استسلام الدرعية عاصمة السعوديين في ذلك الوقت أن يتم المحافظة عليها وتأمينها
- وهل تم ذلك بعد استسلامها ؟ عفواً لقد سألت هذا السؤال وأنا أتوقع إجابته بالطبع
- يقول الرافعي : (لم يف محمد علي بعهود ابنه ابراهيم في شروط الصلح فأرسل إليه قبل مغادرته الحجاز يأمره بهدم حصون الدرعية وأسوارها وتخريب منازلها وأن يرسل إلي القاهرة أخوة عبد الله بن سعود " الذي تم قتله بالأستانة " فنزل ابراهيم علي أمر أبيه وأرسل أخوة ابن سعود وخرب الدرعية وأحرقها)٢٦٤ وقد استمرت الحرب الوهابية من سنة ١٨١١م إلي سنة ١٨١٩م
- وهل هناك آراء أخري عن هذه الحرب تود أن تقرأها قبل أن ننتقل لموضوع آخر؟
- هناك رأي يقول : (- - ماذا كان يمكن أن يحدث لو اقتصرت الحركة الوهابية علي الدعوة السلمية دون شق عصا الطاعة والخروج علي الخلافة ، ألم يكن ذلك يدعم موقف الخلافة في مواجهة الأخطار المحيطة بها من أوروبا ، وخاصة الروس ، وماذا لو وفر المسلمون "الخلافة-محمد علي-الوهابيون" علي حد سواء الأموال والدماء والسنوات التي أهدرت في تلك الحرب ووجهت تلك المجهودات إلي توسيع رقعة الإسلام جنوباً ، أو لحمايته شمالاً ، تخيل لو كانت الجيوش التي جردها محمد علي في تلك الحملة قد توجهت جنوباً إلي أفريقيا - - - وكان علي الخلافة العثمانية أن تدرك أن الدعوات لا تُقمع بالسلاح ، فصحيح أن محمد علي قد استطاع أن يُخمِد الحركة الوهابية بعد ثمان سنوات من القتال إلا أن الحركة ظلت كامنة إلي أن ظهرت من جديد فيما بعد - - - ماذا كان يحدث لو أن محمد بن عبد الوهاب اقتصر علي الدعوة السلمية ووفر علي المسلمين كل هذه الدماء والأموال ، وإذا افترضنا صحة اجتهاداته فيما يخص البدع ، أليس دعم وحدة المسلمين أهم ، أليس دعم دولة الخلافة في مواجهة الأخطار الخارجية أكثر شرعية وإسلامية في هذا الصدد ، ماذا لو أنه استخدم إمكانياته في

---

[٢٦٣] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١٤٩

[٢٦٤] عصر محمد علي (الرافعي)صفحة ١٥١

الدعوة والحث علي القتال وتحفيز الرجال في استنفار قوي المسلمين وتجنيدهم لمواجهة الأخطار المحيطة بالخلافة أو صد الغزوات التي كان المسلمون يواجهونها في أكثر من مكان أو حتي توسيع رقعة دار الإسلام ، وإذا كانت إقامة المزارات وزيارة القبور وشرب الدخان ولبس الحرير بدعاً ، أليس تهديد وحدة المسلمين واستنفاذ طاقة الخلافة الإسلامية وإضعافها في مواجهة الدول الصليبية المتربصة ، وإراقة دماء المسلمين فيما بينهم بدعاً أشد ، بل جرائم لأنها لا تهدد صحة أو عدم صحة ممارسة تعبدية أو عقائدية معينة ، بل تهدد مستقبل الأمة الإسلامية ووحدتها ووجودها ذاته ، وهكذا فإن الحملة علي الجزيرة العربية كان لها بعض الإيجابيات ، ولكن كان من الممكن علاج تلك الحركة بالحوار أو حتي بالإهمال وتوجيه طاقة الجيش المصري إلي الجنوب – – ماذا لو ، ماذا لو ، ولو تفتح عمل الشيطان)[٢٦٥]

- يا لها من حرب ، استفاد منها محمد علي علي جميع الأصعدة بما في ذلك تخلصه من عدد لا بأس به من الجنود الغير نظاميين فماذا عن باقي حروب محمد علي باشا ؟

٩٠. حروب محمد علي الأخري بعد الحرب في الحجاز

- في الحقيقة حدثت حروب أخري في عهد محمد علي منها حرب السودان التي استمرت من سنة ١٨٢٠ م إلي سنة ١٨٢٢م[٢٦٦] وكانت بقيادة اسماعيل باشا وإبراهيم باشا أبناء محمد علي لأن ابنه طوسون باشا كان قد مات كما سافر محمد علي أيضاً إلي السودان في أحد مراحل الحرب وقد قُتِل اسماعيل باشا أثناء هذه الحرب ،
- وهل أقام محمد علي سبيل آخر صدقة لابنه اسماعيل كما فعل مع طوسون ؟
- بالتأكيد ويمكنك مشاهدته أيضاً في شارع المعز أمام مجموعة قلاوون ومجموعة برقوق
- وخضعت السودان لمحمد علي
- نعم وبدون الخوض في تفاصيل تم خضوع السودان لسيطرة محمد علي باشا ، لأن أساليبه قد تكررت في معظم حروبه ، كما أن إبراهيم باشا قد أثبت كفاءة عالية في هذه الحروب ، فضلاً عن تفوق الجنود المصريون في القتال فإنهم يتميزون بمزايا عديدة
- كيف ؟
- إن أكثر ما يميز الجندي المصري طاعته للأوامر وصبره وجلده وتحمله للمشاق ، وفوق كل هذا لا يكلفك كثيراً فهو يأكل المتوفر من الطعام دون تبرم وينام في أي مكان متاح ويتكيف مع الظروف والبيئة المحيطة به كما أن من السهل جداً رفع روحه المعنوية
- فماذا حدث بعد ذلك ؟

---

[٢٦٥] تاريخ مصر الحديث ١٧٩٨-١٩٥٢ صفحات من كفاح الشعب المسلم في مصر – د محمد مورو – ص ١٦٥

[٢٦٦] عصر محمد علي (الرافعي)صفحة ١٥٥

- بعد ذلك أمر السلطان العثماني محمد علي بإخماد ثورة أهلية كبيرة في اليونان فقام محمد علي بإرسال قوات برية وبحرية وكادت أن تحقق نجاحاً كبيراً لولا تدخل الدول الغربية لإنقاذ ثورة اليونانيين ضد الدولة العثمانية مما تسبب في غرق الأسطول المصري في موقعة تسمي واقعة نافارين
- أوروبا تنقذ اليونان دائماً عندما تقع في أي ورطة
- بالتأكيد فهم يعتبرونهم من البشر وليسوا كائنات علي هيئة بشر ، فلليونانيين كافة حقوق الإنسان علي عكس من يسمونهم الهمج
- إن غرق الأسطول المصري رسالة قوية لمحمد علي من الغرب أليس كذلك ؟
- هذا صحيح ومع ذلك فقد تسببت هذه الحرب في رفع شأن وسمعة الجيش المصري عالمياً وأصبح يقاتل قتال علي أعلي مستوي ليس في الحجاز والسودان فقط ولكن في أوروبا نفسها ويعلق علي ذلك الرافعي بقوله (ولا يخفي من جهة أخري أن الحرب اليونانية كانت خير إعلان عن قوة الجيش المصري وحسن نظامه وكفاءة قواده وشجاعة جنوده ولقد ظهر في تلك الحرب أرفع شأناً وأشد بأساً من الجيش التركي فكان لهذه الميزة أثرها في توطيد دعائم الدولة المصرية الفتية وإعلاء شأنها حيال تركيا بحيث لم يعد يسهل علي السلطان أن ينظر إلي محمد علي كوالي من ولاة السلطنة العثمانية بل جعلته الحرب نداً له وملكاً مهيب الجانب قوي البأس والسلطان فلا غرو أن قويت في نفس محمد علي بعد ذلك فكرة إعلان الاستقلال)[٢٦٧]
- واضح من كلام الرافعي أنه يفضل القومية المصرية ويتمني استقلال مصر بالمفهوم الحالي للاستقلال

٩١. محمد علي يتحدي الدولة العثمانية

- كان محمد علي قد أنفق أموالاً طائلة وبذل مجهود جبار من أجل تأسيس جيش قوي بل تكاد تكون النهضة التي أحدثها في مصر بسبب النهوض بالجيش المصري وحده لتحقيق طموحاته فكان ينفذ أوامر السلطان العثماني ويرسل الجيوش حيث يريد السلطان ، حتي شعر بمدي ضعف الدولة العثمانية ومدي قوة الجيش المصري الذي كان يقاتل بالنيابة عن الدولة العثمانية وينجح في ما يفشل فيه الجيش العثماني ،
- وبالتالي قرر أن يقاتل الدولة العثمانية ويعلن استقلال مصر
- بالفعل استطاع الجيش المصري بقيادة ابراهيم باشا التقدم نحو سوريا وفلسطين ولبنان وسيطر علي مساحات شاسعة من الأراضي حيث كاد يزحف نحو الأناضول في اتجاه عاصمة الدولة العثمانية نفسها ، وطبعاً كان ابراهيم باشا عبقري من عباقرة القيادة العسكرية والخطط الحربية حتي أنه استطاع أن يفتح عكا التي لم يتمكن نابليون من فتحها منذ سنوات قليلة

[٢٦٧] عصر محمد علي (الرافعي)صفحة ٢١٥

- بمناسبة نابليون ، هل لاحظت معي أن محمد علي استطاع أن يحقق حلم نابليون في تكوين إمبراطورية في الشرق تكون قاعدتها مصر ،
- بالتأكيد وقد فرح الرافعي جدا بانتصارات إبراهيم باشا وكتب عن فتحه لعكا وعن ونجاحه فيما فشل فيه نابليون بونابرت
- فماذا كتب ؟

٩٢. أمام أسوار عكا فشل الجيش الفرنسي بقيادة نابليون وانتصر الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا

- يقول الرافعي عن حصار إبراهيم باشا لعكا الذي بدأ في نوفمبر سنة ١٨٣١ : (كانت عكا علي جانب عظيم من المنعة ، ولا غرو فهي التي أعجزت نابليون منذ نيف وثلاثين سنة عن فتحها ،) وحدث أن وصل جيش عثماني لإنقاذ عكا فترك إبراهيم باشا قوة لاستمرار حصارها وقام إبراهيم باشا بملاقاة الجيش العثماني قبل أن يصل إلي عكا وبعد أن تأكد إبراهيم باشا من تمام هزيمة الجيش العثماني عاد بقواته إلي عكا وفتحها في ٢٧ مايو ١٨٣٢ ، ويضيف الرافعي : (فلا غرو أن كان لفتح عكا دوي عظيم تجاوب في الخافقين ، فإن عكا هي التي امتنعت علي نابليون وعجز عن فتحها وارتد عنها خائباً ، فانتصار إبراهيم باشا في فتحها هو صفحة مجد وفخار للجيش المصري – -- وقد كان لسقوط عكا تأثير ابتهاج عظيم في مصر فأقيمت الزينات في القاهرة ثلاثة أيام متواليات)[٢٦٨]
- كل هذه الانتصارات تتابعها بريطانيا وفرنسا بالطبع
- بالتأكيد ، فبعد انتصارات جيشه المتلاحقة علي الجيش العثماني حيث تعتبر معركة نصيبين هي المعركة الكبري التي انتصر فيها الجيش المصري علي الجيش العثماني وكانت في ٢٤ يوليو ١٨٣٩ وبعد كل هذا النجاح واتساع رقعة ملكه واجه خطراً كبيراً لم يتمكن من مواجهته
- أعتقد أنه قد تعدي المسموح به ، ولكن كيف سمحت أقوي دولتين في العالم في ذلك الوقت بنجاحات محمد علي إلي هذا الحد وتكوين هذه الدولة المصرية القوية الناهضة وهل كان صعود دولة محمد علي تحت مراقبة الدول الكبري وبحساب بحيث يتم إيقافه في أي وقت ؟ وهل كان يجهل الموقف الدولي ؟
- والإجابة علي هذا السؤال محيرة بالطبع وقد حاول الأستاذ يحيي حقي الإجابة في معرض حديثه عن الجهل بالموقف الدولي
- فماذا قال ؟

---

[٢٦٨] من كتاب (تاريخ الحركة القومية) الجزء الثاني – عبد الرحمن الرافعي – صفحة ٣٣ وكتاب عصر (محمد علي) تأليف عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف – الطبعة الخامسة ١٩٨٩ ، بتصرف من صفحة ٢٢٤ ، ٢٢٨

٩٣. هل كان محمد علي يجهل الموقف الدولي ؟

- يقول الأديب الكبير يحيي حقي بعد أن تحدث عن جهل إبراهيم بك ومراد بك بالموقف الدولي[٢٦٩] : - - - ننتقل الآن إلي محمد علي ، لا يمكن لعصامي مثله الجمع بين طغيان الشخصية وشدة الدهاء إلا أن يكون –رغم أميته– (رجل دولة) بالمعني الحديث لهذا التعبير ، أراد من أول يوم أن يستأثر هو وأبناؤه بحكم مصر لأنه أحبها كما يحب الأكول البطني أكلة شهية ، هي جنته في الأرض ينعم بها قبل أن يأذن له سيدنا رضوان بدخول جنة السماء ، علمي علمك ، فكان لابد له أن يفهم سياسة الباب العالي في استنبول وهي في ذاتها عقدة العقد ، وأن يظل متسمعا لكل همس يدور في سراي (خولمة باغجة) أو (يلديز) وعن طريق سياسة الباب العالي نفذ محمد علي إلي فهم الموقف الدولي في أوروبا ، من الممكن الدفاع عن الرأي القائل أن محمد علي لم يفهم هذا الموقف الدولي حق الفهم وأنه ظل حبيس أفقه المحلي الدائر حول محور (رأس التين–خولمة باغجة) لعل السبب أن أطماعه كانت أقوي من ذكائه ، والطمع يعمي ويصم ، فقد أخطأ في تقدير أن أوروبا ستقف مكتوفة الأيدي تشهده ينشئ أمبراطورية عربية تغير علي الدولة العثمانية فإما أن تحتلها وإما أن تقص جناحها علي الأقل وتنتزع منها الخلافة - - - - وأخطأ في تقدير مدي مساعدة فرنسا له حسبها أنها –وهي مرضعته– ستقف إلي جانبه علي طول الخط ، لم يفهم أن تركة الرجل المريض (الدولة العثمانية) معدة للتوزيع علي دول أوروبا لا علي بلاد أسيا وأفريقيا ، كلها في نظر أوروبا بلاد نيام نيام ، وأن أوروبا وإن اختلفت فهي متفقة علي منع قيام دولة عظيمة في هذا الموقع الذي تحتله مصر - - -
- اتفقوا علي منع قيام دولة عظيمة في هذا الموقع ، هذا كلام يدعو للتأمل بالفعل ، فقد كانت هناك دائماً دولة إسلامية كبري في هذه المنطقة من العالم ، ويتغير اسمها فقط من دولة الراشدين إلي الدولة الأموية إلي العباسية ثم تأسست دول كبري في ظل الخلافة العباسية مثل الطولونية والإخشيدية ثم سيطر الفاطيون لفترة ثم جاءت الأيوبية فالمملوكية فالعثمانية ، وكانت كل دولة تلتهم سابقتها عندما تضعف وتفسد ، وكان قد جاء الدور علي محمد علي ليؤسس دولته وتدور عجلة التاريخ مرة أخري ويلتهم الدولة العثمانية الضعيفة ويؤسس دولة مرهوبة الجانب علي أنقاضها كما فعل سابقيه ، ولكن يبدو أن هذه المرة قد فهم الأوروبيون التاريخ جيداً ووقفوا إلي جانب محمد علي باحساب وحذر وتحت السيطرة ليقضي علي العثمانيين ثم يلتهموه لمنع وجود مارد جديد في المنطقة
- يبدو أن حواري معك قد أثمر بالفعل ، فقد قمت بتحليل للموقف بإيجاز رائع ومركز
- أشكرك ، فهذا بعض ما عندكم ، فماذا أضاف أيضاً الأستاذ يحيي حقي ؟

---

[٢٦٩] نقلاً عن كتاب (صفحات من تاريخ مصر) للكاتب الكبير يحيي حقي

- يضيف فيقول : - - - - فلما توغل إبراهيم باشا في الأناضول وأصبح قاب قوسين أو أدني من استانبول اشتركت أوروبا –في مقدمتها فرنسا– في توجيه إنذارها لمحمد علي بالرجوع إلي جحره والانكماش فيه ، وكان تحطيم أسطول مصر غدراً في موقعة نافارين مثلاً آخر علي اتحاد أوروبا وفي مقدمتها فرنسا علي كبح جماح مصر ، من السهل ربط خيبة أمل محمد علي ببوادر إصابته بالجنون ، لا شك أن الإنذار الأوروبي كان صدمة شديدة له ، والجاهل لا العالم هو الذي يصاب بمثل هذه الصدمة حين يستيقظ علي الحقيقة المرة التي كانت خافيه عليه
- هذا الرأي الأول الذي يفترض أن محمد علي كان لا يفهم الموقف الدولي ، فماذا قال يحيي حقي عن الرأي الآخر ؟
- يقول : - - ومن الجائز الدفاع عن الرأي المضاد القائل أن محمد علي لم يكن غرا حتي يتصور أنه يستطيع إقامة إمبراطورية بمشهد - - من أوروبا التفسير المعقول لسياسته هو أنه أراد أن تكثر في يده أوراق اللعب ولو ضحي في سبيل ذلك بالجيوش والأساطيل كل هذه الأوراق لا تلزمه ولا يطمع في الربح منها إلا ورقة واحدة ، وإنما لابد له أن يحتال لامتلاكها ليساوم بها فيتنازل عنها جميعاً من أجل استبقاء هذه الورقة الواحدة في يده ، إنها ورقة استيلائه علي عرش مصر حقا له ولذريته من بعده ، - - إذا كان محمد علي قد انسحب من الحجاز واليمن وسوريا والأناضول وإذا كان اسطوله قد تحطم فإن هذا كله كان الثمن الذي لابد من دفعه لحصوله علي عرش مصر كان محمد علي يعلم هذا الثمن وكان مستعداً لدفعه ومما يؤيد هذا الرأي أن مودته ومودة خلفائه من بعده لفرنسا لم تتغير رغم كل الذي فعلته ،
- إذن فقد انسحب محمد علي من كل هذه البلاد التي انتصرت فيها جيوشه
- ليس هذا فحسب بل إن الدول الكبرى بعد أن أجبرت محمد علي على الانسحاب من كافة الأراضي التي دخلها الجيش المصري عدا السودان بإجباره علي تخفيض عدد الجيش المصري وتم إجباره علي عدم تصنيع سفن حربية وتكوين أسطول مصري أي بمعني أصح تم تقليم أظافره ،
- في الحقيقة أنا مع الرأي الذي يقول أن محمد علي تم استغلاله لتحقيق أهداف معينة وبعد أن تم تحقيق المطلوب منه قاموا بتقليم أظافره
- وهناك رأي آخر يقول أن الدول الكبري ساعدت محمد علي في البداية عندما أيقنت أن البعد الديني لديه ليس له حساب وأنه من السهل علمنة الدولة علي يديه وإنهاك آخر دولة إسلامية كبري متمثلة في الدولة العثمانية لتقسيمها فيما بينهم كما حدث بعد ذلك وهناك آراء عديدة مختلفة حول شخصية محمد علي التي حيرت المؤرخين فمثلاً يقول الدكتور علي الصلابي (لقد كان الجبرتي معاصراً لسياسة الظلم التي مارسها محمد علي على الشعب المسلم في مصر الذي امتص حقوقه وخيراته وفتح للتجار الأوروبيين الباب علي مصراعيه لدخول مصر والهيمنة علي اقتصادها ، وأصبحت مصر هي المزرعة

التي تعتمد عليها أسواق أوروبا من المنتجات الزراعية وارتبطت مصر بأوروبا ارتباطاً حضارياً وتجارياً وأصبح اعتماد طبقة التجار الناشئة في مصر علي الأسواق الأوربية من الناحية الإقتصادية وبالتالي السياسية إلي جانب تمكين دعاة الثقافة الأوروبية من السيطرة علي الحياة الفكرية بعد أن شل دعاة الاتجاه الإسلامي وأوقف مناهج التعليم القائمة علي الدين تنفيذاً لسياسة نابليون الماسونية وهو أمر أكده المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي في قوله " كان محمد علي ديكتاتوراً أمكنه تحويل الآراء النابليونية إلي حقائق فعالة في مصر)٢٧٠ وقد ورد أيضاً عن محمد علي أنه قال للفرنسيين وهو يفاوضهم علي مسألة احتلالهم للجزائر (ثقوا أن قراري – – لا ينبع من عاطفة دينية فأنتم تعرفونني أنني متحرر من هذه الاعتبارات التي يتقيد بها قومي)٢٧١

- فما رأيك أنت في كل ما فعله محمد علي ؟
- لا أُخفي عليك ، لقد كنت أتمني أن ينجح محمد علي في تكوين دولة إسلامية كبري مرهوبة الجانب علي أنقاض الدولة العثمانية ، فمهما يكن من أمر كانت المنطقة ستظل في مأمن من الاستعمار الأوروبي الذي أنهكها فكرياً وأفقدها هويتها وزرع داخلها الكيان الصهيوني إلي الآن وقام برسم حدودها بالمسطرة وفتتها إلي عدة قوميات تكره كل منها الأخري وأمدهم بالسلاح ليتقاتلوا وقام بنهب ثرواتهم ونشر عملاءه بينهم ولكن أمنيتي هذه بالطبع تنتج عن تفكير بشري محدود ويتسم بقصور شديد فكلها أمور وأسباب يسببها المولي عز وجل ، بحكمته التي لان ندركها فقد تكون فتن تخوضها الأمة وابتلاء يميز به المولي عز وجل الخبيث من الطيب والله أعلم ، ومهما كان تفكيرنا فلن نصل أبداً إلي الحكمة من كل هذا ولكننا نثق في الله ونتبرأ من حولنا وقوتنا إلي حوله وقوته وإنا لله وإنا إليه راجعون ، وقد قال سبحانه : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) ٤٤ سورة يونس
- سبحانه وتعال (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) ٢٣ سورة الأنبياء
- إن كل هذا يؤكد ما سبق أن قلته لك ، أنك لن تعرف ما سيحدث ، فافعل ما يجب عليك فعله وسر علي طريق الحق دون أن تشغل نفسك بمعرفة نتائج ما تفعله ، أما دراستنا للتاريخ فتأتي في إطار معرفة كيف تطور الصراع بين الحق والباطل لنتسعد لمواجهة أعداء الأمة كلما قاموا بتغيير أساليبهم القذرة في محاربة الإسلام
- بالتأكيد إن مرحلة محمد علي وما تلاها كانت مرحلة جديدة في الصراع لم تكن القوة وحدها المستخدمة فيه ، فقد أصبحت هناك وسائل أخري لتدمير عقول المسلمين أو تغييبها والسيطرة عليها حتي شعروا بما يسمي بالهزيمة النفسية التي هي أشد تأثيراً من الهزائم العسكرية ، فماذا بعد محمد علي ؟

---

[٢٧٠] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٤١٤

[٢٧١] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة ٤٠٩

- تولي إبراهيم باشا حكم مصر في حياة أبيه محمد علي الذي لم يكن يعي ما يدور حوله حتي مات إبراهيم نفسه قبل أن يموت محمد علي
- وهل وافق السلطان العثماني علي تولي إبراهيم باشا حكم مصر
- بالتأكيد فقد كان كل ما كسبه محمد علي من كل إنجازاته ومعاركه أن يظل حكم مصر في الأسرة العلوية كما نصت علي ذلك معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، فلما مرض محمد علي (– – عقد ابراهيم باشا مجلساً خاصاً برئاسته واستقر رأي المجلس علي أن يتولي إدارة شئون الحكومة بدل أبيه فتولي الحكم في إبريل سنة ١٨٤٧م وأبلغ الأمر إلي الباب العالي[٢٧٢] فأرسل إليه في يوليو فرمان التقليد ، وقد عني ابراهيم باشا مدة حكمه القصير بتقوية ثغور البلاد وحصونها وتجديد قوتها الحربية ولكن عاجلته المنية في ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨م ، توفي وله من العمر ستون سنة هلالية – – وبعد وفاة إبراهيم ولي الحكم عباس باشا الأول ، ومازال محمد علي مصاباً بمرضه العضال إلي أن توفي يوم ١٣ رمضان سنة ١٢٦٥ هـ " ٢ أغسطس سنة ١٨٤٩ " بسراي رأس التين بالإسكندرية ونقلت جثته إلي القاهرة وشيعت جنازته باحتفال مهيب ودفن بمسجده بالقلعة حيث يرقد رقدته الأبدية – –)[٢٧٣] وهكذا مات الرجل الذي صنع من مصر دولة مستقلة ذات سيادة وبعد أن أسس بها مشاريع عملاقة وهو بلا شك شخصية فذة يندر أن تتكرر في التاريخ (علي أن من الواجب أن نقرر إثباتاً للحقيقة من جميع نواحيها أن الشعب لم يتحرر من الشقاء في عصر محمد علي ، فقد وقع عليه إرهاق ومظالم كثيرة ويحق لنا من هذه الناحية أن نقول إن أعمال الإصلاح التي تمت في عصر محمد علي لم ينتفع بها الجيل الذي عاش في ذلك العصر بل انتفعت منها الأجيال التي توالت من بعده ، أما جيل محمد علي فقد فدحته أعمال السخرة والإرهاق ولم يتذوق طعم الحرية الشخصية ولا حق الملكية فلعلك تذكر أن محمد علي قد تملك كل أراضي مصر ووضع نظام احتكار الحاصلات الزراعية وبيعها ، كما احتكر التجارة والصناعة وقد أساء هذا النظام إلي الشعب إساءة كبري لأنه ضرب عليه حجاباً من الفقر والجمود – – وإذ تكلمنا عن المظالم التي أرهقت الشعب في عهده فمن الحق أن نقول أنها أخف وطأة من المظالم التي كانت تقع في عصر المماليك)[٢٧٤] كان هذا جزء من رأي المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي في محمد علي وأضاف أيضاً (فإذا نحن نظرنا إلي تاريخ محمد علي في مجموعه حكمنا من غير تردد أنه مؤسس الدولة المصرية الحديثة ومحقق الاستقلال القومي وباعث نهضة الإصلاح والعمران في مصر وأنه من هذه الناحية أكبر بنَّاء في صرح القومية المصرية – – فلو لم يتولي محمد علي حكم البلاد لبقيت رازحة تحت حكم التقهقر والفوضي كما بقيت سائر ولايات السلطنة العثمانية

---

[٢٧٢] الباب العالي مقصود به السلطان العثماني وحكومته وهو مجرد إجراء شكلي لا يؤثر في تولية ابراهيم باشا حكم البلاد والله أعلم

[٢٧٣] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ٥٧٣ ، ٥٧٤

[٢٧٤] عصر محمد علي (الرافعي)– صفحة ٥٦٢ ، ٥٦٣

كالعراق وسورية وفلسطين أو لاحتلتها دولة من دول الاستعمار كما احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠م) ،

- علي العموم الاحتلال تم علي أي حال في عهد أحد أحفاد محمد علي
- ويمكن الآن أن نتوقف عن الحديث عن محمد علي باشا وإبراهيم باشا ونبدأ الحديث عن عباس الأول
- هذا الذي يُسمي حي العباسية نسبة لاسمه ؟
- نعم ، وهذا الوالي لا تتوفر لدي الكثيرين معلومات عنه ،
- فكيف حكم مصر بعد إبراهيم باشا ، وما أهم ما ميز عصره ؟
- سوف تندهش إذا قلت لك أن عصر عباس الأول كان عصر رفاهية للفلاح المصري
- وكيف ذلك ؟
- لأن أكثر ما يُرهق الفلاح وينغص عليه حياته هو أعمال السخرة والتجنيد والاستدانة من دول أخري والتدخل الأجنبي في البلاد والضرائب وجمع الأموال وهجمات البدو وأعمال النهب والسلب ، وكل ما سبق لم يحدث في عهد عباس الأول
- لا ضرائب ولا سخرة ؟
- إن الضرائب وأعمال السخرة والاستدانة والتدخل الأجنبي وكل ما ذكرته لك من إجراءات يلجأ إليها الحاكم عندما تكون لديه مشروعات كبري وطموحات وحروب كثيرة وأعمال بناء كبري وأهداف يريد تحقيقها وكل هذا لم يكن يحتاجه عباس الأول وبالتالي لم يلجأ إلي هذه الأساليب ، وإليك بعض المعلومات عن عباس الأول وماتم في عصره
- لقد اشتقت لأعرف ذلك بالفعل

٩٤. عباس الأول ١٨٤٨-١٨٥٤ ورفاهية الفلاح المصري[٢٧٥]

- ولي عباس الحكم بعد وفاة عمه إبراهيم وفي حياة جده محمد علي إذ كان أكبر أفراد الأسرة العلوية سناً وبالتالي أحقهم بولاية الحكم بعد إبراهيم ، وهو ابن طوسون ابن محمد علي ، ولم يرث عباس عن جده مواهبه وعبقريته ولم يشبه عمه إبراهيم في عظمته - - - وكان محمد علي قد توفي في ٢ أغسطس ١٨٤٩ بسراي رأس التين ونقل جثمانه إلي القاهرة ودفن بمسجده في القلعة ، وكان في استقبال جثمانه جميع أفراد الأسرة الباقين علي قيد الحياة ولم يتخلف سوي عباس ، وخلال الفترة التي حكم فيها عباس والتي استمرت خمس سنوات ونصف غدا عباس غريب الأطوار - - - - - سيئ الظن بالناس ولهذا كان كثيراً ما يأوي إلي العزلة ويحتجب بين جدران قصوره التي كان يتخير لبنائها الجهات الموغلة في الصحراء أو البعيدة عن العمران ، من هذه القصور البعيدة عن العمران القصر الضخم

[٢٧٥] نقلاً باختصار عن كتاب (المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر)- د يونان لبيب رزق- المجلس الأعلي للثقافة – الفصل الرابع (مصر بين عهدي محمد علي واسماعيل)- عبد الله محمد عزباوي

الذي شيده في صحراء الريدانية التي سميت منذ ذلك الحين باسم العباسية نسبة إليه – – – – وفي عهد عباس أصبح الفلاح آمناً في حقله من اللصوص ، ذلك أن عباس قد عني باستتباب الأمن فضرب علي أيدي الأشقياء وقطاع الطرق وطاردهم وعاملهم بقسوة فخشوا بأسه وانقطع دابرهم وأمن الناس شرورهم ، كما أصبح الفلاح آمناً من تصرفات رجال الجندية وأعمال السخرة وذلك لقلة عدد الجيش ولعدم وجود أشغال عامة كحفر القناطر ، وترتب علي قلة المصروفات بسبب هذه الخطة التي اتبعها عباس أن خفت الضرائب ، – – ولم يفرض عباس أي ضرائب جديدة علي الفلاحين ، وفي ذلك يذكر نوبار في مذكراته أن ناظر المالية اقترح عليه فرض ضريبة جديدة وقد سأله عباس : هل ميزانيتنا متوازنة ؟ وجاء الرد أن الميزانية متوازنة بل وهناك فائض في الإيراد وعندئذ قال له عباس : إذن في هذه الحالة ما ضرورة فرض عبء جديد إنها جريمة وخطيئة ،حذار من الآن لا تطرح أمامي مثل هذه الاقتراحات ، وفي عهد عباس ألغي نظام الاحتكار ، فعم الرخاء واغتبط الفلاح بثمرة كده وعمله ، ففي سنة ١٨٤٩ أصدر عباس قراراً بإلغاء احتكار شراء الكتان من الفلاحين وقد جاء في هذا القرار (طلباً لرفاهية الأهالي وفائدتهم كان محصول الكتان بمديرية المنوفية يورد للأشوان الأميرية بسعره المعلوم ولكن ظهر بعد البحث والتنقيب أن هذا الصنف إذا لم يورد في الأشوان ويباع بيد أصحابه يكون أفيد وأولي لراحتهم ولرفاهية الرعية ولذلك قرر المجلس المنعقد يوم الأربعاء ٢٦ ذي الحجة ١٢٦٤هـ في القلعة أن يرخص للأهالي في بيع محصولهم كما يريدون وقد وافق لدينا اتباع ذلك) ، وأعقب إلغاء نظام الاحتكار في عهد عباس أن انطلق التجار الشوام واليونانيون إلي أنحاء الريف المصري سعياً وراء شراء المحاصيل من الفلاحين ، ووجد الفلاحون المجال أمامهم واسعاً لبيع حاصلاتهم وتسلم الثمن نقداً ،

- التجار الشوام واليونانيون شغلوا الفراغ الذي تركته الحكومة ، علي أي حال لقد كان ذلك في صالح الفلاح المصري ، فأنا أعتقد أنه لم يكن يعرف كيف يتصرف في إنتاجه ولمن يمكن بيعه والله أعلم
- وشهد عهد عباس تقدماً من ناحية الإدارة لم يعرفه عهد محمد علي ، فقد انتظمت مرتبات الموظفين بفضل سياسة صارمة في التدبير والتوفير وأصبح الموظفون يتقاضون مرتباتهم في موعدها بعد أن كانوا في أيام محمد علي ينتظرون ١٥ أو ٢٠ شهراً لتسلم هذه المرتبات ، وفي عام ١٨٥٢ شرع عباس في مد السكة الحديدية بين الإسكندرية والقاهرة ،
- كنت أعتقد أن أول من شرع في مد خط سكة حديد في مصر هو سعيد باشا والخديو اسماعيل فقط
- اعتقد عباس أن جده محمد علي قد أفسح المجال للنفوذ الأوروبي في مصر ولذا فقد مضي في سياسة الحذر من الغرب ، فعمل علي هدم النفوذ الأوربي في مصر ، إذ كان يعتقد أنه إذا ما تحتم عليه الخضوع لأحد فليكن للخليفة العثماني وليس للأوروبيين وكان يري أن النضال بين السلطان والوالي لن يفيد سوي الأوروبيين ولن يؤدي إلا إلي الانهيار التام للإمبراطورية العثمانية بما فيها مصر

، وقد نشبت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا سنة ١٨٥٣ فطلب السلطان عبد المجيد من عباس أن يمده بالجيش والأسطول فلبي عباس طلبه ، وقد أبلي المصريون بلاء حسنا في هذه الحرب التي استمرت إلي عهد سعيد فقد استطاع الجيش المصري أن يكسر هجمات الروس في سنة ١٨٥٤

- ولكن الجميع تقريباً يتهم عباس الأول وعصره بالعديد من السلبيات
- علي الرغم من السلبيات التي شهدها عصر عباس الأول من إهمال للتعليم وإغلاق للمصانع وانحطاط الجيش والبحرية فإن عصره قد تميز بعدم التدخل الأجنبي في البلاد ، وعدم اللجوء إلي الاستدانة ، ولم يترك أي دين علي حكومة البلاد ، ولم يثقل خزانة البلاد بالديون الأجنبية التي كبلها خلفاؤه من بعده وكان يجتهد دائماً في سد عجز الميزانية دون أن يلجأ إلي القروض
- ومات عباس دون أن يعرف أن مصر ستكبلها الديون ويرتع فيها حثالة أوروبا بعد ذلك
- في الحقيقة إن عباس الأول قد مات مقتولاً
- إن هذا ليس بمستغرب بالنسبة لي
- وقد وصل للحكم بعده عمه سعيد الذي كان أصغر منه سناً
- هذا الذي حدثتني في بداية حوارنا عن قصته مع المكرونة وقناة السويس[٢٧٦] ؟
- نعم ، ولقد تميز عصره بأن أصبح المصريون ضباطاً في الجيش المصري وليس جنوداً فقط كما قام بفتح المجال أمام الغرب وخاصة فرنسا لتطوير البلاد ، وقام بالطبع بتوقيع عقد قناة السويس والذي كان يحتوي علي شروط مجحفة تجبر الجانب المصري علي توفير عمال بالسخرة بدون أجر ،
- فما أبرز الأحداث التي وقعت في عهده غير عقد شركة قناة السويس ؟

٩٥. الجيش المصري وشجاعة فائقة في المكسيك

- تحت عنوان (من أجل عيون فرنسا) ، كتب المؤرخ الكبير جمال بدوي ما يلي[٢٧٧] ؛ من الجائز أن تجامل صديقك في أفراحه فترسل إليه بوكيه ورد أو بطاقة تهنئة ، ومن الواجب أن تجامله في أحزانه وأزماته بعبارات تنم عن المشاركة الوجدانية ، أما أن تجامله بإرسال الجيش ليحارب معه في بلاد بعيدة ، فهذا أغرب أنواع المجاملة التي سجلها تاريخ مصر الحديث ، عندما بعث الوالي سعيد باشا بكتيبة من الجيش المصري لتخوض حرباً مع المكسيك مجاملة لإمبراطور فرنسا نابليون الثالث وفاء لروابط الصداقة بينهما ،
- وما أسباب هذه الحرب ؟
- كان نابليون الثالث يحلم بإقامة إمبراطورية فرنسية في العالم الجديد ، فانتهز فرصة قيام ثورة في المكسيك ضد نظامها الجمهوري وعمل علي إذكاء نارها ، وحاول تحريض إنجلترا وأسبانيا لتدخل بحجة

---

[٢٧٦] أنظر الجزء الأول من هذا الكتاب

[٢٧٧] نقلاً عن كتاب (محمد علي وأولاده) تأليف المؤرخ الكبير جمال بدوي

حماية الرعايا الأوروبيين ، فلم تأبه الدولتان لتحريضه ، فتحمل وحده مسئولية التدخل ، بعث بقوات فرنسية تعرضت لهزائم متوالية ، فلما تحرج موقفه لم يجد من ينقذه من ورطته سوي صديقه الحميم سعيد باشا ، وأبت شهامة الوالي المصري أن يعتذر لصديقه بأن من غير المنطقي أن يذهب الجيش المصري ليحارب في بلاد لا تربطها بمصر صداقة أو عداء من بعيد أو من قريب ، وإنما استجاب للاعتبارات الشخصية وقام بتجهيز كتيبة قوامها ١٢٠٠ جندي وضابط تحت قيادة البكباشي السوداني خيرة الله محمد ، وأبحرت الكتيبة إلي المكسيك في عام ١٨٦٣ وخاضت المعارك التي فرضت عليها في شجاعة تحسد عليها حتي أن القائد الفرنسي وصف أفرادها بأنهم أسود وليسوا جنوداً وبعد أربع سنوات من الحرب اليائسة كانت الكتيبة قد فقدت معظم أفرادها بمن فيهم قائدها ، ولم يبق منهم سوي ٣٠٠ جندي عادوا إلي باريس في صحبة الجيش الفرنسي المهزوم ، فاستعرضها الإمبراطور وأشاد بشجاعة أفرادها وخلع عليهم الأوسمة ، وبعد وصولهم إلي الإسكندرية استعرضهم الخديوي اسماعيل – بعد وفاة سعيد – في قصر رأس التين وأمر بترقية بعض رجالها اعترافاً بشجاعتهم

- هل كان هناك شبه بين سعيد باشا والخديو اسماعيل في أسلوب الحكم ؟

٩٦. عقد شركة قناة السويس وعندما يكون الخصم هو الحكم

- في الحقيقة أن كلاهما كان يثق في فرنسا إلي درجة غير طبيعية ، فعن هذا الموضوع يقول الأستاذ جمال بدوي[٢٧٨] : كان سعيد ومن بعده اسماعيل يثقان ثقة عمياء في نزاهة ملوك أوروبا وفرنسا بالذات ، علي عكس مؤسس الأسرة العلوية محمد علي باشا الذي كان شديد الحذر من ناحية الأطماع الأوروبية ، ولم يكن يحسن الظن بهم ، ولا يسمح لهم بالتغلغل في شئون البلاد تحت ستار المشروعات والمصالح المشتركة ، وعمل علي حماية الاستقلال الوطني من الوقوع في براثن النفوذ الأوروبي ، وإن كان الموقف الرافض للهيمنة الأوروبية لم يمنع محمد علي من اقتباس أساليب النهضة الأوروبية في تأسيس مشروعه الكبير ، فبعث البعثات إلي هناك ، واستقدم العلماء والخبراء إلي مصر ليعملوا تحت عينه الثاقبة ، ومضي وريثه عباس الأول علي هديه في مقاومة النفوذ الأوروبي ، وإذا كان عهد عباس يتميز بالجهالة والتخلف والرجعية إلا أن استمساكه بالاستقلال الوطني هو الحسنة الوحيدة التي تذكر له ، فسلم البلاد بعد أربع سنوات شداد إلي من جاء بعده وهي خالية من النفوذ الأجنبي ، فلما كان عصر سعيد نجح دليسبس فيما فشل فيه أيام أبيه ، واستغل ضعف شخصية الوالي الجديد وانبهاره الشديد بالحضارة الفرنسية وصداقته الحميمة مع الإمبراطور نابليون الثالث ، في الحصول علي امتياز شق قناة السويس وإبرام عقد يلزم الحكومة المصرية بأعباء

[٢٧٨] نقلا عن كتاب – محمد علي وأولاده – للمؤرخ الكبير جمال بدوي

فادحة ، ولم يتريث سعيد في دراسة بنود العقد وتمحيص ما يحتويه من مظالم ، وأسرع بتوقيع العقد ثقة منه في سلامة النوايا الفرنسية

- سلامة النوايا الفرنسية ، كم فقدنا من أنفس وأموال بسبب تلك النوايا
- وكان اسماعيل أوروبي النزعة ، مما جعله يثق في ساستها ورجال المال فيها ، ويعتقد فيهم حسن النية ، ولم يفطن إلي مطامعهم الاستعمارية ، وبلغت به السذاجة أن لجأ إلي صديقه الإمبراطور نابليون الثالث ليكون حكما في النزاع بينه وبين شركة قناة السويس حول الامتيازات الظالمة التي نص عليها العقد في عهد سلفه سعيد باشا
- فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
- وقد شعر اسماعيل في بداية حكمه بفظاعة الالتزامات التي كبلت مصر بأعباء جسيمة فأزمع إلغاءها إنطلاقا من الشعار الذي أعلنه بأن تكون القناة ملك مصر لا أن تكون مصر ملكا للقناة ، فاعترض علي البنود التي تلزم الحكومة المصرية بتقديم عشرون ألف عامل لحفر القناة بالسخرة وتفرض علي مصر أن تدفع للشركة تعويضات في حالة تقصيرها عن توفير هذا العدد ، واعترض علي إعطاء الشركة حق تملك جميع الأراضي الواقعة علي ضفتي القناة وإعفائها من الضرائب ، ورفضت الشركة الفرنسية التنازل عن هذه الامتيازات ، وحرضت الصحف الفرنسية علي شن حملة ضد حكومة مصر ، وتعضيد حق الشركة في هذه المكتسبات ، وكان من الطبيعي أن ينحاز الرأي العام الفرنسي إلي جانب مصالحه الاستعمارية ومن خلفه دوائر المال والبنوك والحكومة فماذا يعمل خديو مصر إزاء هذا التكتل الاستعماري ؟ ، لجأ إلي صديقه الحميم نابليون الثالث ليكون حكماً في النزاع دون أن يدرك بأن امبراطور فرنسا لا يمكن أن يتخذ موقفا محايدا يعارض المصالح الاستعمارية لبلاده ، وتجاهل اسماعيل الحقيقة البديهية بأن الخصم لا يمكن أن يكون حكما عادلا ، وأن سياسات الدول الاستعمارية لا تعرف الصداقة الشخصية ، وفي عام ١٨٦٤ أصدر الإمبراطور حكمه ويقضي بإلزام الحكومة المصرية دفع تعويضات باهظة إلي الشركة الفرنسية مقابل تعديل بعض بنود العقد ، وبلغت هذه التعويضات ٨٤ مليون فرنك أي ما يعادل ثلاثة ملايين و ٣٦٠ ألف جنيه مصر في ذلك الوقت ، وإذا علمت أن كل رأس مال الشركة هو ثمانية ملايين جنيه ، أمكنك أن تقدر فداحة التعويضات التي حكم بها الإمبراطور وأنها تقارب نصف رأس مال الشركة
- أن تكون القناة ملك مصر لا أن تكون مصر ملكا للقناة ، ليت الخديو اسماعيل قد التزم بهذا الشعار الذي أعلنه ، علي أي حال دعنا نتحدث عن الخديو اسماعيل ، هذه الشخصية الثرية التي اختلفت حولها الآراء
- لا مانع ولكن الموضوعات المتوفرة عنه كثيرة إلي حد ما ولا أدري من أين أبدأ
- يمكنك أن تبدأ بأي موضوع وسوف يسلمنا إلي موضوع آخر التأكيد

- علي أي حال يمكن أن نبدأ بما ورد عنه في كتاب هؤلاء حكموا مصر للأستاذ حمدي عثمان

٩٧. عندما جلس الخديو اسماعيل علي عرش مصر

- فماذا ورد عنه في هذا الكتاب ؟
- ورد ما يلي ؛ تولي اسماعيل باشا ابن ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا حكم مصر سنة ١٨٦٣م بتقليد من السلطان العثماني عبد العزيز ، ولقد وجه اسماعيل باشا (الخديو اسماعيل) عنايته الفائقة إلي جيش مصر ، فعمل علي رفع مستواه العلمي وأنشأ له المدارس الكبيرة واستقدم بعض الخبراء العسكريين ، كذلك نالت البحرية قسطاً كبيراً من اهتمام الخديو اسماعيل فأخذ في أوائل حكمه يعتني بتجديد الأسطول فبعث النشاط في ترسانة الإسكندرية ، وكان اسماعيل باشا يعمل علي تكوين إمبراطورية مصرية عظيمة بالتوسع جهة الجنوب في أفريقيا بعيداً عن حوض البحر المتوسط والمنطقة العربية ، حتي لا تعارضه الدول الأوروبية كما عارضت جده محمد علي باشا من قبل ، وفي طليعة حملات الجيش المصري فتح دارفور والتوسع في السودان الشرقي ، كما أتم توسيع أملاكه السودانية من الجنوب ، وعين الكولونيل شارلز جوردون حاكماً لمديرية خط الأستواء سنة ١٨٧٤م ومن قبله صمويل بيكر الذي مد نفوذ مصر حتي بحيرة فيكتوريا سنة ١٨٧١م ، وفي عهد الخديو اسماعيل استقرت السيادة المصرية علي جميع شاطئ البحر الأحمر الغربي إلي بربرة في الصومال ،
- كل هذا رائع وبداية قوية ولكن المدهش هو تعيين أجانب في مناصب حساسة ، فماذا فعل داخل مصر؟
- أما علي النطاق الداخلي في مصر فقد نهض الخديو اسماعيل بالتعليم من أجل التعليم ، فأنشئت مدارس الحقوق ودار العلوم بجانب مدرسة المهندسخانة والطب البيطري والفنون والصنائع والألسن والآثار ، وأنشئت الجمعية الجغرافية وظهرت العديد من الصحف العلمية والأدبية ، وفي أيامه أنشئت مئات من منشآت الري أهمها ترعة الإبراهيمية والإسماعيلية و ٢٠٠ ترعة أخري تقريباً ، أما في مجال الزراعة فاهتم الخديو اسماعيل بزراعة القطن وقصب السكر لسد حاجة أوروبا منهما ، وزادت الأراضي الزراعية في عهده مع إصلاح القناطر الخيرية ، ومدت خطوط السكك الحديدية في الوجهين القبلي والبحري وأنشأ ما يزيد علي ٥٠٠٠ ميل من الأسلاك التلغرافية ، وفي عهده استخدمت الطوابع لتوضع علي خطابات البريد بل أنشأ هيئة البريد رسمياً ، أما في مجال العمران فقد أنشئ كوبري قصر النيل وكوبري الجلاء ودار الأوبرا ودار الآثار المصرية ودار الكتب المصرية ، وتم تمهيد شارع الهرم وشارع محمد علي وبناء جامع الرفاعي وافتتحت الملاحة في قناة السويس رسمياً في حفل بهيج سنة ١٨٦٩م ، وازدهرت المدن بالمباني الحديثة وازدانت بالقصور ، مثل سراي عابدين ، وسراي الإسماعيلية ، وسراي الجزيرة وسراي الجيزة والقصر العالي وسراي الزعفران وسراي رأس التين وسرايات أخري ، مع حبه الشديد لبناء الحدائق والبساتين مثل بستان الجيزة وبستان الجزيرة وبستان الأورمان وبستان الأزبكية ، كما دعا اسماعيل باشا السلطان عبد العزيز لزيارة مصر وهو أول سلطان عثماني

يأتي لمصر منذ فتح السلطان سليم الأول لها سنة ١٥١٧م ، واستغل اسماعيل باشا وجود السلطان وأغدق عليه العديد من الهدايا حتي حصل منه علي فرمان سنة ١٨٦٦م بتعديل نظام الوراثة في حكم مصر ليكون في أكبر أبناء اسماعيل – وكان من قبل في أكبر أبناء أسرة محمد علي بشكل عام – كما منح اسماعيل لقب خديو سنة ١٨٦٧م

- وبالطبع قام بإطلاق اسم عبد العزيز علي الشارع الشهير إلي الآن في القاهرة
- ويعتبر اسماعيل هو أول من وضع تماثيل العظماء في الشوارع مثل تمثال والده إبراهيم باشا ، وأنشأ المحاكم المختلطة يشترك في الجلوس علي منصاتها مع المصريين رجال القانون الأجانب ، وقد أصدر الخديو اسماعيل سنة ١٨٦٤م قراراً بتكوين مجلس شوري النواب وقد افتتحه سنة ١٨٦٦م وكان عدد أعضائه ٧٥ عضواً ويعد هذا المجلس أول خطوة في سبيل إشراك المصريين في شئون البلاد ،
- وكيف قام بكل هذه الأعمال الضخمة ومن أي مصدر صرف عليها ؟
- لتحقيق كل ما سبق كان لابد من توفير الأموال اللازمة فأقدم علي اقتراض المال بدون حساب ، وكان الخديو يعقد القروض بفوائد باهظة ويدفع عمولة للوسطاء ، وفي سنة ١٨٧٥م بيعت أسهم مصر في قناة السويس (وكانت حصتها ٤٤%من الأسهم) بثمن بخس وهو ٤ ملايين جنيه في وقت كانت تساوي فيه أكثر من ٤٠ مليون جنيه ولجأ إلي بيع بعض المصالح الحكومية ورهن البعض الآخر ، ومن هنا بدأ القلق يساور حملة سندات الديون المصرية وراجت حقيقة سوء أحوال مصر المالية الأمر الذي أدي إلي وثوب الأجانب ، فاضطر اسماعيل لتهدئة خواطر دائنيه وتأمينهم علي أموالهم إلي أن يحني رأسه للعاصفة ويتنازل عن كثير من سلطاته ونفوذه ويستدعي الخبراء والبعثات الأجنبية لفحص الحالة المالية في البلاد وطرق إصلاحها ، مثل بعثة كيف وبعثة جوشن وجوبير وصندوق الدين ولجنة التحقيق حتي فرض الأجانب علي الخديو التنازل عن أملاكه وتخصيص مرتب سنوي له وتعيين وزارة مسئولة برئاسة نوبار باشا نوبريان الأرمني وعضوية السير رفرز ولسن للمالية ومسيو دي بلنيير للأشغال ، ورأي الأجانب –اقتصاداً في المصروفات– توقف المشروعات والإصلاحات لسداد الديون وأرباحها مع زيادة الضرائب علي الأهالي ،
- وكان هذا بالطبع أول تحول سلبي في مسار الخديوي
- تقدم الأعيان وأعضاء مجلس شوري النواب إلي الخديو اسماعيل يطلبون وضع حد للتدخل الأجنبي مطالبين بتعيين حكومة وطنية وكانت استجابة الخديو اسماعيل لذلك الطلب حجر الزاوية في ضغط الدول الأوروبية علي السلطان لعزله ، خاصة أن ألمانيا علي غير انتظار تدخلت ، متهمة الخديو اسماعيل بخرق الاتفاقات الدولية ، وخوفاً من إعطاء بسمارك مستشار ألمانيا ذريعة للتدخل في مصر بجانب اشتداد التيار الوطني حملت إنجلترا وفرنسا السلطان العثماني علي عزل الخديو سنة

١٨٧٩م[٢٧٩] ، وما سبق كان ملخص عام لعصر اسماعيل ، ولكن يمكن أن نتناول بعض الموضوعات التي تخصه وتوضح بعض تفاصيل عن عصره ، ولنبدأ مثلاً بشغفه ببناء القصور

- فماذا ورد عن هذا الموضوع في الكتب ؟

٩٨. الخديوي اسماعيل وشغفه بتشييد القصور

- ورد بكتاب (القاهرة رحلة في المكان والزمان) – تأليف عرفه عبده علي –تقديم الأديب الكبير جمال الغيطاني ما ملخصه : كانت عناية الخديو إسماعيل بتشييد القصور تفوق ما شيده أسلافه من الولاه والسلاطين وأعظمها روعة وجلالاً سراي عابدين وسراي الجزيرة وسراي الجيزة وفي عام ١٨٩٠ أقيمت حديقة الحيوان علي جزء من حدائق سراي الجيزة وهدمت سراي الجيزة عام ١٩٠٣ وتجدر الإشارة إلي أن الملك فؤاد الأول قد ولد بهذه السراي في ٢٦مارس عام ١٨٦٨م ، ويقول محمد بك المويلحي في كتابه حديث عيسي بن هشام عن هذه السراي : ووصلنا إلي قصر الجيزة ومتحف الآثار وملتقي السيارة من سائر الأقطار فدخلنا روضة تجري من بينها الأنهار كأنها الجنة بعينها تحسب أرضها مفروشة ببسط منقوشة ، ثم شاهدنا قصراً يكل عنه الطرف ويقصر دونه الوصف فسرنا نرتاد خلاله ونتفيأ ظلاله فإذا الأسود مقصورات في المقاصير ، فقلت سبحان الله القادر العظيم ، هذا بيت اسماعيل بن إبراهيم ، طالما كانت حجراته مطالع للأقمار ودرجاته منازل للأقدار ، كان إذا نادي صاحبه : يا غلام – شقيت أقوام وسعدت أقوام
- كان إذا نادي صاحبه : يا غلام – شقيت أقوام وسعدت أقوام
- ومن طريف ما يروي أن ولي عهد بروسيا أحد ضيوف إسماعيل باشا في الاحتفالات الأسطورية عام ١٨٦٩ قد أبدي رغبته في مشاهدة قصور الخديوي ، فسأل الخديوي أحد ندمائه الشيخ علي الليثي قائلاً : يا شيخ علي ، إذا أمرتك بمصاحبة ولي عهد مملكة بروسيا فعلي أي القصور تفرجه ؟ فرد الشيخ علي قائلاً : علي قصر الجيزة ، فسأله الخديو : وبعدين تفرجه علي أي قصر ؟ ، فأجاب : علي قصر الجزيرة ، فقال الخديو : وبعدين ؟ ، فأجاب : وبعدين أوديه علي السرايا الصفرا مباشرةً ، فاندهش الخديو من الإجابة وقال : أنت اتجننت يا شيخ علي ؟ فقال الشيخ علي : هو فيه حد يتفرج علي السرايتين دول ولا يتجننش يا أفندينا ، فلم يتمالك إسماعيل باشا نفسه من الضحك وأمر له بجائزة[٢٨٠]

---

[٢٧٩] نقلاً باختصار عن كتاب هؤلاء حكموا مصر – من مينا إلي مبارك – إعداد حمدي عثمان – المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية ٢٠١٢

[٢٨٠] مقتطفات مختصرة نقلاً عن كتاب – القاهرة رحلة في المكان والزمان – تأليف عرفه عبده علي –تقديم الأديب الكبير جمال الغيطاني – الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩

- إنها قصة طريفة بالفعل وتؤكد العديد من المعاني منها فن مسامرة الملوك وأساليب الندماء ، ولكن هل لديك وصفاً لشخص الخديو نفسه ؟
- إن من أفضل الأوصاف لشخص الخديو ما كتبه قنصل أمريكا في مصر في كتابه عن مصر
- فمن يكون هذا القنصل وماذا كتب عن الخديو اسماعيل ؟

٩٩. الخديوي اسماعيل وتعامله مع الأجانب

- قنصل أمريكا في مصر في الفترة الواقعة بين ١٨٧٦ حتى ١٨٨١ هو "ألبرت لي فارمان"، المعاصر للسنوات الأخيرة من عهد الخديو إسماعيل؛ الذي إستمر من ١٨ يناير ١٨٦٣ حتى عزله ونفيه خارج البلاد ٢٦ يونيو ١٨٧٩، ومن الآثار المفيدة لهذا القنصل كتابه بعنوان : Egypt and its betrayal، ترجمه الأستاذ عبد الفتاح عنايت بعنوان "مصر وكيف غُدر بها"؛ ويقع الكتاب في ٣٧٧ صفحة و ٢٤ فصلا يصف القنصل الأمريكي "فارمان" بالتفصيل أول واجب قام به في القاهرة، عند وصوله إليها ١٨٧٩، وهو زيارة الخديو إسماعيل، في "قصر الجزيرة" الواقع على الشاطئ الغربي للنيل في مواجهة المدينة ، بالقرب من حديقة الحيوانات وحدائق النباتات، ويسهب في وصف الخديو إسماعيل: "... رحب بي الخديو في بلاده ولما كان لا يتكلم الإنجليزية فقد كانت محادثاتنا باللغة الفرنسية التي كان يتكلمها بطلاقة. لم يكن إسماعيل باشا جذابا من الناحية الجسمانية، كان يبلغ من العمر حوالي السابعة والأربعين، قصير القامة، عريض المنكبين، ضخم الجثة، ولون بشرته أكثر سمرة من بشرة الأوروبيين، أما جفونه فكانت مرتخية، وكانت اليسرى أكثر إرتخاء من اليمنى،وعندما تكون ملامحه ساكنة تبدو عيناه وكأنها نصف مغلقة، وكانت حواجبه فاحمة اللون، خشنة، كثة الشعر وبارزة إلى الأمام، أما لحيته البنية الداكنة فكانت قصيرة، وأذناه كبيرتان وليست من الحسن بمكان" .
- لم يكن وسيماً إذن
- لكنه في محاولة لإنصاف إسماعيل يشهد بأنه: "... رغم كل نقائصه و مساوئه الجسمانية كان محدّثا ممتعا، يبتسم في كثير من الأحيان، بشوشا دائما ومُثيرا للإهتمام. كان صوته هادئا يبعث على السرور وألفاظه مُنتقاه ومُعبّرة، فائق الذكاء ولديه معلومات دقيقة حتى عن التفاصيل التي تخص حكومته وشئونه الخاصة الشاسعة، وتبرهن نظراته الحادة الثاقبة، حينما تكون عيناه مفتوحتين من أثر حديث شائق، وإجابته السريعة الدقيقة، ومعلوماته الخاصة بموضوعات ليس من المفروض أصلا أن يكون ملما بها، تبرهن لكل هؤلاء الذين استمتعوا بالحديث معه أنه رجل يمتاز بقدرة غير عادية .... ، أضف إلى ذلك أنه كان يملك القدرة النادرة على أن يكتسب ثقة زائره بأن يزيح عن كاهله كل حرج ممكن ويجعله على طبيعته تماما..."،
- كان هذا سلوكه مع الأجانب والله أعلم بسلوكه مع المصريين

- في نهاية هذا الفصل يقول فارمان: "... قبل حفل الإستقبال الرسمي الذي أقيم لي، كثيرا ماقمت بزيارة الخديو الذي أشعرني بأني على صلة وثيقة بسموّه .... وكان ينبغي علىّ أكثر من مرّة أن أقوم بواجب غير سار وهو المطالبة غير الرسمية، وإن كانت بطريقة مُلحّة، بدفع التعويضات الأمريكية ضد الحكومة المصرية، وكانت الحكومة المصرية في ضائقة مالية شديدة ولذا كان مجرد ذكر أي تعويض مالي لابد وأن يسبب بعض الضيق،
- هذا عندما كان يأتي الأجانب لزيارته في مصر ، فماذا كان يفعل عندما يسافر خارج البلاد ؟
- (ذهب الخديو –اسماعيل– لحضور المعرض الدولي في باريس وصدرت الصحف الباريسية تبشر بوصول خديو مصر إلي عاصمة الإمبراطورية الفرنساوية ولما كان هذا اللقب جديداً علي المسامع ، أقبل الناس يتساءلون : خديو ؟ ما هو الخديو ؟ – – وكان اسماعيل قد ذهب إلي باريس وجيوبه ملأي بالنقود وخزائن المصارف بباريس ولندن تحت أمره وتصرفه ففتح يده بسخاء وبذخ لم يعهدهما العالم الغربي من عاهل من العواهل الذين زاروا المعرض فبات أحدوثة إعجاب الجميع – – ووقع في خلد العامة أن الخديو إنما هو أحد ملوك ألف ليلة وليلة بعث إلي الحياة ثانية وأنه خليفة الفراعين علي عرش القطرين أكبر ملك حلت قدماه أرض فرنسا)[٢٨١]
- وما أهم ما يلفت النظر من أحداث تمت في هذه الزيارة ؟
- تحت عنوان فتاة القصر كتب الأستاذ جمال بدوي : (ومن الأحداث التي وقعت خلال زيارة الخديو لباريس ، تلك القصة التي رواها الكونت دي لافيزون في مذكراته وهي أن أحد كبار النبلاء دعا الخديو اسماعيل إلي وليمه في قصره بضواحي باريس فأجاب الخديو دعوته وإذا به يري قصراً بلغ من الجمال والجلال وفاخر الرياش ما لم يكن أحد يتوقع وجود مثله أبداً في حوزة غير الملوك فأعجب اسماعيل به أيما إعجاب وبعد تناول الغداء وبينما المحادثة دائرة في قاعة التدخين أبدي لمضيفه استحسانه العظيم لقصره فشكره النبيل علي تلطفه وكان قد قيل لإسماعيل إن النبيل في ضيق مالي شديد فأحب مساعدته بشكل لا يتحرج له إحساسه[٢٨٢] فسأله عما إذا كان يريد بيع قصره وكان الرجل علي شدة احتياجه إلي النقود لا يري في استطاعته التجرد من ملكية ذلك البناء الفخيم ، وتحرج أن يقابل لطف الخديو بخشونة الرفض فخطر له أن يبالغ في تقدير الثمن ليحمله علي العدول عن رغبته في المشتري ، فأجاب : إني قد أبيعه يا مولاي مقابل خمسة ملايين من الفرنكات – ولم يكن القصر يساوي أكثر من مليون ونصف مليون فرنك ، ولكن اسماعيل التقط الكلمة من فم الرجل وهي طائرة وقال : إني اشتريته منك بهذا المبلغ وحرر له في الحال حوالة بثمنه علي أحد البنوك بباريس ولم يجد الرجل مفراً من قبول البيع غير أن اسماعيل التفت فوجد فتاة هيفاء لا تتجاوز الخامسة عشر ربيعاً وعرف أنها ابنة النبيل

---

[٢٨١] المرجع السابق صفحة ٢٣٠

[٢٨٢] لاحظ مراعاة إحساس واحد فرنسي نبيل وعدم مراعاة الحياة الكريمة للفلاحين المصريين علي كثرتهم

فقال بابتسام جميل مخاطباً والدها : " علي أني لا أحسبك تمانع في تحرير عقد البيع للآنسة ابنتك هذه اللطيفة تخليداً لذكري استحسان خديو مصر ظرفها وآدابها ولكيلا يقال أني زرتك لأجردك من قصرك ")[٢٨٣]

- يا لها من مشاعر رقيقة كان المصريون أولي الناس بها ، علي أي حال كم كنت أتمني معرفة بعض المعلومات عن حفل افتتاح قناة السويس بمناسبة الحديث عن الخديو اسماعيل

١٠٠. افتتاح قناة السويس للملاحة في عهد الخديوي اسماعيل

- هذه هي البيانات الرسمية المصرية عن سير العمل في قناة السويس إلي يوم افتتاحها كما جاءت في تقويم النيل لصاحبه أمين سامي باشا المؤرخ المشهور وقد أوردها الأستاذ العقاد في كتابه ضرب الإسكندرية الذي نشرته دار المعارف : ١ – كان مبدأ العمل في حفر قنال السويس حصل في بورسعيد يوم ٢٥ أبريل سنة ١٨٥٩ الموافق ٢١ رمضان سنة ١٢٧٥ هـ ، ٢ – صرفت شركة مساهمة القنال في برزخ السويس ٤٨٠ مليوناً من الفرنكات بما في ذلك أماكن العمال وبناء مدينتي بورسعيد والإسماعيلية والمحاط والمكافآت التي كانت تعطي زيادة علي المرتبات ، ٣ – بلغ عدد العمال الوطنيين الذين أعدتهم الحكومة لهذا العمل بدون أجرة (سخرة) ٢٧٠٠٠ نفس ، وأما عدد المستأجرين والمستخدمين فبلغ خمسة آلاف نفس تقريباً ، ٤ – بلغ طول القنال من بورسعيد إلي السويس (محطة توفيق) ٨٧ ميلاً ، ٥ – حصل الاحتفال بالسفر فيه يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ ، وقد حضر هذا الاحتفال كل من جلالة إمبراطورة فرنسا ، وجلالة إمبراطور النمسا والمجر ، الأمراء أولياء عهد الروسيا وبروسيا وهولندة ، وحضر أيضاً بالنيابة عن دولة إنجلترا رئيس عمارة حربية ، ٦ – وأول سفينة تجارية مرت بالقنال بعد الاحتفال بافتتاحه دافعة عوائد المرور باعتبار عشرة فرنكات عن كل طونولاته هي السفينة المسماة " أمبيراتريس " [٢٨٤]
- إنها معلومات طريفة وجديدة بالنسبة لي كما أنها تتسم بدقة الأرقام والتفاصيل ، ولكن لم تكن هذه المرة الأولي التي تقرأ لي من هذا الكتاب الممتع للعقاد
- نعم إنه كتاب ممتع جداً والطريف أنه يتناول قناة السويس وأسرة محمد علي والاحتلال البريطاني لمصر وما إلي ذلك من موضوعات شيقة ،
- فماذا عن الاحتفالات الأخري التي اشتهر الخديو اسماعيل بإقامتها
- هناك بالطبع الاحتفالات الشهيرة التي أقامها بمناسبة زواج أنجاله
- من المؤكد أنها كانت رائعة ، فهل لديك وصف لها ؟

---

[٢٨٣] محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ٢٣١

[٢٨٤] نقلاً عن كتاب (ضرب الإسكندرية في ١١ يوليو) بقلم عباس محمود العقاد – صفحة ٨٢ ، ٨٣ – طبعة الثانية ١٩٨٣ – دار المعارف

١٠١. أفراح الأنجال

- عن هذا الموضوع كتب المؤرخ الكبير جمال بدوي رحمه الله في كتابه الممتع أنا المصري ما ملخصه : من الأقوال المأثورة عن الخديو توفيق في وصف أبيه إسماعيل : لن يأتي الزمن بمثله في أبهة الملك وفخفخته السنية – وهو وصف صحيح يمثل شخصية إسماعيل أصدق تمثيل ، وكل ما تسمعه من أوصاف خيالية عن ألف ليلة وليلة تتواضع إلي جانب ليالي إسماعيل وحفلاته الصاخبة وسهراته المخملية ،
- ليالي اسماعيل تشبه ليالي ألف ليلة وليلة ، سبحان الله
- كان إسماعيل يلتمس – بل يفتعل – المناسبات السعيدة لإقامة الحفلات ، وإذا كانت احتفالات افتتاح قناة السويس قد بهرت ملوك أوروبا وأميراتها فإن أفراح الأنجال فاقت الأولي في بذخها وإسرافها وتواصلها أربعين يوماً بلياليها ، ولا ننسي أن أفراح الأنجال أقيمت بعد أربع سنوات من حفلة القناة ،
- كم كان عددهم ؟
- الأنجال الأربعة كانوا ثلاثة ذكور وفتاة ، أولهم ولي العهد توفيق وعروسه الأميرة أمينة والثاني الأمير حسين كامل وعروسه الأميرة عين الحياة والثالث الأمير حسن واختار له أبوه عروسه الأميرة خديجة وفاء لوعد قطعه لها ، ولهذا الوعد قصة طريفة ،
- وما هي قصة هذا الوعد ؟
- بدأت القصة عندما كان الخديو يتفقد الدراسة في مدرسة البلاط التي أنشأها لتعليم الأميرات ، ولما وجد التلميذة خديجة أخذ يحثها علي الاجتهاد في تحصيل العلم وحفظ القرآن وبعد سنوات ذهب الخديو لزيارة المدرسة وسأل خديجة عما حفظته من القرآن الكريم فأجابت علي الفور : واذكر في الكتاب اسماعيل إنه كان صادق الوعد ، وانبسطت أسارير الخديو لذكائها وحسن تصرفها ، وضحك قائلاً : أجل أجل لن أنسي وعدي واختارها زوجة لابنه حسن ،
- واضح أنها كانت فتاة ذكية
- أما الابنة الوحيدة التي احتفل الخديو بزواجها فهي الأميرة فاطمة وهي التي سجلت اسمها في التاريخ بسبب التبرعات القيمة التي قدمتها لإنشاء الجامعة المصرية ، ووقائع أفراح الأنجال رواها مؤرخ عصر إسماعيل إلياس الأيوبي نقلاً عن الكتاب الأوروبيين الذين شاهدوا الأفراح ،
- الكتاب الأوروبيون هم من كتبوا عن هذه الإحتفالات شئ عجيب جداً
- بدأت الاحتفالات يوم ١٥ يناير ١٨٧٣ واستمرت أربعين يوماً بمعدل عشرة أيام لكل واحد من الأنجال ، وزينت الشوارع الممتدة من القصر العالي إلي قصر الجزيرة ، إلي سراي القبة ، بالنجف والفوانيس المختلفة الألوان ، وفي نهاياتها أقيمت أقواس النصر تعلوها الشموع ، فسطعت الأضواء حتي جعلت القاهرة شعلة من النور ، وفي أهم الميادين أقيمت المسارح للفرق الموسيقية والغنائية وأهمها فرقة

عبده الحامولي ، وفي اليوم الخامس عشر بدأ خروج الهدايا المقدمة من الوالدة باشا وزوجات الخديو إلي العرائس من القصر العالي وبدأ موكب شوار عروس ولي العهد في حراسة صفوف الفرسان وآلاي من المشاة في ملابس بيضاء ناصعة ، وكانت الهدايا عبارة عن مجوهرات وقلائد من الماس من نوع البرلنتي ومناطق من الذهب الخالص وأقمشة مطرزة باللؤلؤ وزمرد في حجم البيض وآنية متنوعة من الفضة الصب وكان من بين الهدايا المقدمة من الخديو لولي عهده سرير من الفضة الصب الخالصة محلاه بماء الذهب الأبريز وعواميده الضخمة مرصعة بالماس والياقوت الأحمر النادر والزمرد والفيروز واجتاز الموكب شوارع العاصمة ولم يختلف شوار الأميرات عين الحياة وخديجة وفاطمة عن شوار الأميرة أمينة[٢٨٥]

- لا أستطيع التعليق علي كل هذا البذخ ، ولكن لماذا يتم استعراض الهدايا في موكب أمام عامة الشعب ، ألا يكفيه أن يري الزينة والأنوار ؟
- لديك كل الحق فلم يكن هناك داعي لأن يري الناس كل هذه الهدايا الثمينة
- ألم يكن هناك شخص واحد في مصر قادر علي أن يقول رأيه بصراحة للخديو اسماعيل ؟
- أعتقد أن الخديو اسماعيل كان آخر من حكم مصر حكم مطلق دون مراعاة لأي ضغوط داخلية أو خارجية ، وذلك علي الأقل إلي أن تم التدخل الأجنبي في مصر بسبب استفحال الديون ، وحتي السيادة العثمانية كانت شكلية إلي حد كبير ، فكان يفعل ما يشاء في مصر دون أن يحاسبه أحد في الداخل والخارج ، أما بعد انتهاء عصر اسماعيل والاحتلال البريطاني فقد أصبحت مصر مقيدة بقوي خارجية تعمل لها مصر ألف حساب ربما إلي الآن
- إذن فقد كان اسماعيل هو من يصح أن نطلق عليه الفرعون الأخير بالفعل
- ومع ذلك فقد أحرجه أحد شيوخ الأزهر أمام الجميع ، وهي قصة طريفة وردت في أكثر من مرجع
- وكيف حدث ذلك ومن هو هذا الشيخ ؟

١٠٢. البتشتي.. القناوي الأزهري الجريء الذي تحدى الخديوي إسماعيل

- إنه الشيخ توفيق محمد خليفة، الذي عُرف بـ''توفيق البتشتي''، وينسب إسمه إلى مسقط رأسه مركز أبو تشت، أول مراكز محافظه قنا ١٨٧٧، وقد كان الشيخ توفيق البتشتي، من الطراز المتميز في تفكيره وطريقة تعبيره وأسلوبه في عرض المسائل العلمية، مما حبب الطلاب فيه، فاتسعت حلقات دروسه، وضاق المكان بالراغبين في علمه، وانفرد برقعة شاسعة من الأزهر، ساعده فيها صوته الجهوري وحنجرته القوية ، وعُرف عنه أنه يرفع راية الحق لا يخشى حاكمًا، ولا يتملق سلطانًا، فحين وقعت الحرب بين مصر والحبشة، في عهد الخديوي إسماعيل، وتوالت الهزائم، وضاق صدر الخديوي،

[٢٨٥] نقلاً باختصار عن كتاب –أنا المصري– للمؤرخ الكبير جمال بدوي – هيئة الكتاب – مكتبة الأسرة ٢٠٠٠ – مقتطفات مختصرة من صفحة ١٠١ وما بعدها

فقال له شريف باشا رئيس النظار: إذا لجأت إلي علماء الأزهر الأطهار وقرأوا البخاري يفرج الله الكرب وينتصر الجيش، فكلم الخديوي الشيخ العروسي، شيخ الأزهر، فجمع له من العلماء الصالحين، وأخذوا يتلون البخاري أمام القبلة القديمة في الأزهر، ولكن أخبار الهزائم ظلت تتوالى وانتصارات العدو تتعاظم، فرجع الخديوي إلي العلماء واتهمهم بأن ما قرأوه إما ليس صحيح البخاري، أو إنهم ليسوا علي مستوى سلفهم الصالح، فسكت العلماء وصرخ البتشتي من آخر الصف ''هُزمنا منك يا إسماعيل، فإنا روينا عن النبي (ص) إنه قال: لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم.''

- يا له من شيخ جرئ حقاً ، فماذا كان رد فعل الخديوي ؟
- أطرق الخديوي، وانصرف ومعه شريف باشا، ثم رجع أحد مماليكه يطلب الشيخ المتحدث واصطحبه معه إلي القصر، وطلب منه الخديوي أن يعيد ما قاله، فأعاد الشيخ حديثه وشرحه، فتساءل الخديوي: ماذا صنعنا حتى ينزل بنا البلاء؟ فأجابه الشيخ بأن قوانينه تبيح الزنا وترخّصه وكذلك الخمر، فبرر الخديوي بأن تلك العادات نُقلت لهم من –أوروبا–، فرد الشيخ ''إذن فما ذنب البخاري وما حيلة العلماء''، فصمت الخديوي وصدّق على كلامه وكافأه على جرأته[٢٨٦].
- إن هناك فرق كبير بين أحوال مصر قبل عصر اسماعيل وأحواله بعد عصره ، ولقد اعترف بنفسه أنه قام بنقل عادات أوروبا إلي مصر بحلوها ومرها حتي وصل الحال لما وصفه الشيخ بقوله أن القوانين تبيح الزنا وترخصه وكذلك الخمر وهو لم يكن مقتناً أبداً في مصر قبل ذلك
- لقد كان هناك فرق كبير جداً بين من أحضرهم محمد علي باشا من أوروبا إلي مصر وبين من حضروا في عصر اسماعيل ، فقد كان محمد علي ينقل الخبرات والحضارة والعلم وكل ما ينفع مصر أياً كانت نواياه وأهدافه ، أما اسماعيل فقد حضر في عهده المرابين وتجار الأعراض وحثالة أوروبا ، وشتان بينهم وبين سليمان باشا الفرنساوي وكلوت بك وغيرهم ممن أفاد مصر في عصر محمد علي
- إنه شئ محزن بالفعل لأن عصر اسماعيل أثر علي مصر وشعبها وترك عادات نعاني منها حتي الآن

١٠٣. الخديوي اسماعيل يقلد أوروبا

- لقد كتب الأستاذ جمال بدوي عن هذا المعني فقال ما ملخصه : (كان أقصي ما يريده اسماعيل أن يبدو أمام ملوك أوروبا في صورة الفنجري القاعد علي أموال قارون ثم ينثرها ذات اليمين وذات الشمال ولو عن طريق السلف من بيوت الربا والبنوك الأوروبية وكان هؤلاء الملوك يعرفون الحقيقة المفزعة وهي أن هذه الأموال هي من خزائن بنوكهم وهي بضاعتهم ردت إليهم في أشكال من السفه والبذخ والفشخرة الكدابة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً)٢٨٧ ، (ومضي اسماعيل في تقليد الأوروبيين في

[٢٨٦] نقلاً باختصار عن موقع حكاية الجنوب – تحت عنوان البتشتي.. القناوي الأزهري الجريء الذي تحدى الخديوي إسماعيل– بقلم سعيد عطية

[٢٨٧] محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ٢٢٩

عاداتهم وسلوكياتهم وملابسهم وسهراتهم متناسياً أنه حاكم مسلم يحكم شعباً مسلماً له موروثاته وعاداته وتقاليده وأن تبديل العادات والتقاليد عن طريق الصدمات والطفرات يؤدي إلي نتائج عكسية لأن عملية التطور الاجتماعي تتطلب تهيئة ذهنية وثقافية طويلة المدى ولم يلتفت إلي ملاحظات وانتقادات رجال الدين لمظاهر التفرنج بل بطش بمشايخ الأزهر عندما عارضوه وانتشي بمدائح الكتاب الأوروبيين الذين باركوا سياسته وانهالت مقالاتهم بنزعته التحررية ومسايرته لروح العصر ولم تكن هذه المقالات لوجه الله وإنما مقابل الأعطيات التي كان يغدقها عليهم الخديو والتي بلغت خمسة ملايين جنيه في تقدير بعض المؤرخين)[٢٨٨]

- سبحان الله ، منذ ذلك العصر كانت هناك مقالات مدفوعة الأجر ، فما قصة مجلس النواب الذي تم تأسيسه في عصر اسماعيل ؟
- لقد كان يريد اسماعيل أن يتباهي أمام ملوك أوروبا بأن لديه برلمان مثلهم ولكن حدث ما لم يكن يتوقعه من هذا البرلمان ، فكأنما قام بتحضير عفريت ولم يتمكن من صرفه كما يقولون
- فماذا حدث ؟
- لقد كتب الأستاذ جمال بدوي عن هذا الموضوع ما ملخصه : (هل كان اسماعيل وهو يضع لبنات مجلس شوري النواب يتوقع أن ينقلب الهزار إلي جد ؟ وأن يتحول هذا المجلس الضعيف المسالم إلي شريك مخالف شرس ؟ وأن يصيح أحدهم في وجه الطاغية حين أراد فض المجلس دون النظر في الميزانية : أننا هنا سلطة الأمة ولن نخرج من هنا إلا بقوة الحراب (!!) قالها عبد السلام المويلحي في صباح يوم الخميس ٢٧ مارس ١٨٧٩ م عندما توجه رياض باشا وزير الداخلية ورمز الاستبداد وهو منتفخ الصدر إلي قاعة مجلس النواب بالقلعة ليتلو قرار فض الدورة حتي تكتمل المؤامرة التي دبرها رئيس الوزراء نوبار باشا مع الوزيرين الدخيلين – الإنجليزي والفرنسي – لإعلان إفلاس مصر كحل أخير لأزمة الديون الأجنبية وعلمت العناصر الوطنية في المجلس بما تدبره الحكومة في الخفاء ، فأعدوا مشروعاً مضاداً يقضي أن يلتزم المصريون بتسديد الديون من دخلهم القومي بشرط تنظيم الشئون المالية وإصلاح مفاسد الإدارة بعيداً عن الوزيرين الأجنبيين)[٢٨٩] وبالرغم من مغادرة رياض باشا المجلس غاضباً ظل المجلس في حالة انعقاد وتناوب الأعضاء علي المبيت في القاعة حتي استقالت الحكومة
- لم أكن أعرف شيئاً عن هذا الاعتصام الذي قام به النواب في عصر اسماعيل
- لقد كان هذا درساً للحكام بعد ذلك كما سنري في عهد الملك فؤاد ، فقد كان عندما يحل المجلس يقوم بإرسال قوات تحاصره حتي يمنع الأعضاء من الاجتماع والاعتصام به ، ومع ذلك كانوا يجتمعون في

---

[٢٨٨] محمد علي وأولاده(جمال بدوي) صفحة ٢٢٩

[٢٨٩] محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ١٥٠

أماكن أخري ، والآن لقد حان الوقت لنترك الحديث عن الخديوي اسماعيل ونتحدث عن عصر ابنه توفيق

- لا مانع ولكن أريد أن نتوقف قليلاً عند التوغل الأجنبي في مصر في عصر أبناء محمد علي ، لأنه موضوع خطير أدي إلي وجود محاكم خاصة بهم وامتيازات خاصة بهم في مصر
- إن ما حدث يسمي الاستعمار الإستيطاني وقد كتب عنه الدكتور جمال حمدان
- فماذا كتب عنه ؟
- ورد عن هذا الموضوع في كتاب مختارات من شخصية مصر للدكتور جمال حمدان ما ملخصه : كانت خطوط الملاحة ، وكل أنواع السفن تنقل حمولاته البشرية النهمة ، لتلقي بها علي أرصفة الإسكندرية ، التي أصبحت بوابة الاستيطان وأكبر مراكزه ، – كذلك فلعل منها عناصر طيبة صالحة بالمستوي العلمي والفني أو بالمقياس الأخلاقي ، لكن تلك هي الأقلية النادرة ، الاستثناء الشاذ ، فالمسلم به حتي بإجماع المؤرخين الأوروبيين أنفسهم ، أنها في معظمهما تمثل مجاج الشمال ونفاية أوروبا وحثالة البحر المتوسط ، فتقريباً معظم هؤلاء المهاجرين الأوروبيين كانوا من المغامرين والأفاقين ، وأصحاب السوابق والمزورين واللصوص والمجرمين والهاربين من يد العدالة من كل صنف بلا تعليم أو حرفة أو مهنة غالباً وبلا أخلاق علي الأغلب وعلي الأفضل من المرابين والسماسرة وأصحاب الأعمال المشبوهة والكل تقريباً لا هدف له إلا أن يصنع ثروة بالحلال أو الحرام ، والحرام بالدرجة الأولي ، وذلك في ظل الامتيازات الأجنبية وعصر القناصل أو العصر الذهبي للقناصل
- يا لها من كارثة حلت بمصر
- ومما له دلالته أن بعضهم كان يغير اسمه في مصر ومعظمهم يخفي اسم عائلته وحتي أكثرهم احتراماً بين المستعمرة الأوروبية لم يكن فوق الشبهات وكان من أصل مشكوك فيه – – – ويكاد المرء يخلص من هذا كله إلي أننا إلي حد بعيد إزاء مافيا عظمي ، إلا أنها للتناقض والأسف مافيا فوقية لا سفلية ، علي قمة المجتمع الضحية ، لا في قاعه كما ينبغي علي الأقل ، وهذا بدوره ما يضع أيدينا علي خلاصة الاستعمار الاستيطاني في مصر ، – – ، وعلي الجملة يمكن القول إن الجاليات الأوروبية في مصر كانت تمثل وجه أوروبا القبيح بمثل ما أن الاستعمار عموماً هو الوجه القبيح للحضارة الأوروبية الحديثة ، وإذا صح أن الامتيازات الأجنبية كانت جديرة بأن تفسد رجالاً أفضل منهم ، فالصحيح أيضاً أنهم كانوا عناصر فاسدة بالأصل ، وإذا كان البعض يزعم أنه لم يكن بديل لهذه الجاليات كأداة للتحضير والاحتكاك الحضاري والأوربة فإنه حقاً لثمن باهظ جداً بل ورهيب ذلك الذي دفعته مصر مادياً ومعنوياً ، إنسانياً وبشرياً في سبيل الحصول علي الحضارة الحديثة ، فعلي المستوي المعنوي والاجتماعي فإن المستعمرة الأوروبية رغم أصولها الاجتماعية السفلي جاءت لتفرض نفسها في مصر أرستقراطية طبقية دخيلة علي قمة الهرم الاجتماعي الوطني ، كمجتمع فوق المجتمع ، بل

ولتتحول بفضل الامتيازات الأجنبية ونظام الحماية والمحاكم المختلطة إلي دولة داخل الدولة تكاد تمثل في مواطنها الجديدة نوعاً من الامتيازات الإقليمية التي عرفتها موانى الشرق الأقصي في وقت معاصر – – من ناحية أخري ، وبحكم الحاجز الديني فإنهم كانوا وظلوا أيضاً مجتمعاً معزولاً مغلقاً علي نفسه ، أشبه بالمعسكرات ، غير قابلة للاختلاط –التزاوج– أو الذوبان في المجتمع الوطني حتي مع الأقباط ، والنتيجة الصافية هي مجتمع منقول بكامل جذوره وبيئته ومناخه الحضاري والاجتماعي باختصار جزر أوروبية فرضت علي الأرض المصرية ، قطعة من أوروبا في مصر ، التي لم تصبح بهم علي أية حال قطعة من أوروبا

- إن ما كتبه د جمال حمدان يعبر عن مأساة كبري عاشتها مصر بعد انتهاء عصر محمد علي وإبراهيم وعباس الأول بلا شك وتزايدت وتعاظمت في عهد اسماعيل ،
- بالفعل لقد أصبحت هذه الأمور في نهاية عصر أسرة محمد علي من المسلمات وخاصة في عصر فؤاد وفاروق بعد ذلك كما سنري إن شاء الله
- حسناً يمكننا الآن أن نبدأ الحديث عن الخديوي توفيق الذي قام السلطان العثماني بتعيينه بعد أن عزل اباه ، والذي في عهده تم الاحتلال البريطاني لمصر إثر قيام الثورة العرابية كما هو معروف

١٠٤. عندما تولي الخديوي توفيق حكم مصر

- هو محمد توفيق بن اسماعيل بن ابراهيم بن محمد علي ، ولد يوم الخميس ١٠ رجب سنة ١٢٦٨ هـ الموافق ٣٠ ابريل سنة ١٨٥٢ م ، ولما شب وترعرع ألحقه والده بمدرسة المنيل فتلقي فيها العلوم الأولية ، ثم انتقل إلي المدرسة التجهيزية فتلقي فيها علومها ، ودرس اللغات العربية والفرنسية والإنجليزية والتركية والفارسية وتزوج سنة ١٨٧٣ بالأميرة أمينة إلهامي كريمة الأمير إبراهيم إلهامي نجل عباس باشا الأول ، ولم يتزوج من غيرها ، ورزق منها سنة ١٨٧٤ بالأمير عباس حلمي – الخديو عباس حلمي الثاني – وفي سنة ١٨٧٦ بالأمير محمد علي
- الأمير محمد علي صاحب القصر الشهير في المنيل بجزيرة الروضة ؟
- نعم ، ثم رزق منها بالأميرتين خديجة ونعمت ، ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره قلده أبوه رياسة المجلس الخصوصي الذي كان بمثابة مجلس الوزراء ، ثم ولي وزارتي الداخلية والأشغال ومرن قليلاً علي أحكام الإدارات والدواوين ، ثم قلد رئاسة الوزراء في ١٠ مارس سنة ١٨٧٩ عقب سقوط وزارة نوبار باشا حين اشتد النزاع بين اسماعيل والدول الأوروبية ، وكانت هذه الوزارة تضم وزيرين أوروبيين ، أحدهما إنجليزي والآخر فرنسي ، ولم تدم طويلا إذ قام الخلاف بينها وبين مجلس شوري النواب ، واستهدفت لحركة معارضة قوية انتهت بسقوطها وتأليف وزارة محمد شريف باشا الأولي في سنة ١٨٧٩ ، وهي الوزارة التي بقيت تتولي الحكم إلي أن خلع اسماعيل ، فلما ورد النبأ البرقي بخلعه يوم الخميس ٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩ تلقي توفيق باشا في اليوم ذاته نبأ إسناد منصب الخديوية إليه ،

وكانت سنه إذ ذاك ثماني وعشرين سنة هجرية إلا ثلاثة أيام ، فأقيمت حفلة تنصيب في مساء ذلك اليوم بالقلعة ، وكان يوماً مشهوداً ، فتوجه من سراي الإسماعيلية إلي القلعة يصحبه في عربته أخواه الأمير حسين كامل باشا – السلطان فيما بعد – والأمير حسن باشا ، وشريف باشا رئيس مجلس الوزراء ، تتبعه عربات الأعيان والكبراء وقناصل الدول ، وابتدأ إطلاق المدافع إيذاناً بتحرك الموكب من سراي الإسماعيلية ، وأطلقت مائة مرة ومرة ، اتباعاً للرسوم المعتادة ولما بلغ سراي القلعة جلس في قاعة التشريفات وكان بها كبار العلماء والموظفين والقناصل والأعيان ، وتلقي تهاني المهنئين بجلوسه علي العرش ، وبعد الفراغ من الحفلة أطلقت المدافع ثانية مائة مرة ومرة ، وعاد الخديو إلي سراي الإسماعيلية ، ولم يكن في ماضي توفيق قبل ولايته الحكم ما يسترعي النظر أو يدل علي اتجاه معين في سياسته ، علي أن هذا الماضي كان يبعث الأمل في أن يكون عهده خيرا من عهد اسماعيل ، فقد شهد المتاعب التي استهدفت لها البلاد بسبب إسراف أبيه وتورطه في القروض ، وتولي الوزارة في ظروف اشتد فيها نفوذ الدول الأوروبية بسبب هذا الإسراف ، ورأي بعينه ما فرضته إنجلترا وفرنسا علي أبيه من أن يكون لهما وزيران يمثلانهما ويحميان مصالح الدائنين من الأوروبيين ، وكان له في استقامته الشخصية وميله إلي الاقتصاد ما يجعله بمنأي عن أخطاء أبيه

- فما هي مشكلته إذن ؟
- علي أن ثمة ناحية ضعف في شخصيته ، وهي أنه كان ضعيف الرأي مترددا ، قليل الشجاعة والحزم ، فاستشعر الخوف من النفوذ الأوروبي من يوم توليته الحكم ، وكان همه الأول طوال عهده النزول علي إرادة الدول الأوروبية ، ولم يكن مؤمناً بالنظام الدستوري ، بل كان في خاصة نفسه من أنصار الحكم المطلق ، ومن ذلك كله تولدت في عهده الأزمات والمشاكل التي جاوزت في خطورتها وعواقبها ما حدث في عهد أبيه ، وفي الحق أن اسماعيل كان أكثر شجاعة واقداما من توفيق ، ولو كان توفيق يجمع إلي خصاله الطيبة شجاعة أبيه ، وجرأته وعلو همته لنجت البلاد من الكوارث التي وقعت في عهده ، ولتغير مجري التاريخ القومي إلي خير مما كان وأقوم ،
- كان اسماعيل حاكم قوي ولكن له تجاوزات خطيرة ، أما توفيق فقد له خصال طيبة لكنه كان حاكم ضعيف ،، سبحان الله
- كان محمد شريف باشا ، الوزير المشهور رئيسا للوزارة حين ولي توفيق باشا الحكم ، فقدم استقالته جريا علي العادة المتبعة عند تغيير ولي الأمر ، ولكن توفيق باشا رغب إليه في البقاء وتأليف الوزارة مرة أخري ، وكتب إليه في هذا الصدد بتاريخ ٢ يوليه سنة ١٨٧٩ كتابا رقيقا يؤكد فيه ثقته ويعرب عن آماله في الإصلاح ، قال فيه : يا وزيري العزيز ،،،، لقد استعفت الوزارة فأكلفك بتشكيل وزارة جديدة ، ولا أزيدك بحقيقة الحال علماً ، ولما قضت العناية الأزلية بتوليتي أمر بلادي جعلت علي واجبات ليس من همي إلا النهوض بها بأمانة وشهامة علي علمي بمقدار صعوبتها وجسامة المطاليب

المتراكمة علي مع الارتباك والفترة المالية التي انزعجت منها الخواطر إذ وقفت حركة التجارة وأوجدت فترة في البلاد لم تقع في مصر من قبل ، علي أني عظيم الميل إلي بلادي شديد الرغبة في تحقيق آمال الأمة التي أظهرت السرور بولايتي وفي إخراجها من هذه الحال السيئة ، ومع هذه العواطف فإني عازم عزما أكيدا علي بذل الجهد وصرف الهمة إلي التماس أحسن الوسائل لإزالة هذا الاختلال المفسد لكثير من المصالح ، وذلك بتقرير الاقتصاد الحق القانوني في نفقات الحكومة ورعاية الأمانة والاستقامة في الخدمة العمومية وإصلاح شئون الهيئة القضائية والهيئة الإدارية ، تلك هي الوسائل الأولي التي يهمني اتخاذها لتقوي بها المملكة علي استرجاع قوتها وتوسيع موارد ثروتها وإنجاز وعودها ووفاء عهودها ، إلا أن إدراكي لهذه الغاية التي هي موضوع آمالي يتوقف علي مساعدة الأمة بجملتها ووجود الغيرة الوطنية في قلوب مأموري الحكومة وصدق العزيمة في الذين يساعدونني علي إدارة الأعمال مسئولين عما يفعلون ، ويقيني أن لا أفقد هاته المساعدات ولا أعدم من الله الكريم مدداً وأنك ستنهض بما كلفتك به علي الوجه الموافق لنيتي وللغاية التي أسعي إليها ، فاقبل يا وزيري العزيز تأييد مودتي الصادقة ،،،،،،،،،، محمد توفيق[٢٩٠]

- إنها رسالة رقيقة بالفعل ولكن لا أدري لماذا أشعر من كلامه بمدي قلقه مما هو قادم عليه ، ولكن قبل أن نستكمل الحديث عن أهم الأحداث في عهده ، هل توجد أي مواقف طريفة حدثت في عهده تشبه ما كان يحدث في عهد أبيه

- يحضرني موقف طريف كتبه الأستاذ يحيي حقي كالآتي : - - مر الخديو توفيق بالقطار الملكي علي منفلوط ذات يوم وخرج الأعيان لاستقباله بالمحطة وتقدم إليه شاعر منفلوط حينئذ الشيخ أبو النصر واستأذن أن يلقي بين يديه قصيدة للترحيب ، فتنازل الخديو وأذن له ، وربما فعل لعلمه بأن القطار لن يقف بالمحطة إلا دقائق معدودة ، ولعله كان يعرف الشاعر إذ كانت له شهرة مستفيضة في خفة الدم والظرف والفكاهة ، وبدأ الشاعر تلاوة قصيدته ، بيتاً بعد بيت ، والخديوي يهز رأسه بالرضي والإعجاب ، ثم يصبر ، والشاعر ماض لا يفتر عن التلاوة ، تتلاحق الأبيات ، دون أن تلمع بارقة أمل في قرب الختام ، فتململ الخديوي وانتقل غليان القاطرة وضجرها إليه بالعدوي ، فقاطع الشاعر قائلاً بضيق يقنعه بابتسام : - هي القصيدة كام بيت يا شيخ أبو النصر ؟ ، فأجابه كلمح البرق : - ٩٩ يا أفندينا ، هذا جواب لا يمكن السكوت عليه بل يثير بلا تردد سؤالاً لا مفر منه ولا يختلف فيه اثنان ، فارتفع حاجب الخديوي واختلجت عينه وقال بعجب : - طب وماخلتهاش ١٠٠ ليه ؟ ، فكان الرد أسرع من سابقه : - أصلي ناقصني بيت يا أفندينا ، ففهم الخديوي - - هذه التورية وابتسم لها وأقطعه بيتاً في منفلوط ، مكافأة للشاعر علي لباقته وظرفه ، ولينقذ نفسه –علي الأقل– من قصيدة لا تنتهي[٢٩١]

---

[٢٩٠] نقلا عن كتاب - الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي – تأليف عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف

[٢٩١] نقلاً عن كتاب خليها علي الله للكاتب الكبير يحيي حقي – مكتبة الأسرة ٢٠٠٢ – صفحة ٢٣١-٢٣٣

- أقطعه بيت في منفلوط ، إن هذا الموقف يجعلك تشعر بأنه قد ورث مصر عن أبيه وأجداده ، فماذا حدث بعد ذلك ؟
- يقول الأستاذ محمود السعدني في كتابه الرائع (مصر من تاني) : (وفي هذه الأثناء مر علي مصر رجل كالأنبياء ، قاطع كالسيف واضح كالشمس هو جمال الدين الأفغاني وتعجب من الحال التي وصلت إليها مصر شعب صابر ومسالم وحاكم فاجر وعصابة من اللصوص الأجانب وجلس الرجل الذي كانت الثورة حرفته علي مقهى متاتيا بميدان العتبة الخضراء يبث تعاليمه في تلاميذه الذين التفوا حوله يعدون أنفاسه ، ويسجلون كل حرف يخرج من بين شفتيه وكان الرجل يصرخ في وجه تلاميذه عجبي علي هؤلاء المصريين يجري النيل في بلادهم بينما أبدانهم المتسخة تفوح برائحة العفن إنكم تعيشون عيشة البهائم بينما جلادوكم يعيشون عيشة الملوك إنه خير لكم لو توقفتم عن شق بطن الأرض لتزرعوها وتشقوا صدور أعدائكم ، ولو انتصرتم لغنمتهم كل شئ ولو خسرتم فلن تخسروا إلا البؤس والفاقة ، وكانت دائرة التلاميذ تتسع كل يوم حتي ضاق المقهى بالرجل وتلاميذه وكانوا خليطاً من أنواع شتي ، طالب الدين محمد عبده ، - - والشاعر محمود سامي البارودي ، والفلاح محمد عبد العال الصعيدي ، والصعلوك الظريف عبد الله النديم ولفتت الندوة انتباه السلطة وجذبت رائحتها جواسيس الحكومة)[٢٩٢] وتم القبض علي الأفغاني وإبعاده عن مصر
- إن كلمات الأفغاني فيما أعتقد كانت تعبر أبلغ تعبير عن ما يحدث في مصر ، وطالما وصلنا للحديث عن عرابي ، فقد حان الوقت للحديث عن الثورة العرابية ، فماذا لديك عنها ؟

١٠٥. الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي

- أعتقد أن هناك تلخيص بليغ لأحداث الثورة العرابية ورد في مقدمة كتاب عبد الرحمن الرافعي ، وهذا التلخيص قد يغنينا عن الكثير من الكلام عن هذه الثورة ، حيث كتب ما يلي : - - - للثورة العرابية كما لكل ثورة أنصار وخصوم ، فلها أنصار يتحيزون إليها ويسوغون مواقفها كلها علي السواء ، ويدافعون عن رجالها في كل ما عملوا ، كأنهم علي حق في الخطأ والصواب جميعاً ، ولها خصوم يتحاملون عليها فينكرون حسناتها ويعدون عليها السيئات ، وإنك لتلمح هذا التحامل أو ذلك التحيز فيما تطالع من مختلف المؤلفات والمذكرات عن الثورة العرابية ، ولقد بدا لي إزاء هذه الآراء المتباينة أن أدرس الثورة من غير سابق حكم عليها ، لأنتهي إلي رأي يهدي إليه البحث والتمحيص ، وهذا ما أدعو إليه كل محب للحقيقة ، وبذلك نجلي الغموض الذي يلابس كثيراً من حوادث الثورة ، ونجعل منها صفحة واضحة من عبر الماضي ، فإن التجارب خير هاد إلي ما ينفع الأمم في حياتها القومية ، وهي العلم الذي لا يعلمه إلا الزمن ، علي أني حين أخذت في دراسة الثورة قد اختلج في نفسي شعور ملازم

[٢٩٢] مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة ١١١

من العطف عليها ، لأنها علي ما كان من نهايتها فإنما قامت في الأصل لغرض نبيل هو إنقاذ الأمة من مظالم الاستبداد ، وإقامة قواعد الحكم الدستوري ، وتحرير البلاد من التدخل الأجنبي ، لكن هذا الشعور لم يصرفني عن تعرف أخطائها وزلاتها ، وبخاصة أخطاء زعمائها وأقطابها ، لأن هذه الأخطاء كان لها دخل أيما دخل فيما صارت إليه من الحبوط والإخفاق ، وخلاصة ما انتهيت إليه في هذه الناحية أن للثورة مرحلتين مختلفتين ، فالمرحلة الأولي تبدأ بظهورها علي عهد وزارة رياض باشا في فبراير ١٨٨١ ذلك حين اعتقلت الحكومة أحمد عرابي وصاحبيه علي فهمي وعبد العال حلمي -- فثار زملاؤهم -- وأطلقوا سراحهم ، فاضطربت الوزارة لهذا الحادث الجلل ، واضطر الخديو توفيق باشا إلي الإذعان لمطالب الثوار ، فاستقال عثمان رفقي باشا وزير الحربية ، وعين بدله محمود باشا سامي البارودي الذي كان موضع ثقة العرابيين ، فكان ذلك أول انتصار للثورة ، وبعد فترة من الهدوء الظاهري عادت الحرب سجالاً بين الخديو - - والعرابيين فكانت الوقفة الشهيرة للثورة العرابية - - في ميدان عابدين يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ ، وقدموا للخديو مطالبهم - - ، وأهم هذه المطالب سقوط وزارة رياض باشا ، وتأليف مجلس النواب ، فاضطر الخديو إلي النزول علي حكمهم ، واستقالت وزارة رياض ، ثم عهد الخديو إلي شريف باشا تأليف الوزارة تحقيقاً لإرادة العرابيين ، فألف شريف وزارته الدستورية ، ودعا إلي إنشاء مجلس نيابي كامل السلطة ، فاستجاب له الخديو وأمر بإجراء الانتخابات العامة ، وانتخب مجلس النواب ،

- تم انتخاب مجلس نواب ؟
- نعم ، وافتتحه الخديو يوم ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ فكان افتتاحه يوماً مشهوداً في تاريخ الحركة القومية ، وأخذ يضطلع بمهمته ، تتعلق به الآمال وترنو إليه الأبصار ، وعرض عليه شريف باشا الدستور الذي وضعه سنة ١٨٧٩ ليقر ما رآه في شأنه ، أي أنه جعل من المجلس جمعية تأسيسية تضع الدستور وتقره ، وبذلك نالت البلاد مجلساً نيابياً تتمثل فيه سلطتها الدستورية والتشريعية ،
- رائع
- إلي هنا سارت الأمور سيراً حسناً ، فكانت علي صراطها المستقيم ، وانتصرت الثورة علي طول الخط ، وحققت أمال البلاد ، ولكنها استهدفت لدسائس السياسة الاستعمارية التي لم تكن تنظر بعين الرضا إلي قيام النظام الدستوري في مصر ،
- بالتأكيد فالنظام الدستوري في مصر لن يكون في صالح إنجلترا وفرنسا
- فأخذت الدولتان الإنجليزية والفرنسية تلقيان العقبات والعراقيل في سبيل استقرار هذا النظام ، وتنتحلان لأنفسها التدخل في شئون البلاد ، وكان أول مظهر لهذا التدخل مذكرة ٧ يناير سنة ١٨٨٢ التي قدمتها الدولتان وقوامها أنهما حيال الحوادث الأخيرة قد أجمعتا علي تأييد سلطة الخديو ، ثم عارضتا في تخويل مجلس النواب حق تقرير الميزانية ، بحجة أن تقريرها يمس حقوق الدائنين أو ينال منها ،

وهي حجة واهية ظاهرة البطلان ، لما تضمنه الدستور من أن المجلس يراعي في تقرير الميزانية العهود والاتفاقات المالية التي ارتبطت بها الحكومة إزاء الدول ،

- بالتأكيد كان بقاء الميزانية في يد الخديوي من مطالب انجلترا وفرنسا ، فمن السهل السيطرة عليه ولكن من المستحيل السيطرة علي مجلس نواب منتخب يعمل لصالح البلاد
- واجهت البلاد أزمة سياسية خطيرة نشأت عن تقديم مطالب الدولتين ، وكان مجلس النواب ينظر وقتئذ في الدستور الذي عرضه عليه شريف باشا تمهيدا لإقراره ، فرأي شريف باشا ، درءاً للأزمة أن يؤجل مجلس النواب قراره النهائي في المادة المتعلقة بالميزانية ، ويرجئها إلي حين ، حتي تنجلي الغمة ويفاوض الدولتين في مطالبهما ، والتأجيل في ذاته لم يكن مضيعاً لحقوق الأمة في الدستور ولا مخلاً به ، لأن وضع الدستور في صيغته النهائية قد يستغرق وقتا يطول أو يقصر علي حسب الأحوال والملابسات ، فكان من المستطاع اتقاء الأزمة بتأجيل البت في هذه المادة ، ولكن ظهر في الميدان عامل جديد كان له أثره في تطور الأحداث ،
- وما هو هذا العامل من وجهة نظر الرافعي ؟
- هو طموح محمود باشا سامي البارودي في رئاسة الوزراء ، ورغبة العرابيين في التخلص من شريف باشا ليجعلوا الوزارة مؤلفة من خاصة رجالهم ، فاتخذوا من طلبه تأجيل البت في مادة الميزانية وسيلة لتوهين مركزه ، وبدت منهم الرغبة في إقصائه عن الحكم ، - - ، مما دعاه إلي تقديم استقالته ، فقبلها الخديو وتألفت وزارة البارودي ، ومن ثم ابتدأت المرحلة الثانية للثورة ،
- فترة اضمحلال الثورة
- ومن رأيي أن الثورة أخذت تتعثر في سيرها منذ بدء هذه المرحلة ، وأن زعماءها أخطأوا في تنحية شريف باشا عن الحكم لأنه كان أقدر من سواه علي معالجة الأزمات وإحباط الدسائس والمؤامرات التي كانت تدبرها السياسة الاستعمارية الإنجليزية ، كانت هذه الدسائس والمؤامرات أهم العوامل في إخفاق الثورة العرابية ، إذ لا نزاع في أن الحكومة الإنجليزية قد انطوت علي نية نمت عليها الحوادث التي تعاقبت في ذلك العهد وهي خلق الأسباب والذرائع الباطلة لاحتلال البلاد ، علي أن مصر كانت تستطيع أن تحبط هذه المؤامرات وتنجو من أشراكها أو علي الأقل تخفف من عواقبها ، ولو أنها عرفت كيف تواجهها ، فإنه ما من أمة إلا وهي عرضة لمؤامرات خصومها المتربصين بها ، وليست تخلو أمة من أحداث تستهدف لها في حياتها السياسية والقومية ، وأنما يختلف مصير الأمم تبعاً لمقدرة كل منها علي مواجهة الأزمات والتغلب عليها ، وعندي أن أول ما استعانت به السياسة الإنجليزية في تدابيرها هو وقوع الانقسام بين الخديو والعرابيين ،
- الانقسام ، هذه الكلمة من أكثر الكلمات وروداً في تاريخ مصر

- إن هذا الانقسام قد فتح الثغرات لتدخل الإنجليز ، كما أنه أضعف قوة المقاومة في البلاد ، إذ انقسمت إلي معسكرين كلاهما يبغي الكيد للآخر ويضمر له ، في وقت كان الإنجليز يعدون فيه العدة للقضاء علي المعسكرين معاً
- القضاء علي المعسكرين معاً
- يضيف الرافعي : - - ولا تتسع مقدمة الكتاب للإسهاب في تفاصيل هذا الانقسام ن ولكني أذكر هنا خلاصة رأيي في هذا الصدد ، وهو أن العرابيين والخديو كلاهما لم يقدر مضار الانقسام ولم يتبين عواقبه ، وكلاهما يتحمل تبعته ومسئوليته ، ففي الحق أن تبعاتهما من هذه الناحية تكاد تكون متعادلة متكافئة ، ولكن من الحق أيضاً أن نقول أن الموقف قد تغير منذ ضرب الإسكندرية ،
- يقصد بداية الاحتلال البريطاني لمصر ؟
- نعم - - إذ انحاز الخديو إلي الجيش الإنجليزي وساعده علي التغلغل في البلاد ، فهو المسئول عن هذا الموقف ، علي أن الذي يؤخذ علي العرابيين في مدة الحرب أنهم لم يبذلوا من المدافعة والاستبسال فيها ما يثير في الأمة روح الإقدام والتضحية مما هو أخص واجبات زعماء الثورة في ساعة الخطر ،
- وما الأسباب التي جعلت العربيين لا يوافقون علي شريف باشا ، هل كانوا بالفعل يطمعون في السلطة؟
- طموح العرابيون إلي السلطة كان رأي الرافعي ولكن هناك رأي آخر يقول : (أدركت القوي الاستعمارية مدي اتساع وعمق وقوة الثورة وكان عليها أن تناور الثورة لتطويقها وهي خطة استعمارية تقليدية ، أي أن تقبل تلك القوي المطالب الشكلية للثورة في سبيل ضرب الثورة وإلهائها عن مطالبها الجوهرية ، والمطلوب الجوهري للثورة كان تصفية النفوذ الأجنبي ، - - وما دام مد الثورة قد أصبح عالياً جداً فلابد من تقديم حكومة وطنية ولكن غير ثورية ، أي تقديم حكومة لا يرفضها الثوار ولكنها حكومة عاجزة عن إدارة الصراع مع النفوذ الأجنبي بالأسلوب الثوري أي بالأسلوب القادر علي إنهاء هذا النفوذ وهكذا جاءت وزارة شريف باشا ، شريف باشا يمثل قطاع من الوجهاء يؤمن بالحياة النيابية ويؤمن بالدستور ويحاول أن يحقق نوعاً من الاستقلال ولكن عن طريق المناورات السياسية والنضال القانوني واللعب علي التناقضات الدولية ،
- وأعتقد أن هذا أسلوب الرافعي نفسه كسياسي لذلك كان مع استمرار شريف باشا في الوزارة
- وإذا كانت القوي الاستعمارية بداهة لم ترد ولن تريد للشعوب المسلمة أو المستضعفة شيئاً من الحرية ولا الحياة النيابية فإنها في ظروف المد الثوري يمكن أن تقبل بهذه الأشياء بهدف كسب الوقت وتهدئة الثوار تمهيداً لتصفيتها فيما بعد ، وكانت وزارة شريف هي النموذج الأمثل لهذا الأمر في ذلك الوقت ، وهذا الأسلوب كان هو الشئ الوحيد المتاح لإيقاف عجلة الثورة - - - كان شريف باشا هنا هو نقطة التوازن بين جميع القوي فهو أولاً يمثل طائفة من الوجهاء والمثقفين لا ترتبط بمصالح مع الشعب الثائر وهي أيضاً أوروبية الثقافة والأساليب ، وهي ثالثاً لا تملك ولا ترغب في إثارة الجماهير ودفعها

للثورة أو حتي المشاركة في الحياة السياسية وهي رابعاً بحكم ما لها من رصيد وطني أقدر علي تطويق الثورة ، ثم هي خامساً يسهل فيما بعد تصفيتها أو رشوتها بحكم ما لها من مصالح ، وهكذا نجد مثلاً أن جميع القوي رحبت بها – – والخديوي رحب بها علي أساس أنها الأقدر علي تخليصه من عرابي وقوي الثورة ، والجاليات الأجنبية وقناصل الدول رحبت بها لأنها تعرف أنها لا خطر منها)[٢٩٣]

- وقد وافق بالطبع الثوار علي شريف باشا حتي بدأ أولي مناوراته السياسية بشأن الدستور وقرروا أن يكون الحل ثوري وليس سياسي فضغطوا عليه حتي استقال
- نعم وباستقالته تأكد للإنجليز أنه لا بديل عن الحل العسكري في مواجهة الثورة
- فكيف تم ضرب الإسكندرية ؟

١٠٦. كيف قام الإنجليز بضرب الإسكندرية عند احتلالهم لمصر سنة ١٨٨٢

- يقول الأستاذ جمال بدوي : (---- في الساعة السابعة من صبيحة الثلاثاء ١١ يوليو ١٨٨٢ أعطي الأميرال سيمور إشارة الضرب فانهالت قذائف الأسطول البريطاني علي مدينة الإسكندرية ، كانت القنابل تنطلق بدقة وإحكام ، فتصيب أهدافها إصابات مباشرة أما مدافع الحصون والطوابي المصرية ، فكانت ضعيفة خائرة متراخية فتسقط قنابلها في مياه البحر ، دون أن تصل إلي البوارج الإنجليزية واستمر إطلاق الحمم حتي قبيل غروب الشمس ، وهي فترة كانت كافية لتدمير المدينة وتحويل أحيائها الآهلة إلي أطلال تتراكم فيها الجثث وتنعق البوم بعد أن فر سكانها وهاموا علي وجوههم نحو الريف بحثاً عن مأوي بقيهم نار الجحيم ، كانت مجزرة بشرية رهيبة ، ارتكبتها بريطانيا العظمي عقاباً للشعب المصري لأنه رفض الاستسلام للنفوذ الأوروبي الذي تغلغل في أنحاء الديار المصرية وبات يشكل خطراً علي روحها وشخصيتها وأخلاقها واستقلالها الوطني ، كان حكام مصر من سلالة محمد علي قد فتحوا أبواب البلاد علي مصاريعها أمام الأجانب ومنحوهم امتيازات وحصانات جعلتهم بمنأى عن المساءلة إذا ارتكبوا أحط الجرائم ولم يكن هؤلاء الأجانب في مستوي الطبيب الشهير كلوت بك أو القائد العسكري الكولونيل سيف وإنما كان معظمهم من حثالات البشر المكدسين في الموانئ الأوربية من الأفاقين والمرابين وتجار الأعراض فلما تسامعوا عن الخير الوفير في مصر المحروسة شدوا إليها الرحال طمعاً في الثراء الرخيص وامتهنوا أحقر المهن وانتشروا في خدمة الحانات والخمارات وبيوت الدعارة فلما كثرت النقود في أيديهم وظفوها في الربا واستطاعوا تملك الأراضي الشاسعة والعقارات الثمينة – –)[٢٩٤] ، – – – وهناك تعليق للمسيو جون نينيه السويسري عن هذه المجزرة البشعة

---

[٢٩٣] نقلاً باختصار عن كتاب تاريخ مصر الحديث –د محمد مورو

٢٩٤ مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٩٨ مكتبة الأسرة طبعة ١٩٩٥

حيث قال (ويجب أن نعترف بأن هذه مجزرة همجية لم يكن لها أي مسوغ وليس الباعث عليها سوي الشهوة الوحشية المتعطشة إلي القتل وسفك الدماء)[٢٩٥]

- دائماً يقتلون أكثر مما تستدعي الحاجة للقتل
- كما أن الأستاذ جمال بدوي علق علي موقف فرنسا من هذه المجزرة (فقد اعتبرت الحكومة الفرنسية مجزرة الإسكندرية وما تبعها من احتلال عسكري عملاً من أعمال البطولة تستحق عليه بريطانيا التهنئة الحارة وكان جواب حكومة لندن علي التهنئة : " إن انتصارنا هو انتصار أوروبي ولو انهزم الإنجليزي لكان ذلك كارثة علي كل الدول التي تحسب حساباً للتعصب الإسلامي ")[٢٩٦]
- التعصب الإسلامي ، سبحان الله
- يضيف الأستاذ جمال بدوي في استنكار واضح (التعصب الإسلامي !! أنعم النظر في هذه العبارة الغريبة حتي يتملكك الغيظ ، بريطانيا العظمي تحرك في نفس شريكاتها النعرة الصليبية المقيتة وتري في دفاع أمة صغيرة عن حريتها واستقلالها وكرامتها مظهراً للتعصب الديني أما امتصاص دماء المصريين ونهب ثرواتهم وإذلال كرامتهم فهو عين التسامح الديني الذي تريده الدول العظمي !! ، منطق غريب جداً ولكنه منطق الذئاب الضارية مع الحمل الوديع في كل عصر)[٢٩٧]
- وتم احتلال مصر برعاية أحد أحفاد محمد علي باشا
- (لم تكن مهمة جيش الاحتلال الإنجليزي مهمة سهلة ولم يكن احتلاله لمصر نزهة عسكرية ، كانت هناك معارك حقيقية وكبيرة وكانت هناك بطولات وكان هناك جنود وضباط شجعان فعلوا كل ما في طاقتهم وكان هناك شعب عظيم قدم كل ما يمكنه من الدعم ،، كان الجيش الإنجليزي يتكون من ٥٠٦٠٠جندي مسلحين بأحدث الأسلحة وأسطول ضخم في مواجهة جيش مكون من ١٣ ألف جندي وعدد من الاستحكامات والطوابي متخلفة عن العصر في تسليحها وعدد من الخونة يعملون داخل صفوف الجيش لحساب الخديوي والإنجليز ، ومع ذلك أو قل ورغم ذلك ، صمد الجيش في حدود المستطاع ، - - - ويقول وكيل القنصل اليوناني بالإسكندرية : أنني لا أملك سوي الإعجاب بما أبداه جنود المدفعية المصرية من البطولة والبسالة والثبات في مواقعهم ، كانوا شجعان يصمدون لغارات جبارة ، وبالقرب من الإسكندرية كانت معارك صمد فيها الجيش المصري صموداً مذهلاً ، ففي واقعة الرمل بالقرب من كفر الدوار صد المصريون ثلاثة هجمات إنجليزية يصفها الرافعي بقوله : وهجم المصريون علي الإنجليز هجوماً شديداً واضطروهم إلي التقهقر إذ ولوا الأدبار منهزمين بعد أن دام القتال ثلاث ساعات ونصف ، وفي واقعة عزبة خورشيد ٧ أغسطس ١٨٨٢ صمد المصريون صموداً

---

[٢٩٥] مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٩٩

[٢٩٦] مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ١٠٠

مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ١٠٠

باسلاً ودافعوا دفاعا مجيدا ، وكانت خسائر الإنجليز أكثر عدداً من خسائر المصريين واضطر الإنجليز في النهاية إلي التقهقر بعد قتال استمر أربع ساعات ، ، وفي أيام ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ أغسطس ١٨٨٢ نجح المصريون في صد الهجمات الإنجليزية المتكررة وتكبيدهم أفدح الخسائر ويقول الرافعي معلقاً علي ذلك ، : وتعتبر معارك الميدان الغربي في جملتها فوزاً للعرابيين لأن الإنجليز ارتدوا عن خطوط الدفاع المصرية في كفر الدوار ، ، وهكذا صمد الجيش المصري أمام الغزو الإنجليزي ، بل وأنزل بقوات الغزو أفدح الخسائر مما جعل الإنجليز يفكرون في تغيير مسار الغزو ، فقرروا نقل المعارك إلي منطقة قناة السويس ، أي غزو مصر من الشرق ، وهو الأمر الذي لم يكن أحد يفكر فيه بفضل وجود قناة السويس ، لأن معني الغزو عن طريق القناة أن تحدث تعقيدات دولية شديدة ولكن متي كانت المعاهدات والتعهدات حائلاً أمام المستعمر فهذا المستعمر لا يرعي حرمة ولا يحترم عهوداً أو معاهدات علي أن المسألة كانت أيضاً أكبر من مجرد معاهدات دولية كانت المسألة أن الغرب كل الغرب يدعم الإحتلال الإنجليزي لمصر ، – – وهكذا لم يكن غريباً علي دليسبس الفرنسي أن يخدع عرابي ولكن الغريب أن عرابي انخدع ، كان المجلس العسكري بقيادة عرابي قد انعقد في شهر يوليو للنظر في أمر القناة واجتمع رأي المجلس علي وجوب تعطيلها بحيث لا يستطيع الجيش الإنجليزي اجتيازها والوصول إلي الشاطئ الغربي منها ولكن دليسبس أرسل إلي عرابي في أن يمتنع عن قطع القناة وأكد لها أن الإنجليز يستحيل أن يدخلوا القناة وحتي بعد أن وصلت البوارج الإنجليزية إلي بورسعيد استمر دليسبس في خداعه مؤكداً استحالة دخول الإنجليز للقناة وأنه مسئول عن ذلك شخصياً ، وإذا كان من الطبيعي أن يدعم الغرب والفرنسيين بالذات الاحتلال الإنجليزي لمصر لذبح الثورة ، وإذا كان من الطبيعي أن يساهم دليسبس الفرنسي في تحقيق ذلك عن طريق الخداع ولو علي حساب شرفه الشخصي ففي مواجهة الإسلام فالجميع مستعد لعمل أي شئ)[٢٩٨]

- الغريب فعلاً أن يتحد أعداء الأمس بريطانيا وفرنسا علي مصالح مشتركة
- بالفعل لقد كان هناك عداء شديد بين الدولتين ، ولكن ما حدث في الحملة الفرنسية علي مصر وما بعدها من أحداث في عهد محمد علي جعل الدولتين يتأكدان من مدي ضعف الدولة العثمانية فقررا التحالف معاً ضدها مع إفشال مشروع محمد علي حتي لا يكون بديلاً لها في المنطقة ، علي أن يقوموا بتقسيمها فيما بينهم كما سنري في اتفاقية سايكس بيكو الشهيرة
- نجح الإنجليز إذن بعد هزيمتهم في كفر الدوار في نقل المعارك إلي الشرق وهزموا الجيش المصري في التل الكبير كما هو معروف نتيجة لتعرض عرابي للخيانة
- نعم لقد كانت خطة العرابيين تعتمد علي حشد القوات في الإسكندرية وكفر الدوار ورشيد علي اعتبار أن بريطانيا ستحترم حياد القناة ، وعندما انتقل القتال إلي الشرق وقام الإنجليز باحتلال بورسعيد ثم

[٢٩٨] نقلاً باختصار عن كتاب تاريخ مصر الحديث –د محمد مورو

الإسماعيلية وقعت معارك طاحنة في القصاصين والتل الكبير وقام عرابي بوضع خطة جديدة للتغلب علي الإنجليز طبقاً للأوضاع الجديدة للقوات ولكن أحد الخونة قام بتسريب الخطة للإنجليز مما كان سبباً رئيسياً في هزيمة عرابي بالإضافة للأسباب الأخري كخداع دليسبس وعدم التزام الإنجليز بحياد القناة ولا يسعنا إلا أن نعيد ما قاله الأستاذ يحيي حقي[٢٩٩] عندما تحدث عن الجهل بالموقف الدول فقال عن عرابي : وإذا جئنا لعرابي وجدناه هو أيضاً لسوء الحظ غير ملم بالموقف الدولي الإلمام الواجب لرجل مثله يقود أمته وسط الأعاصير ليس هناك دليل قاطع علي أنه فهم سياسة إنجلترا نحو قناة السويس وكيف تحولت من معارضتها إلي الطمع فيها ثم إلي اتخاذ العدة للاستيلاء عليها ، لم يمد بصره إلي أوروبا ليعرف كيف تقف من إنجلترا إذا أزمعت غزو مصر منفردة ، لم يحاول البحث عن نصير حتي لو حكم من أول الأمر أن لا نصير له – --كان ينبغي ان يكون ملما كل الإلمام بالموقف الداخلي في فرنسا ليزن بميزان صحيح قيمة وعد دي ليسبس له بأن انجلترا لن تخرق حياد القناة من أجل ذلك وقع في خطأ عسكري جسيم هو عدوله عن ردمها ، لم تجد إنجلترا في عرابي خصماً ذا دهاء يجيد المناورة ، بل رجلاً طيباً يؤمن بأن الاعتداء جريمة وبأن الشجاعة تغلب المدفع ، فلما وقعت النكبة فسرها بأنها من تصاريف القدر – – ولم يتزلزل اعتقاده في أنه قام بواجبه في الدفاع عن كرامة شعبه وحقوق بلاده ، وإذا كانت حكمته موضع درس فإن إخلاصه فوق الشبهات

- إذا كانت حكمته موضع درس فإن إخلاصه فوق الشبهات ، حقاً كم من المخلصين في التاريخ كانت تنقصهم الحكمة واعتقدوا أن كلمة الشرف لا يمكن أن تهتز وسمحوا للخبثاء بخداعهم ، وبعد كل هذا أصبحت مصر مستعمرة بريطانية برعاية حاكمها

١٠٧. مصر تحت الاحتلال البريطاني

- نعم وهكذا (سمح الخديوي توفيق للجيش البريطاني باحتلال مصر والقضاء علي الثورة العرابية ولم يكن يعرف أن دوره سينتهي بدخول الإنجليز وستصدر جميع القرارات بواسطة الاحتلال فلم يتحمل القهر ومات وعمره أربعين عاماً فقط وعن هذا الموضوع يقول المؤرخ الكبير جمال بدوي رحمه الله وهو يصف عودة الخديوي توفيق من الإسكندرية عاد الخديو الخائن توفيق بالقطار من الثغر المحترق إلي القاهرة المحتلة وكان في استقباله بمحطة العاصمة قادة الجيش البريطاني الذين سبقوه إلي القاهرة ومهدوا له طريق العودة وانطلق موكب الخديو إلي قصر عابدين عبر الشوارع التي خلت من الجماهير وازدحمت بجيوش الاحتلال لقد خسر الشعب معركته بفعل الخيانة وبفعل القهر المسلح وأضحي الوطنيون بين طريد تتعقبه عيون العملاء والخونة وسجين ينتظر النفي والتشريد والوطن كله ينزف دماً من جراح الهزيمة وبدأ الظلام ينشر أعلامه السوداء علي مصر المحروسة وكان علي المصريين أن

[٢٩٩] انظر الجزء الأول من هذا الكتاب

يعيشوا مرحلة الضياع كالأيتام علي مأدبة اللئام لقد مضي ذلك العصر الذي جلجلت فيه صيحات النديم والأفغاني ومحمد عبده وصرخة عرابي في وقفة عابدين وانطوت تلك الصفحة المجيدة من كفاح الشعب وبدأت مرحلة الانحطاط والهبوط إلي أسفل السافلين ،بات قصر الدوبارة – مقر المعتمد البريطاني – قبلة الكبراء والوجهاء الباحثين عن الأسلاب والمغانم بين حطام المعركة ، وأصبحت مصر نهباً لكل خوان أثيم ، وبمرور الوقت تعاظم دور بريطانيا في مصر في الوقت الذي تضاءلت فيه سلطة الخديو الفعلية حتي أصبح من الملائم تتويج اللورد كرومر – – فإذا كان عهد اسماعيل هو عصر الأحلام الوردية فإن حكم توفيق جسد الكوابيس الاستعمارية التي أفزعته أيضاً ولم يحتملها كثيراً ووافته المنية عام ١٨٩٢م عن عمر يناهز أربعين عاماً)[٣٠٠]

- يا لها من نهاية حزينة بالفعل لكفاح شعب حاول أن ينال حريته وكرامته فضاعت حريته وأُهينت كرامته
- في الحقيقة لقد كان عرابي آخر زعيم مصري قاتل الاحتلال في معارك حربية حقيقية (كفر الدوار ثم التل الكبير)، أما بعد ذلك فكانت مقاومة شعبية وليست حروب حقيقية ، وتفرغ زعماء الشعب للمفاوضات فقط مع الاحتلال
- المشكلة ليست فقط في هزيمة عرابي واحتلال مصر بل في تشويه تاريخه وتاريخ ثورته حتي أنه كان يقال عنها هوجة عرابي علي ما أعرف
- لقد كان عرابي بالفعل زعيم مظلوم تاريخياً لفترة كبيرة ولعل أكبر طعنة واجهته صدور تصريح من السلطان العثماني بخروج عرابي عن الطاعة ، مما كان له أثر سئ جداً في سير الأحداث ،وقد كان هذا خطأ سياسي فادح من السلطان وقد اتخذه بعد موائمات سياسية أعتقد صحتها لتفويت الفرصة علي تدخل الغرب، وهكذا وجد عرابي نفسه بين ضغط السلطان ومؤامرات الخديوي والقوات البريطانية وخداع دليسبس وسأتلو عليك بعض ما جاء في مقدمة كتاب دراسات في تاريخ مصر السياسي منذ العصر المملوكي تأليف فوزي جرجس تقديم جلال السيد حيث ورد ما يلي : (رأيت أن أكتب للناس كتاباً يهتدون به إلي تلك الحقيقة المرموقة ، تمحيصاً للتاريخ من دون الأهواء الفاسدة والمفتريات الباطلة وسميته : كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية – قياماً بالواجب علي لأبناء وطني الأعزاء وتصحيحاً للتاريخ) بهذه الكلمات صدر الزعيم أحمد عرابي مذكراته التي انتهي من كتابتها عام ١٩١٠ أي قبل وفاته بعام ، وكان قد أدرك منذ عودته من المنفي إلي أرض الوطن استمرار المؤامرة علي الثورة العرابية ، فلم يكن كافياً للاحتلال البريطاني والعائلة الخديوية ما حدث من دمار وخراب لمصر ولم يأبهوا بآلاف الشهداء والضحايا ولا بآلاف المواطنين الذين قدموا للمحاكمة في أعقاب الاحتلال البريطاني ، بل كانوا يبحثون عن المسببات التي تحول بين المصريين وتطلعهم نحو الثورة ، كما حدث في الثورة العرابية ، والتي كان من بينها (التاريخ) فعملوا علي تشويه

---

[٣٠٠] نقلاً عن كتاب (مصر من نافذة التاريخ) تأليف جمال بدوي صفحة ١١٢ ، وكتاب (أسرة محمد علي) تأليف (سهير حلمي) صفحة ٢٤٦

التاريخ المصري خاصة الثورة العرابية وقادتها ، وحاولوا أن يوهموا المصريين أن الفتنة والتمرد والعصيان وما قام به عرابي ورفاقه هم سبب البلاء بل بلغ الأمر بأحد كتابهم بأن حمل الزعيم أحمد عرابي جريمة الاحتلال وبلغت الدعاية مداها من كتاب الاحتلال وشعراء القصر حتي أثرت في أحد الشبان المصريين المضللين الذي ما رأي عرابي حتي بصق في وجهه

- بالتأكيد إن تشويه الأحداث التاريخية يؤدي إلي نتائج كارثية
- وقد أدرك المستعمرون – منذ فترة طويلة – خطورة (التاريخ) وأهميته بالنسبة للشعوب وحركتها الجماهيرية ، فنجد أن مع جماعات الاستطلاع لغزو المنطقة العربية بدأت عمليات النهب والسرقة للآثار القديمة والمخطوطات العربية والتي مازالت في العواصم الأوروبية شاهدة علي جرائمهم وكانت تنفذ هذه العمليات طبقاً لتقارير الرحالة والمستشرقين الذين هجموا علي المنطقة منذ القرن السابع عشر ، وأصبح في جامعتي أكسفورد وكمبردج أقساماً لدراسة اللغة العربية وآدابها – منذ القرن الثامن عشر – هذا إلي جانب حركة الاستشراق في هولندا وألمانيا وغيرهما ، ونحن نعرف أن الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ لم تقتصر علي الجنود والمدافع والذخيرة ، بل كان ضمن أفرادها العلماء والمستشرقين والمهتمين بالتاريخ وهم الذين أعدوا المنشورات لنابليون ، وأنتجت هذه البعثة العلمية التي كانت ضمن الحملة الكتاب الشهير والمهم (وصف مصر) ، وفي ظل الاحتلال البريطاني دأب رجال الاحتلال علي تشويه تاريخنا من خلال ما كتبه المبشرون والتجار وعملاء المخابرات البريطانية والمعتمدين البريطانيين وكانت الثورة في رأيهم تمرد وعصيان وفتنة والجماهير تعني الغوغاء أما أبناء الشعب فهم الرعاع ولم تكن هذه النظرة قاصرة علي الاحتلال وموظفيهم بل شاركهم فيها السياسيون والكتاب والصحفيون الذين كانوا يدورون في فلكهم ، وأصبح من بينهم من يدافع عن الاحتلال – صراحة – وعن أعماله (العظيمة)
- السياسيون والكتاب والصحفيون الذين كانوا يدورون في فلك الاحتلال ، يكون تأثيرهم أسوأ من الاحتلال ، فهم بني جلدتنا ومحل ثقة الكثيرين منا ، فقد نقبل منهم ما نتحرج أن نقبله من الأعداء
- للأسف لقد أصبح هناك أجيال كاملة من هؤلاء المهزومين نفسياً أمام الغرب وأصبح يتوفر لهم منابر إعلامية وأدبية وفكرية وسياسية يبثون من خلالها سمومهم التي تدعو إلي الثقة في كل ما هو غربي واحتقار كل ما هو إسلامي وأصبحت كتبهم تنتشر في ربوع مصر تحت رعاية الاحتلال البريطاني
- لقد قرر الإنجليز طمس هويتنا وتاريخنا وزعزعة الثقة في ثوابتنا الراسخة ، وساعدهم علي ذلك بالطبع ما حدث في عهد سعيد واسماعيل وتوفيق بالتأكيد وما حدث بعد ذلك كان أسوأ بالطبع
- بالتأكيد كان أسوأ لأنهم شجعوا انتشار الرزيلة في المجتمع أما الأسوأ من الرزيلة فالأفكار المسمومة

- إن ما ذكرته لي عن معارك عرابي وأحداث الثورة العرابية والاحتلال البريطاني وما تبعه من مواقف تاريخية كل هذا تنقصه الكثير جداً من التفاصيل علي ما أعتقد ، فقد سمعت عن تفاصيل كثيرة من هنا وهناك عن هذه الفترة فلماذا لا تذكر التفاصيل أم أنها ليست متوفرة لديك ؟

١٠٨. لماذا لا نذكر التفاصيل ؟

- أنت محق تماماً وقد كنت منتظر أن تسأل هذا السؤال في أي لحظة وسوف أجيب طبقاً لاجتهادي الشخصي ففي النهاية كلها اجتهادات ووجهات نظر مختلفة ، وأنا أري أن لذكر التفاصيل فوائد ومزايا عديدة كما أن لذكرها عيوب أيضاً وخاصة في هذه الأيام والأدق أن نقول أن ذكر التفاصيل يجب أن يكون لأشخاص يحسنون فهمها ودراستها فقط ولا يتم ذلك مع من لن يستفيد منها بل قد يضره ذكرها
- فما هي أولاً فوائد ومزايا ذكرها ؟
- إن التفاصيل للباحث في غاية الأهمية لأن ما تعتبره أنت حدث عادي يمر بلا تأمل قد يستخرج منه الباحث العديد من التحليلات والأفكار وقد يبني عليه تصور كامل لطبيعة العصر التاريخي الذي يتم تناوله بالبحث ولذلك فهي مفيدة جدا للباحثين والمتخصصين ،
- وليست مفيدة للقراء العاديين ؟
- في الحقيقة أعتقد أنها قد تكون ضارة للبعض ؟
- كيف ؟
- إن المؤرخ الذي يملأ كتابه بالتفاصيل المهمة والغير مهمة يجعل من كتابه مجموعة كبيرة من المجلدات الضخمة والتي قد تجعل القارئ ينفر منها حالياً فلا يقرأ منها حرفاً واحداً فأنت تري الآن المتصفحين للمواقع الالكترونية علي شبكة الانترنت لا يستكملون القراءة إذا زادت المعلومات عن عدة أسطر فهو لا يملك الوقت أو الطاقة لقراءة كل هذا في عصر يتسم بالسرعة والحركة ، وقد يفضل البعض أن يشاهد الموضوع مصوراً فيديو مثلاً
- تقصد أن التفاصيل قد تجعل العمل ضخماً فلا يقترب منه غير المتخصصين والباحثين لأنهم مضطرين لذلك من أجل الحصول علي درجات علمية مثلاً ؟
- والتفاصيل الكثيرة أيضاً قد يتوه أو يذوب الحدث الأهم داخلها إذا لم يضع الكاتب له عنوان جانبي مثلاً ليلفت نظر القارئ له ، وكم من تفاصيل غطت علي أحداث جسام في تاريخ مصر حتي أن الناس تهتم بها أكثر من الحدث نفسه حالياً مثل القباقيب في عصر شجرة الدر التي لا يذكر البعض غيرها ويتجاهل هزيمة واحدة من أقوي الدولة الأوروبية في ذلك الوقت وأسر ملكها لويس التاسع
- بالفعل قد تضيع العبر والدروس وسط الكثير من التفاصيل
- الأسوأ من ذلك هو الاختلافات التي تحدث علي هذه التفاصيل فمثلاً يقول أحدهم أن هذا الملك كان عمره في ذلك الوقت أربعين عاماً فيرد الآخر لا بل كان لم يتجاوز الثلاثين ، وتنشأ معارك كلامية

وجدل عجيب حول هذه النقطة وقد ينسفون الحوار بالكامل من أجل هذا الاختلاف دون أن يعرفوا ويتأملوا ما حدث في عهد هذا الملك أو ذاك من أحداث تزخر بالعبر والدروس النافعة لمجرد اختلافهم علي عمر الملك أو الشهر الذي مات فيه أو حتي الملابس التي كان يرتديها ، إنها مأساة بالفعل

- هذا صحيح ولكن من الذي يحدد إذا كانت تفاصيل معينة مهمة أو غير مهمة أو بمعني أدق ما هو تعريف التفاصيل ؟
- إن هذا بالتاكيد يختلف من كاتب لآخر طبقاً لرؤيته للحدث وقد يري البعض أن أي أحداث لا تؤثر علي فهم القارئ للحدث الرئيس في حالة عدم ذكرها فهي تُعد من التفاصيل
- أي ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب
- هذا صحيح في هذا الرأي ، فقد لا يتضح الحدث إلا بذكر هذه التفاصيل حتي إذا كانت مملة للبعض ، وعلي أي حال فكلها اجتهادات متروكة لتقدير المؤرخ
- ولكنك ذكرت لي تفاصيل كثيرة في بعض الأحداث ولم تذكر أي تفاصيل في أحداث أخري كنت أتطلع لمعرفتها في هذا الحوار
- قد أفعل هذا لعدم توفرها عندي أو لأنها ليست مهمة بالنسبة لي أو لأنها قد تثير جدل عقيم عند ذكرها أو لأي سبب آخر ، فما الذي كنت تريد معرفته تحديداً فيما ذكرت ؟
- كنت أتمني أن تذكر المزيد من التفاصيل عن الخيانة التي تعرض لها عرابي مثلاً في معركة التل الكبير ومن يكون الخائن الذي قام بتسريب الخطة للإنجليز قبل المعركة ؟
- ما يعنيني في هزيمة عرابي هو أنه تم خيانته وخداعه والتآمر عليه من الجميع أما باقي الأحداث علي أهميتها فهي مجرد تفاصيل وأما اسم هذا الخائن فلم أذكره لأنه قد يثير الضحك أو السخرية وقد يخرجنا من تأمل هذا الحدث الجلل في تاريخ مصر
- ولكنني مصر علي معرفة اسمه
- وأنا لن أذكره لك كي تبحث عنه بنفسك في المراجع والكتب وسيكون ذلك مفيداً وهذا أيضاً من مزايا عدم ذكر التفاصيل ، فقد يدفع عدم ذكرها بعض القراء للبحث بأنفسهم عنها
- وهل حدث لك ذلك من قبل ؟
- بالتأكيد فأنا كلما قرأت كتاباً دفعني لقراءة غيره ، وغالباً يكون الكتاب الجديد مكتوب كمرجع في هامش الكتاب القديم ، وإن أكثر ما أثار فضولي لمعرفته هو ما لم يذكره الأستاذ زهير الشايب عند ترجمته لكتاب وصف مصر وتحديداً الجملة التي أساء فيها الكاتب الفرنسي للشعب المصري في نهاية الكتاب ولم يرغب المترجم في كتابتها في ترجمته مراعاة لشعور القراء ، ولكي أعرفها لابد أن أبحث عن النسخة الفرنسية من الكتاب وأحاول البحث عن ترجمتها بنفسي
- إذن فإن ذلك يحدث لك أيضاً

- نعم ولكنني أعتبر أن المسلمين حالياً في امس الحاجة لمعرفة تاريخهم والثقة في رموزهم التاريخية التي تم تشويهها عن قصد أو غير قصد وبالتالي فمعرفة التفاصيل قد تُعد في رأيي رفاهية لا نملكها ، وكما ذكرت لك إنها مجرد وجهة نظر قد تكون غير صحيحة بنسبة كبيرة
- علي أي حال دعك من التفاصيل ولتذكر لي ماذا حدث بعد أن تم احتلال مصر ؟
- مات الخديوي توفيق ولم ينعم بحكم مصر في ظل الاحتلال البريطاني الذي تسبب في حدوثه وباركه فسلب منه السلطة وقام بإهماله ، وكان موته سنة ١٨٩٢م وتولي الحكم بعده في ظل الاحتلال البريطاني الخديوي عباس حلمي الثاني ابنه

١٠٩. الخديوي عباس حلمي الثاني الوالي الأخير د

- عباس حلمي الثاني الوالي السابع في أسرة محمد علي
- نعم ، وهو ابن الخديوي توفيق وتولي الحكم من بعده ولكن في وجود الإنجليز وكان عباس علي علاقة بمصطفي كامل الذي أسس الحزب الوطني وجريدة اللواء وقام بتعبئة الرأي االلعام ضد الاحتلال وكانت حادثة دنشواي الشهيرة من الأعمال التي فضحها وأشعل الحماس (بين الطلاب والموظفون والتجار والأفندية ذوي الياقات البيضاء أما الفلاحون والمشايخ والأعيان فكانوا علي موعد مع حزب الأمة الذي تأسس عام ١٩٠٧م وتزعمه سعد باشا زغلول وأصدر جريدة "الجريدة " التي رأس تحريرها أحمد لطفي السيد وكانت مصرية مستقلة تماماً عن الخديوي والإنجليز والباب العالي الذي كان الحزب الوطني ينظر إليه نظرة ولاء وتبعية)[٣٠١] ، وبدخول الإنجليز مصر ظل ظلم الشعب مستمر ولكن بصور أخري أو علي رأي شاعر النيل حافظ ابراهيم :

لقد كان فينا الظلم فوضي فهذبت حواشيه حتي بات ظلماً منظما

وقال الشاعر عن الإنجليز :

إذا شئت أن تلقي السعادة بينهم فلا تك مصريا ولا تك مسلما

- فما أهم الأحداث التي وقعت في عهد عباس حلمي الثاني ؟
- خلال فترة حكم الخديوي عباس حلمي الثاني بدأت أحداث الحرب العالمية الأولي وأعلن الجنرال ماكسويل قائد جيوش الاحتلال في مصر الأحكام العرفية وتم وضع الرقابة علي الصحف (وأصدر الجنرال ماكسويل إعلاناً آخر ، حذر فيه الآهلين من تكدير السلام العام ومساعدة أعداء انجلترا وحلفائها ، ودعاهم إلي اتباع الأوامر التي تصدرها السلطة العسكرية --)[٣٠٢] وبدأت انجلترا تستعد للحرب وتحاول أن تضمن حياد الشعب المصري خلال هذه الحرب ، كما يعتبر ظهور الزعيم الوطني

---

[٣٠١] أسرة محمد علي (سهير حلمي) صفحة ٢٥٤

[٣٠٢] من كتاب ثورة ١٩١٩ لعبد الرحمن الرافعي صفحة ٢٧

مصطفي كامل علي مسرح الأحداث وتأسيسه للحزب الوطني من أهم أحداث تلك الفترة فقد سبب هذا الحزب العديد من المتاعب للاحتلال البريطاني وانبثقت منه جمعيات سرية قاومت الاحتلال بالقوة وكان الحزب الوطني لا يعترف بأي مفاوضات مع الاحتلال ويسعي للاستقلال أولاً وجلاء القوات البريطانية عن مصر قبل أي حوار من أي نوع مع سلطات الاحتلال واستمر هذا الكفاح حتي بعد وفاة مصطفي كامل وتولي محمد فريد رئاسة الحزب ،

- من المعروف بالطبع دور مصطفي كامل في فضح الإنجليز عالمياً بعد حادثة دنشواي الشهيرة ، ولنستكمل الحديث عن الحرب ونتأمل تأثيرها علي مصر والمصريين
- ولكن قبل أن نخوض في موضوع الحرب العالمية الأولي وماذا دار في مصر من أحداث بعد ذلك في إيجاز اسمح لي أن نترك مصر قليلاً لنتحدث عن الثورة العربية الكبرى ضد الدولة العثمانية والذي ساعد علي انهيارها واختفاءها بعد ذلك من مسرح الأحداث كآخر دولة إسلامية كبري ، ويعتبر عباس حلمي الثاني هو الوالي الآخير علي مصر
- ولماذا أطلقت عليه الوالي الأخير ؟
- ذكرنا أن مصر كجزء من الدولة العثمانية قد وقعت تحت الاحتلال البريطاني منذ عام ١٨٨٢ في عهد الخديوي توفيق ، وظل هذا الاحتلال مستمر بهذا الشكل حتي قررت بريطانيا تغيير المسميات بشكل يجعل من مصر كيان مستقل وليس جزء من دولة كبري ، وبالرغم من أن الاحتلال لم يتغير إلا أن المسمي تغير وكأنها خطوة في طريق تفتيت الدولة الكبري إلي عدة دول تحت الحماية البريطانية ،وقد يكون السبب في ذلك هو ترك هذه الدول والكيانات المستقلة عند انتهاء الاحتلال بحيث لا يتم جمعها بأي رابطة من أي نوع تحت أي مسمي بعد ذلك ، ويعتبر الخديوي عباس حلمي الثاني هو آخر والي في تاريخ مصر يتبع الخلافة الإسلامية (العثمانية آنذاك) حيث تم عزله ثم أصبح السلطان حسين كامل هو أول حاكم لمصر لا يتبع الخلافة بتاريخ ١٩ ديسمبر ١٩١٤ وكانت بريطانيا قد أعلنت الحماية علي مصر في اليوم السابق لعزل الخديوي بتاريخ ١٨ ديسمبر ١٩١٤ قبل الحرب العالمية الأولي ، وكان الخديوي عباس حلمي في ذلك الوقت في الآستانة عاصمة الدولة العثمانية التي أصبحت في حالة حرب مع بريطانيا ، ، وفيما يلي نص قرار عزل الخديوي عباس كما ورد في كتاب (ثورة ١٩١٩) للمؤرخ عبد الرحمن الرافعي صفحة ٣٢ : (يعلن ناظر الخارجية لدي جلالة ملك بريطانيا العظمي أنه بالنظر لإقدام سمو عباس حلمي باشا خديو مصر السابق علي الانضمام لأعداء الملك قد رأت حكومة جلالته خلعه من منصب الخديوية ، وقد عرض هذا المنصب السامي مع لقب سلطان مصر علي سمو الأمير حسين كامل باشا أكبر الأمراء الموجودين من سلالة محمد علي فقبله) القاهرة في ١٩ديسمبر ١٩١٤
- هكذا ببساطة لم تعد مصر ولاية تابعة للخلافة وأصبح حاكمها سلطاناً

- نعم وجدير بالذكر أن أول والي تابع للخلافة الإسلامية كان عمرو بن العاص وآخر والي تابع للخلافة الإسلامية هو عباس حلمي الثاني حيث توالت الخلافة علي مصر مع اختلاف المسميات من عصر الراشدين ثم الأمويين ثم العباسيين إلي أن انتهت بالعثمانيين وهي آخر خلافة كانت مصر ولاية تابعة لها وكان عباس حلمي آخر والي في هذه الخلافة
- إن ما فعله الإنجليز بمصر والمصريين يفوق بمراحل ما فعلته الحملة الفرنسية ، فقد هزت كل ما له علاقة بالخلافة والأمة الإسلامية في مصر
- لقد قامت بتشجيع الزعماء الوطنيين القوميين في مصر وجعلت منهم أبطال بخبث شديد حتي أصبحوا رموزاً جديدة لقومية جديدة هي القومية المصرية كبديل للقومية الإسلامية ، كما اتبع الاحتلال البريطاني سياسة الاحتواء وذلك بإنشاء شبكة سكك حديد وكباري ومحالج ومطاحن ومشروعات بنية تحتية كبري ليشعر الشعب بفوائد الاحتلال كما حاربت الأزهر بأسلوب ماكر جداً حيث لم تهاجمه كما فعل الاحتلال الفرنسي من قبل بل تركته وشأنه وقامت بتأسيس مدارس أخري وأصبح من يتخرج منها له أفضلية التعيين في المصالح الحكومية وضمان مستقبله الوظيفي مع إهمال خريجي الأزهر مما أدي إلي إقبال الطلبة علي الدراسة بعيداً عن الأزهر ، فكانت سياسة الإنجليز تعتمد دائماً علي العمل لتحقيق أي هدف ببطء ولكن بشكل مؤكد حدوثه علي المدي الطويل وكما يقال : بطئ لكن مؤكد (Slow but sure) ولم تكن القومية المصرية فقط هي التي قامت برعايتها وتشجيعها بل شجعت أيضاً القومية العربية ضد الدولة العثمانية حتي قام العرب بثورة كبري ضد الخلافة ، ثم بعد هزيمة الدولة العثمانية قامت بتشجيع القومية التركية نفسها لتتفتت القومية الإسلامية إلي العديد من القوميات والدول بحيث يصعب تجميعهم مرة أخري والأسوأ من التيار القومي ما صاحبه من تيار علماني يكره الدين وخاصة مع وبعد نشوب الحرب العالمية الأولي
- وما مظاهر صعود التيار العلماني في مصر ومن أهم رموزه في ظل رعاية الاحتلال ؟
- يقول د يونان لبيب رزق : (أولاً بالنسبة للفكر العلماني فقد بدأ حتي قبل الحرب من الناحية السياسية بدعوة أحمد لطفي السيد برفض فكرة الجامعة الإسلامية كأساس من أسس الحركة الوطنية المصرية ، وأدان هذه الفكرة واعتبرها نوع من التخلف ،، يزداد هذا الاتجاه وضوحاً خلال الحرب بانتشار أفكار النشوء والارتقاء والنظرية الداورينية التي لعبت مجلة المتقطف كما لعب شبلي شميل دورا كبيرا في نشرها ، وعندما توفي هذا الكاتب عام ١٩١٧ أقام له المعجبون حفل تأبين كبير دل علي مدي انتشار دعوته ، وفي نفس الوقت ظهرت جرائد غير المقتطف تغلب عليها الصبغة العلمانية وتناقش الأمور بفكر متجرد من التأثيرات الغيبية بقيودها وأشهر هذه الجرائد كانت صحيفة السفور التي كتب فيها منصور فهمي عدة مقالات عن الاتجاه الجديد قال في أحدها : "إنه لا يطمئن إلا لكل عقيدة يتم الإقناع بها بواسطة المنطق " – – – – كما شن الدكتور محمد حسين هيكل حملة شعواء اتهم فيها أصحاب

الاتجاه الديني بالنفاق والكذب والاتجار بالدين - - - ثانياً بالنسبة للفكر الاشتراكي فقد أخذ يكتسب الأصالة كأحد تيارات الفكر المصري فقد ألف حسين المنصوري كتاباً عن الاشتراكية نشره أوائل عام ١٩١٥ تحت عنوان تاريخ المذاهب الاشتراكية)[٣٠٣]

- فماذا عن السلطان حسين وظروف توليه الحكم في مصر ؟

١١٠. السلطان حسين كامل

- قد يردد البعض اسم السلطان حسين دون أن يعرف من هو ، واسمه بالكامل هو السلطان حسين كامل ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) باشا وقد حكم مصر كسلطان تحت الحماية البريطانية من ١٩١٤/١٢/١٩ إلي ١٩١٧/١٠/٩ حوالي ثلاث سنوات ، وبدأت القصة قبل بدء الحرب العالمية الأولي عندما أعلنت بريطانيا الحرب علي الدولة العثمانية ، فأعلن السلطان العثماني الجهاد في سبيل الله لجميع المسلمين في العالم ضد بريطانيا ، فشعرت بريطانيا بخطورة شديدة حيث ستكون حربها مع كل مسلمي العالم في وقت واحد ، فقررت فصل القوميات المختلفة داخل الدولة العثمانية وكانت أهم القوميات داخلها هي القومية التركية والقومية العربية والقومية المصرية ، فوعدت العرب بدولة عربية كبري في حالة وقوفهم في الحرب ضد الدولة العثمانية (تركيا) ، كما نجح الإنجليز في تنمية القومية المصرية لتفصلها عن القومية الإسلامية والقومية العربية ، فقررت عزل الخديو عباس حلمي الثاني الوالي الأخير المنتمي للدولة العثمانية ، وأعلنت الحماية البريطانية علي مصر كدولة مستقلة ، وعرضت منصب سلطان مصر علي أكبر أبناء أسرة محمد علي في ذلك الوقت الأمير حسين كامل فوافق علي ذلك ، والجدير بالذكر أن السلطان حسين قد توفي في أكتوبر ١٩١٧ ، عن ابن واحد هو الأمير كمال الدين حسين وقد تنازل هذا الابن عن حقوقه في تولي السلطنة فحكم مصر الملك فؤاد الأول ابن اسماعيل والشقيق الأصغر للسلطان حسين من ٩ أكتوبر ١٩١٧ إلي أن توفي في ٢٨ إبريل ١٩٣٦ (سلطان ثم ملك)
- قد يكون الأمير كمال الدين حسين شعر بمدي خطورة الدور الذي سيلعبه إذا وافق الإنجليز علي تحدي الخلافة وتفتيت الأمة فاعتذر عن قبول المنصب رغم وجاهته والله أعلم
- علي أي حال لقد سجل موقفه من الأحداث قبل أن يموت ولم يتورط في ما تورط فيه والده فالجميع قد ماتوا ولم يعرفوا ما حدث ولم يبق إلا موقف كل منهم مما حدث
- ولكن ماذا كان رد فعل الشارع المصري مما فعله السلطان حسين ؟
- بالطبع لم يمر حدث كهذا مرور الكرام فقد قوبل بالسخط والرفض من كل مسلم غيور علي وحدة الأمة وعلي الخلافة ومما أثار المصريين عموماً أن عزل الخديوي عباس حلمي الثاني وتعيين حسين كامل

[٣٠٣] نقلاً عن المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر الجزء الأول تقديم ومراجعة د يونان لبيب رزق صفحة ٤١٤

سلطاناً علي مصر صاحبه إعلان الحماية البريطانية علي مصر بعد زوال السيادة العثمانية ، كما تم فرض الأحكام العرفية في البلاد والرقابة علي الصحف بحجة نشوب الحرب العالمية الأولي ، وأدي انتشار القوات في أنحاء البلاد للحد من الاحتجاجات وعدم التجمهر وقد أطلق المؤرخ عبد الرحمن الرافعي علي ما حدث كلمة انقلاب لمعارضته الشديدة علي الحماية البريطانية

- يبدو أن رفض البعض جاء بدافع إسلامي والبعض الآخر جاء بدافع قومي ، لنجاح الأفكار الأوروبية في تنمية القومية المصرية وفصلها عن القومية الإسلامية
- للأسف لقد حقق الغرب نجاحاً كبيراً في ذلك الاتجاه مع الطبقة ((المثقفة)) من الشعب المصري حتي يمكنك أن تلاحظ ذلك في مقولة مصطفي كامل الشهيرة لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً والشعارات التي تم رفعها في إطار بعيد عن إطار الأمة الإسلامية كشعار مصر للمصريين
- وهل ذكر الرافعي شيئاً عن أي مظهر من مظاهر الاحتجاج والرفض أياً كان دافعه ؟
- يمكن أن أقرأ لك بعض الأمثلة مما كتبه الرافعي عن هذا الموضوع فمثلاً كتب الرافعي تحت عنوان مظاهرة طلبة الحقوق يوم زيارة السلطان حسين ما ملخصه : (- - - اعتزم السلطان حسين كامل زيارة معاهد العلم ، وزار بعضها ، وكان من مظاهر سخط الشباب علي الحماية والانقلاب الذي استتبعه أنه لما جاء دور زيارته لمدرسة الحقوق اتفق معظم طلبتها علي الامتناع عن الحضور في اليوم المحدد لهذه الزيارة السلطانية ١٨فبراير سنة ١٩١٥ وأنفذوا عزمهم وتغيبوا عن الحضور في ذلك اليوم ، فلما جاء السلطان لوحظ فراغ كبير في صفوف الطلبة ، فكان هذا الإضراب شبه مظاهرة صامتة ضد الحماية والانقلاب وقد اهتمت الوزارة للأمر)[٣٠٤] وأجرت تحقيقا ووقعت عقوبات علي الطلبة المسئولين عن ما حدث وقد ذكر الرافعي أسمائهم لأنها أصبحت أسماء لامعة فيما بعد
- وستعتبر أنت أنها تفاصيل بالطبع
- إنها بالطبع تفاصيل ولكنها مهمة ، ولكنني أريد أن استكمل معك بعض ما كتبه الرافعي عن رفض الشعب لما حدث وهو يعتبر ذلك بالطبع كمؤرخ قومي أن ذلك الرفض بسبب إعلان الحماية وليس بسبب تحدي الخلافة وتمزيق الأمة ، فيقول في موضع آخر تحت عنوان الاعتداء علي السلطان حسين كامل : (تجاوز سخط الشعب علي الحماية إلي السخط علي المغفور له السلطان حسين الذي ارتضي هذا النظام ، - - ولقد كان من مظاهر هذا السخط أن أُعتدي عليه مرتين ، الأولي بالقاهرة يوم الخميس ٨أبريل سنة ١٨١٥ ، إذ أطلق عليه شاب يدعي محمد خليل تاجر خردوات من المنصورة عياراً نارياً حين مرور موكبه بشارع عابدين فأخطأه وأصاب العربة التي كانت تقله ولم يحدث بها سوي ثقوب في جلدها ، وقُبض علي الجاني وحوكم أمام مجلس عسكري بريطاني وحُكِم عليه بالإعدام شنقاً ونُفِّذ فيه الحكم يوم ٢٤أبريل سنة ١٩١٥ ، وبعد مرور شهرين علي هذا الحادث وقع اعتداء آخر لا

[٣٠٤] نقلاً عن كتاب ثورة ١٩١٩-عبد الرحمن الرافعي صفحة ٤٥

يقل شططاً ونكراً عن الاعتداء الأول ، ففي يوم الجمعة ٩يوليو سنة ١٩١٥ بينما كان السلطان سائراً بموكبه بالإسكندرية قبيل ظهر ذلك اليوم من قصر رأس التين إلي مسجد سيدي عبد الرحمن بن هرمز لأداء فريضة الجمعة ، أُلقيت عليه قنبلة من نافذة أحد المنازل المطلة علي شارع رأس التين فسقطت القنبلة علي ظهر جواد من جوادي المركبة السلطانية ثم تدحرجت علي الأرض ولم تنفجر وقد استغرق التحقيق في هذه الحادثة زمناً طويلاً لغموضها وصعوبة الكشف عن المتآمرين فيها وأسفر عن اتهام تسعة من الشبان بتدبير الحادث ، ثم استقر رأي النيابة علي إدانة اثنين منهم وحوكما أمام مجلس عسكري بريطاني فحكم عليهما بالإعدام شنقاً وصدق القائد العام للقوات البريطانية علي الحكم ، ولكن السلطان حسين طلب تخفيفه فأبدله القائد العام بالأشغال الشاقة المؤبدة)[٣٠٥]

- أليس من العجيب أن يستغرق التحقيق وقتاً طويلاً في مثل هذه القضايا ؟
- ليس بعجيب إذا كنت تريد أن تصل للفاعل الحقيقي أما إذا كنت أن تنهي القضية علي أي حال فمن السهل القبض علي بعض الأشخاص والضغط عليهم إلي أن يعترفوا بجرائم لم يرتكبوها وتنتهي القضية
- فلماذا لم يفعلوا ذلك فكل المصريين بالنسبة لهم عبيد وهمج وقتلهم لا يعني شئ ؟
- لأنهم لو فعلوا ذلك سيظل الفاعل الحقيق طليقاً وقد يعيد جريمته مرة أخري ولذلك كانوا حريصين في كل مرة علي الوصول للفاعل الحقيقي ، ويضيف الرافعي في موضع آخر من كتابه ما يلي (ويدخل في هذا السياق حادث الاعتداء علي إبراهيم فتحي باشا وزير الأوقاف ففي مساء ٤سبتمبر سنة ١٩١٥ بينما كان واقفاً علي رصيف محطة القاهرة مزمعاً السفر بقطار الوجه القبلي اعتدي علي شاب يدعي صالح عبد اللطيف وهو موظف بوزارة المالية بأن طعنه بخنجر ثلاث طعنات جرحه جروحاً بليغة في كتفه ولكنه شفي منها بعد حين وحوكم الجاني أمام مجلس عسكري بريطاني وحكم عليه بالإعدام شنقاً ونفذ فيه الحكم يوم ٣أكتوبر)
- فهل كان هناك أي تمثيل من أي نوع لنواب الشعب مثلاً أو ديوان أو خلافه ؟
- نعم كانت هناك جمعية منتخبة تسمي الجميعة التشريعية وقال الرافعي أن السياسة البريطانية رأت تعطيلها بمجرد نشوب الحرب حتي لا تتخذ قرارات قد يكون فيها معني الاحتجاج علي الانقلاب كما أسماه
- فماذا حدث بعد ذلك ؟
- يؤكد الرافعي أن بريطانيا قد جعلت من مصر قاعدة حربية عامة للحلفاء في الشرق الأوسط ولذلك كثر تدفق الجيوش من مختلف أنحاء الإمبراطورية علي مصر ويؤكد الرافعي أن هذا الإجراء قد أفاد الحلفاء في القتال نظراً لموقع مصر الفريد الذي يتيح التدخل في عدة جبهات قريبة كالشام وغيرها ، وقد استنكر الرافعي تصرفات الجنود الذين وفدوا علي مصر لكثرة الاعتداءات التي وقعت منهم علي الناس

[٣٠٥] نقلاً عن كتاب ثورة ١٩١٩-عبد الرحمن الرافعي صفحة ٤٨

في أموالهم وأرزاقهم التي وصلت أحياناً للضرب والقتل ، فكره الناس الاحتلال والحماية البريطانية بشدة ،، ومما زاد الطين بله قيام الإنجليز بتشكيل ما سموه بفيالق العمال المصرية أثناء الحرب والتي تم استغلالها أسوأ استغلال وكانت تتعرض للأخطار بنفس الدرجة التي يتعرض لها المقاتلون

- وما المواجهات الحربية التي تمت علي أرض مصر ؟
- لقد حاولت بالطبع الدولة العثمانية الهجوم علي القوات البريطانية كما أكد الرافعي ولكن تصدي لها الجيش البريطاني بمعاونة كتيبة من الجيش المصري بقيادة الملازم أول أحمد أفندي حلمي علي حد تعبير الرافعي وقد ذكر الرافعي مواقع أخري حدثت بها اشتباكات بل إن المسلمين في ليبيا والسودان استجابوا لدعوة الجهاد من السلطان العثماني وجاءت حملة السنوسي من ليبيا لقتال الإنجليز وحدث أيضاً قتال في دارفور ولكن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل أمام القوات البريطانية والجيش المصري والأعجب من كل هذا أن الملك جورج الخامس ملك بريطانيا في ذلك الوقت أرسل رسالة تهنئة جاء فيها (- - تناولت بمزيد الارتياح الأنباء السارة عن احتلال جنود الجيش المصري الفاشر عاصمة دارفور بقيادة اللفتننت كولونيل كلي فأهنئ جميع صفوف الجيش علي نجاح حركاتهم رغم المصاعب والمشقات التي حالت في سبيلهم)[٣٠٦]
- يا للعار إنها لمأساة أن يساعد الجيش المصري الجيش البريطاني في مواجهة الجيش العثماني
- الأسوأ من ذلك هو هجوم القوات العربية علي الجيش العثماني بعد تحالفهم مع الإنجليز
- فكيف تواصل الغرب مع العرب ؟ وكيف قاموا بتنمية القومية العربية ودعمها ؟
- في الحقيقة موضوع القومية العربية موضوع كبيروقد يستغرق وقتاً طويلاً نسبياً في هذا الحوار ، لأن القومية العربية الحديثة كانت صناعة غربية بامتياز
- وكيف حدث ذلك ؟

١١١. القومية العربية الحديثة هل هي صناعة غربية ؟

- تحدثنا معاً في هذا الحوار عن العرب وكيف تراجع دورهم في إطار الدولة الإسلامية الكبري إلي أن ضاعت منهم الخلافة نفسها ، وأصبحت الدولة العثمانية هي الدولة المسئولة عن العالم الإسلامي كله بما فيه من جنسيات مختلفة ومنهم بالطبع العرب وكانت الدولة العثمانية هي آخر دولة إسلامية ذات سيادة علي المستوي العالمي وكانت آخر دولة إسلامية مرهوبة الجانب ويعمل لها العالم ألف حساب إلي أن قرر الغرب القضاء عليها باستخدام العرب أنفسهم كأحد وسائل الضغط عليها وبالتالي قام الغرب بتنمية القومية العربية لتواجه الدولة العثمانية وتكون طعنة في ظهرها أثناء الحرب
- مستغلة بالطبع أن حكم الأتراك في ذلك الوقت كان قاسياً ولا يُرضي الشعوب العربية

[٣٠٦] نقلاً عن كتاب ثورة ١٩١٩-عبد الرحمن الرافعي صفحة ٥٣

- بالتأكيد وكانت الشعوب العربية لا تدرك طبيعة المخطط لها
- وهو ببساطة شديدة استبدال حكم الدولة العثمانية باحتلال إنجليزي وفرنسي للدول العربية التابعة لها ،
- بالطبع ، وقد أدركت الدولة العثمانية هذا المخطط وعملت علي إجهاضه وتعاملت بكل حسم مع جميع الأنشطة التي تدعو للقومية العربية والتي ستؤدي إلي انقسام الأمة الإسلامية ، وكانت الدولة العثمانية علي دراية تامة بأنها في حالة التنازل عن الأراضي العربية فإن العرب لن يتمكنوا من إيقاف الزحف الاستعماري الذي يستهدف بلادهم وبالتالي عملت الدولة العثمانية علي وقف هذه المحاولات بكل قوة ولكن للأسف كان العرب قد تأثروا بالفعل بهذه المحاولات حتي قاموا بثورة ضد الدولة العثمانية
- ثم سقطوا بعد ذلك في مستنقع الاحتلال الغربي
- بالفعل وقد قام هذا الاستعمار بالتعامل معهم بشكل مختلف تماماً عن الدولة العثمانية ويقول الدكتور طه حسين عن هذا الموضوع (---- ثم جاء المستعمرون فوجدوا كل شئ قد مهد للاستعمار . ففتحوا واستعمروا ، وفتحوا أبواباً من الآمال الكاذبة أمام هذه الشعوب البائسة ، حتي إذا استقرت لهم الأمور تبين اليائسون البائسون أنهم لم يخرجوا من بؤسهم ذاك إلا ليفرض عليهم بؤس أشد منه ، وأي بؤس أشد نكراً من أن يتحكم الأجنبي في حياة الناس وأرزاقهم ومصالحهم ، وفي آمالهم ومستقبلهم ، كان " يحكمهم " قوم يمتون لهم ببعض الأسباب ، فأصبح " يحكمهم " قوم ليسوا منهم في قليل ولا كثير ، يختلفون عنهم في كل شئ ولا يقاربونهم في شئ)[٣٠٧] ،
- ربما كان يقصد الدكتور طه حسين هنا الرابطة الإسلامية التي كانت تربط العثمانيين بالعرب ، ثم لم تعد هناك أي رابطة من أي نوع بين الاحتلال الغربي والعرب .فما الذي حدث في تلك الفترة ، وكيف قامت فكرة إحياء القومية العربية وكيف تم تغيير كلمة "الدولة العثمانية" (آخر دولة إسلامية ذات وزن في العالم) واستبدالها بكلمة "الاحتلال التركي" ؟

١١٢. بداية فكرة القومية العربية

- قامت الإرساليات التبشيرية المسيحية بالإضافة إلي عملها في نشر الديانة المسيحية في القرن التاسع عشر في الشام بعمل آخر يهدف إلي الوقيعة بين العرب والدولة العثمانية (وقد بدأت الإرسالية الأمريكية عملها في الشام قبيل فتح محمد علي له ، ثم استكملت عملها أثناء الحكم المصري للشام (١٨٣٢-١٨٤٠) --- وقد وضعت نصب عينيها – إلي جانب نشر البروتستانتية – هدفاً كان له مغزى عميق ، وهو إحياء اللغة العربية ،
- إحياء اللغة العربية ؟

[٣٠٧] " مرآة الإسلام " طه حسين صفحة ٣٠٤ – دار المعارف – طبعة ١٩٥٩

- نعم – – – وتنمية الشعور القومي لدي العرب ، بهدف إضعاف الرابطة العربية التركية ، وقد أنشأت الإرسالية الأمريكية العديد من المدارس في الشام كانت اللغة العربية هي لغة التدريس فيها ، وكان من أهمها علي الإطلاق "الكلية الإنجيلية السورية" التي عرفت فيما بعد باسم "الجامعة الأمريكية ببيروت" والتي ساهمت في تخريج جيل من رواد القومية العربية كان لهم أثر لا يُنكر في خلق فكرة القومية العربية بمفهومها السياسي الحديث . وقد أدي النشاط الكبير للإرسالية الأمريكية البروتستانتية إلي غيرة شديدة في الإرساليات الكاثوليكية وبصفة خاصة الجزويت فبدأ التنافس بين الفريقين علي إنشاء المدارس – – فأنشأ الجزويت مدارس في بيروت ودمشق وحلب وزحلة ، ثم أنشأوا لمنافسة الكلية السورية البروتستانتية " جامعة سان جوزيف" وبذلك أتيح للمسيحيين فرصة الإطلاع والتنقيب في تاريخ العرب وآدابهم ولغتهم)[٣٠٨] ،
- يبدو أن الموضوع أكبر وأخطر مما كنت أتخيل ، فهل وقف السلطان العثماني مكتوف الأيدي ؟ وبالمناسبة هل يمكن إلقاء الضوء علي شخصية الخليفة العثماني الأخير ؟

١١٣. السلطان عبد الحميد الثاني[٣٠٩] (الخليفة الأخير)[٣١٠]

- يعتبر السلطان عبد الحميد الثاني (مجازاً) هو آخر الخلفاء الحقيقيين في الدولة العثمانية وقد بذل جهوداً ضخمة في سبيل الحفاظ علي تماسك الأمة الإسلامية وقد واجه العديد من المشاكل داخل وخارج الدولة ، ففي داخل الدولة كان هناك من يرمي نفسه في أحضان الغرب ويعمل علي نشر كل ما هو غربي في الدولة العثمانية وتحويلها إلي دولة علمانية ذات قوانين وضعية غربية ونشر الثقافة الغربية وكذلك جعل اللغة التركية هي اللغة الرسمية في الدولة ومحو اللغة العربية التي هي لغة القرآن والعالم الإسلامي ،بينما كان السلطان عبد الحميد يسعي إلي التعريب لوعيه بأهمية اللغة في الحفاظ علي تراث وكيان الأمة كما كان حريص علي تطبيق الشريعة الإسلامية وقاوم كافة الاتجاهات الغربية المخالفة للحضارة الإسلامية ،
- فما نوعية المشاكل التي كانت تواجهه ؟
- يقول الكاتب التركي الأستاذ نجيب فضل : (----" ولخلو الإمبراطورية العثمانية طيلة ثلاثة قرون أو أربعة قرون من زعيم فكري أو مصلح اجتماعي كبير وأصيل ، فقد ترك المجال للدبلوماسيين السطحيين المنبهرين بالغرب والمقلدين له ، وكانت النتيجة فقدان الروح ، وضمور العقل وذبول الإرادة وعموم

---

[٣٠٨] "الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ" – د عماد أحمد هلال – صفحة ٥٨ – الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[٣٠٩] (هو السلطان الرابع والثلاثين من سلاطين الدولة العثمانية وهو من مواليد ١٨٤٢) الدولة العثمانية –د علي الصلابي صفحة٤٦٩

[٣١٠] لم يكن السلطان عبد الحميد الثاني آخر خليفة في الدولة العثمانية ولكن بعد أن تعرض لمؤامرات أدت إلي خلعه من السلطنة والخلافة (تولي السلطنة والخلافة بعد السلطان عبد الحميد الثاني أخوه محمد رشاد ، إلا أنه في الحقيقة لم يملك أي سلطة فعلية ، وإنما السلطة أصبحت بيد جمعية الاتحاد والترقي ، وغدت الحكومة العثمانية تركية في مضمونها ، قومية في عصبيتها ، بينما كانت من قبل عثمانية في مضمونها وإسلامية في رابطتها) الدولة العثمانية– د علي الصلابي صفحة ٥٤٣

الشلل" ---- ، وقد انتشرت أفكار الغزو الفكري بين الجمهور الأعظم من ساسة الترك وولاتهم وركبوا متن التفرنج والتحلل من الدين)٣١١ ، وهكذا نجد أن السلطان عبد الحميد قد واجه مشاكل بالجملة من الداخل وكذلك محاولات فصل القوميات المختلفة الموجودة داخل الدولة العثمانية ومن بينها القومية المصرية والقومية العربية ، وكان الأتراك الذين يريدون تقليد الغرب في كل شئ يسمون أنفسهم بالإصلاحيين

- الإصلاح ، كم من الجرائم ترتكب باسمك
- ويقول عن ذلك السلطان عبد الحميد في مذكراته (التجديد الذي يطالبون به تحت اسم الإصلاح سيكون سبب في اضمحلالنا ، تُري لماذا يوصي أعداؤنا الذين عاهدوا الشيطان بهذه الوصية بالذات ، لا شك أنهم يعلمون علم اليقين أن الإصلاح هو الداء وليس الدواء ، وأنه كفيل بالقضاء علي هذه الإمبراطورية ، إذا أردنا أن نتبنى بعض الإصلاحات ، فعلينا أن نأخذ بالحسبان الظروف السائدة في البلاد ، وألا نقيس الأوضاع علي أساس المستوي الفكري لحفنة قليلة من الموظفين ، ويجب أن يكون في الحسبان شكوك طبقة العلماء في كل ما هو أوروبي ، الأوروبيون يتوهمون أن السبيل الوحيد في الخلاص هو الأخذ بحضارتهم جملة وتفصيلاً ، لاشك أن طراز التطور عندنا هو غير ما عند الأوروبيين ، علينا أن نتطور تحت ظروف طبيعية ، ومن تلقاء أنفسنا ، وأن نستفيد من الظروف الخارجية في حالات خاصة٣١٢ ، ومن الظلم الفادح أن نتهم بمعاداة كل شئ يأتي من الغرب)٣١٣

- إنه يقصد علي ما أعتقد أن الحل في التحديث لا التغريب الذي تحدثنا عنه من قبل
- ومن المواقف التي حدثت أيضاً أن زعيم الحركة اليهودية الصهيونية العالمية تيودر هرتزل كان يحاول الحصول من السلطان عبد الحميد علي فلسطين لليهود وبذل عدة محاولات لإغراء السلطان بالمال الوفير والمساعدات الدبلوماسية المختلفة التي يمكن لليهود أن يقدموها للدولة العثمانية ولكن كان إصرار السلطان علي عدم الموافقة (وقام السلطان عبد الحميد بإرسال رسالة إلي هرتزل بواسطة صديقه نيولنسكي جاء فيها :" انصح صديقك هرتزل ألا يتخذ خطوات جديدة حول هذا الموضوع ، لأني لا أستطيع التنازل عن شبر واحد من الأراضي المقدسة ، لأنها ليست ملكي ، بل هي ملك شعبي ، وقد قاتل أسلافي من أجل هذه الأرض ، وروووها بدمائهم ، فليحتفظ اليهود بملاييهم ، إذا مزقت دولتي من الممكن الحصول علي فلسطين بدون مقابل ، ولكن لزم أن يبدأ التمزيق أولاً بجثتنا ، ولكن لا أوافق علي تشريح جثتي وأنا علي قيد الحياة ")٣١٤ ،

---

٣١١ الدولة العثمانية – د علي الصلابي صفحة ٤٤٨

٣١٢ الحالات الخاصة قد يكون مقصود بها التقدم العلمي في مجال الكيمياء والفيزياء والهندسة وما إلي ذلك وليس فلسفة ومنهج الحياة نفسها

٣١٣ الدولة العثمانية – د علي الصلابي صفحة ٤٥١

٣١٤ الدولة العثمانية – د علي الصلابي صفحة ٥٢١

- نتيجة لهذا الموقف من السلطان كان من الطبيعي أن يعمل اليهود علي الإطاحة بالسلطان أولاً كخطوة مهمة في تحقيق هدفهم وهذا ما حدث بالفعل بعد ذلك
- (ويعزز هذا القول هرتزل عندما قال:" إني أفقد الأمل في تحقيق أماني اليهود في فلسطين ، وإن اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة ، مادام السلطان عبد الحميد قائماً في الحكم ، مستمراً فيه")٣١٥
- فما الذي قام به السلطان من إجراءات ؟
- كانت الدعوة للجامعة الإسلامية من الأهداف التي يتمني السلطان عبد الحميد الثاني تحقيقها لدعم ترابط العالم الإسلامي قبل أن تذهب به القوميات المختلفة المنتشرة في الدولة العثمانية ومن بينها القومية العربية إلي تفكك يؤدي إلي الضعف والاضمحلال وبالتالي التعرض لهجمة استعمارية شرسة ، و(بالرغم من أن حركة الجامعة الإسلامية كانت تهدف – ضمن ما تهدف – إلي إضعاف فكرة القومية العربية ، إلا أن فشل المشروع الإسلامي كان من عوامل قوة الفكرة العربية واستمرارها ، بل وتحولها إلي حركة سياسية لها برامج وأحزاب وجمعيات)٣١٦ ، (--- وبالرغم من أن الأفغاني ومحمد عبده كانا يعلمان أن الدولة العثمانية٣١٧ في حالة من الضعف تجعلها غير مؤهلة لقيادة الجامعة الإسلامية إلا أنهما وجدا فيها أفضل ما هو موجود علي الساحة الإسلامية ، يظهر ذلك من قول محمد عبده :" إن العرب أهل للاستقلال عن الترك ، ولكن الترك لا يمكنونهم منه ، وعندهم من القوة العسكرية المنظمة ما ليس عند العرب ، فإذا شعروا بذلك أو رأوا بوادره قاتلوهم ، حتي إذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول أوروبا الواقفة لهما بالمرصاد ، فاستولوا علي الفريقين ، أو علي أضعفهما ، وهذان الشعبان هما أقوي شعوب الإسلام ، فتكون العاقبة إضعاف الإسلام وقطع الطريق علي حياته)٣١٨
- حتي إذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول أوروبا الواقفة لهما بالمرصاد ، فاستولوا علي الفريقين ، ألا تذكرك هذه المقولة بمواقف تاريخية أخري ، فماذا كان موقف الغرب من الجامعة الإسلامية ؟
- (إن الاستعمار قد عمل بكل قوة لمنع هذه الحركة الإسلامية من الظهور والنجاح ، حيث وجد فيها الإنجليز خطراً شديداً علي إمبراطوريتهم التي تمتد إلي الهند وتسيطر علي ما يقرب من خمسين مليون مسلم لو اتحدوا لأطاحوا بالجيوش البريطانية إلي المحيط الهندي ، وقد وجد الإنجليز والفرنسيون أيضاً

---

[٣١٥] الدولة العثمانية – د علي الصلابي صفحة ٥٢٦

[٣١٦] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ٥٩– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[٣١٧] (بالمناسبة عندما سألوا فؤاد باشا الصدر الأعظم في الدولة العثمانية أثناء زيارته لأحد الدول الأوروبية قبل أن يتمكنوا من هزيمة الدولة العثمانية بعد وقالوا له : ما هي أقوي دولة في العالم الآن ، فرد قائلاً : أقوي دولة الآن هي الدولة العثمانية ، ذلك لأنكم تهدمونها من الخارج ، ونحن نهدمها من الداخل ، ولم يستطع كلانا هدمها) الدولة العثمانية د علي الصلابي صفحة ٤٧١

[٣١٨] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ٦٢–٦٣– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

في فكرة القومية العربية قطباً مضاداً لحركة الجامعة الإسلامية[٣١٩] ، فتبنوها وشجعوها وغذوها بالمال والأفكار والتأييد ، مما جعلها تقوي وتنشط بعد أن كادت أن تختفي في مواجهة التيار الإسلامي الجارف [٣٢٠] ،

- {وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ} (٤٢) سورة إبراهيم
- وحدث أن (تم إنشاء جمعية بيروت السرية عام ١٨٧٥ ، علي يد خمسة شبان من خريجي الكلية السورية البروتستانتية هم : فارس نمر ، ويعقوب صروف وشاهين مكاريوس ، وإبراهيم اليازجي وإبراهيم الحوراني وكان بينهم وليم فانديك ، مما يؤكد ما سبق أن أشرنا إليه من دور الإرساليات التبشيرية في هذه المرحلة ، وقد تبنت جمعية بيروت السرية حركة قومية عربية في نطاق ضيق هو سوريا ولبنان فقط ، متأثرة في ذلك بكتابات بطرس البستاني التي كانت تسعي إلي إيجاد صيغة من التعايش بين مسلمي ومسيحي الشام في إطار دولة عربية مستقلة عن حكم الترك ولها طابع علماني)[٣٢١] ، وهكذا توالت الجمعيات وإليك بعد الأمثلة علي هذه الجمعيات ليس علي سبيل الحصر (تشكلت في باريس جامعة الوطن العربي ١٩٠٤ من خلال تجمع المنفيين العرب تحت زعامة نجيب عازوري)[٣٢٢] ، (الجمعية القحطانية سنة ١٩٠٩) ، (جمعية العربية الفتاة سنة ١٩١١) ، (جمعية اللامركزية سنة ١٩١٢) (جمعية العهد سنة ١٩١٤) وكان لكل جمعية منهم أهدافها فمنها ما كان يطالب بالحكم الذاتي للعرب في ظل الدولة العثمانية ومنها من كان يطالب باستقلال العرب في إطار ضوابط محددة ولكنها جميعاً كانت تنادي بالقومية العربية .

١١٤. بريطانيا تبحث عن رمز إسلامي بديل للخليفة لتحقيق أهدافها

- فماذا كان موقف بريطانيا من الدعوة للجهاد التي أطلقها الخليفة العثماني ؟
- عندما دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولي وأعلنت الجهاد في سبيل الله لجميع المسلمين في العالم (وجدت إنجلترا أن في الأمر خطورة قد تهددها بدخول حرب واسعة ضد المسلمين في جميع أرجاء المعمورة ، خاصة وأن هناك نحو خمسين مليون مسلم تحت حكم إنجلترا في الهند فقط ، أضف إلي ذلك مسلمي مصر والسودان والخليج العربي وغيرها من البلدان التي تحت سيطرتها ، ولذلك أخذ الإنجليز الأمر علي محمل الجد ، وبعد بحث وتدقيق وجد الإنجليز أنه من الممكن إبطال مفعول تلك

---

[٣١٩] (يقول المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي " إن السلطان عبد الحميد ، كان يهدف من سياسته الإسلامية ، تجميع مسلمي العالم تحت راية واحدة ، وهذا لا يعني إلا هجمة مضادة ، يقوم بها المسلمون ضد هجمة العالم الغربي التي استهدفت عالم المسلمين) الدولة العثمانية – د علي الصلابي صفحة ٤٩١

[٣٢٠] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ٦٤– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[٣٢١] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ٧٨– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[٣٢٢] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ٩١– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

الفتوى المتضمنة إعلان الجهاد من سلطان ومفتي تركيا عن طريق الحصول علي فتوى معارضة من شخصية إسلامية يكن لها العالم الإسلامي كل الاحترام والتقدير ، وقد وجد الإنجليز ضالتهم في شريف مكة الحسين بن علي ، كما وجدوا أن تشجيع العرب علي الثورة ضد الأتراك سوف يؤدي إلي نفس النتائج)[٣٢٣]

- وأين كان الشريف حسين من قبل ؟
- كانت هناك شخصيات معينة في الدولة العثمانية تقلق الخليفة ويشعر بأنهم لا يدينون للدولة العثمانية بأي ولاء ولذلك كان يجعلهم يقيمون بجواره في عاصمة الدولة ولا يسمح لهم بمغادرتها حتي يأمنهم ومن هؤلاء شريف مكة الحسين بن علي (وقد عبر السلطان عبد الحميد عن رأيه في الشريف حسين أثناء حديثه مع الصدر الأعظم فريد باشا ، قال السلطان :" إن الشريف حسين لا يحبنا ، إنه الآن هادئ وساكن ، ولكن الله وحده يعلم ماذا يمكن أن يفعله الشريف غداً " – – لذلك تأخر قيام الثورة العربية بقيادة الشريف حسين إلي ما بعد خلع الاتحاديين للسلطان عبد الحميد ، فلما حكم حزب الاتحاد والترقي الماسوني ، أعاد الشريف حسين إلي مكة ، واستطاع بعد ذلك أن يتحالف مع الإنجليز) [٣٢٤]

١١٥. الاتصالات بين الإنجليز والشريف حسين

- وكيف تواصل الإنجليز مع الشريف حسين ؟
- قام وزير الحربية البريطاني كتشنر بإرسال عرض للشريف حسين للتعاون معاً كحلف ضد الدولة العثمانية (--- وقد وصله عرض كتشنر في ٣١ أكتوبر ١٩١٤ عن طريق المندوب السامي البريطاني في مصر آرثر هنري مكماهون ، الذي حثه علي الخروج عن سلطة الأتراك ، وعلي الإبقاء علي سلامة الحج للرعايا المسلمين التابعين للحلفاء وذلك بتقديم المعونة له ، وبضمانة استقلاله وسيادته في المستقبل)[٣٢٥] وعندما طلبت منه الدولة العثمانية تحديد موقفه من إعلان الجهاد استطاع الشريف حسين المماطلة حتي يعيد ترتيب أوضاعه ويستعد للثورة (ولما أحس القوميون العرب بمماطلة الحسين للأتراك وتيقنوا عدم نيته دخول الحرب إلي جانبهم ، سارعت جمعية العربية الفتاة بدعوته للتنسيق معها من أجل القيام بثورة عربية مستغلين انشغال تركيا في الحرب ، وقد وصلته الرسالة بالفعل في الأسبوع الأخير من يناير ١٩١٥ ---- والحقيقة أن الرسالة قد لفتت نظر

---

[٣٢٣] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٢٣– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[٣٢٤] الدولة العثمانية – د علي الصلابي صفحة ٥٠٩

[٣٢٥] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٢٧– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

الحسين إلي محور مهم يعطي موقفه ثقلاً كبيراً عند التفاوض مع مكماهون ولذلك قرر الاتصال بالقوميين العرب في الشام والعراق قبل أن يرد علي رسالة مكماهون)٣٢٦

- فكيف تواصل الشريف حسين مع القوميين العرب ؟
- قام الأمير فيصل بن الحسين بالتنسيق مع القوميين العرب حيث قاموا بإعداد مخطط باسم بروتوكول دمشق وتم فيه توضيح حدود الدولة العربية التي يجب أن تعترف بها إنجلترا خلال المفاوضات (وفي ١٤ يوليو ١٩١٥ أرسل الشريف حسين رسالته الأول إلي مكماهون – – والتي جاء فيها المطالبة باعتراف بريطانيا بدولة عربية بالحدود المذكورة في بروتوكول دمشق ، والموافقة علي إعلان خليفة عربي للمسلمين ، مقابل أن تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية بريطانيا في كل المشروعات الاقتصادية في البلاد العربية) وكانت في هذه الفترة انجلترا وفرنسا لم تصل إلي اتفاق نهائي بعد حول تقسيم الدول العربية بينهما (وبذلك وجد مكماهون أنه لا يستطيع تقديم وعود للحسين قبل أن تتضح الصورة في المفاوضات التي كانت لا تزال مستمرة بين انجلترا وفرنسا)٣٢٧ وبالتالي قام مكماهون برد غير حاسم وبوعود تشجيعية ولكنها غير محددة ، وقد أصر الحسين في رسالة بتاريخ ٩ سبتمبر ١٩١٥ إلي مكماهون علي أن مسألة الحدود لا تحتمل المراوغة مما اضطر مكماهون إلي أن يكذب عليه ويعده في ١٥ أكتوبر ١٩١٥ بالاعتراف باستقلال العرب طبقا للحدود الواردة في رسالة الحسين مع بعض التعديلات البسيطة وبعض قليل من المفاوضات بخصوص حدود الدولة العربية التي كان يحلم بها الحسين تمت الموافقة بين الطرفين (وعلي هذا الأساس دخل العرب الحرب العالمية الأولي ، عندما أعلن الشريف الحسين بن علي الثورة في ١٠ يونيو ١٩١٦)٣٢٨

- إذن فقد نجحت بريطانيا في الإيقاع بين العرب والدولة العثمانية
- وكانت إنجلترا وفرنسا قد وقعتا اتفاقية سايكس–بيكو ٣٢٩ التي قسمت فيها الدولة العثمانية فيما بينها
- بدون علم الشريف حسين
- وهكذا أوقع الإنجليز بين العرب والترك الذين كانا يمثلان معاً الدولة الإسلامية الكبري في ذلك الوقت ، ويمكننا الآن إعادة تأمل ما قاله الشيخ محمد عبده : (حتي إذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول أوروبا الواقفة لهما بالمرصاد ، فاستولوا علي الفريقين ، أو علي أضعفهما)

١١٦. الثورة العربية ضد الدولة العثمانية

- وما الذي قام به العرب بعد ذلك ؟

---

[٣٢٦] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٢٩– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[٣٢٧] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٣٣– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[٣٢٨] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٣٦– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

[٣٢٩] نسبة إلي أسماء المفاوضين : الإنجليزي مارك سايكس والفرنسي جورج بيكو

- (هاجمت القوات العربية ثكنات الجيش التركي في كل مدن الحجاز وفي أقل من ثلاثة أشهر نجح الجيش العربي في الاستيلاء علي مدن الحجاز جميعها ، ما عدا المدينة المنورة التي استماتت الحامية التركية في الدفاع عنها ---- وبعد أن تمت السيطرة علي معظم المدن الرئيسية في الحجاز تدعم الجيش العربي نتيجة لفرار كثير من الضباط العرب من الجيش العثماني وانضمامهم إلي الجيش العربي ، ونجحوا في إعادة تنظيمه علي أسس الجيوش النظامية ، كما أمدتهم إنجلترا بالأسلحة والمعدات ، وفي يناير ١٩١٧ بدأت القوات العربية تتقدم شمالاً نحو الشام ---- وبعد أن تأكدت إنجلترا من اشتراك العرب في الثورة ومن تورط الشريف حسين في الحرب ضد الأتراك بحيث انقطع عليه خط الرجعة ، سارعت بتوجيه الطعنة الثانية – بعد سايكس بيكو – إلي العرب فأصدرت في ٢ نوفمبر ١٩١٧ تصريح بالفور الذي ينص علي إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين)[٣٣٠] والجدير بالذكر أن بريطانيا قامت بإرسال ضابط مخابرات لتنسيق تحركات العرب الحربية لتخدم معارك الجيش الإنجليزي وكان يرتدي زي العرب وأطلقوا عليه لورانس العرب
- يا لها من أحداث مؤثرة بالفعل
- واستمرت الحرب وكان القائد العثماني في الشام يُدعي جمال باشا وقد حاول جمال باشا أن يوضح للعرب الخدعة التي قام بها الإنجليز ضدهم ولكن دون جدوى (حيث وجد نفسه معرضاً لخطر مواجهة جيشين في وقت واحد : الجيش العربي يقوده فيصل بن الحسين ويتقدم من شرق الأردن نحو دمشق ، والجيش البريطاني يقوده الجنرال اللنبي ويتقدم من القدس –بعد أن نجح في احتلالها – فأرسل جمال باشا إلي فيصل برسالة في ١٢ ديسمبر ١٩١٧ تحتوي علي نص اتفاقية سايكس بيكو التي نشرت في الصحف الروسية ، ويوضح له أن التعاون مع الحلفاء لن يؤدي إلي استقلال العرب كما يعرض عليه عقد الصلح بين العرب والأتراك ، لمواجهة أطماع الحلفاء التي أصبحت مكشوفة للعيان ويطلب من فيصل الحضور إلي دمشق للتفاوض علي أساس منح الولايات العربية حكماً ذاتياً كاملاً تتحقق به جميع أمانيهم القومية)[٣٣١]
- وبالتأكيد كانت هذه الرسالة صدمة لفيصل
- بالطبع ، فقام بإرسالها إلي والده الحسين فقام الحسين بإرسال هذه الرسائل إلي المندوب السامي البريطاني في مصر في ذلك الوقت ريجنالد وينجت يطلب منه تفسير لها ،
- يطلب تفسير من الإنجليز ، ما هذا التصرف العجيب ؟
- وقد شكره وينجت علي أنه أطلعه علي هذه الرسائل وأكد له أنها كانت مجرد محادثات مؤقتة لم تتم وأن جمال باشا قام بتعديلها فلا تجعله يخدعك

---

[٣٣٠] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٤٣

[٣٣١] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٤٤

- **لا تجعله يخدعك فهذه مهمتنا نحن فقط**
- **(وتقبل الملك حسين الرسالة والمذكرة علي ظاهرهما وقعد مستريح البال لأن إيمانه بالمعاملة النظيفة في مقاييس الخلق الإنجليزي لم يكن قد تزعزع بعد)[٣٣٢] وكما حدث مع سايكس بيكو حدث بعد ذلك عندما علم الحسين بوعد بالفور لليهود وقام أيضاً بالاستعلام عن حقيقة الأمر من الحكومة البريطانية (وقد أرسلت الحكومة البريطانية القائد هوجارث ليقابل الملك حسين في جدة ويشرح له الهدف من التصريح ، وقابله بالفعل مرتين في يناير ١٩١٨ ، وأكد له باسم الحكومة البريطانية أن الاستيطان اليهودي في فلسطين لن يكون مسموحاً به إلا بقدر ما يتفق ذلك مع حرية السكان العرب من الناحيتين الاقتصادية والسياسية ، وعلي هذا الأساس وافق الحسين علي أن يهيئ لليهود في فلسطين ملجأ آمناً من الاضطهاد ، ولكنه أكد علي أن مسألة التنازل عن مطالب السيادة للعرب لن تكون موضع بحث أبداً)[٣٣٣]**
- **إلي هذا الحد تلاعب الإنجليز بالعرب ؟**
- **وبالمصريين أيضاً فقد تم احتلال القدس بواسطة ما يسمي بالتجريدة المصرية بقيادة اللورد اللنبي**
- **لابد أن نعود إن شاء الله لهذا الموضوع وما حدث في مصر أثناء ذلك ولكن بعد أن ننتهي من الحديث عن المواجهات التي حدثت بين العرب والدولة العثمانية**
- **علي أي حال (لم تشهد البلدان العربية الأفريقية تغييراً كبيراً عما كان عليه الحال قبل الحرب ، فقد احتفظت فرنسا بتونس والجزائر ومراكش واحتفظت أسبانيا بالريف ، أما إيطاليا فاحتفظت بالساحل الليبي ، في حين ظلت داخلية ليبيا تحت حكم السنوسيين ، ومصر والسودان تحت الاحتلال البريطاني المباشر ، ولم يكن للحركة العربية صدي كبير في تلك البلدان ، فقد كانت ميول معظم العرب الأفارقة مع الدولة العثمانية ، حيث كان هدفهم التخلص من الاستعمار الأوروبي عن طريق التمسك بفكرة الجامعة الإسلامية ، كما سعي السنوسيون إلي التحالف مع الأتراك وهاجموا مصر من ناحية الغرب وشغلوا جزءاً كبيراً من جهد وتركيز القوات البريطانية في مصر حينما كان الأتراك يهاجمون قناة السويس ، وفي مصر نفسها ، كانت قلوب المصريين مع الأتراك ، بينما كانت أجسادهم مع الإنجليز ، فقد نجح الإنجليز في حشد فيالق العمال والجنود المصريين للمشاركة بجهودهم في ميادين القتال المختلفة خاصة في حملة الدردنيل ، وحملة اللنبي علي الشام ، وفي بداية الحرب نجح الإنجليز في تنمية العامل الوطني المصري ، ليلعب دوراً مضاداً للحركتين الإسلامية والعربية ، فأزاحوا الخديو عباس حلمي عن أريكة الخديوية لميوله العثمانية وأعلنوا مصر محمية بريطانية ، ونصبوا عليها حسين كامل سلطاناً ، وتتالت وعودهم للمصريين – كما كان الحال للعرب – بحصولهم علي حق تقرير**

---

[٣٣٢] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٤٦

[٣٣٣] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٤٧

المصير بعد الحرب – وبعد الحرب ونتيجة لهزيمة الدولة العثمانية ، ثم اختفائها من الوجود بعد قليل ، توارت فكرة التحالف مع الدولة العثمانية ، وظهر التيار الوطني يطالب باستقلال مصر ، لا عودتها إلي تركيا ، ولا اندماجها في وحدة مع البلاد العربية الأسيوية التي كانت الحركة العربية فيها في ذروة نشاطها ، – – – ولكن تيار الوطنية المصرية كان هو الآخر في ذروة نشاطه متمثلاً في ثورة ١٩١٩)٣٣٤

- فماذا حدث بعد ذلك ؟
- لن أشغل بالك بتفاصيل ما تم لوعود الإنجليز للعرب بعد انتهاء الحرب فقد حصلوا علي لا شئ باختصار شديد وحتي لا أجرح مشاعرك بأحداث مثيرة للأعصاب وخصوصا تفاصيل طرد فيصل بن الحسين من دمشق بشكل مهين بواسطة القوات الفرنسية ، وبشكل عام أصبحت سوريا ولبنان من نصيب فرنسا وفلسطين والعراق من نصيب إنجلترا (وفي فبراير ١٩٢١ ظهر في شرق الأردن فجأة الأمير عبد الله بن الحسين الذي أخذ يحشد قواته في عمان ويجمع القبائل التي حولها لمهاجمة دمشق والانتقام لطرد أخيه فيصل ، وقد اتصلت به الحكومة البريطانية وشجعته علي البقاء في عمان والاعتراف به حاكماً علي شرق الأردن علي أن تقدم له مساعدات مادية ويخضع للرقابة والمشورة البريطانية من خلال مندوب بريطاني يقيم في عمان وتم الاتفاق علي ذلك فعلاً في لقاء عقد في القدس بين الأمير عبد الله ووزير الخارجية البريطاني في ذلك الوقت ونستون تشرشل)٣٣٥
- لقد استطاع الأمير عبد الله الحصول علي عرش الأردن عندما أظهر لهم بعض القوة ، وقد أصبح ملكاً تحت رقابة بريطانيا ولكن أفضل من لاشئ

١١٧. تقسيم الدولة العثمانية[٣٣٦]

- الدولة الإسلامية أصبحت مستعمرات أوروبية وأصبح بينها لأول مرة حدود مرسومة بالمسطرة علي خرائط سايكس بيكو للأسف إلي الآن
- الأسوأ من ذلك هو أن الغرب قد عمل علي ما يضمن عدم توحيدها مرة أخري تحت أي مسمي فقد (فرض الاستعمار علي العالم العربي نوعا من التجزئة الأرضية لا تقبل الوحدة ، وعمل علي إقامة الحواجز بين العرب ومنع الاتصال وتبادل الأفكار ، فقامت فرنسا بفصل لبنان عن سوريا وضم جبل لبنان إليه ليصبح لبنان الكبير بحدوده الحالية ، ثم عمدت إلي سوريا فقسمتها إلي أربعة دويلات : دمشق وحلب والدروز والعلويين وقامت بريطانيا بفصل شرق الأردن عن فلسطين ، وسعت لخلق دولة صهيونية في فلسطين ، وكان من أهم أهداف التجزئة فصل المناطق الداخلية من العالم العربي عن

---

[٣٣٤] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٥٢

[٣٣٥] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٧٢

[٣٣٦] الدولة الإسلامية كانت قبل الاستعمار رقعة واحدة بلا حدود علي الإطلاق ولا قوميات ولا جنسيات

سواحلها ، ثم الاستيلاء علي النقاط الإستراتيجية المهمة في تلك السواحل ، فقامت إنجلترا بفصل عدن وحضرموت والمحميات عن قلب الجزيرة العربية ، كما حرمت الجزيرة من ساحلها الشرقي بتمسكهم بحماية إمارات الخليج مثل الكويت والبحرين وقطر وعمان وكذلك حرموا شرق الأردن من ساحلها علي البحر المتوسط بفصلها عن فلسطين ، كما حرمت سوريا من جزء كبير من ساحلها بفصل لبنان ، كما تم فصل إقليم الريف ومنحه لأسبانيا ليصبح معزولاً عن بقية المغرب وحتي ساحل الصومال كانت تتقاسمه ثلاث دول أوروبية هي : إنجلترا وفرنسا وإيطاليا ، وعندما عجز الاستعمار عن إيجاد حدود طبيعية لتمزيق أوصال الوطن العربي لجأ إلي الحدود المصطنعة أو الفلكية التي لا وجود لها علي الطبيعة ، فالحد الفاصل بين مصر وليبيا هو مجرد خط مرسوم علي الخريطة يتماشي مع خط طول ٢٥ شرقاً وكذلك خط الحدود بين مصر والسودان يتماشي مع دائرة عرض ٢٢ شمالاً)٣٣٧

- الأرض المجزئة يمكن أن تعود مرة أخري بطريقة أو بأخرى ولذلك لجأ الاستعمار إلي طريقة أكثر خبثاً ومكراً لتمزيق الدولة الإسلامية العربية وذلك بإدخال العامل البشري في الموضوع بحيث يجعل علي كل منطقة منهم ملك له عرش وبالتالي عندما يقترح أي شخص أن تتم الوحدة فسيتساءل الجميع من من الملوك سوف يكون ملكا علي الجميع ؟
- بالفعل إنها خطة خبيثة ومحكمة وعن هذا الموضوع يقول الدكتور عماد أحمد هلال مدرس التاريخ الحديث والمعاصر بكلية التربية جامعة قناة السويس في كتابه الممتع "الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ " والذي قام بفضح جميع المخططات الاستعمارية ضد العرب : (لم يكتف الاستعمار بتجزئة العالم العربي إلي دويلات منفصلة ، وإنما عمل علي خلق أسر حاكمة لتلك الدويلات ، وإلهائها بعروش وهمية ، وتشجيع روح التنافس والعداء بين تلك الأسر ، فمن ذلك أن إنجلترا – – – عملت علي خداع الشعب العراقي باستدعاء فيصل بن الحسين الذي كان قد طرد من سوريا وجعلته ملكا علي العراق تحت وصايتها ، فكان مجرد ألعوبة في أيدي البريطانيين ، كما جعلت من أخيه عبد الله ملكا علي شرق الأردن ، وعملت علي استحكام العداء بين الهاشميين " أبناء الشريف حسين" وبين السعوديين ، وشجعت عبد العزيز بن سعود علي الهجوم علي الحجاز وطرد الملك حسين منها – – – وفي هذا الإطار اشتعلت روح التنافس بين الأسرة السعودية والأسرة العلوية في مصر ، وهي منافسات قديمة ترجع إلي عصر محمد علي الذي قضي علي الدولة السعودية الأولي ، ولكنها تجددت بفعل رفض السعوديين العادات المصرية في الحج والتي كانت تتمثل في المحمل والصرة وما كان يأتي معهما من موسيقي واحتفالات ، وقد أدي ذلك إلي قطع العلاقات السياسية بين مصر والسعودية)٣٣٨

---

٣٣٧ (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٧٣– ١٧٤

٣٣٨ (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٧٤–١٧٥

- **وهكذا استطاع الاستعمار أو ما يمكن أن نسميه الاستخراب تقطيع أوصال الأمة بعد أن كانت قطعة واحدة بحاكم واحد فأصبحت قطع كثيرة بحكام متنافرين**
- **ومما فعله الغرب أيضاً إثارة النعرات الطائفية :(لم يترك الاستعمار تلك الوحدات المجزأة لتعيش في سلام ، بل عمل علي خلق المشكلات لها ، من خلال إثارة النعرات الطائفية واستثارة الأقليات الموجودة في داخل الوطن العربي ، ففي العراق لعب البريطانيون دوراً كبيراً في إثارة المشكلة الكردية وتجسيدها لتظل شوكة في جانب الوحدة القومية لسكان العراق ، والأكراد - - - ولقد ظل سلاح الأقليات من أقوي الأسلحة التي كانت بريطانيا تشهرها في وجه الوطنية العراقية ، فهناك إلي جانب الأكراد أقليات أخري كثيرة كانت بريطانيا تدعمها مثل الإيرانيين والأتراك والأشوريين والتركمان واليهود وغيرهم - - - وإذا كان الإنجليز قد نجحوا في إعاقة الحركة الوطنية العراقية - - بورقة الأقليات ، فإنهم قد فشلوا في اللعب بتلك الورقة في مصر ، حيث باءت محاولتهم الإيقاع بين المسلمين والمسيحيين بالفشل الذريع - - وقد اتخذ المصريون من الهلال والصليب شعاراً لثورتهم في عام ١٩١٩ - - وفي السودان سعي الإنجليز إلي عزل الجنوب ، وأغلقوا حدوده ومنعوا التجار الشماليين من السفر إلي الجنوب أو تجار الجنوب من السفر إلي الشمال إلا بتصريح خاص ، وأحاطوا المنطقة بسياج من العزلة لمنع توغل التأثيرات الإسلامية والعربية إلي الجنوب ، ثم تركوها مجالاً مفتوحاً للإرساليات التبشيرية الأوروبية ، فكانت النتيجة أن خلقت بريطانيا للسودان مشكلة عاني منها كثيراً ولا يزال يعاني)[٣٣٩] وتحولت السودان إلي دولتين حالياً منفصلتين تماماً ، وأصبح الجنوب دولة مسيحية خالصة**
- **وماذا حدث للقومية العربية بعد ذلك ؟**
- **قام الغرب بتنمية الروح القومية عند العرب وأثاروا النعرة العربية والقومية العربية إلي أن قامت بتحقيق أهدافها والمساعدة الضخمة في القضاء علي آخر دولة إسلامية في تاريخ الإسلام وهي الدولة العثمانية ، وبهذا انتهي دور القومية العربية وحان الوقت للقضاء علي الهوية الثقافية العربية (عملت القوي الاستعمارية المختلفة علي القضاء علي الهوية الثقافية العربية وطمسها ، لمحو واحد من أهم أسس القومية العربية عن طريق التهجم علي التراث الثقافي العربي ، وقطع الصلة بين العرب وماضيهم والتقليل من إضافات العرب إلي التراث الإنساني ، فحاولوا رد الحضارة العربية " الإسلامية" إلي أصول يونانية وفارسية وهندية ، وأخذت الدوائر التعليمية المتأثرة بالاستعمار تروج لهذه الفكرة ، وتابع الاستعمار هجومه علي الأدب العربي - - وانقض المستعمرون علي اللغة العربية كأداة اتصال وتفاهم بين العرب ووعاء لفظ تراثهم الثقافي ، فنادي دعاة الاستعمار باستخدام الحروف اللاتينية في الكتابة العربية مثلما حدث في تركيا ، كما ارتفعت أصوات تطالب بنبذ العربية الفصحى وجعل اللهجة العامية لغة التعليم والصحافة ، محاولين بذلك قطع الصلة بين العرب وتراثهم ، وفي نفس الوقت حاربوا**

[٣٣٩] مقتطفات من صفحتي ١٧٦ ، ١٧٧ من كتاب (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال

التعليم وحددوا مناهجه ، وقصروه علي فئة قليلة ، كما سيطروا علي وسائل الثقافة العامة كالصحافة والطباعة والإذاعة ، وظهرت دعوات لإحياء ثقافات ماتت وانقرضت ، فبث المستعمر الدعوة إلي الفرعونية في مصر والفينيقية في الشام والآشورية في العراق)[٣٤٠]

- وبعد كل هذا يزعم البعض أنه لا وجود لنظرية المؤامرة علي العالم الإسلامي ،
- أما بالنسبة للغة وأهميتها في توحيد أي أمة فيقول الدكتور عماد هلال (اللغة هي الروح بالنسبة للأمة ، فهي وسيلتها للحفاظ علي تراثها ، وأداة التواصل بين الأجيال ، كما تدعم الديمقراطية في المجتمع بفضل وحدة أداة التعبير ولذلك كان المستعمر يسعي دائماً لمحاربة اللغة وفرض لغته علي الأمم التي يفرض سيطرته عليها ، فقد عمل الإنجليز ذلك في الهند ، والهولنديون في اندونيسيا ، والفرنسيون في الجزائر والإيطاليون في ليبيا ، وهكذا كل دولة استعمارية كان أول همها الهجوم علي القلعة الأولي في كيان أي قومية من القوميات الخاضعة لنفوذها ، وهي اللغة ، بهدف إضعاف الوحدة الفكرية بين أبناء القومية الواحدة وربطهم فكريا وثقافيا بالمستعمر)[٣٤١]
- فماذا كانت علاقة مصر بالقومية العربية في ذلك الوقت؟
- يقول الدكتور عماد هلال : (لا توجد أية شواهد تؤكد أن مصر كان لها دور إيجابي ملموس في الحركة القومية العربية في مراحلها الأولي ، فلم تظهر جمعيات مصرية سرية أو علنية ذات طابع قومي عربي – – واقتصر دور مصر علي استضافة الزعماء العرب المنفيين والهاربين من بطش الأتراك ، ولم تكن مصر تفعل ذلك بدافع من العروبة أو القومية العربية ، وإنما كانت تفعل ذلك بتوجيه من سلطات الاحتلال البريطاني الذي كان يحتضن الجمعيات العربية بهدف ضرب تركيا ، وقد أدي ذلك إلي معارضة كثير من المصريين للحركة القومية العربية التي كانت تنادي بالانفصال عن تركيا ، خاصة وأن مصر كانت تعقد حبال الأمل علي الدولة العثمانية لتخلصها من نير الاحتلال البريطاني ، وفي هذا الطريق سار مصطفي كامل ومن بعده محمد فريد ، وبالتالي كان صدي نداء الجهاد الذي أعلنه السلطان العثماني أكثر تأثيراً في المصريين من نداء الثورة العربية التي أعلنها الشريف حسين ، كما نظر المصريون إلي الزعماء العرب اللاجئين إلي مصر نظرة ريب وتشكيك ، باعتبارهم متمردين علي دولة الخلافة وعملاء للاستعمار ، ويعيشون في حمايته ، خاصة وأن بعض هؤلاء الزعماء اضطروا إلي منافقة سلطات الاحتلال البريطاني التي تأويهم وتوفر لهم مجال العمل بحرية ضد الأتراك ، وخير مثال علي ذلك جمعية بيروت السرية الذين هربوا إلي مصر وأسسوا فيها جريدة المقطم التي كانت لسان حال الاحتلال البريطاني في مصر لسنوات عديدة ، ولكن هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولي ، ومن ثم انتهت نظرة المصريين لها كمخلص من الاحتلال البريطاني ، ثم نجاح الثورة

---

[٣٤٠] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٧٨-١٧٩

[٣٤١] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ٢٤– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

المصرية في سنة ١٩١٩ في تحقيق ذلك الهدف بجهود أبناء مصر ، عندما اضطرت إنجلترا إلي إصدار تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، الذي منحت مصر بمقتضاه استقلالاً مشروطاً ، ومن ثم تولي دفة الحكم وزارات مصرية منتخبة ، ثم تدعيم ذلك الاستقلال باعتراف انجلترا باستقلال مصر وتوقيع معاهدة صداقة وتحالف معها في عام ١٩٣٦)[٣٤٢]

١١٨. كيف قام الإنجليز بالسيطرة علي الجيش المصري واستخدامه في الحرب العالمية الأولي لصالحهم؟

- أعتذر للمقاطعة ولكن هناك سؤال يحيرني ولا أستطيع أن أتفهمه وأرجو أن تحاول الإجابة عليه ، مما لديك من كتب ومراجع ، وهو كيف سيطر الإنجليز بعد احتلال مصر علي الجيش المصري لهذا الحد الذي لاحظته خلال حديثك عن الحرب العالمية الأولي لدرجة قيامه بأعمال قتالية ناجحة ضد الدولة العثمانية ؟ ألم يكن يقاتلهم مع عرابي ؟
- أنا أفهم سر حيرتك تماماً ، فلقد عرفنا كيف تشكلت الطبقة المثقفة في مصر علي الطريقة الأوروبية وطبقاً لأفكارها حتي أنها فقدت هويتها الإسلامية واهتزت ثوابتها ، أما الجيش نفسه فلم يكن معرضاً لما تعرضت له هذه النخبة المثقفة فكيف تم استخدام هذا الجيش ضد دولة الخلافة ؟ أليس هذا تحديداً ما تقصده من سؤالك ؟
- بالضبط ، لقد قمت بإعادة السؤال بشكل دقيق وواضح
- حسناً ، سوف أتلو عليك بعض ما جاء عن هذا الموضوع بالمرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر الجزء الأول تقديم ومراجعة د يونان لبيب رزق صفحة ٣٧٥ حيث ورد تحت عنوان سياسة الاحتلال الداخلية ما يلي : (في أعقاب سيطرة القوات البريطانية علي البلاد أرسلت حكومة لندن اللورد دفرن DUFFRIN السفير البريطاني في استانبول إلي مصر في نوفمبر من نفس السنة لدراسة أحوالها وتقديم الاقتراحات اللازمة لإدارة الشئون المصرية في المستقبل ،
- الدراسة قبل اتخاذ القرار
- وأغلب ما تقدم به اللورد دفرن من مقترحات هو الذي تحول بعد ذلك إلي ما عُرِف بالقانون الأساسي الصادر في أول مايو عام ١٨٨٣ والذي نظم الإدارة المصرية خلال سنوات طويلة في أعقاب الاحتلال ، ، ولا شك أن أول مهمة رأي دفرن وجوب علاجها هي مهمة إعادة الاستقرار والأمن إلي البلاد وهي المهمة الأساسية التي تواجه أية سلطة تتولي شئون بلد خرج مؤخراً من أحداث ثورة عارمة ومن هذا الفهم جاءت أولي توصيات اللورد بإعادة تكوين الجيش المصري بعد أن تم تسريح الجيش القديم الذي قام بالدور الأساسي في الثورة العرابية وذلك بمقتضي مرسوم خديوي

[٣٤٢] (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ١٨٦-١٨٧– الطبعة الثانية ٢٠٠٦

- تم تسريح جيش عرابي ، لقد فهمت الآن ، فما حاجتهم لجيش مصري جديد ؟
- وبالطبع روعي في تكوين الجيش الجديد توافر مقتضيات الأمن بالنسبة لمنشئيه ومن ثم اتخذ اتخذ أكثر من قرار في هذا الشأن ، أول هذه القرارت وأهمها أن تتركز قيادة هذا الجيش في أيدي ضباط من البريطانيين ، وقد عني بذلك أن هذه القيادات إنما تكون في النهاية حاجزاً يمنع الرابطة العضوية التي يجب أن تتوفر في العلاقة بين أي شعب وجيشه ، كما أنها في نفس الوقت تمنع تنفيذ أي قرارات قد تصدر من السلطة المصرية العليا –وإن كان هذا الاحتمال يكاد يكون معدوماً في ظل الوجود الاحتلالي في البلاد– إنما من الوجهة النظرية علي الأقل فإن وجود هذه القيادات يمنع تنفيذ أي قرارات قد تتنافي مع سياسة الاحتلال العامة ، ، ملاحظة أخري تتعلق بتركيب الجيش المصري الجديد ، فالوظائف الصغيرة التي يشغلها ضباط جيش مصريون اشترط لشغلهم إياها أن يكونوا متخرجين في مدرسة الدولة ، وإذا قارنا هذا أيضاً بما كان قائماً بالفعل قبل الاحتلال من ترقية الجنود إلي رتب الضباط ، فيما كان معروفاً بالترقية من تحت السلاح ، لخرجنا بنتيجة مهمة وهي أن الضباط المصريين في جيش ما قبل الاحتلال قد أتوا من الطبقات الفقيرة وفي كثير من الأحوال من أبناء الفلاحين الذين دخلوا سلك الجندية أما الضباط المصريون في الجيش الجديد فقد كانت لهم من البداية انتماءات طبقية واضحة وخصصواً وأنه قد فرضت مصروفات عالية علي طلبة المدرسة الحربية التي لم يكن الالتحاق بها إلا لمن يقدرون علي أداء مثل هذه المصروفات ، ، ترتب علي ذلك أن نبعت القيادات المصرية في هذا الجيش أساساً من أبناء الأعيان المصريين ويتضح ذلك من أنه حتي قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ كانت تتم تحريات واسعة عن كل من يرغب في الالتحاق بالكليات العسكرية وكان الهدف من وراء ذلك التثبت من المكانة الطبقية لكل من هؤلاء المتقدمين والتي كان يقبل الطالب أو لا يقبل بناء علي نتائج هذه التحريات ،، فضلا عما سعت إليه سلطات الاحتلال من تناقض التركيب الطبقي داخل الجيش المصري الجديد وما يترتب علي ذلك من استحالة التحام الضباط بجنودهم فقد راعت هذه السلطات أيضاً – – ذلك أنه في الوقت الذي تشكلت فيه فرق بأكملها من المصريين تشكلت فرق بأكملها من السودانيين)[٣٤٣]
- كل هذا واضح ومفهوم ولكن ما لا أستطيع استيعابه هو أن يخرج جيش من مصر لاحتلال القدس التي كانت مصر علي مر التاريخ المدافع الأول عنها ضد الصليبيين وخاصة أيام الأيوبيين والمماليك
- بالفعل إنها مأساة بالفعل أن يشترك المصريون في حملة مع الإنجليز لاحتلال فلسطين وقد سميت هذه الحملة التجريدة المصرية وكانت بقيادة اللورد اللنبي

١١٩. التجريدة المصرية في فلسطين

- فما معلوماتك عن اللورد اللنبي وعن هذه التجريدة ؟

[٣٤٣] نقلاً عن المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر الجزء الأول تقديم ومراجعة د يونان لبيب رزق صفحة ٣٧٥

- أعتقد أن أفضل ما يمكن أن أقوله لك عن هذا الموضوع هو ما قاله الفلسطينون أنفسهم عنه فقد ورد في أحد المواقع الالكترونية الفلسطينية ما يلي : - - - اللنبي هو ذلك الجنرال الانجليزى الذى قاد قوات الجيش المصري لحرب العثمانيين فى فلسطين وقام بهزيمتهم فى الحرب العالمية الاولى وقام باحتلال فلسطين.في معركة غزة واسمه بالكامل هو ادموند هنري هاينمان إلنبي (٢٣ ابريل ١٨٦١ – ١٤ مايو ١٩٣٦) وقد أرسلته بريطانيا ليكون القائد الأعلى لقوة التجريدة المصرية في ٢٧ يونيو ١٩١٧، ليحل محل السير أرشيبولد ماري. و بعد اعادة هيكلة قواته النظامية استطاع اللنبي أن يهزم القوات التركية في معركة غزة الثالثة (٣١ أكتوبر – ٧ نوفمبر ١٩١٧) و ذلك بمفاجأة المدافعين عنها بهجمة على بير سبع ، و حالت إرادة الله ثم شجاعة الخطوط الخلفية للجيش العثماني دون تدمير كامل الجيش المدافع .في التاسع من ديسمبر سنة ١٩١٧ دخلت الجيوش الإنجليزية مدينة بيت المقدس بعد انسحاب العثمانيون منها .. و لم يستطع الجنرال اللنبي الذي كان على رأس الجيش الإنجليزي أن يخفي مشاعره فقال قولته الشهيرة التي تنم عن التعصب و الغرور و الجهل: اليوم انتهت الحروب الصليبية .
- الجملة واضحة جداً ولا تحتاج إلي شرح أو تعليق
- وهكذا انتصرت التجريدة ((التي للأسف تسمي مصرية)) بقيادة اللنبي على العثمانيين في معركة مجدو[٣٤٤] في سبتمبر ١٩١٨. و كان الانتصار قاصماً للعثمانيين وحاسماً للجبهة الجنوبية في الحرب العالمية الأولى. وكان هذا الإنتصار هو القوة العسكرية التي مكنت إنجلترا من إهداء الأراضي الفلسطينية لليهود بما يسمى "وعد بلفور" عقب هزيمة العثمانيين بشهر واحد وايام قلائل .وكان الشعب المصري وظل رافضا لخوض بلاده هذه الحرب، بل لا يختلف المؤرخون في أن السخط الذي عمّ مصر بعد هذه الحرب كان من أسباب ثورة ١٩١٩، وأنه لم يكن أحد ليجادل وقتها في هذا الرفض حتى أن بريطانيا –دولة الاحتلال– لم تكن تطمع في أكثر من بقاء هذا الاعتراض "سلميا" بل إن القائد العام الإنجليزي وقتها، الجنرال ماكسويل، ختم إعلانه الرسمي للحرب مع العثمانيين بهذه الفقرة" :ولعلم بريطانيا العظمى بما للسلطان (العثماني) بصفته الدينية من الاحترام والاعتبار عند مسلمي القطر المصري فقد أخذت بريطانيا العظمى على عاتقها جميع أعباء هذه الحرب بدون أن تطلب من الشعب المصري أية مساعدة، ولكنها مقابل ذلك تنتظر من الأهالي وتطلب إليهم الامتناع عن أي عمل من شأنه عرقلة حركات جيوشها الحربية أو أداء أي مساعدة لأعدائها."وجاء في بيان إعلان الحماية (الاحتلال) الإنجليزية على مصر "تاريخ مصر السابق يدل في الواقع على إن إخلاص المسلمين المصريين للخلافة لا علاقة له البتة بالروابط السياسية التي بين مصر والآستانة" ولذلك كان أمل الاحتلال من المصريين "منع كل عون للعدو"وقد جرت محاولتي اغتيال للسلطان حسين كامل الذي

[٣٤٤] هو نفس الموقع الذي شهد الانتصار الساحق للملك تحتمس الثالث في العصر الفرعوني

جاء به الإنجليز ليحكم مصر بعدما خلعوا الخديو عباس حلمي، ولبعض الوزراء وحُكِم على مرتكبيها بالإعدام رحمهم الله وقد عطل الإنجليز انعقاد الجمعية التشريعية (البرلمان) خشية من أي مقاومة سياسية للاحتلال، برغم أن برلمان ذلك الزمان كان مقصوص الجناحين، (فالمحتلون وعملاؤهم لا يحبون الهيئات المنتخبة!!) وظل معطلا لعشر سنوات فيما بعد .أن المصريين كانوا يُجْمَعون بالإكراه للمشاركة في هذا المجهود الحربي، ولم يكن هذا برضاهم، بل إن العُمَد ومشايخ القرى والمحافظين كانوا ينتهزونها وسيلة للدفع بأعدائهم عبر التجنيد في هذه الحرب، وكان المصريون يدفعون الرشاوى للخلاص من هذا التجنيد لهؤلاء العمد والمشايخ وحكام الإدارات أن المصريين لم ينظروا إلى اشتراك الجيش المصري في ذلك الوقت إلا على أنه خيانة بريطانية لتعهدها السابق بأنها ستحمل العبء كاملا، ولا يرى أحد من المؤرخين –فيما أعلم– أن الهجوم العثماني كان على مصر، بل حتى أرباب المدرسة الوطنية كالرافعي، يُحمِّلون الإنجليز مسؤولية تقدم القوات التركية نحو مصر، وأنها لم تكن موجهة إلى مصر أو المصريين بل كانت ضد القوات الإنجليزية .ومثل هذا كان تقدم الشريف أحمد السنوسي الكبير من الغرب.وأما "النصر" الذي حققه الجيش المصري في دارفور، فكان ذلك ضد ثورة من سلطان دارفور ضد حكومة السودان (والسودان تحت الاحتلال الإنجليزي) فاستُعْمِل الجيش المصري للقضاء على هذه الثورة، وفعلها بأسلوب قذر، وهو السيطرة على آبار المياه، وتلقى السلطان حسين كامل تهنئة من الملك جورج الخامس وأن هذه الحرب لم تكلف مصر رجالا فقط (نحو مليون ونصف مصري أجبروا على العمل في المجهود الحربي) بل وثروات، فقد استولى الإنجليز على ما شاءوا من الجمال والبغال والخيول والحمير بأبخس الأثمان وبالمصادرات حتى لم يبق للمصريين إلا ما لا يصلح لقتال لمرض أو ضعف أو عيب، وأنقصوا المساحات المزروعة من القطن (الذهب المصري الذي كان يساوي أهمية النيل بالنسبة للزراعة) لزراعة الحبوب لتغطية أغذية الجنود، بل وقطعت ما لا يحصى من الأشجار لاستعمال الخشب.. حتى بلغ الشعب درجة منهكة من الفقر والعوز والحاجة[٣٤٥]

- من الواضح أن الذي كتب ما سبق يحترم تماماً الشعب المصري وينفي عنه ما حدث في هذه التجريدة ، وينسب كل ذلك للورد اللنبي ، ولكن هل من الممكن أن نترك الحديث عن كل هذا ونبدأ الحوار عن ثورة سنة ١٩١٩ وكيف بدأت أحداثها ومقدماتها ؟
- لا مانع بالطبع فثورة ١٩١٩ من أهم الأحداث التي وقعت في مصر بعد انتهاء الحرب العالمية الأولي حيث قرر المنتصرون في هذه الحرب عقد مؤتمر دولي لتقنين وترتيب الأوضاع العالمية بعد انتهاء الحرب والاتفاق علي توزيع المكاسب طبقاً لما حققه كل منهم من انتصارات وقد ذكرنا ما حدث للعرب من بريطانيا وفرنسا وتداعيات تطبيق اتفاقية سايكس بيكو ، وقد حاول المصريون أن يكون لهم دور أو حتي وجود في هذا المؤتمر لعرض قضيتهم والحصول علي الاستقلال

[٣٤٥] نقلاً عن صفحة التراث الفلسطين بموقع التواصل الاجتماعي فيس بوك

١٢٠. مقدمات ثورة ١٩١٩ بعد انتهاء الحرب العالمية الأولي

- **وكيف تمت هذه المحاولة بعد انتهاء الحرب ومن الذي قام بها من المصريين ؟**
- **يقول الدكتور حسين مؤنس في كتابه عن ثورة ١٩١٩ ما يلي : لا شك في أن مصر وعالم العرب كانا قبل سنة ١٩١٩م يختلفان كل الاختلاف عن مصر وعالم العرب بعدها ، قبل ١٩١٩ كان الاستعمار والذل والاستسلام ، والمحاولات الضعيفة للخروج من قبضة اليأس المحتوم كالقدر ، وبعد ١٩١٩ يبدأ السير الحثيث الواعي في طريق النهوض والأمل - - - ويجرؤ الناس علي الاحتلال الإنجليزي بعد أن تحدوه في قوة - - - -والذي حدث أن ثلاثة من أهل مصر - سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلي شعراوي - توجهوا إلي دار المعتمد البريطاني السير ريجينالد وينجت في صباح ١٣ نوفمبر ١٩١٨ وقالوا له إن الأوان قد آن للبحث في مصير مصر - - - وفهم الرجل أنهم يطلبون الاستقلال لوطنهم وأنهم يريدون أن يسافروا إلي أوروبا لعرض قضية بلادهم علي مؤتمرات الصلح التي كان الاستعداد لها يجري علي قدم وساق - بعد انتهاء الحرب العالمية الأولي - وكان يري ان مصير مصر مسألة تخص الإمبراطورية البريطانية وحدها فهي بلد تحت الحماية الإنجليزية أي جزء من أملاكها وأراضيها**
- **ولهذا رفض السماح لهم بالسفر وقال إنه ليس لهم الحق في الكلام باسم مصر - - - فسارع الثلاثة إلي أخذ توكيل من الشعب ليتكلموا باسمه وسارع الشعب فأعطاهم التوكيل بالإجماع واعتبرهم - وفداً - موكلاً منه للكلام باسمه والمطالبة بحريته - - - وفي ٦ مارس ١٩١٩ تلقي الوفد إنذاراً من المعتمد البريطاني يطلب إلي رجاله أن يكفوا عن سعيهم للاستقلال - - وفي ٨ مارس اعتقل الإنجليز سعداً وثلاثة من صحبه - - - وفي اليوم التالي أرسلوهم منفيين إلي مالطة ، وما إن علم الشعب باعتقال رجاله حتي انفجر بركان الثورة في ٩ مارس ١٩١٩م ، وبدأ الإنجليز في التراجع فأفرجوا عن سعد وأصحابه يوم ٧ ابريل ١٩١٩ ، وبدأ الكفاح المرير في سبيل الحرية ، كفاح شاق حافل بالتضحيات ولكنه كفاح رجال يشحذ الهمم ويقوي النفوس ويزيد العيون بصراً والقلوب وعياً . وهذه أهمية ثورة ١٩١٩ وذلك هو دورها في تاريخنا ، فقبل ثورة ١٩١٩ كانت مصر وأمة العرب تسيران سيراً بطيئاً هادئاً نحو الموت ، وبعد ثورة ١٩١٩ انفتح أمام مصر ثم أمة العرب طريق الحياة وهو طريق طويل عسير حافل بالنكبات والمآسي ، ، مآسي تنفع وتعلم وإن كانت تؤلم وتعطل المسير ،، قبل ١٩١٩ كنا نجاهد لكي نوجد ، كانت إنجلترا صاحبة السيادة علي بلادنا ، تقول أننا غير موجودين منذ الاحتلال البريطاني في سبتمبر ١٨٨٢ ، وكانت مشكلة المعتمدين البريطانيين هي : كيف يمكن الاحتفاظ بمصر بدون المصريين ؟ ، بعد موت مصطفي كامل سنة ١٩٠٨ وخروج محمد فريد من مصر واضطراره إلي حياة النفي في أوروبا بعيداً عن وطنه وعقاباً له علي حبه إياه ، خيل إلي الإنجليز أنهم نجحوا أخيراً في إخراج المصريين من الميدان حتي كان يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ والحديث التاريخي الذي دار بين ممثلي مصر وممثل الاحتلال البريطاني في البلاد ، لقد كانت دهشة السير وينجت كبيرة وهو يصغي**

إلي سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلي شعراوي وهم يتحدثون إليه عن مصر وحقوقها ، وتستوقف النظر في ذلك الحديث السطور التالية : علي شعراوي : إننا نريد أن نكون أصدقاء للإنجليز صداقة الحر للحر لا صداقة العبد للحر ، ----وينجت :إذن فأنتم تطلبون الاستقلال ؟ ----سعد :ونحن أهل له ، وماذا ينقصنا ليكون لنا الاستقلال مثل باقي الأمم المستقلة ؟ ---- وينجت : ولكن الطفل إذا أعطي من الغذاء أزيد مما يلزمه أصيب بالتخمة ، ،،، هنا – في هذه السطور القليلة من الحوار ، نري الفرق الهائل بين مصر كما كان يريدها الإنجليز ومصر كما أرادها أهلها ، هذه السطور تعين لنا نقطة النهاية لقرون طويلة من ضياع مصر والمصريين ، ونقطة البداية لوجودها ووجودهم[٣٤٦] ،

- إن هذا الكلام إذا تأملناه سنشعر بمدي تأثر جيل سعد زغلول ورفاقه بالأفكار الأوروبية وانبهارهم بها حتي يمكنك أن تلاحظ شعورهم بالدونية أمام من يتحدثون معه ونسوا أنهم ينتمون إلي الأمة الإسلامية التي هي أفضل الأمم علي الأرض

١٢١. كتب التاريخ بعد ثورة ١٩١٩ تتناول تاريخ مصر أم تاريخ الأمة الإسلامية ؟

- بالفعل يؤسفني أن أقول لك أن تاريخ مصر سينحصر بعد ذلك في ما يخص مصر فقط في معظم المراجع وستصبح القضية الوطنية هي كيف تستقل مصر وتتخلص من الاحتلال البريطاني ، وستصبح ثورة ١٩١٩ هي مفترق الطرق بين تاريخ مصر كجزء من الأمة الإسلامية وتاريخ مصر كدولة لها هويتها الخاصة وكيانها المستقل وتيارها القومي الذي لا يعبأ بأخبار أي مسلم طالما أنه ليس مصرياً
- إن ما تقول للأسف مستمر حتي الآن فالأمة الإسلامية التي كانت تتسم بالسيولة السياسية كما تحدثنا عنها من كلام د جمال حمدان[٣٤٧] وذات مفهوم الاستقلال في المصطلح الإسلامي[٣٤٨] الذي تحدثنا عنه أيضاً من كلام د محمود الحويري أصبحت مقسمة إلي قوميات مختلفة فأنا مصري وهذا ليبي وهذا مغربي وهذا سوري وهذا يمني إلخ فلا يهتم أحد بما يحدث للآخرين
- هذا صحيح بل إن الرابطة العربية التي حاول البعض أن يجمع بها العرب تحت مظلة واحدة قد فشلت فشل ذريع ولم تنجح في توحيد أهدافهم
- لا توجد مثل الرابطة الإسلامية مهما حاولوا أن يستبدلوها برابطة أخري
- لقد استبدلوها بالفعل ولقد ذكرت لك هذه النقطة كي تعذرني عندما أتلو عليك تاريخ مصر من الكتب والمراجع من بعد هذه الثورة فلن تجدني أشير من قريب أو بعيد لما يحدث في العالم الإسلامي كما كنا نفعل قبل هذه الثورة فليس هناك دولة عثمانية أو مملوكية أو أيوبية ولا حتي دولة محمد علي كي

---

[٣٤٦] نقلاً باختصار عن كتاب – دراسات في ثورة ١٩١٩ – للدكتور حسين مؤنس – دار الرشاد – الطبعة الثانية سنة ٢٠٠٥

[٣٤٧] انظر الجزء الأول من هذا الكتاب

[٣٤٨] انظر الجزء الأول من هذا الكتاب

تجمع المسلمين تحت قيادة واحدة ، وكل ما هنالك مصر فقط منفصلة معزولة عن العالم الإسلامي ألم يقولوا مصر للمصريين

- المدهش فيما تقول أنهم نجحوا في تفتيت العالم الإسلامي ووضعوا فيما بينه الحدود وأصبح لكل دولة إسلامية وزارة خارجية وعملة خاصة وتأشيرات دخول فيما بينها ورحم الله الرحالة ابن بطوطة الذي تجول في العالم الإسلامي كله بلا حرج ، وبعد أن نجحوا في تفتيتنا أقاموا لديهم الاتحاد الأوروبي حيث عملة واحدة وسياسة خارجية واحدة وحرية حركة بلا تأشيرات فيما بينهم كما لو كانوا أمة كالأمة الإسلامية التي دمروها
- الغريب حقاً أنهم نجحوا في ذلك رغم تعدد اللغات التي يتحدثون بها وتعدد عاداتهم وتقاليدهم وتواريخهم ، أما نحن فأولي بكل هذا منهم فنحن لغة واحدة وتاريخ واحد ودين واحد ولا حول ولا قوة إلا بالله
- علي أي حال لقد وصلت رسالتك وأنا متفهم تماماً لما ستقوله عن تاريخ مصر القومي الذي كتبه مؤرخون قوميون ، ومع ذلك لن يخلو الأمر من الحديث عن أي حدث علي مستوي المسلمين بشكل عام إذا توفر لديك
- بالتأكيد ، ولنستكمل الحديث عن ثورة سنة ١٩١٩ إذا لم يكن لديك مانع
- كلي آذان صاغية

١٢٢. الإنجليز يفضلون التعامل مع زعماء للشعب أكثر مرونة من مصطفي كامل ومحمد فريد

- (كانت سلطات الاحتلال تدرك تماماً أن الثورة الشاملة ستنفجر حتماً وخاصة بعد انتهاء الحرب وإعادة ترتيب مناطق النفوذ في العالم وتطلع الشعوب المختلفة إلي انتزاع استقلالها وكانت تدرك أنها طالما أصرت علي استمرارها في احتلال مصر وفرض الحماية عليها وإلغاء حق السيادة الشكلية التركية عليها ، فإن ذلك كله سيجعل الشعب المصري يلجأ إلي الطريق الوحيد المتاح أمامه لانتزاع استقلاله وهو طريق الثورة بعد نفاذ صبره وضياع أمله في أن يمنحه مؤتمر الصلح هذا الاستقلال ، كانت سلطات الاحتلال تدرك أن التراكمات الثورية الطويلة التي زرعها مصطفي كامل ومحمد فريد وغيرهما لابد ستنفجر يوماً وحان هذا اليوم بعد الحرب العالمية الأولي ، وتجاهل مطالب مصر في مؤتمر الصلح وكان لابد من تطويق هذا الأمر ومحاولة احتواء الثورة المرتقبة أو استنفاذها في متاهات وروافد جانبية وهكذا كان لابد من قوة جديدة تكون بديلة للحزب الوطني الذي هو القيادة الطبيعية والصلبة للجماهير والتي لم تعرف التنازل عن مطالبها يوماً وكانت تلك القوة الجديدة هو ظهور حزب الوفد بحيث تكون قيادته من المعروفين بموالاة الاحتلال أو مداهنته أو عدم الصبر الطويل علي النضال الجماهيري ضد الاحتلال وعلي أساس أن يرفع هذا الحزب مطلب الجلاء بشرط استبعاد الحزب الوطني

من المسألة ثم الوصول مع حزب الوفد إلي حلول جزئية وجانبية ،، إذا كانت الثورة كانت مسألة حتمية بفعل الجهاد الطويل والتراكم الثوري الذي تركه الحزب الوطني في الواقع المصري وبفعل وصول الشعب المصري إلي قناعة أنه لا أمل في الاستقلال عن طريق مؤتمر الصلح فإن ذلك كله كان ومع نهاية الحرب العالمية الأولي قد وجد أسباباً أخري ، كان هناك إعلان الحماية البريطانية علي مصر وإلغاء السيادة التركية الاسمية عليها وكان هناك خلع الخديوي عباس وتعيين السلطان حسين ، وأياً كان الرأي في هذا الخديوي أو ذاك السلطان ، فإن مجرد التلاعب بالعرش وجعل أمره في يد الإنجليز يعني إهدار كامل لقيمة الشعب وهيئاته التشريعية مهما كانت ضعيفة أو شكلية ،، وكان هناك توريط مصر في الحرب علي الرغم من قناعتها الدينية والمصلحية التي تحتم وقوفها مع تركيا أو علي الأقل عدم الوقوف ضدها ، ولكن الإنجليز زجوا بمصر ومرافقها وشعبها لدعم المجهود الحربي للحلفاء وساعدهم علي ذلك سلطان ضعيف وحكومة خائنة "حكومة حسين رشدي" حيث تركت للإنجليز إجبار المصريين علي العمل في بلاد الحلفاء أو في معسكراتهم ، بل وساهمت في الحرب بثلاثة ملايين جنيه تبرعت بها لصالح إنجلترا بدعوي أن إنجلترا تحمي مصر ، بل وصل الأمر إلي حد جمع الدواب وبيعها بثمن بخس للإنجليز لدعم المجهود الحربي للحلفاء ، ووصل الأمر أيضاً إلي حد الزج بالجيش المصري لقتال الأتراك في سيناء والقناة والسنوسيين علي حدود مصر الغربية ، مساعدة الإنجليز علي السيطرة علي السودان ، وكانت هناك المظالم الإدارية التي مارستها السلطات لحساب الإنجليز والتي تعسفت في قهر الشعب سواء بالأحكام العرفية ، أو تعطيل الجمعية التشريعية أو إلغاء وزارة الخارجية أو وضع الرقابة علي الصحف أو باعتقال الأهالي بسبب أو بدون سبب أو ممارسة أقسي أنواع الظلم في جمع الرديف أو العمال المطلوبين لخدمة المجهود الحربي للحلفاء ،، وكانت هناك عمليات مصادرة الأرزاق والحاصلات الزراعية والمواشي والدواب مما جعل حياة الأهالي عسيرة جدا وأصيبوا بالفقر والجوع وعانوا من الغلاء ،، – – وكان المخطط الاستعماري الإنجليزي الخبيث يدرك أنه لن يستطيع منع انفجار الثورة وبالتالي عمل علي تطويقها قبل أن تبدأ ، ووضع علي رأسها بالخداع والقسر والإجراءات زعامات يمكن لها أن تتفاهم مع الإنجليز ، وأن تلتف حول الجماهير وتلهيها بمكاسب جزئية مؤقتة

- وهذا ما لن يقبل به الحزب الوطني بالطبع
- وكانت سلطات الاحتلال تعمل منذ وقت مبكر وكانت تدرك أن التراث السياسي والمبدئي للحزب الوطني والخبرة التاريخية التي امتلكها ستجعله متمسك بالمبادئ الجوهرية للشعب في الجلاء العاجل والدستور وبالتالي فلابد من إزاحة هذا الحزب جانباً والتخلص من قيادات الحركة الوطنية التي ترفض الحلول الوسط والمفاوضات والمناورات وهكذا وجدنا سلطات الاحتلال تحرص علي ضرب الحزب الوطني ضربات متلاحقة وعنيفة وصلت إلي حد القضاء علي صحافته تماماً والتخلص من شخصيات الحزب المخلصة والثورية فتم اعتقال البعض وتم نفي البعض الآخر ، كما مارست سلطات الاحتلال أقصي

قدر من القمع والاعتقال والمطاردة والتفتيش لكوادر الحزب ومنظماته العلنية والسرية ،، وفي نفس الوقت عملت سلطات الاحتلال علي التفاهم والمناقشة مع قطاع من الأعيان المصريين وخاصة الوزراء الحاليين والسابقين حول ما يسمي بالمسألة المصرية ومن الطبيعي أن هذا القطاع من الأعيان والوجهاء كان يسعي لانتزاع استقلال مصر ولكن في إطار السيطرة الإنجليزية علي الأماكن الحيوية في مصر مثل قناة السويس ، وفي إطار السعي لدي مؤتمر الصلح أو مناشدة الضمير الإنجليزي أو غيرها من الوسائل التي لم ولن تجدي نفعاً

- بالتأكيد لن تجدي نفعاً طالما أنها ليست في إطار ثوري ، فهل معني هذا أن سعد زغلول ورفاقه أقروا في لقاء ١٣نوفمبر ١٩١٨ مع السير ونجت أحقية بريطانيا في السيطرة علي القناة ؟
- لقد طلب هؤلاء الثلاثة استقلال مصر في مقابل ضمانات لإنجلترا بأن تكون صاحبة وضع خاص في مصر وأن يكون من حقها احتلال قناة السويس عند الإقتضاء ، وقارن بين هذا وبين المطلب التقليدي والدائم للحزب الوطني في الجلاء التام دون قيد أو شرط ،، اعترف الثلاثة أن للإنجليز فضل كبير علي مصر وأن المطالبة المصرية يجب أن تكون محل مداولة بين مصر وأنجلترا مباشرة دون إشراك غيرها في هذا الأمر وفي هذا اعتراف ضمني بشرعية الاحتلال ، هاجم المستر ونجت الحزب الوطني ومحمد فريد واصفاً إياه بالتطرف ، وقد نفي الثلاثة صلتهم بالحزب الوطني وأعلنوا عدم تطرفهم واستعدادهم حتي للقبول بمستشار انجليزي دائم للمالية لتطمئن أصحاب الديون ،، أصر المستر ونجت علي أن تلك المحادثات ودية وليست ذات صفة رسمية كما ألمح للثلاثة عن عدم حقهم بالحديث باسم مصر وبالطبع لم يكن المستر ونجت يلهو أو يلعب وهو الخبير بالشئون المصرية ، وقد قبل الحديث مع هؤلاء الثلاثة ليحقق أكثر من هدف ، وهو الذي يعرف جيداً أن جميع الأحوال في مصر تبشر بانفجار الثورة ، وكان ونجت يستهدف تخدير الجماهير بمثل تلك المحادثات ويهدف أيضاً إلي إظهار زعامة أخري للجماهير غير زعامة الحزب الوطني المتشددة والمتطرفة من وجهة نظره طبعاً ، أي أن الهدف هو منع انفجار الثورة أو وضع زعامة فوق رأسها تكون أكثر استعدادا للتفاهم ،، علي كل حال ابتلع الثلاثة الطعم إلي آخره ، أو قل حاولوا تبليعه للشعب المصري
- لذلك لم تكن الثورة دموية عنيفة وكانت سلمية وتحت السيطرة ويمكن تهدئتها أو إشعالها طبقاً للمخطط
- فاتفق سعد زغلول مع حسين رشدي باشا علي تأليف هيئة تسمي الوفد المصري وأن تحصل هذه الهيئة علي توكيلات من الأمة تخولها هذه الصفة أي ظهور قوة شعبية أخري كبديل عن الحزب الوطني)[٣٤٩]
- معني هذا أن نواة حزب الوفد كانت من رحم هذا الاتفاق الذي يقبل بالحلول الوسط وبالمسارات التفاوضية والقانونية ويعتمد علي الخلق الإنجليزي الرفيع من وجهة نظرهم

[٣٤٩] نقلاً باختصار عن كتاب تاريخ مصر الحديث –د محمد مورو

- بالتأكيد لأن حسين رشدي باشا عمل في الوزارة مدة طويلة في ظل الاحتلال البريطاني كوزير وكرئيس وزراء وكانت سياساته كلها تخدم مصالح بريطانيا والحلفاء وهو محل ثقة الإنجليز (- - أما سعد زغلول فهو وزير المعارف في حكومة مصطفي فهمي منذ ١٩٠٦ وقد وقف من خلال ذلك المنصب موقفاً مريباً وقمعياً من الحركة الطلابية وشهد الطلبة علي يديه كثير من الاضطهاد والعنت ، ووقف سعد زغلول ضد اقتراح الجمعية العمومية بجعل التعليم في المدارس الأميرية باللغة العربية بدلاً من الإنجليزية "مارس١٩٠٧" وقد كتب مصطفي كامل تعليقاً علي هذا الأمر :"إن الناس قد فهموا الآن بأوضح مما كانوا يفهمون من قبل لماذا اختار اللورد كرومر لوزارة المعارف العمومية صهر رئيس الوزراء مصطفي فهمي باشا الأمين علي وحيه الخادم لسياسته وفهمت الناس الآن أن سعد زغلول شديد الميل إلي السلطة " - - - ووقف سعد زغلول مع وزارة بطرس غالي ضد الأمة المطالبة للدستور بدعوي أن الأمة لم تنضج بعد لهذا الأمر ، كما دافع عن مشروع مد امتياز القناة - - وكان سعد زغلول لا ينكر علاقته الودية باللورد كرومر)[٣٥٠]
- إن ما ذكرته عن سعد باشا زغلول يعتبر سباحة ضد التيار لذلك يذكرني بما ورد في مقدمة كتاب كنت محتفظ به كتبته الكاتبة سهير حلمي واسمه أسرة محمد علي حيث كتبت ما يلي (- - - فالمعضلة التي تواجه أي كاتب يتطرق للكتابة عن الشخصيات التاريخية ، أن شبح الكتابة الأولي يظل يطارده بعد أن تكون الشخصية قد وصمت بوشم يدخلها بحيرة التاريخ الراكدة ، وتكون الكتابة عنها بعد ذلك من وجهة نظر مخالفة ، نوعاً من السباحة ضد التيار ، والسباحة ضد التيار ترسو بصاحبها إلي بر الأمان في تعب وإعياء لكنها لا تغير اتجاه التيار ، إلا لمن أراد أن يبذل مجهوداً خاصاً لكي يصل إلي قناعة ذاتية ترضيه ، من هذا المنطلق طالت إقامتي بين الموسوعات والوثائق والدراسات التاريخية لكبار مؤرخينا ، حتي كدت أصاب بداء التاريخ الذي تحدث عنه نيتشه)[٣٥١] ، ولنعود للحديث عن أحداث الثورة التي من الواضح أنها كانت سلمية أو هكذا بدأت علي الأقل ثم تطورت فيما بعد
- هذا صحيح فأهم ما يلفت النظر في أحداث هذه الثورة أنها بدأت كمظاهرات سلمية وحاول المتظاهرون أن تظل الثورة محتفظة بسلميتها ولذلك قاموا بتشكيل ما نسميه اليوم لجان شعبية للمحافظة علي النظام
- بالطبع سنتكلم عن أهم أحداث الثورة ولكنني أحتاج أن أعرف ما حدث يوم ١٣ نوفمبر وما دار من حديث بين السير ونجت وسعد زغلول ورفاقه من كتاب الرافعي عن الثورة لأنني مع الاعتذار الشديد لا يطمئن قلبي لما ذكره الكتاب الآخر عن موافقة سعد زغلول علي احتلال بريطانيا لمصر عند الحاجة ، فإذا قرأت هذا الكلام من كتاب الرافعي سيكون أكثر إقناعا بأنه حدث

---

[٣٥٠] نقلاً باختصار عن كتاب تاريخ مصر الحديث –د محمد مورو

[٣٥١] من مقدمة كتاب أسرة محمد علي – تأليف سهير حلمي – باختصار

- ولكنني قد ذكرت لك أهم ما دار في ذلك اللقاء وإذا ذكرته مرة أخري سيكون تكرار ممل
- لا بل سيكون تكرار محمود كما يقال وخاصة أن النقطة التي أريد معرفتها لم تذكرها فيما ذكرت عند حديثك عن هذا اللقاء
- لا مانع علي الإطلاق وسأتلو عليك إن شاء الله ما ورد عن هذا اللقاء في كتاب الرافعي وسنتوقف عندما تأتي النقطة التي تنتظرها الخاصة بموافقة سعد ورفاقه علي إعادة احتلال بريطانيا لمصر ثم بعد ذلك سوف نستعرض فقرات أخري من كتاب الرافعي
- كلي آذان صاغية

١٢٣. جانب من حوار ١٣ نوفمبر من كتاب ثورة سنة ١٩١٩ لعبد الرحمن الرافعي

- يقول الرافعي في كتابه[٣٥٢] : بدأ السير ونجت الحديث بقوله : إن الصلح اقترب موعده ، وإن العالم يفيق بعد غمرات الحرب التي شغلته زمناً طويلاً ، وإن مصر سينالها خير كثير ، وإن الله مع الصابرين ، وإن المصريين هم أقل الأمم تألماً من أضرار الحرب ، وإنهم مع ذلك استفادوا منها أموالاً طائلة ، وإن عليهم أن يشكروا دولة بريطانيا العظمي التي كانت سبباً في قلة ضررهم وكثرة فائدتهم ،، فأجابه سعد باشا : ما تكون إنجلترا فعلته خيراً لمصر فإن المصريين بالبداهة يذكرونه لها مع الشكر ، وخرج من ذلك إلي القول بأن الحرب كانت كحريق انطفأ ولم يبق إلا تنظيف آثاره وأنه يظن أن لا محل لدوام الأحكام العرفية ولا لمراقبة الجرائد والمطبوعات ، وأن الناس ينتظرون بفروغ الصبر زوال هذه المراقبة كي ينفسوا عن أنفسهم ويخففوا عن صدورهم الضيق الذي تولاهم أكثر من أربع سنين ،، فقال السير ونجت : حقاً أنه ميال لإزالة المراقبة المذكورة ، وأنه تخابر فعلاً مع القائد العام للجيوش البريطانية في هذا الصدد ، ولما كانت هذه المسألة عسكرية فإنه بعد تمام المخابرة والاتفاق مع القائد سيكتب للحكومة البريطانية ، ويأمل الوصول إلي ما يرضي ، ثم استمر قائلاً : يجب علي المصريين أن يطمئنوا ويصبروا ويعلموا أنه منذ فرغت إنجلترا من مؤتمر الصلح فإنها تلتفت لمصر وما يلزمها ولن يكون الأمر إلا خيراً ،، فقال سعد باشا : إن الهدنة قد عقدت ، والمصريون لهم الحق أن يكونوا قلقين علي مستقبلهم ، ولا مانع يمنع الآن من أن يعرفوا ما هو الخير الذي تريده إنجلترا لهم ،، فقال : يجب ألا تتعجلوا وأن تكونوا متبصرين في سلوككم ، فإن المصريين في الحقيقة لا ينظرون للعواقب البعيدة ،، فقال سعد باشا : إن هذه العبارة مبهمة المعني ، ولا أفهم المراد منها ،، فقال : أريد أن أقول إن المصريين ليس لهم رأي عام بعيد النظر ،، فقال سعد باشا :لا أستطيع الموافقة علي ذلك فإني إن وافقت أنكرت صفتي ، فإنني منتخب في الجمعية التشريعية عن قسمين من أقسام القاهرة ، وكان انتخابي بمحض إرادة الرأي العام مع معارضة الحكومة واللورد كتشنر في انتخابي ، وكذلك كان الأمر

[٣٥٢] نقلاً عن كتاب ثورة ١٩١٩ –عبد الرحمن الرافعي = دار المعارف=الطبعة الرابعة–من صفحة ١١١ وما بعدها

مع زميلي علي شعراوي باشا وعبد العزيز بك فهمي ،، فقال السير ونجت :إنه قبل الحرب كثيراً ما حصل من الحركات والكتابات من محمد فريد وأمثاله من الحزب الوطني ، وكان ذلك بلا تعقل ولا روية ، فأضرت مصر ولم تنفعها فما هي أغراض المصريين ؟ ،، فقال علي شعراوي باشا :إننا نريد أن نكون أصدقاء للإنجليز صداقة الحر للحر لا العبد للحر ،، فقال السير ونجت : إذاً أنتم تطلبون الاستقلال ؟ ،، فقال سعد باشا :ونحن له أهل ، وماذا ينقصنا ليكون لنا الاستقلال كباقي الأمم المستقلة ؟ ،، فقال السير ونجت :ولكن الطفل إذا أعطي من الغذاء أزيد مما يلزم تخم ،، فقال عبد العزيز بك فهمي :نحن نطلب الاستقلال التام وقد ذكرتم جنابكم إن الحزب الوطني أتي من الحركات والكتابات بما أضر ولم يفد ، فأقول لجنابكم إن الحزب الوطني كان يطلب الاستقلال ، وكل البلد كانت تطلب الاستقلال ، وغاية الأمر إن طريقة الطلب التي سار عليها الحزب الوطني في تنفيذ مبدئه الأساسي الذي هو مبدأ كل الأمم ، وهو الاستقلال التام ، قام جماعة من الشيوخ الذين لا يظن فيهم التطرف في الإجراءات وأسسوا حزب الأمة وأنشأوا صحيفة "الجريدة" وكان مقصدهم هم أيضاً الاستقلال التام ، وطريقتهم أخف في الحدة من طريقة الحزب الوطني ، وذلك معروف عند الجميع ، والغرض منه خدمة نفس المبدأ المشترك بطريقة تمنع الاعتراض ، ونحن في طلبنا الاستقلال التام لسنا مبالغين فيه فإن أمتنا أرقي من البلغار والصرب والجبل الأسود وغيرها ممن نالوا الاستقلال قديماً وحديثاً ،، فقال السير ونجت : ولكن نسبة الأميين في مصر كبيرة لا كما في البلاد التي ذكرتها إلا الجبل الأسود والألبان علي ما أظن ،، فقال عبد العزيز بك فهمي :إن هذه النسبة مسألة ثانوية فيما يتعلق باستقلال الأمم ، فإن لمصر تاريخاً قديماً باهراً وسوابق في الاستقلال التام وهي قائمة بذاتها وسكانها عنصر واحد ذو لغة واحدة وهم كثيرو العدد وبلادهم غنية ، وبالجملة فشروط الاستقلال التام متوفرة في مصر ، ومن جهة نسبة الأميين للمتعلمين ، فهذه مسألة لا دخل لها في الاستقلال كما قدمت ، لأن الذين يقودون البلاد في كل الأمم أفراد قلائل ، فإني أعرف أن لإنجلترا وهي بلاد العظمة والحرية عند أهلها ثقة كبري بحكومتها فأرباب الحكومة وهم أفراد قلائل هم الذين يقودونها وهي تتبعهم بلا مناقشة في كثير من الأحوال لشدة ثقتها بهم وتسليمها لهم ، ولذلك فمجلس نوابها ليس كل أفرادهم العاملين ، وإنما العامل منهم فئة قليلة ، فبلاد مصر يكفي أن يكون فيها ألف متعلم ليقوموا بإدارتها كما ينبغي ، وهي مستقلة استقلالاً تاماً – ونحن عندنا كثير من المتعلمين ، بدليل أن أولي الحل والعقد نسمع منهم في كثير من الأحيان أن التعليم زاد في البلد حتي صار طائفة من المتعلمين العاطلين ، وأما من جهة تشبيهنا بالطفل يتخم إذا غذي بأزيد من اللازم فاسمحوا لي أن أقول إن حالنا ليست مما ينطبق عليها هذا الشبه ، بل الواقع أننا كالمريض مهما أتيت له من نطس الأطباء استحال عليهم أن يعرفوا من أنفسهم موقع دائه ، بل هو نفسه الذي يحس بألم الداء ويرشد إليه ، فالمصري وحده هو الذي يشعر بما ينقصه من أنواع المعارف وما يفيده في الأشغال العمومية وفي القضاء وغير ذلك ، فالاستقلال التام ضروري لرقينا ،،

فقال السير ونجت :أتظنون أن بلاد العرب وقد أخذت استقلالها ستعرف كيف تسير بنفسها ؟ ،، فقال عبد العزيز بك :إن معرفة ذلك راجع إلي المستقبل ، ومع ذلك فإذا كانت بلاد العرب وهي دون مصر بمراحل أخذت استقلالها فمصر أجدر بذلك ،، فقال السير ونجت :قد كانت مصر عبداً لتركيا ، أفتكون أحط منها لو كانت عبداً لإنجلترا ؟فقال شعراوي باشا :قد أكون عبداً لرجل من الجعليين وقد أكون عبداً للسير ونجت الذي لا مناسبة بينه وبين الرجل الجعلي ، ومع ذلك لا تسرني كلتا الحالتين ، لأن العبودية لا أرضاها ولا تحب نفسي أن تبقي تحت ذلها ، ونحن كما قدمت نريد أن نكون أصدقاء لإنجلترا صداقة الأحرار لا صداقة العبيد ،،فقال السير ونجت :ولكن مركز مصر حربياً وجغرافياً يجعلها عرضة لاستيلاء كل دولة قوية عليها وقد تكون غير إنجلترا ،، فقال سعد باشا :متي ساعدتنا إنجلترا علي استقلالنا التام ، فإننا نعطيها ضمانة معقولة علي عدم تمكين أي دولة من استقلالنا والمساس بمصلحة إنجلترا فنعطيها ضمانة في طريقها للهند وهي قناة السويس ، بأن نجعل لها دون غيرها حق احتلالها عند الاقتضاء ، بل نحالفها علي غيرها ونقدم لها عند الاقتضاء ما تستلزمه المحالفة من جنود – – – -- – -- -- وبقية الحديث بكتاب ثورة ١٩١٩ لعبد الرحمن الرافعي – دار المعارف

- لم أكن أتخيل أن هذا الحديث قد دار علي هذا النحو ، وأعتقد أن التعليق الوحيد الذي يناسبه هو أن الإنجليز قد نجحوا في تكوين عقليات مصرية قد فقدت اعتزازها بقوميتها الإسلامية وتستجدي حقوقها من دولة تعتقد أنها عظمي وقد فقدوا شعورهم بأنهم كانوا جزء من كيان إسلامي ضخم ساد العالم لفترة طويلة ، إنه حقاً حوار يحمل من المهانة والذل ما يحمل
- الأهم من كل هذا أن الإنجليز نجحوا في تكوين زعامة شعبية غير ثورية وتشعر بالدونية تجاههم وتتمسك بالقانون البريطاني والمناورات السياسية التي لا تجدي مع أمثال هؤلاء لتحصل علي حقوق الشعب المصري وسوف يكتشف سعد زغلول فيما بعد كما سنري أن المؤامرات الاستعمارية أقوي من مبادئ الديموقراطية التي تدعي بريطانيا أنها ترفع رايتها في العالم
- إن بريطانيا بالفعل ترفع راية الديموقراطية ولكن ليس في عالمنا نحن فنحن بالنسبة لهم كائنات علي هيئة بشر وليس لنا أي حقوق من حقوق الإنسان ، علي أي حال دعنا نعود لما قد ذكرته عن ما يسمي لجان شعبية خلال هذه الثورة للمحافظة علي سلميتها طبقا لما يريده قادة الثورة ، السلميون السياسيون الذين يرفضون استخدام العنف

١٢٤. لجان شعبية أثناء ثورة ١٩١٩ للمحافظة علي سلميتها

- يقول الرافعي عن هذا الموضوع : ألف المتظاهرون جماعة منهم يتولون حفظ النظام في أثناء سير المظاهرات وفي الاجتماعات التي كانت تعقد لسماع الخطب أو لتنظيم المظاهرات ، سميت (الشرطة الوطنية) جعل لأفرادها شارات خاصة تميزهم عن سواهم ، وهي شريط من القماش الأحمر يحيط بالذراع الأيسر ، وقد كتب عليه بالقماش الأبيض (بوليس وطني) وكانوا يحملون العصي ليقصوا عن

المتظاهرين من يندس فيهم من الغوغاء ، ومنهم من كان يحمل القرب وقلل الماء لسقيا من يظمأ من المتظاهرين ، وكان الجمهور يستجيب لنداء الشرطة الوطنية ، ويعمل بإرشاداتهم عن طواعية واختيار ، فكان لهذه الجماعة فضل كبير في تنظيم المظاهرات والبعد بها عن الاعتداء علي الممتلكات والأنفس ، وقد أسندت رئاستها إلي الشيخ مصطفي القاياتي ، وكان يصدر تعليماته إلي أفرادها من منزله بالسكرية ، وبالرغم من أن هذه الجماعة قد أفادت في حفظ النظام ومنع اندساس الغوغاء في المظاهرات فإن السلطة العسكرية البريطانية أصدرت أمراً في ١٨ إبريل سنة ١٩١٩ بمنعها ، وتوعدت من ينتمي إليها بالاعتقال والمحاكمة[٣٥٣] وهو ما ورد في كتاب ثورة ١٩١٩ للرافعي

- وماذا ورد أيضاً في هذا الكتاب عن هذه الثورة ؟

١٢٥. شاعر النيل حافظ إبراهيم يصف مظاهرات النساء خلال ثورة ١٩١٩

- بالطبع لن نستطيع في هذا الحوار أن نقرأ كل ما جاء في هذا الكتاب ولكن يمكننا أن نختار بعض الفقرات التي تساعدنا بشكل عام علي فهم أحداث الثورة دون الخوض في التفاصيل ، فمما ورد أيضاً في هذا الكتاب قصيدة طريفة لشاعر النيل حافظ إبراهيم يصف فيها مظاهرات النساء خلال الثورة فأنشد يقول :

خرج الغواني يحتججن ... ورحت أرقب جمعهنه
فإذا بهن تَخذن من ... سود الثياب شعارهنه
فطلعن مثل كواكب ... يسطعن في وسط الدجنه
وإذا بجيش مقبل ... والخيل مطلقة الأعنة
وإذا الجنود سيوفها ... قد صوبت لنحورهنه
وإذا المدافع والبنادق ... والصوارم والأسنه
والخيل والفرسان قد ... ضربت نطاقاً حولهنه
والورد والريحان في ... ذاك النهار سلاحهنه
فتطاحن الجيشان ... ساعات تشيب لها الأجنة
ثم انهزمن مشتتات ... الشمل نحو قصورهنه[٣٥٤]

- إنها قصيدة طريفة بالفعل فهل ورد في هذا الكتاب شئ عن ما يسمي بجمهورية زفتي في ذلك الوقت عندما رفض أهل زفتي الخضوع للحكم البريطاني ؟

---

[٣٥٣] نقلاً عن كتاب (ثورة ١٩١٩) لعبد الرحمن الرافعي – صفحة ٢٣٥

٣٥٤ من كتاب (ثورة ١٩١٩ – تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلي سنة ١٩٢١) تأليف عبد الرحمن الرافعي – صفحة ٢١٤ – الطبعة الرابعة ١٩٨٧– دار المعارف

١٢٦. جمهورية زفتي

- نعم لقد ورد هذا الموضوع في كتاب الرافعي كالآتي : ألف طلبة المدرسة الثانوية (مدرسة السيد بك كشك) بزفتي مظاهرة طافت في المدينة وانضم إليها الأهلون ، فبعثت في المدينة وما حولها روح الثورة ، وتألفت لجنة للثورة برئاسة المرحوم الأستاذ يوسف أحمد الجندي ، أعلنت الاستقلال عن – الحكم البريطاني – وأنزلت العلم الذي كان يرفع علي المركز ، ورفعت بدله علماً آخر وطنياً ، إيذاناً بإعلان الاستقلال ، وأذاعت في منشور طبعته ووزعته في المدينة أن إليها يرجع الأمر والنهي ، وكان مأمور المركز من خيار الرجال ، وهو المرحوم اسماعيل بك حمد ، فتعاون مع اللجنة بصفة غير رسمية ، وشاركها شعورها وميولها ، إذ كانت ميوله وطنية ، وتركها تباشر سلطة الإدارة ، فألفت لجاناً فرعية ، إحداها للمحافظة علي الأمن وأخري لتحصيل عوائد البلدية ورسوم شركة الأسواق ، وأخذت تنفق ما حصلته في مرافق المدينة ، وردمت بعض المستنقعات وأصلحت الشوارع ، وشغلت في ذلك العمال العاطلين ، وكان اسماعيل بك حمد يجتمع وأعضاء اللجنة في مقرها بأعلي قهوة (مستوكلي) وأصدرت جريدة اسمتها (الجمهور) كانت تطبع بمطبعة محمد أفندي عجينة ، ولما ترامي نبأ هذه اللجنة وبخاصة إعلانها الاستقلال إلي السلطة العسكرية البريطانية ، أنفذت إليها قوة من الاستراليين لقمع الثورة ، وحين اقتربت القوة من المدينة أخذ الأهالي يحفرون الخنادق العميقة في الطرق الزراعية الموصلة إليها ، فاستعدت القوة لمهاجمة المدينة ، وصوبت إليها المدافع ، فتدخل اسماعيل بك حمد في الأمر وتوسط بين القوة ولجنة الثورة ونصح هذه بالكف عن المقاومة إبقاء علي المدينة ، وأذن للقوة بدخولها علي أن لا تتدخل في شئون الإدارة ، إذ احتمل هو مسئوليتها ، فدخل الجند المدينة ، وعسكروا في بحريها وقبليها ، وأخذوا يبحثون عن أعضاء لجنة الثورة ، فلم يرشد إليهم أحد ، وحظرت القوة علي الآهلين التجول في المدينة من غروب الشمس إلي مطلع الفجر[٣٥٥]
- فهل استمرت الثورة سلمية بالفعل إلي النهاية أم حدثت تجاوزات ؟
- بالتأكيد قد حدثت تجاوزات ، فلا يمكنك السيطرة علي حراك شعبي ضخم قد تجاوز حدود العاصمة إلي سائر مدن مصر فكان من الطبيعي أن يقوم المتحمسون من الشباب بأعمال عنف وقطع للسكة الحديد والأعتداء علي بعض الممتلكات العامة وخاصة بعد أن استخدم الإنجليز القوة المفرطة في فض المظاهرات وسقوط شهداء وجرحي فهو رد فعل طبيعي
- أي أن الثورة قد تطورت رغما عن الجميع وحدثت أعمال عنف ، وسقط شهداء وجرحي ، ولن أسألك عن رد فعل قوات الاحتلال البريطاني لأنه سيكون سؤال ساذج ومعروف إجابته مسبقاً ، ولكن ماذا كان رد فعل قادة الثورة وزعماء الشعب لإحتواء هذه الأحداث والذين كانوا يفضلون السلمية بالطبع ؟

---

[٣٥٥] من كتاب (ثورة ١٩١٩ – تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلي سنة ١٩٢١) تأليف عبد الرحمن الرافعي – صفحة ٢٤٥ ، ٢٤٦ – الطبعة الرابعة ١٩٨٧– دار المعارف

١٢٧. نداء إلي الشعب خلال ثورة ١٩١٩ للالتزام بالسلمية

- كتب المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي عن هذا الموضوع ما يلي : اجتمع أعضاء الوفد وكبار العلماء وبعض الوزراء السابقين والأعيان واتفقوا علي إصدار نداء إلي الأمة يدعونها فيه إلي الإخلاد للهدوء والسكينة ، قالوا : أصدرت السلطة العسكرية – البريطانية – إنذاراً بأنها ستتخذ أقسي ما يكون من الوسائل الحربية عقاباً علي ما يقع من الاعتداء علي طرق المواصلات والأملاك العمومية ، ولا يخفي علي أحد أن الاعتداء سواء كان علي الأنفس أو علي الأملاك محرم بالشرائع الإلهية والقوانين الوضعية ، وإن قطع طرق المواصلات يضر أهل البلاد ضرراً واضحاً إذ هو يحول بينهم وبين مباشرة مصالحهم ، ويوقف حركة نقل المحاصيل والأرزاق ، ويعطل المعاملات والأخذ والعطاء ، ويسبب العسر وسوء الحال ، علي أن العقاب عليه يعرض بعض القري للتخريب ويعرض الأنفس البريئة إلي أن تؤخذ بما لم ترتكب من الذنوب ، وينبغي أن يلاحظ أن مثل هذا الاعتداء يضيع علي المصريين ما ينتظرونه من العطف عليهم بما يسبب من رواج إشاعات السوء عنهم ، من أجل ذلك رأي الموقعون علي هذا من أقدس الواجبات الوطنية أن يناشدوا الشعب المصري باسم مصلحة الوطن أن يتجنب كل اعتداء وأن لا يخرج أحد في أعماله عن حدود القوانين حتي لا يسد الطريق في وجه كل الذين يخدمون الوطن بالطرق المشروعة ، كما أننا ندعو أعيان البلاد وأرباب النفوذ فيها أن يقوموا بالواجب عليهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيسارعوا إلي اتخاذ جميع ما لديهم من من الوسائل لمنع وقوع كل ما ينجم عنه ضرر للبلاد وإنا شديدو الرجاء في أن الأمة المصرية بما عرفت به من التعقل والروية تصغي إلي هذا النداء ، وتلزم طريق الحكمة في سلوكها ، والله الهادي إلي سواء السبيل ، ٢٤ من مارس سنة ١٩١٩ [٣٥٦]
- لا أدري لماذا يذكرني هذا النداء بالمنشور الذي وزعته الحملة الفرنسية علي الشعب المصري أثناء الثورة آنذاك وأدعت أنه علي لسان المشايخ وكانوا يستعيذون فيه من الفتن ما ظهر منها وما بطن ويطلبون من الناس أن يهتموا بأسباب معيشتهم ويكفوا عن مقاومة الحملة الفرنسية
- بالفعل هناك شبه بين النداء والمنشور الذي تذكرته والفرق هو أن المنشور جاء علي لسان المشايخ الذين هم كانوا بطبيعة الحال زعماء الشعب ، أما النداء الذي نحن بصدد الحديث عنه فقد جاء علي لسان زعماء الأمة علي أختلاف توجهاتهم ودياناتهم فمنهم رجل الدين المسلم ومنهم أيضاً رجل الدين المسيحي وكذلك منهم سياسيين مسلمين ومسيحيين
- فهل ذكر الرافعي أسماء من قام بالتوقيع علي هذا النداء ؟
- بالتأكيد فهو كمؤرخ أمين يذكر أي حدث بجميع التفاصيل المتيسرة لديه

---

[٣٥٦] من كتاب (ثورة ١٩١٩ – تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلي سنة ١٩٢١) تأليف عبد الرحمن الرافعي – صفحة ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ – الطبعة الرابعة ١٩٨٧– دار المعارف

- فهل ممكن أن تقرأ بعض الأسماء الموقعة علي هذا النداء ؟
- بالتأكيد ولكن أريد قبل ذلك أن أوضح نقطة مهمة ذكرها الرافعي عن استبدال السير ونجت بشخص آخر رأت بريطانيا أنه أكثر شكيمة منه لقمع هذه الثورة وهو اللورد اللنبي
- هذا الجنرال الذي قاد التجريدة المصرية لاحتلال فلسطين ؟
- نعم ، وقد ذكر الرافعي عن هذا الموضوع ما يلي : أسلفنا القول بأن الحكومة الإنجليزية استدعت السير ونجت إلي لندن لتقف منه علي تطور الأحداث في مصر ، فلما تفاقمت الحوادث بعد رحيله وشبت الثورة رأت أن تستبدل به مندوباً آخر أكثر شكيمة وأقوي بأساً ، وأقدر علي مواجهة الثورة وقمعها ،، بتعيين الجنرال اللنبي مندوباً سامياً فوق العادة في مصر والسودان ، أما أسماء الموقعون علي النداء فكان منهم : شيخ الجامع الأزهر محمد أبو الفضل الجيزاوي ، مفتي الديار المصرية محمد بخيب ، بطريرك الأقباط كيرلس ، شيخ مشايخ الطرق الصوفية عبد الحميد البكري ، رئيس المحكمة الشرعية العليا محمد ناجي ، نقيب الأشراف عمر مكرم[٣٥٧] ، حسين رشدي باشا ، عدلي يكن باشا ، أحمد مظلوم باشا ، إسماعيل سري باشا ، يوسف وهبه باشا ، عبد الخالق ثروت باشا ، أحمد حلمي باشا ، يوسف سابا باشا ، أحمد زيور باشا ، نجيب بطرس غالي باشا ، علي شعراوي باشا ، عبد العزيز فهمي بك ، أحمد لطفي السيد بك ، جورج خياط بك ، سينوت حنا بك ، وغيرهم ، وقد ذكر الرافعي أسمائهم بالكامل في كتابه بعد أن أورد نص النداء
- واضح من هذه الأسماء أنهم ينتمون إلي طبقة مختلفة عن عموم الشعب المصري فيما أظن ، فهل لديك معلومات أكثر تفصيلاً عنهم أو عن بعضهم
- هناك كتاب طريف اسمه (في المرآة) كتبه الشيخ عبد العزيز البشري وكان يتناول كل أسبوع شخصية عامة في جريدة السياسة الأسبوعية بأسلوب ساخر وقد ذكر بعض المذكورة أسمائهم كعدلي يكن وعبد الخالق ثروت وأحمد زيور والشيخ أبو الفضل الجيزاوي وأحمد مظلوم باشا وغيرهم بالإضافة إلي سعد زغلول بالطبع
- وهل متوفر لديك الآن هذا الكتاب لتقرأ منه ؟
- بالتأكيد ولكن هذا سيأخذنا بعيداً عن موضوعنا وعن سرد أحداث الثورة
- لا توجد مشكلة بل بالعكس فإن إلقاء الضوء علي بعض شخصيات ذلك العصر سيوضح الكثير

١٢٨. بعض ما ورد في كتاب(في المرآة) لعبد العزيز البشري عن شخصيات ذلك العصر

- لا مانع ولنبدأ مثلاً بالشيخ أبو الفضل الجيزاوي أول الموقعين علي هذا النداء حيث كتب عن الشيخ البشري ما يلي : ألا من شاء أن يقدر مبلغ التطور الذي دخل علي رجال الدين عندنا ، ويعرف مدي

[٣٥٧] لاحظ وجود تشابه أسماء بين نقيب الأشراف والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف في عهد محمد علي باشا

الطفرة العظيمة التي طفروها فليسمع القصة التالية : كان في الأزهر من ستين أو سبعين سنة عالم جليل المقدار يُدعي الشيخ الاسماعيلي ، وكان يسكن الجامع المؤيد وله تلميذ خاص علي عادة كبار العلماء في ذلك الزمان يقرأ بين يديه درسه إذا أقبل علي حلقته ويتلوه عليه إذا خلا لمذاكرته ويعينه إذا سعي ويصب له ماء وضوئه – – إلخ ، وهذا التلميذ كان يُدعي الشيخ حسناً ، وكان الشيخ الاسماعيلي رجلاً شديد الزهد في الدنيا قوي الرغبة عنها ، لا يتعلق منها بسبب إلا ما كان من شأن دينه وتعليم طلبته ، وكانت وظيفته كل يوم بضعة رُغفان يتبلغ بها وتلميذه ، وفي كل شهر ثلاثين قرشاً يأتَدِم بها وصاحبه ، ويتجمل بما فضل منها لسائر حاجاتهما ، ويدعو أحد التجار ذلك الشيخ ليتغدي عنده التماساَ لبركته فيأبي الشيخ ويعتذر ، ويلح الرجل في الدعوة فيلح الشيخ في إبائه واعتذاره ، فلما أيس الرجل من إسلاس الشيخ ، طلب وجه الحيلة في الأمر فاختلي بالشيخ حسن وقال له : إذا رُضتَ لي نفس الشيخ وقدته إلي داري ليفطر عندي في رمضان ، وقد أصبحوا من رمضان علي أيام ، اجتعلت لك علي هذا نِحيين من السمن ، وغِرارتين من القمح ، وأربعة أعدال من السكر والصابون والشمع والبن ، فجمع الشيخ حسن كل عزمه وانصب علي شيخه يقبل يديه ورجليه ويسأله ألا يخيّب رجاء داعيه ، إذ الشيخ ما يزال في نفوره وإبائه ، والشيخ يلح في الاعتذار محتجاَ بأنه ما زال في خزانته خبز كثير ، ولما طال إلحاح التلميذ فطن الأستاذ إلي أن في الأمر شيئاً فقال له : هل اجتعل لك الرجل علي هذا جُعلاً ؟ فقال : بلي يا مولاي لقد جعل لي كيت وكيت ، وأنا رجل كما تعلم ذو زوجة وأولاد ، وإني أرجو أن أعود بهذا علي شملي وأوسع في النفقة دهراً علي عيالي ،، وحينئذ طابت نفس الشيخ الأكبر بإجابة الدعوة رحمةً بعيال الشيخ الأصغر ، وعيَّن يوماً من أيام رمضان ليفطر فيه عند ذلك التاجر ، ويطير عم الشيخ حسن إليه يبشره بقبول الشيخ ، ويحتفل الرجل للأمر فيدعو بأجود الطهاة ويتقدم إليهم بطهي أزكي الأطعمة ، كما يدعو لليوم المعين أعيان التجار والسراة وكل ذي خطر في الحي لينعموا بطلعة الشيخ ويتشرفوا بمؤاكلته ، حتي إذا كان عصر ذلك اليوم لاحظ الشيخ حسن علي أستاذه فتوراَ وإغضاء وتربُّد وجه وانقباضاً عن الحديث حتي إذا تهيأت الشمس للنزول قال لصاحبه : هلم بنا ، وانطلقا يطلبان حي الجمالية مثوي الداعي وما كادا يتشرفان علي حارته حتي أبصرا علائم الزينة من بنود خافقة وثريات آلقة ترتجف أثناء ذلك بطاطيخ الزجاج في ألوانها ، ورأيا كبار الأعيان وهم ميممون دار الداعي علي أُتُنهم وبراذينهم الفارهة ، فجمد الشيخ واصفر وجهه وتهدلت شفته وأرعشت يداه وصاح في تلميذه : كم اجتعل لك الرجل يا شيخ ؟ فقال : جعل لي كيت وكيت ، قال : فكم يبلغ ثمنها ؟ قال : حول الأثني عشر جنيهاً ، قال : فقسُّطها عليَّ كل شهر ثلاثين شهراً ، ودار علي محوره وجري طلقاً إلي مثواه في جامع المؤيد حيث يبسُط خِوانه مما ادخر من الخبز في خزانته ، وفينا اليوم علماء كبار ، ولنا اليوم شيخ إسلام جليل المقدار ، لم يمنعهم علمهم ولا دينهم ولا شدة ورعهم عن أن يفقهوا الدنيا ويجاوروها في مظاهر حضارتها حتي لا يطلقوا فينا القالة

ولا يبعثوا الألسن بتنقُّص الدين والقول بأنه يدعو إلي الجمود ، وذكرت مرجع ذلك الشيخ الجامد وهربه من تناول طعام لعله قد دخله ما لا يحل ، والشيخ أبو الفضل الجيزاوي رجل عصامي حقاً فقد خرج من بلدته الورَّاق من أعمال مركز إنبابة إلي الأزهر وجد في طلب العلم وكدح في ذلك كدحاً عنيفاً قام عنده مقام شدة الذكاء وقوة الاستعداد ، وانتهي أمره لا أدري بأية وسيلة إلي المرحوم الشيخ العباسي المهدي الذي كره له لقبه فدعاه (أبا الفضل) فذهب له هذا اللقب من ذلك اليوم ولما استوي عالما مدرسا كان المرحوم العباسي يعتمد عليه في بعض وسائل امتحان العالمية في الأزهر ، ورأي الشيخ أبو الفضل أن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا كما يعمل لآخرته كأنه يموت غدا ، فحرص علي جمع المال ، وكم واسي به عاتيا وكم فرج به كربة محتاج ، علي أن الله تعالي قد أنعم عليه وجازاه فيما أعطي أضعافاً مضاعفة ، وظل الشيخ مدرساً في الأزهر معروفاً بشدة الاجتهاد والمطاولة في الدرس وقوة الصبر علي التفهم علي عادة الأكثرين من علماء الأزهر في عهده فكان درسه من أحفل الدروس بطلبة هذا النوع من التعليم ، وهو رجل معروف بحب القرآن وتلاوة القرآن فلم يتبطر وهو عالم كبير علي أن يلي مقرأة السلطان الحنفي لقاء ريال في كل شهر وعشرين رغيفا في كل أسبوع ، ثم ولي مشيخة معهد الإسكندرية وظل فيها إلي أن أفضت إلي مشيخة الإسلام في سنة ١٩١٦ أو ١٩١٧ م ، ويأبي الله إلا أن يفسح له في الخير ويبسط له في الرزق - - - إلي ما أضيف إلي ذلك من وظائف عدة تجري علي مولانا الشيخ الأكبر في كل شهر مكافأة علي حضور مجلس إدارة مدرسة القضاء الشرعي وأخري لمدرسة دار العلوم ، وثالثة علي حضور مجلس الأوقاف الأعلي ، ورابعة لمجلس البلاط وخامسة وسادسة ،، ، إلي تلك الأوقاف الواسعة التي دخلت علي مشيخة الأزهر والتي لا يعلم حسابها إلا الله تعالي وما شاء الله كان ، وقد أصبح من المرض وتزاحم السنين أشبه بمومياء حتي لو قد استدرجته إلي يوماً إلي دار الآثار ما استطعت أن تستخرجه منها إلا بعد جدال وجهد في الإثبات[٣٥٨]

،

- واضح أن أسلوب الشيخ عبد العزيز البشري أسلوب رشيق وممتع فمن أيضاً من الموقعون علي النداء يمكن أن تقرأ لي عنه من هذا الكتاب لأن هذا الكتاب لا يلقي الضوء فقط علي الشخصية المقصودة ولكنه يوضح الكثير عن طبيعة المجتمع في ذلك الوقت
- يمكن أن تناول شخصية أحمد مظلوم باشا فقط ، علي الأقل الآن ثم إذا تطرق الحديث لشخصية أخري أثناء الحوار قد نلجأ لهذا الكتاب لتوضيح المزيد من المعلومات عنها ، ولكن تذكر أنه كتاب ساخر وبه الكثير من المبالغة
- أتفهم بالطبع ، فماذا ورد عن أحمد مظلوم باشا ؟

[٣٥٨] نقلاً باختصار عن كتاب في المرآة تأليف الشيخ عبد العزيز البشري رحمه الله ورحم الله كل من أدرجهم في مرآته وجميع موتي المسلمين ورحم الله الشيخ أبو الفضل الجيزاوي وغفر لهم أجمعين

- يقول الشيخ البشري عن أحمد مظلوم باشا ما يلي : لعمري لو وقفت علي عُنُق[٣٥٩] من الناس فحاجيتهم : ما أطول الحظوظ في أطول الأعمار في أطول الأجسام ؟ لأجابوك في نفس واحد : (مظلوم) ،،، وجه طويل علي علي عنق طويل علي جسم طويل ، ولو رأيته يمشي ولم تكن بعد عرفته لخُيِّل لك أنه (زفة بهلوان) وقف فيها رجل علي كتفي رجل ، وفي الحق لو قدّر –لا سمح الله– وأُزيل عنقه وما فوقه عن كتفيه وما دونهما لتمثّل منهما رجلان أشبه ما يكون كل منهما بخلق مظلوم ، وإني لأخشي أن ينكشف الزمن ولو بعد حين عن أن مظلوماً هذا رجلان إقتصاديان اتصلا بحيلة لطيفة حتي خرجا للناس في صورة رجل واحد توسلاً بهذا إلي ألا يدفعا عند السفر إلا ثمن تذكرة واحدة وفي الفندق إلا أجر سرير واحد وفي المطعم إلا عشاء رجل واحد وللخياط إلا ثمن بدلة واحدة ، وحدثتك بأنه طويل الحظ فقد خاض به حظه أهل الكفايات وأصحاب العلم والاختبار في عصره فتخطي به رقابهم إلي الوزارة ، ويظل وزيراً أو (ناظراً) للمالية في عهد اللورد كرومر قرابة ثلاث عشرة سنة إلي أن دالت الأيام لعهد السير غورست ، وانحرف وجه السياسة فهدت تلك الوزارة هداً ، ومظلوم أكفأ الإنس والجن لأن يظل ناظراً للمالية ثلاث عشرة سنة لا يلي أمراً . ولا يُراجَع في مسألة ولايُبدي رأياً ولا يقرأ سطراً ولا يكتب كلمة ، ولا ينطق بحرف ، حتي يقال له خذ متاعك لقد سقطت الوزارة ، فلا يجد ما يحمله معه إلا أنفه وإلا يديه ورجليه ، أستغفر الله ، وإلا الختم ، فنحن إذا أردنا أن نترجم لمظلوم باشا في حياته الوزارية فإنما نترجم عن الختم ، والله يعلم ما تعب إلا الختم ولا جَهِد إلا الختم ولا استحق المعاش الكامل في الواقع إلا هذا الختم ، فطالما دار في غفلة مولاه وبَرَم ، وطالما نقش وبصم ، وبدَّل من أحوال الدولة أحوالاً ، وبدَّد أعلاقاً وأموالاً ، وبسط للشركات الأجنبية في أرضها بسطاً ، وأخرج عنها جلائل أملاكها قسطاً فقسطاً ، فإذا حملتم للباشا أيها المصريون علي هذا حمداً أو لوماً فاصرفوه كله إلي هذا الختم وحده ، فإن الباشا –والله– لكإسمه مظلوم ، ويُدسَّي بعد هذا في المعاش وقد نيَّف علي السبعين ، وينقطع عن الناس خبره فلا يدرون أيكتبونه في جريدة الأحياء أم يدرجونه في سجل الأموات ، ولكن يأبي له حظه الكبير إلا أن يبعثه بعد هذا بعثاً كبيراً فيتولي صهره ووارثه محمد سعيد باشا رياسة الوزراء ويستقيل المغفور له الأمير حسين كامل من رياسة الجمعية التشريعية فيجئ لها سعيد بصهره ومورثه (بعد ٥٠٠سنة) إن شاء الله مظلوم ، فيزيد في الإرث بمقدار ثلاثة آلاف جنيه في العام مرتب رياسة الجمعية ، من فوقها خمسمائة بدل ولائم ، وسعيد كان أكيس من أن يظن أن مظلوماً (يقل عقله) ويصنع في عمره لأيٍّ كان وليمة واحدة ، وتدخل الحرب العامة وتقف الجمعية التشريعية ويظل مظلوم يحزُّ علي الحكومة ثلاثة آلاف وخمسمائة جنيه كل عام حتي يأذن الله ويُعلَن حلها في آخر عام ١٩٢٤ من حيث بدأت حياة البرلمان ، علي أن حظ مظلوم لم ينحل بانحلال الجمعية التشريعية فقد انزلق أيضاً إلي مجلس النواب بل أضحي له رئيساً ثم صار وزيراً للأوقاف أيضاً يقتضي من الراتب ما

---

[٣٥٩] أي جماعة منهم

يقتضي الوزراء ، ومظلوم باشا غني فظيع الغني يجري وراء الدنيا والدنيا تجري وراءه حتي لم تجد بين أولئك الملايين الذين يحرزون سندات بلدية باريز عائلاً مسكيناً محتاجاً تحبوه نمرتها الرابحة ١٠٠٠٠ جنيه إلا أحمد مظلوم ، وله عمارات هائلة وأطيان تعيي مصلحة المساحة وأوراق مالية يخطئها العد ، ونقود في المصارف لا تكاد تحيط بها الأرقام ، إذ هو في كل هذا يتيم فرد لا أم ولا أب ولا أخ ولا أخت ولا ولد ، ولكنه رجل شديد البر بأهله من أولاد الإخوة وأولاد الأخوات ، فإنه ليضن علي نفسه بالدانق والسحتوت ويقمع نفسه عن التطلع إلي شئ مما تتطلع إليه أنفس الناس من ملاذ الدنيا ومتعها إيثاراً لهؤلاء فهل رأيت براً أعظم من هذا البر وإيثارا أبلغ من هذا الإيثار ، وكان له بيت يسكنه في محطة (مظلوم) بالرمل ، فلاحظ أحد أصدقائه أنه اتخذ لجلوسه غرفة لا تصلح لهذا في حين قد امتلأ البيت بأحاسن الغرف ، فراجعه في هذا حتي فطن إلي أن الباشا إنما اتخذ هذه الغرفة لمجلسه لأن مصباح الشارع يقوم بإزائها فلا تجشمه نفقة المصباح – – – وبعد فما أعرف أحد أمتن صبراً ولا أطول بالاً من هؤلاء المساكين ورثة مظلوم فقد انتظروا أدهارا والأعمار تتصرم والأنفس تتخرم والباشا –أحياه الله الحياة الطيبة– لا يزداد علي الأيام إلا قوة ولا يكسبه طول السن إلا شبابا وفتوة[٣٦٠]

- لقد كان ذلك رائعاً وممتعاً حقاً وقد خفف كثيراً من جدية الحوار ، ولنعود مرة أخري للحديث عن الثورة
- إن الموضوع باختصار شديد أن الثورة استمرت في جميع أنحاء مصر إلي أن قام الإنجليز بمهادنتها والسماح للوفد المصري أن يتوجه إلي مؤتمر الصلح في باريس حيث أعادوا سعد زغلول ورفاقه من منفاهم وسمحوا لهم بالسفر ولحق بهم باقي أعضاء الوفد من مصر
- فماذا حدث للوفد المصري في أوروبا ؟
- اكتشف سعد زغلول في أوروبا أن المؤامرات الاستعمارية أقوي من مبادئ الديموقراطية كما ذكرت لك من قبل ولقد أعرب سعد زغلول عن خيبة الأمل في السياسة الأوروبية في رسالة بعث بها إلي محمود باشا سليمان رئيس حزب الأمة ووكيل الوفد يقول فيها : منذ وصولنا باريس وجدنا جميع الأبواب موصدة في وجوهنا وكل الجهود والمساعي لم تؤد إلي نتيجة ، إن مهمة الوفد قد انتهت ولم يبق أمل في الحصول علي الاستقلال التام ، وإن كل قول عدا ذلك يعد مغالطة وأن عمل الوفد الآن ما هو إلا تنظيم للهزيمة
- فماذا حدث بعد ذلك ؟
- عاد الوفد إلي مصر وقام الشعب باستقبال سعد باشا زغلول استقبال وصفه الأستاذ العقاد وصفاً بليغاً
- فكيف وصف العقاد استقبال الشعب لسعد زغلول عند عودته من أوروبا ؟
- كيف وصف العقاد استقبال الشعب لسعد زغلول عند عودته من أوروبا بعد فشل الوفد في مفاوضات الاستقلال

---

[٣٦٠] نقلاً باختصار عن كتاب في المرآة تأليف الشيخ عبد العزيز البشري رحمه الله ورحم كل من أدرجهم في مرآته ورحم أحمد مظلوم باشا وغفر لهم أجمعين

١٢٩. استقبال سعد زغلول عند عودته بعد فشل الوفد في مفاوضات الاستقلال

- يقول العقاد : - - - ملك سعد ناصية الموقف من ساعة وصوله إلي شاطئ الإسكندرية ، وثبت في عالم العيان لمن كان في شك من الأمر إن هذا الرجل أقوي قوة في سياسة مصر القومية وأن كل اتفاق بين مصر وانجلترا يتم علي الرغم من هذا الرجل أو مع إغفال شأنه وتهوين خطره مستحيل ، لقد كان اليوم الرابع من إبريل –يوم وصوله إلي الإسكندرية– يوم الجيل بأسره في العالم بأسره ولك أن تقول وأنت آمن من الغلو أن استقبال سعد في ذلك اليوم وفي اليوم الذي بعده كان أفخم استقبال لرجل من الرجال في أوائل القرن العشرين ، فقد انتظمت مصر موكباً واحداً للحفاوة به من شاطئ البحر بل من مدخل الميناء إلي عاصمة الديار المصرية وارتفعت الزينات وأقواس النصر من سلم الباخرة إلي حجرته في فندق كلاردج الذي نزل فيه وكان الناظر لا يري في كل مكان إلا صورة سعد ولا يسمع إلا الهتاف باسمه وأناشيد المترنمين بذكره ، وانقضي اسبوع قبل وصوله والوفود تتزاحم علي الاسكندرية من أقصي القطر إلي أقصاه حتي تعذر المبيت في الفنادق ولجأ الناس إلي البيوت يسألون أصحابها أن يؤوهم إلي مكان يسكنون إليه ريثما يحين اليوم الموعود ، ولم تبق شرفة في الطريق إلا غالي المستأجرون بثمن الوقفة فيها بضع ساعات حتي نيفت أجرة الشرفة علي أجرة البيت ، وضاقت الطرقات عن مسير المركبات وأوشكت أن تضيق عن مسير الأقدام من مجاز إلي مجاز ، ولما استقل القطار من الإسكندرية إلي القاهرة تلاحقت الجموع علي طول الطريق تأبي إلا أن تستوقفه مرات في غير مواضع الوقوف ومنهم من كانوا يترامون علي القضبان في بعض القري الصغيرة ليغتنموا لحظة من الوقت يقف فيها القطار ويطل فيها الزعيم علي المستقبلين ، وخرج كل مستطيع الخروج في مدينة القاهرة إلي الطريق ما بين باب الحديد إلي بيت الأمة يترقبون من الصباح ساعة قدوم الرئيس في نحو الخامسة من المساء فلما لاح لهم في سيارته نسوا أنفسهم أفراداً وذكروا أنفسهم قوماً واحداً لا اختلاف فيه بين صوت وصوت ولا بين دعاء ودعاء ، وبلغ من نسيان النفس وغلبة الوجدان علي الإرادة أن أناساً كانوا يتسلقون الأشجار والأسوار أرسلوا أيديهم ليصفقوا وهم لا يدرون أنهم معتصمون بتلك الأيدي من خطر الوقوع ، ولا خطر في الحقيقة من الوقوع حيث لا أرض في طول الطريق إلا وقد غشاها ألوف الواقفين ، وتمشت السيارة الهوينا وهي تكاد تزحف من بطء المشية بين الصفوف ، وسعد واقف عليها بقامته المديدة وطلعته المهيبة ومحضره المأنوس يحيي المحيين بكلتا يديه وتسترسل الدموع من عينيه ، وتلك طبيعة فيه إذا جاشت نفسه بالشعور واهتزت أريحيته بهزة الجمهور ، ولا نطيل في سرد أسماء المستقبلين ووصف معالم الاستقبال فإنما أردنا الأثر الطبيعي المفاجئ الذي كان لاستقبال سعد في ضمير الأمة مما له دلالة قومية ، ولم نرد المراسم والأشكال التي قد تتكرر في كل يوم بغير دلالة ، ويكفي أن نقول ان مصر لم تتمثل تمثلاً في موكب الاحتفال بعودة زعيمها الراجع إليها ولكنها كانت كلها موكب احتفال واحد لم يتخلف عنه مصري واحد قادر علي

حضوره أو المشاركه فيه ، وانقضي يوم الوصول إلي الإسكندرية ويوم الوصول إلي القاهرة ولم يحدث في المدينتين الحافلتين بألوف الألوف من أهلهما والوافدين إليهما ولا في طول الطريق بينهما حادث واحد مما يسجله الموكلون بالأمن في سائر الأيام ، كأنما غاب الأفراد في غمار (أمة واحدة) فلم يبق بينهم ما يكون بين الأفراد من نزاع واعتداء - - - - - فلم يخرج الشعب لفرجة - - ولكنها قوة أحسها الشعب فانبعث بها إلي حيث تتلاقي أفواجه وتتزخر أمواجه ، وذلك الرجل هو عنوان تلك القوة أو لسان تلك القوة أو مناط الأمل المرجو من تلك القوة ، وإذا وجدت الشعوب نفوسها واهتدت إلي سريرتها فإنما تجدها وتهتدي إليه في لحظة من لحظات النشوة الوطنية كتلك اللحظة التي استثارها فيها حب الزعيم والشوق إلي مرآه[٣٦١]

- إن هذا الاستقبال يؤكد بما لا يدع مجالا للشك نجاح الإنجليز في صناعة زعيم شعبي علي أعلي مستوي ليكون بديلاً رائعاً للحزب الوطني المتشدد كما يقولون ، فهو رجل سياسة وليس رجل حرب كعرابي وهو يفضل المفاوضات وليس المواجهات كمصطفي كامل ولا مانع من أن يتولي الوزارة ويسيطر علي مصر نيابة عنهم بل ويحملونه مسئولية تأمين قواتهم ومنشآتهم ورعاياهم دون أن يسبب لهم أي مشاكل من أي نوع فهو زعيم قومي وليس إسلامي وبيته أصبح هو بيت الأمة وزوجته أصبحت أم المصريين وليس معني هذا أنه لا يريد الاستقلال أو لا يعمل لصالح مصر بل إنه يبذل أقصي مجهود لتحقيق مصالح الشعب المصري وللحصول علي الاستقلال ولكن بأسلوب غير مزعج
- أعتقد أنك قد وقفت علي المخطط البريطاني لترويض الشعب المصري وإفقاده لهويته الإسلامية ودعم قوميته المصرية كما فعلوا مع القومية العربية والقومية التركية
- يبدو أن ثورة ١٩١٩ كانت بالفعل نقطة تحول في تاريخ الشعب المصري حيث جعلته يهتم بقضاياه الوطنية أكثر من أي شئ آخر في العالم الإسلامي وفصلته عنه بشكل كبير ، فأصبح له زعماءه ورموزه وقوميته الخاصة ، فماذا حدث بعد ذلك ؟
- استمرت مقاومة الاحتلال البريطاني رغم كل جهود رجال السياسة في مصر لاستبدال العنف بالمفاوضات ، مما أزعج الإنجليز
- إن الذين قاوموا الاحتلال البريطاني بعيداً عن المناورات والمفاوضات السياسية كانوا فيما أعتقد يفهمون طبيعة التعامل مع الإنجليز بالأسلوب الذي يليق بهم فهو الأسلوب الوحيد الذي يمكنه تغيير الموقف في مصر ، فالمستعمرون لا يفهمون إلا لغة القوة فهل لديك معلومات عن الانقسام التاريخي الشهير الذي حدث بين سعد زغلول وعدلي يكن ؟

[٣٦١] نقلاً عن كتاب سعد زغلول سيرة وتحية لعباس محمود العقاد

- كان قد حدث انقسام بين صفوف الشعب واختلاف علي من سيقوم بتمثيل الشعب في المفاوضات بعد ذلك هل سعد زغلول الزعيم الشعبي أم عدلي يكن الذي تولي رئاسة الوزارة ؟ وكل هذه الأحداث بالطبع تمت في عهد تولي السلطان فؤاد الأول عرش مصر بعد وفاة السلطان حسين كامل
- فهل لديك معلومات عن هذا الانقسام ؟

١٣٠. انقسام الشعب بين عدلي وسعد سنة ١٩٢١

- كان عدلي باشا يكن يتولي رئاسة الوزراء وقام بتشكيل وفد رسمي لاستئناف المفاوضات مع الاحتلال الإنجليزي وعرض علي سعد باشا زغلول ومن معه المشاركة فيه ليصبح الوفد الشعبي جزء من الوفد الرسمي مما أغضب سعد زغلول ومؤيديه والذي كان يرأس الوفد الشعبي الذي سافر إلي أوروبا من قبل بعد ثورة ١٩١٩ وسدت جميع الأبواب في وجهه ، فانقسمت البلاد بين مؤيد للوفد الرسمي ومؤيد للوفد الشعبي ، ثم تطورت إلي أحداث مؤسفة
- فماذا كتب الرافعي عن هذا الانقسام ؟
- إليك بعض مما كتبه عبد الرحمن الرافعي عن هذا الموضوع : - - - وقد زادت المظاهرات عنفاً بعد تأليف الوفد الرسمي سواء في القاهرة أو الاسكندرية وفي كثير من المدن الأخري واتخذت طابع العداء لكل من خالف سعداً في رأيه ، والنداء بسقوطهم والاعتداء علي منازلهم بالطوب والحجارة ، وكان هذا من الظواهر الأليمة للانقسام ، ومن الأسلحة الممقوتة في الخصومة السياسية لأن النضال السياسي بين المختلفين في الرأي من أبناء الأمة يجب أن يكون مقصوراً علي نضال الآراء ومقارعة الحجة بالحجة وبذلك ينضج الشعب وترقي أفكاره ومداركه ، أما تحريض الجماهير علي الخصوم السياسيين واتخاذ الاعتداء وسيلة لإكراههم علي تغيير آرائهم فهو وسيلة تفسد الحياة السياسية وتهدم حرية الرأي والعقيدة ، ولقد نشر الأمير عمر طوسون نداءً بتاريخ ٢١مايو سنة ١٩٢١ يستنكر فيه هذا الاعتداء قال فيه : (يا أبناء بلدي الأعزاء ، بلغني مع أشد الأسف ما حدث من بعض أشخاص غير مسئولين في أثناء المظاهرات السلمية مثل مهاجمة بيوت بعض المخالفين لكم في الرأي والتقاذف بالأحجار في الشوارع الأمر الذي ما كنا ننتظر صدوره من أي مصري ونحن قوم نريد الاستقلال ونطلب الحرية وأساس هذا المبدأ احترام كل فريق رأي الآخر وعدم الحظر علي أحد وإن شذ في رأيه ، وإذا لم نحترم هذا المبدأ فلماذا نشكو من ضغط الإنجليز علي حريتنا ومصادرتهم لنا في آرائنا وكيف بعد هذا تريد طائفة منا إرغام مخالفيها علي اتباع رأيها بالقوة ؟ ، فأرجوكم أشد الرجاء الإقلاع عن هذه الخطة التي تضر قضيتنا المقدسة أكبر ضرر وتشين سمعتنا وتحط من كرامتنا ، وأناشد كل مخلص لوطنه محب لبلاده أن يجتهد في منع ما يثير شبه الأجانب فينا ويبعد عطفهم ويخلق التهم بالباطلة لنا ، إنني لأقول هذا لا انحيازاً إلي جانب الوزارة لأني غير موافق علي خطتها كما أظهرت في اقتراحي ولكن

الواجب هو الذي دفعني أن أبين لكم الخطر الذي ينجم عن سلوك طائفة منا غير المسلك القويم ، هدانا الله جميعاً إلي الصواب)

- إن أكثر ما لفت انتباهي في بيان الأمير عمر طوسون هو جملة (ما يثير شبه الأجانب فينا يبعد عطفهم) فإلي هذا الحد كان النظر إلي رأي ألد الأعداء والخوف من اتهاماتهم لنا واستدرار عطفهم وهم من يريدون لنا الشر دائماً ، والأعجب من كل هذا أنهم السبب في كل ما أحدثوه في مصر من أفكار هدامة أبعدت الشعب عن الترابط والاعتصام بحبل الله ، وجعلتهم يفهمون الديموقراطية فهم خاطئ
- هذا صحيح فالغرب لا يريد لنا النجاح والنهوض لا بثوابتنا الإسلامية ولا حتي بتطبيق النموذج الغربي كما يدعون ، فهم يريدون لنا الضياع في اليم بين النموذجين دون الوصول إلي بر الأمان بحيث لا نصل إلي البر الخاص بهم ولا نتمكن من العودة إلي البر الخاص بنا
- فماذا حدث لبيان الأمير ؟
- يضيف الرافعي : ولكن هذا النداء الحكيم ذهب عبثاً في تيار الفتنة التي فرقت بين الناس وألقت بينهم العداوة والبغضاء وازدادت المظاهرات عنفاً في الاسكندرية ، واشتبك المتظاهرون يوم الأحد ٢٢ مايو سنة ١٩٢١ مع بعض الأجانب من الطبقات المتأخرة في حي الهماميل وتبادل الفريقان إطلاق الرصاص واشتعلت النار في عدة منازل ونهبت بعض المحال التجارية الأجنبية ، وبالجملة تحولت هذه المظاهرات إلي اضطرابات ألقت الفزع في النفوس ، وقد تدخل البوليس ثم الجيش المصري لقمعها ، ولم يعد النظام إلا في نحو الساعة الثالثة صباحاً ، واستمرت الاضطرابات الدامية يوم الاثنين ٢٣ مايو وتبودلت العيارات النارية من جديد بين الوطنيين والأجانب ، فتدخل جيش الاحتلال وتولي قومندان القوة البريطانية المرابطة في الاسكندرية قيادة المدينة ، وأصدر أمراً عسكرياً بمنع المرور في الشوارع بين الساعة التاسعة والنصف مساءاً إلي الساعة الرابعة صباحاً ما لم يكن بيد الشخص إذن بالمرور ، وبغلق جميع المحال العمومية في الساعة التاسعة مساء ، وقد عاد الهدوء إلي المدينة منذ مساء ذلك اليوم
- من الملفت أن يدفع الإنجليز أولاً بقوات الأمن المصرية فإذا فشلت في السيطرة علي الأمور يقومون بالمهمة بأنفسهم ، وعلي أي حال إنها أحداث مؤسفة بالفعل ، والسياسيون المصريون يتحملون مع الإنجليز مسئولية ما حدث ، لقد كان يجب علي أي سياسي وطني كما يدعي أن يوضح للشعب أن هناك انقسامات عديدة تحدث في جميع بلاد العالم وتلجأ الشعوب المتحضرة كما يدعون إلي الصناديق لحسم هذه الانقسامات ، أما في الشعوب المتخلفة التي فقدت هويتها وثقتها بنفسها فتتحول الانقسامات إلي اضطرابات وقد تصل إلي حروب أهلية ، فكم بلغ عدد الضحايا في هذه الأحداث ؟
- يقول الرافعي : بلغ عدد ضحايا تلك الاضطرابات الممقوتة ٤٣ قتيلاً و ١٢٩ جريحاً من المصريين و ١٥ قتيلاً و ٧١ جريحاً من الأوروبيين فكان لهذه المأساة وقع أليم في النفوس ورأي سعد أن

المظاهرات قد تعدت إلي الأجانب وتحولت إلي اضطرابات هي أبعد ما تكون عن التظاهر وأدرك خطورة العواقب السيئة التي نجمت عنها فنشر نداء ٢٤مايو بالحث علي الهدوء والسكينة وحسن معاملة الأجانب٣٦٢ ، وجدير بالذكر ان مفاوضات الوفد الرسمي برئاسة عدلي باشا يكن قد باءت بالفشل أيضاً كمفاوضات الوفد الشعبي برئاسة سعد زغلول ثم استقالت الوزارة ، وعندما أدرك الإنجليز عدم جدوي المفاوضات قاموا بإعلان تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ من جانب واحد وفرضوا فيه ما رفضه المصريون في المفاوضات وهو وجود قاعدة عسكرية بريطانية في مصر وإعلان الاستقلال وقيام حكومة دستورية في البلاد مع وجود مندوب لبريطانيا يتمتع بنفوذ خاص

١٣١. إعلان بريطانيا تصريح ٢٨فبراير ١٩٢٢ من جانب واحد

- بالطبع لن يقبل أي مفاوض مصري بما جاء بهذا التصريح فاضطر الإنجليز لإعلانه من جانب واحد ، وهل صدق المصريون أن هذا التصريح قد أعطي لمصر الاستقلال ؟
- علي أي حال لقد تم وضع التصريح موضع التنفيذ وعمل علي تفعيله رئيس الوزراء عبد الخالق ثروت باشا الذي كان يرفض قبول الوزارة إلا بعد تم صدور هذا التصريح وقام السلطان فؤاد بإصدار أوامره للحكومة بإعداد الدستور وقانون للانتخابات لبدء حياة سياسية جديدة ، ومنذ ذلك الحين أصبح فؤاد ملكاً علي البلاد بدل من لقب سلطان ، وأصبح لمصر وزير للخارجية بعد أن كانت شأن من شئون بريطانيا ، وأهم ما يميز هذا التصريح أن الإنجليز قد حملوا الحكومة المصرية مسئولية تأمين الجيش البريطاني والرعايا الأجانب بدلاً منهم ، أي جعل المصريين يواجهون بعضهم بعضاً
- فما أبرز أحداث المقاومة التي تمت ضد الاحتلال البريطاني ؟
- حدثت هذه الاعتداءات في عهد اللورد أللنبي ووزارة عبد الخالق ثروت باشا وعن هذا الموضوع كتب المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي ما ملخصه :وتعددت حوادث اغتيال الموظفين البريطانيين ولم يعرف الفاعلون في معظمها وتحرج لها موقف الوزارة ، ففي مارس ١٩٢٢ أطلق مجهولان الرصاص علي المستر مكنتوش بك مدير قسم القطارات بالسكك الحديدية بالقرب من منزله بالزيتون فأصيب بإصابات بليغة وفي مايو أطلق مجهول الرصاص علي البكباشي كيف مساعد حكمدار فرقة ب بشارع الفلكي فمات من جراء إصابته ، وبلغت هذه الحوادث سبعاً ولم تهتد الحكومة إلي الجناة فيها ، وتم احتجاج الحكومة البريطانية علي حوادث الاغتيال فقد أدي تكرار هذه الحوادث وعدم ظهور الفاعلين فيها إلي انزعاج الحكومة البريطانية فاحتجت رسمياً لدي الحكومة المصرية ، وأبلغ هذا الاحتجاج كتابة إلي ثروت باشا رئيس الوزراء في مايو سنة ١٩٢٢ علي يد اللورد اللنبي المندوب السامي البريطاني وقد جاء فيه :" إن عدم الاهتداء إلي مرتكبي تلك الجرائم وبقاءهم بعيداً عن طائلة القانون يدل اوضح

---

[٣٦٢] نقلاً عن كتاب (في أعقاب الثورة المصرية سنة ١٩١٩) – الجزء الأول – عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف– الطبعة الرابعة ١٩٨٧

الدلالة علي عدم كفاية التدابير التي اتخذت لمنع وقوع تلك الاعتداءات ، وإن الحكومة البريطانية تجد نفسها تلقاء هذه الحالة مضطرة لأن تعتبر الحكومة المصرية مسئولة عن تعويض من يقع عليه اعتداء من الأجانب أو تعويض ورثته إن أدركته الوفاة ، كما أنها تحتفظ بحق تقدير كفاية التعويض الذي تمنحه الحكومة المصرية أو عدم كفايته" ، ورد ثروت باشا علي هذا الاحتجاج بأن الحكومة المصرية أول من يأسف لوقوع تلك الاعتداءات التي تنكرها وينكرها الشعب المصري ، وأنها اتخذت التدابير الأدبية والمادية لمنع وقوعها وهي لا تتأخر عن التشديد علي جهات البوليس بمضاعفة اليقظة والانتباه مبالغة في العمل علي زيادة تأثير التدابير التي سبق اتخاذها ، وأما عن التعويض فمع أن الحكومة لا تري بأنها مسئولة بأكثر من توفير شرطة تقوم بأداء واجباتها قياماً حسناً ، إلا أن ما تعودته من حسن الضيافة نحو الأجانب يجعلها لا تتردد في أن تمنح براً منها وكرماً من وقع به أمثال هذه الاعتداءات السياسية ما تري أن الظروف تقضي به من التعويضات وأن الحكومة أظهرت استعدادها للجري علي هذه الخطة في أحوال سابقة وأنها ستظهر مثل هذا الاستعداد كلما رأت الظروف تدعو إلي ذلك ، ويضيف الرافعي فيقول :وفي الحق أن الرد صيغ في قالب مملوء حكمة وكرامة واتزاناً ، ولم تقف حوادث الاعتداء إثر هذا الاحتجاج والرد عليه ، ففي ٣ يوليه اكتشف مؤامرة لاغتيال المستر برت المفتش بالسكة الحديدية ، وفي ١٥ يوليه أطلق بعض المتآمرين الرصاص علي الكولونيل بيجوت الموظف بالمصلحة المالية التابعة للجيش البريطاني فاصيب بإصابات بليغة ، فأرسل اللورد أللنبي إلي ثروت باشا كتاباً في ٢٠ يوليه يبلغه فيه أن الحكومة البريطانية تنظر بقلق متزايد إلي الاعتداءات المتكررة التي لم يتوصل إلي معاقبة مرتكبيها وآخر مثل منها محاولة أغتيال الكولونيل بيجوت وان الحكومة المصرية يتعلق بها أن تتخذ إجراءات شديدة لاكتشاف الجناة ومعاقبتهم ، وأن تضع حداً قاطعاً لحملة الجرائم السياسية ، علي أنه كلف بأن يخبره بأنه إن لم يتم ذلك فإن الحكومة البريطانية ستعتبر أن المسألة ذات خطورة كبري ، فرد عليه ثروت باشا بأن المندوب السامي لا يجهل أن الحكومة المصرية لم تقصر في اتخاذ تدابير خاصة في هذا الشأن وأخصها زيادة عدد القوات الأوروبية في البوليس لكي يتيسر له زيادة عدد دورياته وإذا كانت هذه التدابير لم تؤد إلي منع وقوع تلك الجرائم وتعرف مرتكبيها فإن الحكومة المصرية أول من يأسف علي ذلك علي أنها ستثابر علي الخطة التي أبلغها في رده السابق وأنها عملاً بهذه الخطة لن تألو جهداً في أن تزيد علي قدر المستطاع أشد التدابير المتخذة لمنع وقوع هذه الجرائم والبحث عن فاعليها وأنها تنوي أن تنشئ في وزارة الداخلية فرعاً خاصاً تحصر في يده التحقيقات الخاصة بالاعتداءات السياسية والإشراف علي الأبحاث المتعلقة بها[٣٦٣] وجدير بالذكر أن عبد الخالق ثروت باشا(1873 - 1928) ، كان رئيس

[٣٦٣] نقلاً عن كتاب (في أعقاب الثورة المصرية سنة ١٩١٩) – الجزء الأول – عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف– الطبعة الرابعة ١٩٨٧

وزراء مصر في عهد الملك فؤاد الأول .وقد تولى رئاسة الوزراء لفترتين من 1 مارس 1922 إلى 30 نوفمبر 1922 ، ومن 26 أبريل 1927 إلى 16 مارس 1928.

١٣٢. علاقة الملك فؤاد بعبد الخالق ثروت باشا رئيس الوزراء

- **إن أكثر يلفت النظر فيما ذكرت هو تولي الإنجليز وظائف دقيقة في مصر وأن الوزارة تشعر بأنها في وضع تحتاج فيه للدفاع عن نفسها وتعلن أسفها علي الضحايا الإنجليز بصدق ، فكيف كانت علاقة الملك فؤاد بعبد الخالق ثروت باشا رئيس الوزراء ؟**
- يقول الرافعي : الواقع أن المغفور له الملك فؤاد لم يكن يميل إلي بقاء ثروت باشا في الحكم بل لم يكن ميالاً في الأصل إلي إسناد الوزارة إليه ولكن ضغط الحوادث كان فوق إرادته فاحتمل ثروت باشا علي كره منه ، مضمراً انتهاز الفرص لإسقاطه ، هذا إلي أنه لم يكن يميل إيضاً إلي صدور الدستور ، أما عدم ميله إلي ثروت فلأنه كان ذا شخصية كبيرة لا تخضع في كل الأمور لما يطلب الملك ، وليس هذا هو الطراز الذي يرتضيه ، بل كان يؤثر الرؤساء والوزراء الذين لا شخصية ولا إراده لهم ، – – ولذلك كان يضمر إسقاط ثروت من اليوم الذي ألف فيه وزارته ، ولم يشفع له أنه كان له الفضل بحسن مسعاه في التعظيم من شأنه ، إذ صار صاحب الجلالة الملك بعد أن كان سلطاناً تحت الحماية البريطانية ، لم يكن لهذا الفضل أثر في نفسه بل كان له فيها أثر عكسي ، لأن من خصائص الملوك الحاكمين بأمرهم أن يحقدوا علي من له فضل عليهم ، ومن ناحية أخري فقد كان ثروت باشا جاداً في وضع الدستور واستصدار المرسوم الملكي به وكان يستحث لجنة الدستور علي إنجازه حتي يصدر وهو لا يزال في الوزارة – – ولكن الملك فؤاد لم يكن يميل إلي إصداره ، لأنه رأه كما يقول يغل سلطته ويجعل الحكم مرجعه إلي الشعب وهذا ما لا يبغيه الملك – –مع أنه قبل إعلان الاستقلال (بتصريح ٢٨فبراير ١٩٢٢) لم يكن يملك سلطة ما ، بل كان سلطاناً تحت الحماية لا يصدر عنه إلا ما يأمره به عمال الحماية ، ولكن هكذا شأن الملوك الحاكمين بأمرهم ، يتناسون الحقائق إذا كان في ذكرها ما يتعارض مع أهوائهم ، ولا يفكرون إلا في الاستزادة من سلطتهم علي حساب سلطة الشعب ، كان لابد إذن للملك من تنحية ثروت عن الحكم ، لكي تغير مجري الأمور من بعده فيتعطل صدور الدستور وقد يقبر قبل أن يولد[٣٦٤] وجدير بالذكر أن عبد الخالق ثروت باشا هو أول من تولي رئاسة الوزارة بعد تصريح ٢٨ فبراير الذي صدر من بريطانيا من جانب واحد لإلغاء الحماية علي مصر وإقامة حكومة دستورية في البلاد مع وجود قاعدة عسكرية بريطانية بها ، وقد حاول ثروت باشا كما ذكرنا تفعيل هذا التصريح فيما يخص صدور الدستور ولكن من المعروف أن الدستور صدر سنة ١٩٢٣

١٣٣. دستور ١٩٢٣ وقيام أول حكومة منتخبة دستورية في البلاد برئاسة سعد زغلول

[٣٦٤] نقلاً باختصار عن كتاب (في أعقاب الثورة المصرية سنة ١٩١٩)–الجزء الأول– عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف– الطبعة الرابعة ١٩٨٧

- وهل تم عمل دستور للبلاد ؟
- بالطبع إنه دستور ١٩٢٣ الذي يُعتبر منحة من الملك للشعب بناء علي تصريح فبراير الذي كان منحة من الإنجليز أيضاً وتم عمل انتخابات للنواب لتشكيل الحكومة وقد فاز الوفد بالطبع بالأغلبية
- وهل وافق الزعيم الشعبي سعد زغلول علي الاشتراك في عملية انتخابية في ظل الاحتلال وطبقاً لشروط تصريحهم ودستور الملك فؤاد ؟ لأن هناك فرق كبير بين الدستور الذي انتزعه الشعب بالثورة العرابية في عهد الخديوي توفيق وبين دستور جاء بتعليمات من الملك تحت إشراف الاحتلال
- نعم لقد اشترك سعد وحزبه في الانتخابات وأصبح أول رئيس للوزراء بعد دستور ١٩٢٣ وقام الملك فؤاد بإرسال خطاب يكلف فيه سعد زغلول باشا بتأليف الوزارة بناءاً علي حصول الوفد علي الأغلبية
- فهل لديك نص هذا الخطاب ؟
- نعم لقد أورده الرافعي كالآتي : -- عزيزي سعد باشا ،،،، لما كانت أمالنا ورغائبنا متجهة دائماً نحو سعادة شعبنا العزيز ورفاهته وبما أن بلادنا تستقبل الآن عهداً جديداً من أسمي أمانينا أن تبلغ فيه ما نرجو لها من رفعة الشأن وسمو المكانة ولما أنتم عليه من الصدق والولاء وما تحققناه فيكم من عظيم الخبرة والحكمة وسداد الرأي في تصريف الأمور وبما لنا فيكم من الثقة التامة قد اقتضت إرادتنا توجيه مسند رياسة مجلس وزرائنا مع رتبة الرياسة الجليلة لعهدتكم ، وأصدرنا أمرنا هذا لدولتكم للأخذ في تأليف هيئة الوزارة وعرض مشروع هذا التأليف علينا لصدور مرسومنا العالي به ، ونسأل الله جلت قدرته أن يجعل التوفيق رائدنا فيما يعود علي بلادنا بالخير والسعادة إنه سميع مجيب ،، صدر بسراي عابدين في ٢٢ جمادي الثانية سنة ١٣٤٢ (٢٨يناير سنة ١٩٢٤) ،
- إن هذا الخطاب لم ترد فيه أي إشارة لفوز سعد بالأغلبية
- نعم وقد قال الرافعي عن ذلك : - - ومما يلاحظ في كتاب الملك أنه لم يجعل من أسباب تكليفه سعداً بتأليف الوزارة أنه نال ثقة الأمة في الانتخابات ، بل لم يشر إليها إطلاقاً واقتصر الكتاب علي العبارات التقليدية التي تكتب لمن يختاره ولي الأمر لتأليف الوزارة ولعل الملك أراد بهذا الإغفال المتعمد أن لا يعترف بالأساس الدستوري لقيام الوزارات وسقوطها ولا يعترف بسلطة الأمة وبحقها في اختيار حكامها ، وقد أكمل سعد هذا النص في جوابه إلي الملك ، إذ جعل أول سبب لولايته الحكم احترامه إرادة الأمة وارتكاز الحكومة علي ثقة وكلائها
- فكيف كان رد سعد زغلول علي خطاب الملك ؟
- إليك بعض مما جاء في جواب سعد زغلول إلي الملك فؤاد رداً علي جواب تكليفه بتأليف الوزارة : ،،، مولاي صاحب الجلالة ،،، إن الرعاية السامية التي قابلت بها جلالتكم ثقة الأمة ونوابها بشخصي الضعيف توجب علي والبلاد داخلة في نظام نيابي يقضي باحترام إرادتها وارتكاز حكومتها علي ثقة وكلائها ألا أتنحي عن مسئولية الحكم التي طالما تهيبتها في ظروف أخري وأن أشكل الوزارة التي

شاءت جلالتكم تكليفي بتشكيلها من غير أن يعتبر قبولي لتحمل أعبائها اعترافاً بأية حالة أو حق استنكره الوفد المصري الذي لا أزال متشرفاً برياسته ، إن الانتخابات لأعضاء مجلس النواب أظهرت بكل جلاء إجماع الأمة علي تمسكها بمبادئ الوفد التي ترمي إلي ضرورة تمتع البلاد بحقها الطبيعي في الاستقلال الحقيقي لمصر والسودان مع احترام المصالح الأجنبية التي لا تتعارض مع هذا الاستقلال كما أظهرت شدة ميلها للعفو عن المحكوم عليهم سياسياً ونفورها من كثير من التعهدات والقوانين التي صدرت بعد إيقاف الجمعية التشريعية ونقصت من حقوق البلاد وحدت من حرية أفرادها وشكواها من سوء التصرفات المالية والإدارية ومن عدم الاهتمام بتعميم التعليم وحفظ الأمن وتحسين الأحوال الصحية والاقتصادية وغير ذلك من وسائل التقدم والعمران ، فكان حقاً علي الوزارة التي هي وليدة تلك الانتخابات وعهداً مسئولاً منها أن توجه عنايتها إلي هذه المسائل الأهم فالمهم منها – – – – –ولقد لبثت الأمة زماناً طويلاً وهي تنظر إلي الحكومة نظر الطير للصائد لا الجيش للقائد ، وتري فيها خصماً قديراً يدبر الكيد لها لا وكيلاً أميناً أميناً يسعي لخيرها ، وتولد عن هذا الشعور سوء تفاهم أثر تأثيراً سيئاً في إدارة البلاد وعاق كثيراً من تقدمها ، فكان علي الوزارة الجديدة أن تعمل علي استبدال سوء هذا الظن بحسن الثقة في الحكومة ، وعلي إقناع الكافة بأنها ليست إلا قسماً من الأمة تخصص لقيادتها والدفاع عنها وتدبير شئونها بحسب ما يقتضيه صالحها العام ، – – –هذا هو بروجرام وزارتي وضعته طبقاً لما أراه وتريده الأمة – – –فأرجو إذا صادف استحسان جلالتكم أن يصدر المرسوم السامي بتشكيل الوزراة علي الوجه الآتي مع تقليدي وزارة الداخلية : محمد سعيد باشا لوزارة المعارف العمومية ، محمد توفيق نسيم باشا لوزارة المالية ، أحمد مظلوم باشا لوزارة الأوقاف ،،،، – – – –وأدعو الله أن يطيل في أيامكم ويمد في ظلالكم حتي تنال البلاد في عهدكم كل ما تتمناه من التقدم والارتقاء وإني علي الدوام شاكر نعمتكم وخادم سدتكم ، ، سعد زغلول[٣٦٥]

- إن أكثر ما يلفت النظر في كتاب سعد باشا هو مقولته الشهيرة (ولقد لبثت الأمة زماناً طويلاً وهي تنظر إلي الحكومة نظر الطير للصائد لا الجيش للقائد) ، ولعله بالفعل قد صحح للملك مفهومه عن تكليف زعيم الأغلبية بتشكيل الوزارة لأنه اختيار الشعب وليس اختيار الملك
- علي أي حال فإن بقبول سعد الاشتراك في الانتخابات ثم قبوله الوزارة قد أصبح مسئول عن تأمين البلاد في ظل الاحتلال البريطاني وعندما فشل في ذلك تمت الإطاحة به
- وهل تمت الإطاحة به بانتخابات أخري ؟
- لا بل تم استغلال حادث مقتل السير لي ستاك في ذلك كما سنري بعد ذلك
- فما أهم ما وقع من أحداث بين سعد باشا زغلول والملك ؟

[٣٦٥] نقلاً عن كتاب (في أعقاب الثورة المصرية سنة ١٩١٩) – الجزء الأول – عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف – الطبعة الرابعة ١٩٨٧

١٣٤. سعد باشا زغلول والملك فؤاد يحتكمان لبارون بلجيكي

- هناك موقف تاريخي طريف قد حدث بين الرجلين وهذا الموقف رواه البارون البلجيكي فيرمين فان دن بوش في مذكراته التي كتبها بعنوان عشرون عاما في مصر حيث كان يشغل منصب النائب العام في المحاكم المختلطة في مصر فكتب ما ملخصه : في يوم سبت من شهر أبريل سنة ١٩٢٤ والوقت ظهر وأنا في مكتبي فإذا بالقاهرة تدق التليفون المتحدث هو سعد باشا زغلول رئيس الوزراء يطلب مني أن أزوره في مكتبه غداً في الساعة الرابعة بعد الظهر فاعترضت بأنني رتبت أموري علي السفر للعاصمة يوم الخميس – – فيكون جوابه لا يمكن إن الأمر عاجل وهام ، وأدرك من نبرة صوته أن الأمر خطير ، ويدق تليفون القاهرة بعد عشر دقائق مرة أخري ، إنه نشأت باشا الرجل الذي يعتمد عليه الملك فؤاد يسألني إذا كان الاتفاق قد تم علي الوفاء بالموعد الذي حدده رئيس الوزراء ويضيف هو الآخر : لا غني عن حضورك في غد ، يوم الأحد أسافر للقاهرة بقطار الصباح وحين أبلغ محطة بنها إذا بمواطني المحامي جورج موزياخ يدخل مقصورتي دخول عاصفة هوجاء ، إنه جاء بالسيارة ليدركني قبل الوصول ليحذرني بما علمه من أحد الوزراء من أنني دعيت من أجل تسوية نزاع دستوري خطير بين الملك فؤاد وسعد باشا زغلول وأن الحل الذي سيسفر عنه هذا النزاع سيتوقف عليه مصير الحكومة وأمن البلاد . أبديت له وجهاً يزعم أن الأمر لا يهولني ولكني أدرك في قرارة نفسي ما لهذا الأمر من خطور بالغة نظراً لعلمي بخلق الرجلين المتنازعين
- إنه موقف مثير بالفعل ويوضح كيف سيتمسك زعيم منتخب بحقوقه وحقوق الشعب أمام ملك لا يفضل الحياة الدستورية رغم أنه قد نشأ في أوروبا في شبابه وتأثر بنظامها الديموقراطي ، عفوا للمقاطعة استمر في القراءة من فضلك
- في الساعة الرابعة أصل إلي رياسة الوزراء . الحديقة غاصة بوفود ترفرف عليها الأعلام – – وترتفع منها هتافات مجنونة : (يحيا سعد) ، حجرة الانتظار مزدحمة بالزوار ولكن السكرتير لم يكد يراني حتي يهرول نحوي ويدخلني إلي مكتب الرئيس . سعد زغلول جالس وراء مكتبه ناصباً قامته ويمد لي يده ويقول : مرحباً بك إننا في حاجة إليك ، ثم يمضي من فوره يشرح لي النزاع الذي نشب بين الملك والوزارة بشأن تفسير مادة في الدستور ، وإذ كان هذا الدستور مستمداً في كثير من نصوصه من الدستور البلجيكي فقد دعيت للإدلاء بالرأي في هذا النزاع ، فالمادة ٧٤ من الدستور المصري تنص علي أن الملك يعين خمس أعضاء مجلس الشيوخ بلا حاجة إلي انتخابه فهل هذا النص يمنح الملك حقاً مرتبطاً بشخصه وحده له أن يباشره دون دخل من وزرائه أم ان هذا الحق مرتبط بالقاعدة العامة المنصوص عليها في المادة ٤٨ التي تقرر أن الملك يباشر سلطاته عن طريق وزرائه ؟ ويختم رئيس الوزراء حديثه وهو يدق بيد عنيفة علي مكتبه : هذه هي المسألة وينبغي أن تحل في ٢٤ ساعة ، أبدأ بالتراجع وراء العذر بأن مواد الدستور ليست حاضرة كلها في ذهني وأطلب أن أراجعها وأن يتاح

لي الوقت للتدبر – – ، ما أعجب أن تجد في رجل بلغ السبعين وأضناه النفي والمرض مثل هذا التوقد الذهني المدهش ، بل الأعجب أن تجد فيه مثل هذه الإرادة القوية الطاغية ، لا ينقطع هتاف الوفود مطالبة أن يطل عليهم ، يذهب مرة وأخري وثالثة إلي الشرفة ويشكرهم بلطف وإيجاز ، لم يرهقه الإلحاح ويفقده ضبط أعصابه فتقوس قامته علي الشرفة ويصرخ بلهجة آمرة : طيب ، طيب ، دعوني أعمل بهدوء من اجلكم ، ثم يغلق الشرفة بحركة خاطفة وتنتهي الزيارة ، يقول الباشا لي : إلي غد في الساعة العاشرة بقصر عابدين ، تحل عتمة المساء وأشق بصعوبة طريقي وسط حشود المتظاهرين في بحر من أثواب متعددة الألوان . الأعلام ترفرف كأجنحة الطير المذعور الأيدي كلها مضمومة مرتفعة فوق الرؤوس وهدير صاخب يؤم هذا الشيخ العظيم ، إنه واقف في الشرفة العالية في غمرة الضوء ذراعاه المفتوحان كأنما زاد طولهما ليضم بحنان إلي صدره العريض هذا الخلق جميعاً ، وحين دخلت في صباح الغد علي الملك في مكتبه وجدته بادي الاضطراب يعالج قلقه بلعب يده بقاطع للورق ، وزغلول باشا قباله مسيطر كل السيطرة علي نفسه يتكلم ببطء هادئ ، ودار النقاش بينهما أمامي فأدركت من فوري أهمية النزاع وخطورة نتائجه ، ففي جانب ملك نشأ في أحضان التقاليد الشرقية التي تسند السلطة إلي شخصه ، وهو اليوم يحاول أن يستبقي لنفسه آخر رمق فيها ، وفي جانب رئيس الوزراء معتد كل الاعتداد بالحقوق التي منحها له الدستور ، الكلام بينهما مهذب ولكني أحسست تحته خصومة تتهيأ للانفجار المؤدي إلي كارثة ، وأنه ينبغي فضها بغير تمهل ، وفي أثناء الجلسة حين اشتدت حدة النقاش نطق زغلول باشا بهذه الكلمات (لو أننا استشرنا الشعب – – – – –) ، وقلت في سري (كلمة واحدة من فم هذا الرجل السياسي الذي يملك في يده مصر كلها أرواحها وأجسادها فإذا صورة هذه الحياة الوديعة خالية البال تنقلب إلي مشهد مخيف لغضب الشعب) ، وارتفع صوت زغلول وقال : هل تقبل جلالتكم أن يفصل النائب العام في النزاع وأن يكون قراره حاسماً ؟ فكر الملك برهة قصيرة ثم خضع وقال : (فليكن) ، استاذنت أن أخلو بنفسي قليلاً فقادني أحد الأمناء إلي صالون يطل علي حدائق القصر ، في هذا الإطار الفريد خلوت إلي نفسي أفكر وكتبت علي عجل بضعة أسطر ولما عدت إلي الرجلين وجدتهما في عين الوضع الذي كنت تركتهما فيه ، أحسست بالتأثر يغلبني بشدة وأنا أقرأ عليهما التصريح التالي : (– – – إعفاء الملك من المسئولية هو أساس هذا الدستور ، فليس له أن يباشر سلطاته إلا عن طريق وزرائه ، وهذا المبدأ لا يقبل في نظر القانون أي استثناء ويسري علي كل أعمال الملك فإذا ابحنا فيها له استثناء واحداً نكون قد هدمنا الدستور من أساسه ولذلك أري أن تعيين أعضاء مجلس الشيوخ ينبغي أن يصدر من الملك بناء علي عرض من مجلس الوزراء)[٣٦٦]

- **إن هذه القصة تحمل الكثير من المعاني بالفعل وتوضح مدي ثقة كلا الرجلين في الحضارة الغربية وفي كل ما هو أجنبي ، فماذا حدث بعد ذلك**

---

[٣٦٦] نقلاً باختصار عن كتاب صفحات من تاريخ مصر للكاتب الكبير يحيي حقي حيث ورد هذا الموضوع في فصل بعنوان (احتكام غريب)

١٣٥. حادث مقتل السير لي ستاك وتأثيره علي الحياة السياسية في مصر

- لقد حدث حادث أثر علي الحياة السياسية في مصر وهذا الحادث هو مقتل السير لي ستاك باشا Lee Stack (1868-1924) سردار الجيش المصري وحاكم السودان العام
- فماذا كتب الرافعي عن الحادث ؟
- يقول الرافعي : – – – – ففي نحو الساعة الثانية بعد الظهر من يوم الأربعاء ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ بينما كان السردار عائداً في سيارته من مكتبه بوزارة الحربية إلي داره بالزمالك ، أطلق عليه الرصاص خمسة أشخاص كانوا متربصين في سيارة – – فأصيب السردار إصابات خطرة – – وقد توفي متأثراً من جراحه يوم ٢٠ نوفمبر حوالي منتصف الليل ، ، شيعت جنازة السردار باحتفال مهيب في صباح السبت ٢٢ نوفمبر ، وفي الساعة الخامسة من مساء هذا اليوم ذهب اللورد أللنبي المندوب السامي البريطاني إلي رئاسة مجلس الوزراء في مظاهرة عسكرية يتقدمه مائتان وخمسون جندياً بريطانياً من حملة الرماح ، ويتبعه مثل هذا العدد ، وقابل سعداً في مكتبه مقابلة جافة ، وقدم إليه بلاغين (إنذارين) محررين باللغة الإنجليزية بعد أن تلا عليه نصهما ، – – –إلي حضرة صاحب الدولة سعد زغلول باشا رئيس مجلس الوزراء ، يا صاحب الدولة ، أقدم لدولتكم من قبل حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية البلاغ التالي : أن الحاكم العام للسودان وسردار الجيش المصري الذي كان أيضاً ضابطاً ممتازاً في الجيش البريطاني قد قُتِل قتلاً فظيعاً في القاهرة – – – –فبناء علي ذلك تطلب حكومة صاحب الجلالة من الحكومة المصرية : ١ – أن تقدم اعتذاراً كافياً وافياً عن الجناية٢ – أن تتابع بأعظم نشاط وبدون مراعاة للأشخاص البحث عن الجناة وأن تنزل بالمجرمين أياً كانوا ومهما تكن سنهم أشد العقوبات ، ٣ – أن تمنع من الآن فصاعداً وتقمع بشدة كل مظاهرة شعبية سياسية ، ٤ – أن تدفع في الحال إلي حكومة حضرة صاحب الجلالة غرامة قدرها نصف مليون جنيه ، ٥ – أن تصدر خلال أربع وعشرين ساعة الأوامر بإرجاع جميع الضباط المصريين ووحدات الجيش المصري البحتة من السودان – –٦ – – – –وإذا لم تلب هذه المطالب في الحال تتخذ حكومة حضرة صاحب الجلالة علي الفور التدابير المناسبة لصيانة مصالحها في مصر والسودان – – – – – – – –وفي اليوم التالي ٢٣ نوفمبر ذهب واصف بطرس غالي باشا وزير الخارجية إلي دار المندوب السامي البريطاني وقدم رد الحكومة علي هذين الإنذارين ويتلخص في نفي المسئولية عن الحكومة المصرية وقبول المطالب الأربعة الأولي – – – – –لم يرض هذا الرد الحكومة البريطانية – – –أول تدبير اتخذه –المندوب السامي البريطاني – هو صدور التعليمات إلي الجنود البريطانية باحتلال جمارك الإسكندرية – –وكان مفهوماً من المراسلات التي تبودلت بين اللورد أللنبي وسعد باشا أن الحكومة البريطانية لا تريد بقاء سعد في الوزارة بعد مقتل السردار وأنها اعتبرت وزارته مسئولة عن الحادث ، فعرض سعد علي الملك استقالة الوزارة– – وتم قبول الاستقالة يوم ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤، ويضيف

الرافعي : إن نظرة فاحصة إلي البلاغات البريطانية في حادث مقتل السردار يتبين منها مبلغ الظلم والعسف الذي بدا من الجانب البريطاني إثر هذا الحادث ، فإن الاعتداء علي السردار كان ولا شك حادثاً فردياً فمن الظلم أن تحمل الحكومة والبلاد مسئوليته ، ومن أفظع مظاهر الظلم أن ترتب عليه الحكومة البريطانية إقصاء الجيش المصري عن السودان وإطلاق يد الإدارة الإنجليزية فيه – – – البلاغات الجائرة والمطالب الظالمة التي توجهت بها إنجلترا إلي مصر في أعقاب حادثة السردار لم تكن إلا مظهراً لسياسة العدوان التي درجت عليها بإزاء مصر من قبل ومن بعد وهي منطق القوة الغشوم في الاعتداء علي الحق ، وما كانت حادثة السردار إلا فرصة سنحت فاتخذتها ذريعة لتحقيق أغراضها وبعبارة أخري كانت هذه المطالب برنامجاً سابقاً لإنجلترا حيال مصر ، تلك حقيقة دلت عليها الحوادث المترادفة وقد أيدها الكاتب الفرنسي موريس برنو في كتابه (قلق الشرق–أو علي طريق الهند) الذي ظهر في منتصف سنة ١٩٢٧ ، فقد ذكر صفحة ٢٥ ، أنه قابل اللورد أللنبي بعد مقتل السردار وسأله عن وجهة نظره ، فأجابه في صراحة : إن كل ما حدث كان متوقعاً وقد كان البلاغ النهائي في درج مكتبي قبل أن يقتل السردار بوقت طويل ، ولكني غيرت فقط صيغته التي جعلتها أكثر شدة ، اجتمع مجلس النواب والشيوخ في جو مضطرب مكفهر – – وقرر بالإجماع الاحتجاج علي تصرف الحكومة البريطانية – – –فلذلك يعلن مجلس النواب المصري علي ملأ العالم شديد احتجاجه علي هذه التصرفات الجائرة الباطلة ، ويشهد الأمم المتمدينة علي فداحة تلك المطامع الاستعمارية التي لا تتفق مع روح هذا العصر وحقوق الأمم المقدسة ، ويبلغ احتجاجه إلي برلمانات العالم ويرفع الأمر إلي مجلس عصبة الأمم طالباً إليه التدخل في الأمر لرفع الحيف عن أمة بريئة تتمسك بحقوقها المقدسة في الحياة والحرية ولا تبغي عن استقلالها بديلاً – – ،، ولم تبد أية دولة عطفاً ما علي مصر في محنتها بل إن معظمها أيد الحكومة البريطانية في مطالبها – – – فاستقلال الدول الشرقية جريمة في نظر أولئك الاستعماريين الذين لا يريدون للشرق إلا أن يكون حقلاً لاستعمارهم وبغيهم ، ويخشون من نزعاته الاستقلالية ويرونها خطراً علي مطامعهم فما أشد ما في هذه السياسة من ظلم وبغي وعدوان ، تألفت الوزارة الجديدة برئاسة أحمد زيور باشا في نفس اليوم الذي قبلت فيه استقالة سعد باشا وكأن الأمر مبيتاً من قبل – – ولقد سلمت وزارته ببقية المطالب البريطانية التي وردت في إنذار ٢٢ نوفمبر – – – فكان لهذا التسليم الشائن وقع أليم في أرجاء البلاد – –استصدرت وزارة زيور في ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٢٤ مرسوماً بتأجيل انعقاد البرلمان شهراً وكان هذا التأجيل نذيراً بما سيعقبه من حل مجلس النواب[٣٦٧]

- **إذن فقد استغل الاحتلال البريطاني هذا الحادث الفردي لتحقيق ما كان يهدف إليه**

[٣٦٧] نقلاً باختصار عن كتاب (في أعقاب الثورة المصرية سنة ١٩١٩) – الجزء الأول – #عبد_الرحمن_الرافعي – دار المعارف– الطبعة الرابعة ١٩٨٧

- ليس هذا فحسب بل إن هذا الحادث قد أدي إلي حل البرلمان وتغيير الوزارة وفقاً لهوي الملك وهي وزارة زيور باشا الذي أجل عقد البرلمان ثم حله ، وهذه الإجراءات تُعد انقلاب علي الحياة الدستورية ، وهو ما أدي إلي تكررها بعد ذلك فأصبحت الحياة الدستورية في مصر تحت رحمة الملك والاحتلال يعبثون بها كما يشاءون فتارة يقف الاحتلال مع الوفد ضد الملك وتارة أخري يقف مع الملك ضد الوفد وأصبحت مسألة حل البرلمانات المنتخبة لعبة في أيديهم
- إذن لم تتمكن مصر من تجربة حياة دستورية حقيقية في ظل الاحتلال البريطاني وملك من سلالة محمد علي وقادة سياسيون انفصلوا عن قوميتهم الحقيقية وبحثوا عن هوية أخري

١٣٦. إلغاء الخلافة العثمانية في ٣ مارس ١٩٢٤م

- علي أي حال اسمح لي أن نترك وزارة زيور باشا ووزارته والملك فؤاد وعبثه بالدستور والبرلمانات والحكومات والمندوب السامي الذي يتلاعب بالجميع علي أن نعود إليهم بعد أن نقف معاً عند حادث جلل في تاريخ الأمة الإسلامية ألا وهو إلغاء الخلافة العثمانية وذلك بعد أن تمكن الاتجاه القومي العلماني في تركيا من السيطرة علي الأمور بمساعدة الغرب وتصعيد مصطفي كمال أتاتورك كزعيم قومي تركي كسعد زغلول في مصر وقد قام أتاتورك بتحويل تركيا إلي دولة علمانية وإلغاء الخلافة العثمانية وكان هذا من شروط بريطانيا للاعتراف بجمهورية تركيا برئاسة أتاتورك وقد وردت هذه الشروط في مؤتمر لوزان الشهير
- فما قصة هذا الموضوع الخطير ؟
- دعني أبحث عن معلومات عن هذا الموضوع في أحد الالكترونية علي شبكة المعلومات الدولية الانترنت لعلي أجد تلخيصاً بليغاً لما حدث ليغنيني عن اختيار كلمات مناسبة لهذه المأساة
- لا مانع ،، فلنبحث معاً عن أكثر المواقع مصداقية
- لقد وجدت الموضوع تحت عنوان إلغاء الخلافة.. وانفراط عقد المسلمين في ذكرى إلغاء الخلافة العثمانية: ٢٧ رجب ١٣٤٢هـ٣٦٨
- حسناً فلنقرأ مقتطفات من هذا الموقع
- يقول الموقع : - - - - ولم يدخر الغرب في معركته ضد الخلافة سلاحًا إلا استخدمه، بدءًا من الإرساليات التبشيرية والغزو الفكري، وإشعال الثورات والفتن الطائفية والمذهبية، واصطناع الجواسيس والأعوان وشراء الذمم بالمال، حتى تم تقويض الخلافة على يد مصطفى كمال. ويذكر المؤرخ الفرنسي "دين جروسيه" في كتابه "وجه آسيا" أن عملية تصفية الخلافة العثمانية استغرقت ٢٢٠ عامًا، بدأت بمعاهدة "كارلوفجة" سنة (١١١١ هـ = ١٦٩٩م)، تضافرت فيها جهود الدول الكبرى عبر السنين

---

[٣٦٨] نقلاً عن موقع islamonline.net

الطوال، إلا أن اختلاف أطماع هذه الدول وتضارب مصالحها في تركة الدولة العثمانية كان سببًا في إطالة عمرها. ،، دور "الاتحاد والترقي" :كانت الحرب العالمية الأولى سنة (١٣٣٣هـ = ١٩١٤م) انضمت حكومة الاتحاد والترقي إلى جانب ألمانيا، ودخلت تركيا حربًا لا دخل لها بها وأجهضت قوتها البشرية والاقتصادية والعسكرية، حيث تمزق الجيش التركي على جميع الحدود والجبهات نتيجة للقيادة الفاشلة والعميلة، وانتهت الحرب سنة (١٣٣٧هـ = ١٩١٨م) بهزيمة ألمانيا وتركيا، وتحطُّم دولة الخلافة وتمزق أوصالها، حيث استولى الإنجليز على قلاع الدردنيل، واحتلت الجيوش الفرنسية والإنجليزية مدينة إستانبول، واحتلت اليونان أزمير، ووقعت هدنة "مدروز" التي نصت على استسلام الدولة العثمانية دون قيد أو شرط، وبدأت القوات العثمانية تلقي سلاحها، واستعد الحلفاء لاحتلال الأستانة وغيرها من المدن التركية، وأدت روح التشفي التي صدرت عن الحلفاء والأقليات الدينية إلى نمو روح المقاومة لدى الأتراك. ، أما كبار رجال حزب الاتحاد والترقي الذين كانت في أيديهم مقدرات البلاد فقد فروا من البلاد، وكان السلطان العثماني الجديد "محمد وحيد الدين" يدرك أن وجود تركيا لازم لدول الغرب لإقامة التوازن بينها، كما أن بريطانيا وفرنسا لن تسمحا بالقضاء على تركيا قضاءً مبرمًا؛ لأن ذلك يفسح المجال أمام روسيا الشيوعية للاستيلاء على الأناضول، وبالتالي على مضيق البوسفور والدردنيل، بل كل ما تريدانه هو جعل الدولة العثمانية دولة صغيرة مثل الدول التي ستقوم على أنقاضها؛ لذا رأى السلطان أن ما أُخذ من الدولة العثمانية لا يسترد إلا بالقتال، وبالتالي فلا بد من القيام بثورة في البلاد؛ لذلك استعان بمصطفى كمال، وعهد إليه بأن يقوم بثورة في شرقي الأناضول حتى يتسنى لرجال السياسة أن يستخدموا هذه الثورة كورقة ضغط أثناء عقد الصلح مع الحلفاء حتى يحصلوا على أكثر ما يمكن من المكسب، وللتغطية على هذه الثورة خاصة من الإنجليز الذين كانوا يسيطرون على إستانبول، عين السلطان "وحيد" "مصطفى كمال" مفتشا لجيوش الأناضول بصلاحيات واسعة، وزوده بمبلغ كبير من المال، ووضع فيه ثقته، لكنه خان الأمانة وغدر بالسلطان وعمل لنفسه.

- **من هو أتاتورك؟**
- ولد مصطفى كمال سنة (١٢٩٩هـ = ١٨٨٠م) بمدينة "سالونيك" التي كانت خاضعة للدولة العثمانية، أما أبوه فهو "علي رضا أفندي" الذي كان يعمل حارسًا في الجمرك، وقد كثرت الشكوك حول نسب مصطفى، وقيل إنه ابن غير شرعي لأب صربي، أما لقب "كمال" الذي لحق باسمه فقد أطلقه عليه أستاذه للرياضيات في المدرسة الثانية، ويذكر الكاتب الإنجليزي "هـ.س. أرمسترونج" في كتابه: "الذئب الأغبر" أن أجداد مصطفى كمال من اليهود الذين نزحوا من إسبانيا إلى سالونيك وكان يطلق عليهم يهود الدونمة، الذين ادعوا الدخول في الإسلام. وبعد تخرجه في الكلية العسكرية في إستانبول عين ضابطًا في الجيش الثالث في "سالونيك" وبدأت أفكاره تأخذ منحنى معاديًا للخلافة، وللإسلام، وما

لبث أن انضم إلى جمعية "الاتحاد والترقي"، واشتهر بعد نشوب الحرب العالمية الأولى حين عين قائدًا للفرقة ١٩، وهُزم أمامه البريطانيون مرتين في شبه جزيرة "غاليبولي" بالبلقان رغم قدرتهم على هزيمته،

- هكذا يصنعون الأبطال علي أيديهم
- وبهذا النصر المزيف رُقّي إلى رتبة عقيد ثم عميد، وفي سنة (١٣٣٧هـ = ١٩١٨/) تولى قيادة أحد الجيوش في فلسطين، فقام بإنهاء القتال مع الإنجليز – أعداء الدولة العثمانية – وسمح لهم بالتقدم شمالاً دون مقاومة، وأصدر أوامره بالكف عن الاصطدام مع الإنجليز.
- فكيف كانت علاقة السلطان مع أتاتورك ؟
- غادر مصطفى كمال إستانبول في (شعبان ١٣٣٧هـ = مايو ١٩١٩) بعدما عهد إليه السلطان العثماني بالقيام بالثورة في الأناضول، واختار معه عددًا من المدنيين والعسكريين لمساعدته، وبعدما استطاع جمع فلول الجيش حوله هناك بدأ في ثورته، فاحتج الحلفاء على هذا الأمر لدى الوزارة القائمة في إستانبول المحتلة، وهددوا بالحرب، فاضطرت الوزارة إلى إقالته، وعرضت الأمر على السلطان، الذي أوصى بالاكتفاء بدعوته إلى العاصمة، لكنه اضطر بعد ذلك إلى إقالته فلم يمتثل أتاتورك لذلك وقال في برقية أرسلها للخليفة: "سأبقى في الأناضول إلى أن يتحقق استقلال البلاد."
- انتصار مزيف وثورة كاذبة
- وبدأ يشعل ثورته التي يحميها الإنجليز، وانضم إليه بعض رجال الفكر وشباب القادة الذين اشترطوا عدم المساس بالخلافة، واستمر القتال عاما ونصف العام ضد اليونانيين، استعار خلالها أتاتورك الشعار الإسلامي ورفع المصحف، وأعلن الحلفاء أثناءها حيادهم، أما الإنجليز فكانوا يعملون جهدهم لإنجاح هذه الثورة، فبعد تجدد القتال بين أتاتورك واليونانيين في (١٣٤٠هـ = ١٩٢١م) انسحبت اليونان من أزمير ودخلها العثمانيون دون إطلاق رصاصة، وضخمت الدعاية الغربية الانتصارات المزعومة لأتاتورك، فانخدع به المسلمون وتعلقت به الآمال لإحياء الخلافة، ووصفه الشاعر أحمد شوقي بأنه "خالد الترك" تشبيهًا له بخالد بن الوليد.
- أنا أعرف مطلع هذه القصيدة : الله أكبر كم في الفتح من عجبِ يا خالد الترك جدد خالد العربِ
- وعاد مصطفى كمال إلى أنقرة حيث خلع عليه المجلس الوطني الكبير رتبة "غازي"، ومعناه الظافر في حرب مقدسة، وهو لقب كان ينفرد به سلاطين آل عثمان، فتعزز موقفه الدولي والشعبي، ووردت عليه برقيات التهاني من روسيا وأفغانستان والهند والبلدان الإسلامية المختلفة، وسار العالم الإسلامي فخورًا بثورة مصطفى كمال سنوات عدة، استغلها في كسب عواطف المسلمين وأموالهم بعدما كسا ثورته لباسًا إسلاميًا سواءً في أحاديثه أو في معاملته للزعماء المسلمين مثل الزعيم الليبي أحمد السنوسي.
- فمتي قام بإلغاء الخلافة العثمانية ؟

- وبعد انتصارات مصطفى كمال انتخبته الجمعية الوطنية الكبرى رئيسًا شرعيًا للحكومة، فأرسل مبعوثه "عصمت باشا" إلى بريطانيا (١٣٤٠هـ = ١٩٢١م) لمفاوضة الإنجليز على استقلال تركيا، فوضع اللورد كيرزون – وزير خارجية بريطانيا – شروطه على هذا الاستقلال وهي: أن تقطع تركيا صلتها بالعالم الإسلامي، وأن تلغي الخلافة الإسلامية، وأن تتعهد تركيا بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة، وأن تختار تركيا لها دستورا مدنيًا بدلاً من الدستور العثماني المستمدة أحكامه من الشريعة الإسلامية. ، ،نفذ أتاتورك ما أملته عليه بريطانيا، واختارت تركيا دستور سويسرا المدني، وفي (ربيع أول ١٣٤١هـ = نوفمبر ١٩٢٢م) نجح في إلغاء السلطنة، وفصلها عن الخلافة، وبذلك لم يعد الخليفة يتمتع بسلطات دنيوية أو روحية، وفرض أتاتورك آرائه بالإرهاب رغم المعارضة العلنية له، فنشر أجواء من الرعب والاضطهاد لمعارضيه، واستغل أزمة وزارية أسندت خلالها الجمعية الوطنية له تشكيل حكومة، فاستغل ذلك وجعل نفسه أول رئيس للجمهورية التركية في (١٨ربيع أول ١٣٤٢هـ = ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣م) وأصبح سيد الموقف في البلاد. وفي (٢٧ رجب ١٣٤٢هـ = ٣ مارس ١٩٢٤م) ألغى مصطفى كمال الملقب بأتاتورك الخلافة العثمانية، وطرد الخليفة وأسرته من البلاد، وألغى وزارتي الأوقاف والمحاكم الشرعية، وحوّل المدارس الدينية إلى مدنية، وأعلن أن تركيا دولة علمانية، وأغلق كثيرًا من المساجد، وحوّل مسجد آيا صوفيا الشهير إلى كنيسة، وجعل الأذان باللغة التركية، واستخدم الأبجدية اللاتينية في كتابة اللغة التركية بدلاً من الأبجدية العربية.

- **كل هذه الإجراءات دفعة واحدة ؟**

- وكانت هذه الإجراءات المتتابعة منذ إسقاط الخلافة تهدف إلى قطع صلة تركيا بالعالم الإسلامي بل وصلتها بالإسلام، ولم يقبل المسلمون قرار أتاتورك بإلغاء الخلافة؛ حيث قامت المظاهرات العنيفة التي تنادي ببقاء هذا الرباط الروحي بين المسلمين، لكن دون جدوى.

- **ألم يقم أحد من المسلمين بتنصيب نفسه خليفة عوضاً عن الخليفة العثماني ؟**

- حاول "حسين بن علي" حاكم الحجاز تنصيب نفسه خليفة للمسلمين، لكن الإنجليز حبسوه في قبرص، كما عمل الإنجليز على فض مؤتمر الخلافة بالقاهرة، وإلغاء جمعية الخلافة بالهند.. وهكذا نجحت أحقاد الغرب في إلغاء الخلافة الإسلامية التي لم تنقطع منذ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم

- **فهل ذكر هذا الموقع مصادر هذه المعلومات ؟**

- نعم لقد كتب أن من مصادر الدراسة: محمد فريد وجدي: تاريخ الدولة العلية العثمانية – تحقيق إحسان حنفي – دار النفائس – بيروت – الطبعة السادسة ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨م. ، أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني – دار الشروق – القاهرة – الطبعة الثالثة – ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م. ،، موفق بني المرجة: صحوة الرجل المريض – مؤسسة صقر الخليج للطباعة والنشر – الكويت مايو ١٩٨٤.

- **فماذا عن مؤتمر لوزان ؟**
- **لقد وردت معلومات عن هذا المؤتمر في موقع آخر علي الانترنت حيث كتب ما يلي عن سقوط الدولة العثمانية[٣٦٩] : أدى إلغاء الخلافة الإسلامية إلى سقوط الإمبراطورية العثمانية، حيث تولى السلطان محمد وحيد الدين الخلافة العثمانية عام ١٩١٨، وذلك بعد وفاة أخيه السلطان محمد رشاد، ولم يمضِ على حكمه إلّا أشهر معدودة حتّى تعرضت البلاد للغزو والنهب الغربي، وفي ظل هذه الأحداث السياسية قام السلطان محمد بالاستعانة بمصطفى كمال أتاتورك، وذلك لإنقاذ البلاد من الغزو الغربي لبلاد المسلمين، ولكنّ مصطفى كمال خان الأمانة، وبدأ يعمل على إخضاع الأمور لصالحه، وليس لمصلحة البلاد، وكسب الجماهير إليه من خلال خطبه الحماسية، وبالتالي قاد حرب الاستقلال، وآمن به الكثير من أهل تركيا ومن خارجها، ثمّ تأسس الحزب الوطني، ونودي بمصطفى كمال رئيساً له، وهكذا قويت شوكته، وأصبح يتمادى على السلطان محمد وحيد الدين، وبعد مرور فترةٍ من الوقت، عقد مؤتمر لوزان، ووضع رئيس الوفد الإنجليزي شروطاً لاستقلال تركيا، وبات نجاح المؤتمر معتمداً على تحقيق هذه الشروط، وهي كالآتي: إلغاء الخلافة الإسلامية بشكلٍ نهائي. إعلان تركيا دولة علمانية، وإنهاء علاقتها بالإسلام. طرد الخليفة العثماني، وجميع آل عثمان خارج حدود تركيا. إلغاء الدستور العثماني، وإعداد دستورٍ مدني. وقد قام مصطفى كمال وأتباعه بتنفيذ جميع هذه الشروط، بل وزادوا عليها، وبذلك انتهت الدولة العثمانية، وحلّت مكانها دولة تركيا.**
- **فهل ذكر هذا الموقع أسباب سقوط الدولة العثمانية من وجهة نظره ؟**
- **أما عن أسباب سقوط الإمبراطورية العثمانية فكتب ما يلي : هناك العديد من الأسباب التي أدّت إلى سقوط الإمبراطورية العثمانية، ومنها ما يأتي: وراثة المنصب العلمي: أصبحت المناصب العلمية في أواخر الخلافة العثمانية تُورّث؛ فأصبح التدريس، والفتوى، والإمامة والقضاء يورّث للأولاد أو الأخوة أو أحد الأقارب حتّى لو كان هؤلاء الورثة ليسو أكفياء في وظائفهم.، رفض فتح باب الاجتهاد: أصبحت دعوى فتح باب الاجتهاد في أواخر الخلافة العثمانية من التهم الكبيرة التي تصل عند بعض المقلّدين إلى حدّ الكفر، وإقفال باب الاجتهاد يعني توقّف الحياة عن النمو؛ وذلك كونها محصورةً في قوالب لم تعد تناسبها، ويعني أيضاً خروج الحياة في وقتٍ لاحق على هذه القوالب لتخرج في الوقت ذاته عن الشريعة؛ لأنّ الشريعة تفتقد الاجتهاد وبالتالي تعجز عن مدّ الحياة به.، انتشار الظلم في الإمبراطورية: إنّ وجود الظلم في أيّ نظام حكم يُهدّد بزوال الدولة عاجلاً أم آجلاً؛ وقد انتشر الظلم في الإمبراطورية العثمانية؛ فقد اقترف بعض الباشاوات أفعالاً قبيحة، وسفكوا الدماء، ونهبوا الأموال، واعتدوا على الأعراض، كما ظلم بعضهم أهل مصر وأهل الشام والحجاز، وقد اشتدّ ظلمهم لهم بمجيء الاتحاد والترقي للحكم، فقامت تلك المجموعة بظلم الناس داخل تركيّا وخارجها.، الترف والغرق في**

---

[٣٦٩] نقلاً عن موقع : https://mawdoo3.com/

الشهوات: كانت الإمبراطورية العثمانية في بداياتها وفي أوج قوّتها وعزّها بعيدةً عن هذا الانحراف؛ حتّى أوصى محمد الفاتح وليّ عهده بالحفاظ على أموال بيت المال من التبدّد، ونهاه عن صرف أموال الدولة في اللهو والترف، وأخبره أنّ الترف من أسباب الهلاك، إلّا أنّ الإمبراطورية انغمست في الشهوات في أواخر عهدها؛ الأمر الذي أضاع مقوّمات بقائها.. الاختلاف والفُرقة: وُجدت العديد من الفرق في أواخر الإمبراطورية العثمانية، وكلّ فرقةٍ كانت تعيب على الأخرى وتدّعي امتلاكها للحقّ وحدها، ثمّ يزول تأثير هذه الجماعة في المجتمع وتندثر؛ لتظهر جماعة جديدة تكرّر ذات الأفعال، وقد أصبحت الإمبراطورية العثمانية في أواخر عهدها تفرّق بين الزعماء والسلاطين، وقد أدّى الصراع بين الحكّام المحلّيين إلى إضعاف الدولة ومن ثمّ سقوطها.. وقد أضاف الموقع أيضا ما يلي تحت عنوان : أخطاء الإمبراطورية العثمانية : وقعت الإمبراطورية العثمانية في أخطاءٍ عديدة، ومنها ما يأتي: اعتمادها نظام حكمٍ مطلق؛ حيث كان يضع مصير وإمكانيات الإمبراطورية كاملةً في يدّ السلطان وحده، وكان يمتلك سلطاناً لا حدود له. فساد مالية الدولة، وانعدام وجود الميزانية والإصلاحات، وشيوع الرشوة، وضياع الحرّية، وانتشار الجواسيس في كلّ مكان. إضعاف العرب خشية بروزهم؛ فتمّ عزلهم عن الوظائف ذات المكانة العالية، وأهملوهم؛ ممّا أدّى إلى انتشار الجهل، والمرض، والتخلّف والفقر بينهم. إعطاء العسكريين أكثر ممّا يستحقّون؛ ممّا دفعهم للفساد والطغيان، والتسلّط والتدخّل في شؤون الحكم.

- **فما تعليقك علي ما ورد في تلك المواقع ؟**
- لا شك أن الدولة العثمانية قد وقعت في العديد من الأخطاء ولكن المؤكد أنها قد تعرضت أيضاً لمؤامرات ومكائد وتم اختراقها ، والعمل علي فصل القوميات داخلها كما ذكرنا
- **فماذا قال الرافعي عن الاتجاه القومي داخل تركيا ؟**
- لقد كان الرافعي بلا شك ككاتب قومي معجب بما صنعه القوميون الأتراك ، وإليك مقتطفات مما كتبه عن هذا الموضوع : نفضت تركيا عن نفسها أكفان الانحلال الذي أصابها في نهاية الحرب العالمية الأولي وبعثت الحياة من جديد علي يد زعيمها مصطفي كمال وصحبه وأنصاره بالرغم من الهزائم التي حاقت بها في تلك الحرب - - - انبعثت الحركة الوطنية في الأناضول عقب احتلال أزمير ، وأنشئت الجمعية الوطنية (المجلس الوطني الكبير) في أنقره وتولت تنظيم الجهاد الوطني وإدارة شئون البلاد وقطعت صلتها بحكومة الآستانة ، ونشبت الحرب بين القوات الوطنية التركية والجيش اليوناني فظفر الترك باليونان في معارك عدة واضطرت اليونان لعقد الهدنة مع الترك ، وعلي أثر هذه الانتصارات الحاسمة تغير وجه المسألة الشرقية واتفق الحلفاء مع الحكومة الوطنية التركية علي عقد مؤتمر دولي في لوزان لإبرام الصلح مع تركيا الجديدة وكان لابد أن يتناول هذا المؤتمر المسألة المصرية[٣٧٠]

[٣٧٠] نقلاً باختصار عن كتاب (في أعقاب الثورة المصرية سنة ١٩١٩) – الجزء الأول – #عبد_الرحمن_الرافعي – دار المعارف– الطبعة الرابعة ١٩٨٧

- بالطبع أكثر ما يهم الرافعي في مؤتمر لوزان المسألة المصرية
- بالتأكيد فقد قامت القوي السياسية في ذلك الوقت المتمثلة في حزب الوفد والحزب الوطني بإرسال وفد غير حكومي لتعذر إرسال وقد رسمي لعدم استقرار الوزارة في ذلك الوقت وكانت مهمة هذا الوفد أن تنازل تركيا عن سيادتها علي مصر يكون لمصر لا لبريطانيا ، ولم يصل الوفد إلي نتيجة مرضية
- فما تعليقك علي رأي الرافعي في الاتجاه القومي الجديد الذي سيطر علي تركيا ؟
- لا أريدك أن تقسو في الحكم علي الرافعي فأنت إذا نشأت في الأوساط السياسية التي نشأ فيها والبيئة الفكرية التي عاصرها قد يؤدي بك الحال إلي تبني نفس أفكاره وآراءه ولا تنسي أن التيار القومي في ذلك الوقت كان قوياً جداً والانبهار بالحضارة الغربية كان سائداً وخاصة مع التراجع الحضاري الإسلامي وحتي الآن هناك المفتونين بالغرب ويقلدونهم في كل شئ إلا من رحم ربي ، ولقد عاش الرافعي رحمه الله حياته كلها مدافعاً عن القضية الوطنية وكان شديد الإخلاص لها وأفني حياته كلها من أجل الاستقلال مستخدماً جميع الأساليب التي كان يعتقد صحتها ويؤمن بها وحسابه علي الله وحده
- لديك كل الحق لقد تعرض جيل الرافعي وما تلاه من أجيال لموجة تغريب قل من صمد أمامها ولكننا للأسف حالياً قد أصابنا داء الحكم المسبق علي أي شخص دون تروّي وتفكير إلا من رحم ربي ، فهل شعر أحد بمدي خطورة سقوط الخلاف الإسلامية ؟

١٣٧. فقرة من كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)

- بالتأكيد ، فقد كانت الرابطة الإسلامية هي أساس قيام الخلافة فهي لا تعتمد علي جنس أو قومية معينة فالعرب كما قلنا لم يؤسسوا دولة عربية ودعني أقرأ لك فقرة من كتاب ممتع قام بتأليفه عالم مسلم من الهند اسمه أبو الحسن الندوي وهذا الكتاب اسمه ماذا خسر العالم من انحطاط المسلمين ، يقول في أحد فقراته عن المسلمين ما يلي: (- - أنهم لم يكونوا خدمة جنس ورسل شعب أو وطن يسعون لرفاهيته ومصلحته وحده ويؤمنون بفضله وشرفه علي جميع الشعوب والأوطان ، لم يخلقوا إلا ليكونوا حكاماً ولم تخلق إلا لتكون محكومة لهم ، ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلي حكم العرب وإلي حكمهم أنفسهم ، إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعاً إلي عبادة الله وحده كما قال ربعي بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزدجرد : "الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلي عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلي سعتها ومن جور الأديان إلي عدل الإسلام " فالأمم عندهم سواء ، الناس كلهم من آدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي علي عجمي ولا لعجمي علي عربي إلا بالتقوي "" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ""١٣الحجرات ، وقد قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص –وقد ضرب ابنه مصرياً وافتخر بآبائه – قائلاً : خذها من ابن الأكرمين فاقتص منه عمر– :

متي استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ،، فلم يبخل هؤلاء علي ما عندهم من دين وعلم وتهذيب علي أحد ، ولم يراعوا في الحكم والإمارة والفضل نسباً ولوناً ووطناً بل كانوا سحابة انتظمت البلاد وعمت العباد ، وغوادي مزنة أثني عليها السهل والوعر وانتفعت بها البلاد والعباد علي قدرقبولها وصلاحها ،،، في ظل هؤلاء وتحت حكمهم استطاعت الأمم والشعوب –حتي المضطهدة منها في القديم– أن تنال نصيبها من الدين والعلم والتهذيب والحكومة ، أن تساهم العرب في بناء العالم الجديد ، بل إن كثيراً من أفرادها فاقوا العرب في بعض الفضائل وكان منهم أئمة هم تيجان مفارق العرب وسادة المسلمين من الأئمة والفقهاء والمحدثين حتي قال ابن خلدون : "من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر وإن كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربي " ونبغ من هذه الأمم في عصور الإسلام قادة وملوك ووزراء وفضلاء هم نجوم الأرض ونجباء الإنسانية وحسنات العالم فضيلة ومروءة وعبقرية وديناً وعملاً لا يحصيهم إلا الله –)[٣٧١]

- إنه كلام رائع بالفعل ، فماذا كان وقع سقوط الخلافة علي المصريين ؟
- هناك قصيدة رثاء لأمير الشعراء أحمد شوقي ينعي الخلافة وتتضمن هذه القصيدة الإجابة التي تنتظرها
- فهل ممكن أن تتلو مقتطفات منها ؟
- أنشد أمير الشعراء أحمد شوقي :

عادت أَغاني العرسِ رَجْعَ نُواح ... ونُعيتِ بين معالم الأَفراحِ
كُفِّنتِ في ليلِ الزفاف بثوبه ... ودُفنتِ عند تبلُّج الإصباح
شُيِّعتِ من هَلَعٍ بعَبْرةِ ضاحكٍ ... في كلّ ناحيةٍ، وسكرةِ صاح
ضجَّتْ عليكِ مآذنٌ، ومنابر ... وبكت عليك ممالكٌ، ونواح
الهندُ والهةٌ، ومصرُ حزينةٌ ... تبكي عليك بمدمعٍ سَحّاحِ
والشامُ تسأَلُ، والعراق، وفارسٌ ... أَمَحَا من الأَرض الخلافةَ ماح؟
وأَتت لك الجُمَعُ الجلائلُ مأْتماً ... فقعدن فيه مَقاعدَ الأَنواح
يا لَلرّجال لحُرة مَوءُودة ... قُتلت بغير جريرة وجُناح
إِنَّ الَّذين أَسَتْ جراحَكِ حربُهم ... قتلتْكِ سلهمُ بغير جِراح
هتكوا بأَيديهم مُلاءَةَ فخرِهم ... مَوْشِيَّةً بمواهب الفتاح
نزعوا عن الأَعناق خيرَ قِلادة ... ونَضَوْا عن الأَعطاف خير وِشاح
حَسَبٌ أَتى طولُ الليالي دونَه ... قد طاح بين عشيةٍ وصباح
وعَلاقَةٌ فُصِمَت عُرَى أَسبابها ... كانت أَبرَّ علائقِ الأَرواح

[٣٧١] نقلاً عن كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين تأليف العلامة أبو الحسن الندوي صفحة ١٠٦،١٠٧

جَمَعَت على البرِّ الحُضورَ، وربما ... جمَعتْ عليه سرائرَ النُّزَّاح
نظمت صفوفَ المسلمين وخَطْوَهم ... في كلِّ غُدوةِ جُمعة ورواح
بكت الصلاةُ، وتلك فتنةُ عابثٍ ... بالشرع، عِرْبيدِ القضاءِ، وَقاح
أَفتى خُزَعْبِلَةً، وقال ضلالةً ... وأَتى بكفر في البلاد بواح
إِنَّ الذين جرى عليهم فقهُهُ ... خُلقوا لِفقه كتيبة وسلاح
إن حدّثوا نطقوا بخُرْسِ كتائبٍ ... أَو خوطبوا سمِعوا بصُمِّ رِماح
استغفرُ الأَخلاقَ، لستُ بجاحدٍ ... من كنتُ أَدفعُ دونَه وألاحي
ما لي أُطوّقُهُ الملامَ وطالما ... قلَّدتُه المأْثورَ من أَمداحي
هو ركنُ مملكة، وحائطُ دُولةٍ ... وقريعُ شهباءٍ، وكبشُ نِطاح
أَأَقولُ مَن أَحيا الجماعةَ مُلحِدٌ ... وأَقول مَن رد الحقوقَ إباحي
الحقُّ أَولى من وليِّك حرمةً ... وأَحقُّ منك بنصرةٍ وكِفاح
فامدح على الحقِّ الرجالَ ولُمْهُم ... أَو خَلِّ عنك مَواقفَ النصاح
ومِن الرجالِ إذا انبريتَ لهدمهم ... هرمٌ غليظُ مناكِبِ الصُّفّاحِ
فإذا قذفتَ الحق في أَجلاده ... ترك الصراعَ مُضعْضَعَ الألواح
أَدُّوا إلى الغازي النصيحةَ يَنتصحْ ... إن الجوادَ يثوبُ بعد جِماح
إن الغرورَ سقى الرئيسَ بِراحِه ... كيف احتيالُك في صريع الراح
نقل الشرائعَ، والعقائدَ، والقرى ... والناسَ نقلَ كتائبٍ في الساح
تركتْه كالشبح المؤلَّهِ أُمَّةٌ ... لم تَسْلُ بعدُ عباد الأشباح
هُم أَطلقوا يده كقيصرَ فيهم ... حتى تناول كلَّ غيرِ مباح
غرَّته طاعاتُ الجُموعِ، ودولةٌ ... وجد السوادُ لها هَوَى المُرتاح
وإذا أَخذتَ المجدَ من أُمِّيةٍ ... لم تُعطَ غيرَ سَرابِه اللّماح
منْ قائِلٌ للمسلمين مقالةً ... لم يوحها غيرَ النصيحة واح؟
عهدُ الخلافةِ فِيَّ أَوّلُ ذائدٍ ... عن حوضها ببراعةٍ نضَّاح
حبٌّ لذاتِ اللَّهِ كان، ولم يزل ... وهوىً لذاتِ الحقِّ والإصلاح
إني أَنا المِصباحُ، لست بضائع ... حتى أَكونَ فراشةَ المصباح
غزواتُ أَدهم كُلِّلَت بذوابِلٍ ... وفتوحُ أَنورَ فُصِّلت بِصفاح
ولَّتْ سيوفُهما، وبان قناهُما ... وشبا يَراعي غيرُ ذاتِ بَراح
لا تَبذلوا بُرَدَ النبي لِعاجزٍ ... عُزُلٍ، يدافَعُ دونَه بالراح
بالأَمس أَوهى المسلمين جراحةً ... واليوم مدّ لهم يَدَ الجرّاح

فلتَسمَعُنّ بكل أَرضٍ داعياً ... يدعو إلى الكذّابِ أَو لسَجاح
ولتشهدُنّ بكل أَرض فِتنةً ... فيها يباعُ الدِّين بيعَ سَماح
يُفتَى على ذهبِ المُعزِّ وسيفِه ... وهوى النفوس، وحِقْدِها الملحاح

- الهندُ والهةٌ، ومصرُ حزينةٌ ... تبكي عليك بمدمعٍ سَحّاحِ ،،، والشامُ تسأَلُ، والعراق، وفارسٌ ... أَمَحَا من الأَرض الخلافةَ ماح؟ يا لها من كلمات مؤثرة بالفعل
- لقد كانت مأساة بالفعل لم يشعر بها إلا كل مسلم غيور علي أمته
- وهكذا عبثت بريطانيا بالأتراك كما عبثت بالعرب وبالمصريين ، وها نحن سنعود للحديث عن مصر والمصريين في ظل الاحتلال البريطاني البغيض الماكر
- حسناً فلنكمل الحديث عن الحياة الدستورية المزعومة في مصر في ظل الاحتلال البريطاني وعبث الملك فؤاد بالبرلمان
- فهل لديك نماذج من الحياة الدستورية في مصر في ظل الاحتلال البريطاني ؟
- بالتأكيد سوف أذكر لك بعض المواقف التي أوردها الرافعي في كتابه والتي توضح كيف كان يتم العبث بالحياة النيابية في مصر
- كلي آذان صاغية

١٣٨. مجلس نواب لمدة تسع ساعات يوم ٢٣مارس سنة ١٩٢٥

- يقول الرافعي : - - استقالت وزارة سعد زغلول بعد حادث مقتل السير لي ستاك وتولي أحمد زيور رئاسة الوزارة وتم حل مجلس النواب ثم تم الدعوة لانتخاب مجلس جديد ثم تم حله في نفس يوم انعقاده ،
- تم حله في نفس يوم انعقاده يا للعجب
- وعن هذا الموضوع كتب المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي ما ملخصه : افتتح البرلمان بمجلسيه في هيئة مؤتمر صبيحة يوم الاثنين ٢٣ مارس سنة ١٩٢٥ برئاسة محمد توفيق نسيم باشا رئيس مجلس الشيوخ وحضر #الملك_فؤاد جلسة الافتتاح وتلا زيور باشا خطاب العرش ثم انفض المؤتمر ، واجتمع مجلس النواب في نحو الساعة الحادية عشرة قبل الظهر وبدأ في انتخاب رئيسه ، فظهر من نتيجة الانتخاب أن أغلبية النواب من الوفديين إذ كان التنافس علي الرآسة بين سعد زغلول وعبد الخالق ثروت ، فنال سعد ١٢٣ صوتاً ونال ثروت ٨٥ صوتاً فقط فظهرت بذلك النتيجة التي لا شك فيها في الانتخابات العامة لمجلس النواب الجديد ، وأنها أسفرت عن أغلبية وفدية خلافاً لما زعمته الحكومة في بلاغها يوم ١٣ مارس ، وظهر أن الوزارة لا تحوز ثقة المجلس الجديد ، فكانت هذه النتيجة صدمة شديدة للوزارة ، وتأجل اجتماع المجلس إلي الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم لمتابعة أعماله وأولها انتخاب وكيلي المجلس والسكرتيرين والمراقبين (أعضاء مكتب المجلس) ، ولو اتبعت أحكام

الدستور وكان الغرض من حل مجلس النواب الأول هو الرجوع إلي الأمة لكان واجباً علي الوزارة أن تستقيل ، وقد أعدت استقالتها فعلاً عقب انتخاب سعد لرآسة المجلس ولكن كان الأمر مبيتاً علي أن تكون الاستقالة صورية وأن تكون اتهاماً للأغلبية وأن لا يقبل الملك هذه الاستقالة ، فرفع زيور باشا كتاب الاستقالة إلي الملك ، ومما جاء فيه قوله : "بمجرد انعقاد المجلس وقبل بحث برنامج الوزارة الذي تضمنه خطاب العرش ظهرت في المجلس روح عدائية علي الإصرار علي تلك السياسة التي كانت سبباً لتلك النكبات التي لم تنته البلاد من معالجتها وقد بدت تلك الروح جلية في أن المجلس اختار لرياسته زعيم تلك السياسة والمسئول الأول عنها"، ، والسياسة التي أشار إليها زيور في هذا الكتاب هي سياسة البرلمان الأول[٣٧٢] التي أغضبت الحكومة البريطانية إذ رفض مطالبها الجائرة ، لم يقبل الملك استقالة الوزارة وجدد ثقته فيها علي الرغم من خذلان مجلس النواب الجديد لها ، فرفع زيور إلي الملك كتاباً آخر عرض فيه حل هذا المجلس فأصدر الملك علي الفور مرسوماً بحله ، استأنف المجلس اجتماعه في الساعة الخامسة من مساء هذا اليوم ورأس الجلسة سعد باشا ، وأخذ الأعضاء في انتخاب الوكيلين – – – وفيما كانت الأوراق تفرز دخل زيور باشا ومعه الوزراء وخاطب الأعضاء قائلاً : أتشرف بإخبار المجلس أن الوزارة رفعت استقالتها إلي جلالة الملك فأبي قبولها ، فأشارت الوزارة علي جلالته بحل المجلس فأصدر المرسوم الآتي نصه وتلاه وهو يقضي بحل المجلس وبدعوة المندوبين لإجراء انتخابات جديدة في ٢٣ مايو سنة ١٩٢٥ وأن مجلس النواب الجديد سيجتمع أول يونيه ، ، كانت تلاوة مرسوم الحل قبيل الساعة الثامنة مساءاً ، فلم يعش ذلك المجلس سوي تسع ساعات ، لأنه انعقد في الساعة الحادية عشرة صباحاً ، وحل في الثامنة مساءاً فكان أقصر المجالس النيابية عمراً

- فماذا كان رد فعل النواب علي هذا القرار ؟
- يضيف الرافعي قائلاً : قوبل حل مجلس النواب بالدهشة والألم لأنه كان مفهوماً أن يبقي وتستقيل الوزارة ، وكان هناك طرائق كثيرة لمعالجة هذه الأزمة بان تؤلف وزارة جديدة من حزب الأغلبية أو موالية لها وتنال ثقة المجلس وتسير الأمور طبقاً لأحكام الدستور ولكن العناد الذي يشبه عناد الأطفال جعل الوزارة باتفاقها مع السراي والإنجليز تستصدر المرسوم بحل مجلس النواب ، منتهكة بذلك حرمة الدستور وإرادة الأمة ، وكان الباعث علي هذا الذي وقع هو تعلق بضعة نفر من الوصوليين بكراسي الوزارة فحسب ورغبتهم الجامحة في ألا تفلت هذه الكراسي من أيديهم ، صار الحكم منذ تأليف وزارة زيور باشا حكماً غير دستوري لأن الوزارة بدلاً من أن تواجه البرلمان لكي تنال ثقته وبدلاً من أن تنزل علي إرادته حلت مجلس النواب الأول ثم حلت مجلس النواب الثاني حين آنست أن الأغلبية ليست في جانبها وبذلك حل مجلس النواب لسبب واحد مرتين وهذا نقض لأحكام الدستور – – – واستفحل نفوذ

[٣٧٢] جدير بالذكر أن المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي كان عضواً في هذا البرلمان عن الحزب الوطني

السراي في ظل هذا النظام لأن الوزارة لم يكن لها سند غير السراي ، بعد أن أهدرت إرادة الأمة – – – وهكذا عطل الدستور ، ومن عجب أن من هؤلاء السادة من صبروا علي حكم الاحتلال السنين الطوال ولم يتبرموا به أو يقاوموه أو يعارضوه ثم هم أولاء لم يصطبروا علي حكم الشعب أشهر معدودات[٣٧٣]

- يبدو أن أحمد زيور باشا كان محل ثقة الملك والإنجليز ويفعل ما يتفق مع سياساتهم ، فهل لديك معلومات عن هذا الرجل عدو الدستور ؟
- بالطبع إن خير ما يمكن أن يقال عنه ما كتبه الشيخ عبد العزيز البشري في كتابه
- فماذا كتب عنه بأسلوبه الساخر الطريف ؟

١٣٩. أحمد زيور باشا في مرآة عبد العزيز البشري

- أما شكله الخارجي وأوضاعه الهندسية ورسم قطاعاته ومساقطه الأفقية فذلك كله يحتاج في وصفه وضبط مساحاته إلي فن دقيق وهندسة بارعة ، والواقع أن زيور باشا رجل –إذا صح هذا التعبير– يمتاز عن سائر الناس في كل شئ ، ولست أعني بامتيازه في شكله المهول طوله ولا عرضه ولا بعد مداه ، فإن في الناس من هم أبدن منه وأبعد طولاً وأوفر لحماً ، إلا أن لكل منهم هيكلاً واحداً ، أما صاحبنا فإذا اطلعت عليه أدركت لأول وهلة أنه مؤلف من عدة مخلوقات لا تدري كيف اتصلت ولا كيف تعلق بعضها ببعض ، وإنك لتري بينها الثابت وبينها المختلج ، ومنها ما يدور حول نفسه ، ومنها ما يدور حول غيره وفيها المتيبس المتحجر وفيها المسترخي المترهل ، – – – وإنك لتجد ناساً يصفون زيور بالدهاء وسعة الحيلة بينما تري آخرين ينعتونه بالبساطة وقد يتدلون به إلي حد الغفلة ، كما تجد خلقاً يتحدثون بارتفاع خلقه وتنزهه عن النقائص ، إذ غيرهم ينحطون به إلي ما لا تجاوره مكرمة ، ولا يسكن إليه خلق محمود ، كذلك زيور عند الناس مجموعة متباينة متناقضة متشاكسة – – – وإذا كان هذا مما لا يمكن في الطبيعة أن يستقيم لرجل واحد فقد غلط الناس إذ حسبوا زيور رجلاً واحداً ، – – فإذا أدهشك التباين في أخلاقه – فذلك أن هذا الجرم العظيم مؤلف في الحقيقة من عدة مناطق لكل منها شكله وطبعه وتصوره وحظه من التربية والتهذيب ، – – والظاهر أن زيور باشا برغم حرصه علي كل هذه الممتلكات الواسعة عاجز تمام العجز عن إدارتها وتوليها بالمراقبة والإشراف ، وما دامت الإدارة المركزيه فيه قد فشلت كل هذا الفشل ، فأحري به أن يبادر فيعلن إعطاء كل منها الحكم الذاتي علي أن تعمل مستقلة بنفسها علي التدرج في سبيل الرقي والكمال ، – – – تلك بعض آثار هؤلاء الذين يدعونهم زيور باشا فإذا تمثلوا شخصاً وبدوا للعيون رجلاً واحداً فذلك مصداق قول أبي نواس : ليس علي الله بمستكثر أن يجمع العالم في واحد ، وإن أهل مصر ليأخذون زيور باشا كله بما لا يحصي من الجرائم علي القضية الوطنية ، وإنهم ليعدون عليه سفهه في أموال الدولة واستهتاره

[٣٧٣] نقلاً عن كتاب (في أعقاب الثورة المصرية) الجزء الأول – لعبد الرحمن الرافعي

بمصالحها ، وإنهم ليحسبون عليه إيثاره الأهل والأقربين والأصحاب والمحبين وذوي أرحامهم بمناصب الدولة ومنافعها ، وقد يكون لمجلس النواب مع هؤلاء الرجل شأن إذا أقبل يوم الحساب ، وإن ظلماً أن يؤخذ البرئ بجريرة الآثم ، فقد يكون الذي اقترف كل هذه الآثام كوع زيور باشا الأيسر ، أو القسم الأسفل من لغده أو المنطقة الوسطي من فخذه اليمني ، أو غيرها من تلك الكائنات التي تجمعت في هيكله العظيم – – إن الحق والعدل ليقضيان أن يؤلف مجلس النواب إن شاء الله لجنة تقوم بعمل التحقيق في جسم صاحب الدولة فتسأل أعضاءه عضوا عضوا وتحقق مع أشلائه شلوا شلوا حتي يفرق منها بين المحسن والمسئ – – ولعل العضو الوحيد المقطوع ببراءته من كل ما أُرتكب من الآثام هو مخ زيور باشا ، فما أحسبه شارك ولا دخل في شئ من كل ما حصل – – – – وفي –زيور باشا– صفة جامعة هي شدة احترامه للبرنيطة وعمله علي إرضائها بكل الوسائل فما عُرِف أن زيور رد في حياته طلباً لبرنيطة مهما كان حاملها في الناس[٣٧٤]

- وماذا كان رد فعل زيور باشا علي ما كتبه البشري ؟
- لقد كان يضحك من مثل هذه الأمور ويأخذها ببساطة شديدة
- حسناً ، فهل من الممكن أن نختصر الحديث عن الحكم الدستوري في مصر لأن الخوض في التفاصيل لن يكون مجدياً ، لأن الملك والإنجليز يتلاعبون بالوزارات ومجالس النواب فليس من الضروري أن نتحدث عن هذه الألاعيب ويكفي أن نتحدث بشكل عام عنها
- بالفعل لقد كان الملك يتلاعب بالدستور وبالحكومات المنتخبة ويقوم الإنجليز بدعم الموقف الذي يتماشي مع سياساتهم ويحقق أهدافهم ومع ذلك لا يعلنون ذلك صراحةً بل كان موقفهم الرسمي هو الحياد بين الملك والقوي السياسية ولكنه كان حياد كاذب كما وصفه شاعر النيل حافظ إبراهيم رحمه الله
- فماذا قال حافظ إبراهيم عن هذا الحياد الكاذب ومتي كان ذلك ؟

١٤٠. شاعر النيل حافظ إبراهيم يصف حياد بريطانيا سنة ١٩٣٠ بالحياد الكاذب

- كانت الأفكار تتناقل الإشاعات المختلفة عما تبيته الحكومة للحياة الدستورية وكان الظن أن تلجأ إلي تعديل قانون الانتخاب لتضمن تدخلها وضغطها علي حرية الناخبين أو توقف الحياة الدستورية كما فعلت وزارة محمد محمود ولكن وزارة اسماعيل صدقي كانت أمعن في العدوان مما ظنه الناس إذ استقر عزمها علي إلغاء الدستور ووضع دستور آخر يضيق من سلطة الأمة ، صدر الأمر الملكي في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٣٠ بإلغاء دستور ١٩٢٣ وبحل مجلسي النواب والشيوخ وإعلان الدستور الجديد ووقع الملك فؤاد علي هذا الأمر وعلي الدستور الجديد ووقع مع الوزراء اسماعيل صدقي ---وصدر في

---

٣٧٤ ملحوظة : نشرت هذه المرآة في جريدة السياسة الأسبوعية وزيور باشا في رياسة الوزراء نقلاً باختصار عن كتاب في المرآة تأليف الشيخ عبد العزيز البشري رحمه الله – الناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة – تصميم غلاف الكتاب محمد الطوبجي

نفس اليوم قانون الانتخاب الجديد منسجماً مع الدستور الذي ابتدعته الوزارة ، وعرضت الوزارة خفية أمر هذا الدستور علي الحكومة البريطانية قبل إصداره وأطلعت وزارة الخارجية البريطانية علي نصوصه وكانت هذه علي علم باليوم المحدد لصدوره ، فكان جوابها أن هذه من المسائل الداخلية التي لا شأن لها بها ومدلول الجواب موافقتها علي هذا الاعتداء فمضت الوزارة مطمئنة إلي إنفاذه وكان موقف الحكومة البريطانية تحت ستار الحياد ينطوي علي الانتقام من الأمة لعدم قبول حكومتها البرلمانية مشروع المعاهدة ، فسياستها هي إما قبول السيطرة البريطانية وإما حرمان الأمة حقوقها الدستورية بواسطة الوزارات الرجعية ، – – أشارت جريدة الديلي ميل الإنجليزية بقولها قبيل صدور الدستور الجديد : (تدبر أزمة جديدة في سراي عابدين – – الملك فؤاد بمعاونة صدقي باشا قد سنا دستوراً جديداً تماماً – – إلي أن قالت ومعني هذا أن الحكومة تكون حكومة السراي وأن الحكومة هي الملك نفسه وستكون نتيجة هذا التغيير المنتظر نقل السيطرة البرلمانية من الوفديين المضادين للبريطانيين إلي الملك الذي يتسني له إذ ذاك أن يحكم البلاد حكماً مطلقاً ، أما الذين يعلمون طريقة سير الحوادث في مصر فيقولون إنه من المستحيل علمياً أن تتبع بريطانيا سياسة عدم التدخل في الشئون المصرية ، فما دامت بريطانيا واضعة جنودها في القاهرة وأسطولها علي مقربة من الإسكندرية فإن عدم تدخلها يعتبر علي الأقل معادلاً للتأييد السلبي)– – – –قال شاعر النيل حافظ إبراهيم مخاطباً الإنجليز منددا بسياسة الحياد ناعياً عليهم ظلمهم وإخلافهم وعودهم للأمة :

بنيتم علي الأخلاق أساس ملككم فكان لكم بين الشعوب ذمام
أخاف عليكم عثرة بعد نهضة فليس لملك الظالمين دوام
أضعتم وداداً لو رعيتم عهوده لما قام بين الأمتين خصام
أبعد حياد لا رعي الله عهده وبعد الجروح الناغرات وئام ؟

وقال في هذا المعني :

لا تذكروا الأخلاق بعد حيادكم فمصابكم ومصابنا سيان
حاربتمو أخلاقكم لتحاربوا أخلاقنا فتألم الشعبان

وقال عن الحياد الكاذب :

قصر الدوبارة قد نقضت العهد نقض الغاصب
أخفيت ما أضمرته وأبنت ود الصاحب
الحرب أروح للنفوس من الحياد الكاذب

وقال مخاطباً المندوب السامي البريطاني منددا بحياد الإنجليز المصطنع :

ألم تر في الطريق إلي كياد تصيد البط بؤس العالمينا
الم تلمح دموع الناس تجري من البلوي – ألم تسمع أنينا

الم تخبر بني التايمز عنا وقد بعثوك مندوباً أمينا
بأنا قد لمسنا الغدر لمساً وأصبح ظننا فيكم يقينا
كشفنا عن نواياكم فلستم وقد برح الخفاء محايدينا
سنجمع أمرنا فترون منا لدي الجلي كراماً صابرينا
فهل يجديكم الأسطول نفعاً إذا ما نازل الحق المبينا ؟
وقال أيضاً : أمحايد أم حائد عن منهج الحق المبين ؟
نازلت شعباً أعزلاً بمدرعين مدججين
وأمنت عقبي الظالمين وبئس عقبي الظالمين
مهما تصب منا فلسنا الجازعين اليائسين
إنا بجبار السماء وبالعقيدة نستعين
إن العقيدة لا تزلزلها حراب الغاصبين
فلئن ملكتم يومكم لغد لرب العالمين
أأمنتمو صرف الزمان وفتكه بالغاشمين
وقال مخاطباً اسماعيل باشا صدقي :
قد مر عام يا سعاد وعام وابن الكنانة في حماه يضام
صبوا البلاء علي العباد فنصفهم يجبي البلاد ونصفهم حكام
أشكو إلي قصر الدبارة ماجني صدقي الوزير وماجبي علام
ودعا عليك الله في محرابه الشيخ والقسيس والحاخام[٣٧٥]

- **كل ما سبق بالطبع كان مجرد أمثلة فقط علي العبث بالحياة الدستورية في مصر ، فهل هناك أمثلة أخري ؟**
- **بالتأكيد فقد كان تصريح فبراير ١٩٢٢ منحة من الإنجليز وكان الدستور ١٩٢٣ منحة من الملك وبالتالي فقد كانوا يعتقدون أن لهم الحق في تعطيل أو تفعيل ما منحوه للشعب في أي وقت ، بل إن من الأمثلة الواضحة جداً علي ذلك أن القوي السياسية في أحد هذه المراحل أرسلت خطاب إلي الملك تستجدي منه العودة للدستور وإجراء انتخابات**
- **وهل لديك نص هذا الخطاب ؟**

١٤١. كتاب الجبهة الوطنية إلي الملك فؤاد – ١٢ ديسمبر سنة ١٩٣٥

[٣٧٥] نقلاً باختصار عن كتاب في أعقاب الثورة المصرية – ثورة ١٩١٩ – لعبد الرحمن الرافعي الجزء الثاني –دار المعارف

- بالتأكيد فقد ورد به ما يلي : نقلاً عن كتاب في أعقاب الثورة المصرية – ثورة ١٩١٩ – لعبد الرحمن الرافعي – الجزء الثاني –دار المعارف : حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك ،،، نتشرف نحن الموقعين علي هذا بأن نرفع إلي سدتكم الرفيعة هذا الملتمس الذي تتمثل فيه إرادة الشعب المصري مجتمعة كلمته منيعة جبهته ، فلقد حلت بالبلاد أزمة سياسية خطيرة اجتمع فيها الخطر الخارجي الذي يهدد البلاد بحرب جائحة إلي الخطر الداخلي الذي يهدد حريتها وطمأنينتها ويمس حقها المعترف به في تصريف أمورها والاستمتاع بدستورها مما دعا إلي انتشار روح القلق في البلاد واضطراب المصالح العامة والخاصة معاً ،، وإننا لنري بكل احترام أنه ما من مخرج من هذه المحنة أو علاج حاسم لها إلا أن يعود إلي الأمة فوراً دستورها الصادر في سنة ١٩٢٣ ، وما كنا فيما نري صادرين إلا عن الرأي الذي ارتضته حكمة جلالتكم السامية في كتابكم الملكي الصادر إلي مجلس الوزراء بتاريخ ٢٠ إبريل سنة ١٩٣٥ ، والذي ورد فيه ما يأتي بحروفه : (إن أعز أمانينا كما تعلمون هو أن تحيا البلاد الحياة الدستورية التي ترضاها ، سواء بإعادة دستور سنة ١٩٢٣ معدلاً علي النحو يرتئيه حسب المقتضيات نواب الأمة طبقاً لأحكام المواد ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ من ذلك الدستور أو وضع دستور تصدق عليه جمعية تمثيلية وطنية وإنا مع ذلك نفضل الطريقة الأولي) ،، (يا صاحب الجلالة) ،، ،(إذا كان الشعب ممثلاً في هيئاته وأحزابه السياسية قد أجمع هذا الإجماع الرائع علي وجوب عودة دستور الأمة منذ الآن فإنه إنما يقصد إلي استقرار نظام الحكم علي أساس سلطة الأمة توصلاً لإيجاد حكومة دستورية تعمل لإصلاح ما فسد وتحقق استقلال البلاد) ،، ولما كان الدستور من حق جلالتكم والشعب المصري ،، ولما كنا نعلم أن أسمي رغبات جلالتكم أن تطمئن الأمة إلي صيانة حقوقها ومرافقها فتهيأ لنفسها المصير الذي ينتظرها والمكان اللائق بها بين الأمم ،،، لذلك ،، نلتمس من جلالتكم ،،، التعطف بإصدار أمركم الكريم بإعادة دستور سنة ١٩٢٣ فوراً ونرفع إلي سدتكم مع هذا الالتماس أسمي فروض الولاء لعرشكم والإخلاص لذاتكم ،،، ولازلنا يا صاحب الجلالة لمقامكم العالي المطيعين المخلصين ،،، ١٢ ديسمبر ١٩٣٥ ويقول الرافعي : وقد وقع علي هذا الكتاب كل من : مصطفي النحاس رئيس الوفد المصري[٣٧٦] ، محمد محمود رئيس حزب الأحرار الدستوريين ، اسماعيل صدقي رئيس حزب الشعب ، يحيي إبراهيم رئيس حزب الاتحاد ، حافظ رمضان رئيس الحزب الوطني ، عبد الفتاح يحيي ، حمد الباسل وحافظ عفيفي عن المستقلين وتسلمه علي ماهر رئيس الديوان الملكي ورفعه إلي الملك
- يا لها من صيغة مهينة أكثر ما لفت نظري فيها قولهم نلتمس من جلالتكم التعطف بإصدار أمركم الكريم بإعادة دستور سنة ١٩٢٣ حقاً لقد كان منحة من الملك

[٣٧٦] كان قد خلف مصطفي النحاس باشا سعد زغلول في رئاسة الوفد بعد وفاته

- أما عن ملخص علاقة الملك فؤاد بالحياة الدستورية في مصر فقد كتب عنها الرافعي في موضع آخر من كتابه في معرض حديثه عن مراحل حياة الملك فؤاد ما يلي : ومن هنا صارت المرحلة الثالثة من حياة الملك فؤاد –وهي معظم سني حكمه– نضالاً مستمراً بينه وبين الأمة وقعت فيها ثلاثة انقلابات حطمت الحياة الدستورية ، وهذا لعمري مما لا يشرف صفحة الملك ، وخاصة إذا لاحظنا أنه لم يبذل مثل هذا النضال ولا أقل منه في ميدان آخر كان هو الجدير به ، ونعني به ميدان النضال ضد الجانب البريطاني جانب الاحتلال والعدوان علي الاستقلال – – بل كان يعمل علي مسايرة السياسة البريطانية وتفادي الصدام بها اعتبر ذلك قبل ثورة ١٩١٩ وفي خلالها وفي أعقابها ، ومن المحقق أيضاً أن هاتيك الانقلابات الثلاثة التي وقعت في عهده كانت تتم باتفاق بينه وبين الجانب البريطاني مع اختلاف في المقاصد والأغراض ، فالجانب البريطاني كان يري فيها عقوبة لمصر علي عدم إذعانها لسياسته ، والملك والمستوزرون يرون فيها استرداداً للحكم المطلق علي حساب سلطة الأمة ، ولا ينهض عذراً للملك فؤاد في مناوأته للدستور ما يدعيه بعض الرجعيين من أن الأمة لم تنضج لهذا النظام ، فإن هذه الدعاية إنما ابتدعها الاحتلال منذ سنة ١٨٨٢ ليسوغ بها عدوانه علي استقلال البلاد إلغاء دستورها سنة ١٨٨٣ – –ويكفيك للتحقق من بطلانها أن تقارن بين الوزارات التي اختارها الشعب والوزارات التي اختارها الملك فؤاد وفرضها علي الشعب فرضاً ، سواء في عهد الحماية أو في عهد ثورة ١٩١٩ أو في أعقابها فإنك من غير تردد أو تحيز تقطع بأن اختيار الشعب في مجموعه كان خيراً من اختيار الملك فهذا دليل ناطق علي أن الشعب ناضج للحياة الدستورية كفء لأن يختار الحكومة التي يرضاها

- هل من الممكن أن تذكر لي أسماء جميع رؤساء الحكومات في عهد الملك فؤاد والملك فاروق بالترتيب كملخص عام للعصر الملكي ؟

١٤٢. بيان أسماء رؤساء وزراء مصر في العصر الملكي

- كان أول رئيس وزراء في عهد فؤاد هو حسين رشدي باشا وفي عهده قامت ثورة ١٩١٩ وكان قد تولي الوزارة من قبل تعيين فؤاد سلطان علي مصر ثم تولي رئاسة الوزراء بعده بفترة محمد سعيد باشا ثم يوسف وهبة باشا ، ثم محمد نسيم باشا ، ثم عدلي يكن باشا ، ثم عبد الخالق ثروت باشا بعد تصريح ٢٨فبراير ١٩٢٢ وفي عهده أصبح فؤاد ملك بدلا من سلطان ، ثم تولي محمد توفيق نسيم باشا الوزارة ، ثم يحيي إبراهيم باشا وفي عهده صدر دستور ١٩٢٣ ثم تم عمل انتخابات وأصبح سعد زغلول باشا رئيساً للوزراء وهي أول حكومة منتخبة بعد الدستور ، ثم حدث انقلاب علي الدستور بعد مقتل السير لي ستاك وتم تعيين أحمد زيور باشا رئيساً للوزارة ، ثم عدلي يكن باشا ، ثم عبد الخالق ثروت باشا ، وفي عهده توفي سعد باشا زغلول ، مصطفي النحاس باشا ، محمد محمود باشا ، عدلي يكن باشا ، مصطفي النحاس باشا ، اسماعيل صدقي باشا ، عبد الفتاح يحيي باشا ، محمد نسيم

باشا ، علي ماهر باشا وفي عهده توفي الملك فؤاد وتم ارتقاء الملك فاروق عرش مصر وفي عهده تولي رئاسة الوزراء علي الترتيب كل من : مصطفي النحاس باشا وفي عهده تم توقيع معاهدة ١٩٣٦ ، محمد محمود باشا ، علي ماهر باشا ، حسن صبري باشا ، حسين سري باشا ، مصطفي النحاس باشا بضغط من الإنجليز في حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ وفي عهده كانت أحداث الحرب العالمية الثانية ومعركة العلمين، أحمد ماهر باشا ، النقراشي باشا وفي عهده انتهت الحرب العالمية الثانية وتم تأسيس هيئة الأمم المتحدة وتوقيع ميثاق جامعة الدول العربية ، اسماعيل صدقي باشا ، محمود فهمي النقراشي باشا وفي عهده وقعت حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ، إبراهيم عبد الهادي باشا ، حسين سري باشا ، مصطفي النحاس باشا وقام بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ وبدء المقاومة في القناة وحدوث مجزرة للشرطة المصرية في الاسماعيلية واستبسالها في قتال الإنجليز وهو اليوم الذي أصبح عيداً للشرطة في ٢٥يناير ١٩٥٢ وحدث حريق القاهرة وإقالة وزارة الوفد وتعيين علي ماهر باشا ، أحمد نجيب الهلالي باشا ، حسين سري باشا ، الهلالي باشا وفي عهده قامت ثورة يوليو ١٩٥٢

- من الواضح بالفعل أن كل هذه الحكومات كانت نتيجة لعدم استقرار الحياة الدستورية وتدخل الإنجليز والملك في إقالة وتعيين من يريدون وكان حادث ٤ فبراير بالطبع مثال صارخ علي نفوذ الاحتلال وسيطرته علي الأمور ، ولكن ما عرضته لا يشبع الظمأ بل يزيد الأمور غموضاً فهل من الممكن أن نلقي الضوء علي بعض ما ذكرته من نقاط مهمة كحادث ٤ فبراير ١٩٤٢ وحرب فلسطين وغيرها من أحداث مثيرة كعيد الشرطة وحريق القاهرة ولنبدأ مثلاً بحادث ٤ فبراي
- معك كل الحق وسوف نعود للحديث عن كل النقاط المهمة التي وردت أثناء عرض أسماء رؤساء الحكومات ، أما حادث ٤ فبراير فسببه يرجع إلي أن الإنجليز كانوا بالطبع يخوضون معارك الحرب العالمية الثانية وكان النحاس باشا أثناء توليه الوزارة قد وقع معهم معاهدة سنة ١٩٣٦ والتي تفرض علي مصر مساعدة بريطانيا في هذه الحرب مقابل حصولها علي الاستقلال، لذلك أصر الإنجليز علي تولي النحاس باشا السلطة أثناء الحرب لينفذ ما وقع عليه من التزامات ، وإليك ما كتبه الرافعي عن هذا الحادث
- كلي آذان صاغية

١٤٣. حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ وإصرار النحاس باشا علي وزارة وفدية خالصة بضغط علي الملك فاروق من الإنجليز بالقوة

- نقلاً عن كتاب في أعقاب الثورة المصرية – ثورة ١٩١٩ – لعبد الرحمن الرافعي – الجزء الثالث –دار المعارف – حيث كتب ما ملخصه : اتجهت نية الإنجليز خلال الحرب العالمية الثانية إلي إسناد الوزارة إلي النحاس أو اشتراك حزبه (الوفد) في الوزارة ، وأبلغوا هذه الرغبة إلي جلالة الملك ، – – فلما تحرجت الأمور في أواخر عهد وزارة حسين سري جدد السفير البريطاني (لورد كيلرن) إبداء هذه الرغبة

إلي جلالة الملك فاستدعي النحاس وحدد له يوم ٣ فبراير سنة ١٩٤٢ للمقابلة الملكية وعرض عليه جلالة الملك أن يؤلف وزارة قومية برآ سته ، وكان من الممكن أن يتم الأمر في هدوء وبغير حاجة إلي التدخل البريطاني المسلح الذي حدث يوم ٤ فبراير ، لو أن النحاس قبل أن يؤلف وزارة قومية ، ولكنه أبي ذلك استجابة لأنانيته واتباعاً لعادته في رفض الائتلاف إلا مكرهاً ، واعتذر لجلالة الملك من عدم إجابته هذا الطلب مستنداً إلي عدم استطاعته الاشتراك في الحكم مع رجال الانقلاب –علي الدستور– – – – ولما علم السفير البريطاني علي أثر هذه المقابلة بأن النحاس رفض تأليف وزارة قومية برآسته قابل رئيس الديوان الملكي (أحمد محمد حسنين) وأخبره بأنه علم برفض النحاس تأليف وزارة قومية – من جميع الأحزاب–، وطلب إليه أن يرفع إلي جلالة الملك نصيحة السفير أن يكلف النحاس بتأليف وزارة وفدية ، فرد عليه رئيس الديوان بأن المسألة بين الملك ورؤساء الأحزاب ، وفي اليوم التالي (٤فبراير) دعي رؤساء الأحزاب وبعض الشخصيات البارزة – – فاجتمعوا بالقصر في نحو الساعة الرابعة مساء ورأس جلالة الملك الاجتماع وتلا أحمد محمد حسنين رئيس الديوان بياناً باسم جلالته أشاد فيه بفضل الاتحاد ونوه إلي أن جلالته بدأ منذ أمس يستدعي بعض المجتمعين ليدعوهم إلي تأليف وزارة قومية ولكن قبل أن تبدأ المشاورات طلب إلي السفير البريطاني استدعاء النحاس باشا وتكليفه بتشكيل الوزارة – – – وأن السفير طلب اليوم ٤ فبراير مقابلة رئيس الديوان وسلمه إنذاراً هذا نصه : (إذا لم أسمع قبل الساعة السادسة مساءاً أن النحاس باشا قد دعي لتأليف وزارة فإن جلالة الملك فاروق يجب أن يتحمل ما يترتب علي ذلك من نتائج) ،

- إنه تهديد مهين يدل علي الحجم الحقيقي للملك وللحياة الدستورية في مصر في ظل الاحتلال فما صيغة النص باللغة الإنجليزية ؟
- Unless I hear by 6 p.m. that Nahas Pasha has been asked to form a cabinet His Majesty King Farouk must accept the consequences.
- فماذا كان رد فعل الملك ؟
- يضيف الرافعي : وختم البيان بدعوة المجتمعين إلي تبادل الرأي في هذا الموقف وانصرف جلالة الملك تاركاً لهم حرية التشاور في الأمر ، تشاور المجتمعون فيما ذا يكون الرد علي الإنذار وكانت الفكرة الغالبة أن تؤلف وزارة قومية برآسة النحاس ولكن النحاس رفض فكرة الوزارة القومية وكانت عاقبة هذا الرفض أن وقع هذا الحادث الذي يعد من الأحداث الخطيرة في تاريخ مصر الحديث ، وانتهي المجتمعون إلي الاحتجاج علي الإنذار وكتب الاحتجاج ووقعوا عليه جميعاً وهذا نصه :(أن في توجيه التبليغ البريطاني اعتداء علي استقلال البلاد ويخل بأحكام المعاهدة) ، وعاد جلالة الملك إلي الاجتماع وعلم بما تم عليه الاتفاق من الاحتجاج فأقره ، حمل رئيس الديوان إلي السفير البريطاني نص الاحتجاج ، فأجاب أن هذا ليس رداً وأنه سيحضر لمقابلة جلالة الملك في الساعة التاسعة مساء

، وقبيل هذا الموعد جاءت دبابات بريطانية مسلحة بالمدافع ورابطت أمام القصر ، ثم حضر السفير البريطاني بصحبة الجنرال استون قائد القوات البريطانية في مصر وقتئذ وبعض الضباط مسلحين بالمسدسات ودخل السفير والجنرال استون إلي غرفة جلالة الملك واجتمعا به بحضور رئيس الديوان وكان السفير يحمل ورقة بالتنازل عن العرش فاختلي رئيس الديوان بالملك وأسدي إليه النصيحة بقبول الإنذار فقبله

- وبالطبع قام النحاس بتنفيذ كل ما تعهد به للإنجليز أثناء الحرب
- بالطبع ولكنه قد فقد الكثير من شعبيته وهو وحزبه بعد هذا الحادث بلا شك ، وهكذا قامت مصر بتسخير كل إمكانياتها لدعم الجيش البريطاني خلال الحرب وخاصة عندما تقدم القائد الألماني الشهير روميل وحقق انتصارات ساحقة ووصل إلي العلمين ، والطريف أن بعض المصريين كانوا يتمنون وصوله للقاهرة وإنهاء الاحتلال البريطاني وانتشرت مقولة (إلي الأمام يا روميل) نكاية في الإنجليز ، ولكن أوضاع القتال تغيرت عندما وصل القائد البريطاني مونتجمري واستلم قيادة الجيش البريطاني
- عجباً لمن يريد استبدال احتلال باحتلال آخر ، ألم يدرك المصريون حتي ذلك الوقت العبث الذي يتم من الاحتلال والسراي بحياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، ألم يفهم حتي أحد المثقفين من النخبة كل هذا
- دعنا نترك سرد الأحداث السياسية قليلاً علي أن نعود إليها إن شاء الله ، ولنتحدث عن موقف بعض المثقفين من مخططات الغرب
- أرجو ذلك لأنني في حيرة شديدة من كل هذه الأحداث وأريد أن ألتقط أنفاسي وأتأمل آراء النخبة المثقفة في مصر إن كنت تحتفظ بشئ منها

١٤٤. جزء من مقال (يا هادي الطريق جرت) للأستاذ أحمد حسن الزيات

- بالتأكيد ولنبدأ ببعض من مقال (يا هادي الطريق جرت) للأستاذ أحمد حسن الزيات ويعتبر الأستاذ أحمد حسن الزيات باشا 1885 –1968 من كبار رجال النهضة الثقافية في مصر والعالم العربي، ومؤسس مجلة الرسالة. واختير عضوا في المجامع اللغوية في القاهرة، ودمشق، وبغداد، وحاز على جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام 1962 م في مصر ، وفيما يلي بعض مما كتب : (----
– لقد تعدد الهداة في القافلة واختلفت الشياطين بين هؤلاء الهداة ، فتنازعوا الزعامة ، وتجاذبوا الأزمة ، فأخرجنا هذا من مذهب إلي مذهب ، وصرفنا ذلك من مطلب إلي مطلب ، حتي إذا انكشفت عن عيوننا أغطية الغفلة ، وجدنا أنفسنا بعد الجهد الجاهد ندور حول الموقف الذي كنا فيه ، أو نرجع إلي الموضع الذي فصلنا عنه ، علي هذه القيادة المتضاربة الأفينة رجعنا القهقري زهاء ثمانين سنة ، رجعنا إلي العهد الذي كنا نهدهد الدستور فيه علي هوي السلطان المطلق ، وندرب القانون علي مصارعة العرف الغالب ، ونعلم الشعب الأجير معني الأمة المالكة ، ليتنا عدنا إلي ذلك العهد بأخلاقه

ورجولته ، فقد كنا علي قلتنا أعزة ، وعلي فاقتنا أعفة ، وعلي جهالتنا أعلم بالخير ، وأفهم لمعني المجتمع ، كنا نتواصي علي الصبر ، ونتعاون علي البر ، ونتهادي صنائع المعروف ، ونحفظ وحدة الأسرة بالحب ، وسلطان الدولة بالطاعة ، وحقوق الله بالورع فما كان منا من يخون الأمانة ، ويسرق الأمة ، ويتكئ علي النقيصة ، ويتحمل علي الخبث ، ويتَّجِر بالدين ، ويتخذ عدو وطنه ولياً ، ويعتقد خطة غاصبيه شريعة ، ، ولكنا وأسفاه ،، بعد هبَّة مصطفي[٣٧٧] ، ونهضة سعد[٣٧٨] ، وجهاد خمسة عشر عاماً ، تمكن فيها السلطان ، واستبحر العمران ، وازدهر العلم ، وتولَّد النبوغ ، وتوحَّد الشعب ، وتكوَّن الرأي ، نُصاب بهذه النكسة الشديدة ، فنعود ناقضين ما أُبرِم ، خاسرين ما غُنِم ، اللهم إن النيل لا يزال يفيض ، وإن الوادي لا يزال يُنبت ، وإن الشمس التي أنضجت أذهان الفراعين لا تزال تُشِع ، وإن الأيدي التي غرست أُولي الحضارات علي العُدوتين لا تزال تعمل ، فما بالنا اليوم يتقدم الناس ونتأخر ، وتتحرر شعوب الناس الضعيفة ونحن لا نتحرر)

- إنه كلام يغني عن سرد العديد من الأحداث بالفعل وأكثر ما لفت نظري فيه قوله (ليتنا عدنا إلي ذلك العهد بأخلاقه ورجولته ، فقد كنا علي قلتنا أعزة ، وعلي فاقتنا أعفة ، وعلي جهالتنا أعلم بالخير)
- بالفعل إنها كلمات معبرة جداً ولقد كتب الأستاذ الزيات هذا المقال في فترة من أحلك الفترات في تاريخ الحكم المصري ، فقد كانت البلاد آنذاك تديرها حكومة (صدقي باشا) وحكم البلاد أسوأ حكم ، وكانت المصالح الحزبية فوق كل اعتبار ، وكان للإقطاع ورأس المال والمحسوبية سطوته في كل مناحي الدولة وكانت مصر تحت الاحتلال البريطاني بالطبع
- وهل هناك آراء أخري ؟

١٤٥. د محمد حسين هيكل (١٨٨٨-١٩٥٦م) يوضح ما صدره الغرب للشرق

- ننتقل إلي رأي آخر قد يعبر أيضاً عن الكثير فهؤلاء المثقفون يعبرون عما نريد أن نقوله بأسلوب بليغ وممتع ويسهل استيعابه ،، وتحت عنوان المخدوعون كتب المؤرخ الكبير جمال بدوي في كتابه الممتع (في محراب الفكر) ما ملخصه : لقد تراءي للجيل الذي تربي في ظل الحكم الأوروبي وذهب للدراسة في الجامعات الأوروبية ، ثم عاد إلي بلاده يدعو للقيم الأوروبية في السياسة والحضارة والحياة كلها ، تراءي له كم كان مخدوعاً وأن للغرب وجهين متناقضين وأن مؤثراته التي يصدرها للمستعمرات أغلبها بهرج وقشور ، أما تبشيره بثقافته وقيمه فالهدف منها زعزعة تراث المنطقة العربية وهدم كيانها الحضاري الموحد أكثر منه نشراً مخلصاً للفكر الإنساني الحديث المتحرر
- كلام منطقي جداً

---

[٣٧٧] يقصد الزعيم مصطفي كامل

[٣٧٨] يقصد الزعيم سعد زغلول

- وهذا أحد غلاة المجددين الذي عرف منذ شبابه الباكر بحماسته للتغريب والدعوة إلي الاغتراف من منابع الغرب ، والبعد عن مؤثرات العروبة والإسلام ، هو الدكتور محمد حسين هيكل الذي استقي هذه الأفكار بحكم صلة القربي إلي أستاذه أحمد لطفي السيد ، لقد ذهب هيكل إلي باريس في العقد الأول من القرن العشرين وبهرته أوروبا ثم عاد إلي وطنه ليتسلم الراية من أستاذه ويصير أحد أقطاب حزب الأحرار الدستوريين الوريث الشرعي لحزب الأمة ، ثم لا يحل عام ١٩٣٢ إلا يقدم لنا هيكل شهادته واعترافه بالمحنة التي تعرض لها شباب مصر الذين سافروا إلي أوروبا واعتنقوا مذاهب الغرب في الفكر ثم فقدوا ثقتهم في هذا الفكر فيما بعد ، لقد كتب هيكل في ملحق السياسة الأسبوعية بتاريخ ١٤ أكتوبر ١٩٣٢ مقالاً هو أقرب إلي الإدانة لحضارة وثق بها ذات يوم : عاد هؤلاء (المبعوثون من شباب العرب) إلي بلادهم يبشرون بالحضارة الغربية لكنهم ما لبثوا أن صدمتهم ظاهرتان عجيبتان أثارتا دهشتهم لتناقضهما مع أصول الحضارة الغربية تناقضاً بيناً : الأولي : هذه الحرب المنظمة التي يقوم بها الاستعمار الأوروبي لحرية العقل ، - - - - -الثانية : انتشار المبشرين الغربيين في كل مكان من المدن الكبيرة والصغيرة بل في القري يدعو إلي المسيحية ولا يتورعون عن التعريض بالإسلام
- وبالرغم من هاتين الظاهرتين ظل هؤلاء الشباب يدعون إلي الحضارة الغربية مستندة إلي أصلها الصحيح - -ولكن مع مرور الوقت فتح عيونهم علي حقيقة أخري لم تكن أقل إثارة لدهشتهم من الظاهرتين اللتين قدمنا ، فما يصدر الغرب للشرق من آثار حضارته قد وقف أو كاد عند أسوأ ثمرات هذه الحضارة وما كان يأتي بلاد الغرب من الربح المادي يمده بأسباب الرخاء والترف ، فتجارة الرقيق الأبيض والكحول ومواد الزينة واللهو وجوقات الهذر المسرحي كان أول ما يصدم الناظر لآثار الغرب في الشرق ، ولم يقدم الغرب إلي جانب هذا من صالح ثمرات حضارته ما يستر سوءاتها هذه ، بل هو كما قدمنا قد وقف حائلاً دون سرعة انتشار العلم الصحيح مما كان هؤلاء الشبان يجاهدون بكل ما يدخل في حدود طاقتهم لنشره والتمكين له ، ثم كشف تعاقب السنين من بعد الحرب الأولي عن الحقيقة المؤلمة المضنية فقضية أوروبا التي حاربت في سبيلها أربع سنوات تباعاً - - لم تكن إلا قضية الاستعمار ، ومن يكون له حق التوسع فيه ، ثم بدت حقيقة أشد من هذه الحقيقة مرارة وإيلاماً تلك أن الغرب الذي تزعم دوله أنه تحرر من قيود التعصب الديني مازال يذكر الحروب الصليبية - - وإن كلمة لورد اللنبي يوم استولي علي القدس وقوله (إن الحروب الصليبية قد انتهت) ، كانت تعبر عن معني يجول بخاطر الدول الاوروبية جميعاً ، في ظل هاتين الحقيقتين الأليمتين جعلت دول الغرب التي وضعت يدها علي العالم الإسلامي تمد في أسباب الجمود الديني عن طريق الجامدين المتعصبين لتزيد الشعوب الإسلامية جموداً وليزيدها الجمود ضعفاً - - - إن هذه الشهادة ضد أوروبا - - يجب ألا يفوتنا مغزاها فهي تصدر بعد مرور أقل من عشر سنوات ١٩٢٣-١٩٣٢ علي استقلال مصر وإقامة نظام دستوري برلماني حزبي علي الطريقة الغربية في جو مفعم بالأمل في توجه مصر نحو الحضارة

الغربية واستفادتها من قيمها وإنجازاتها، وهي شهادة لا تصدر عن شيخ أزهري ولا عن مفكر سلفي بل تصدر عن مثقف درس في أوروبا وأعجب بحضارتها والتزم بالدعوة لها ، ثم ها هو يقف وقفة مراجعة ، علي ضوء تجربته وتجربة جيله المتحمس للتغريب – ليكتشف أن دول الغرب في الشرق لا تقف مع المؤمنين المخلصين لحضارتها الصحيحة من أبناء المنطقة[٣٧٩] – –

- يا لها من شهادة للتاريخ ولكن قل منا من يقرأ التاريخ ،، هذا ما حدث لبعض المثقفين فماذا فعل الاحتلال البريطاني بمصر والمصريين ؟

١٤٦. كيف تدهورت الحالة الاجتماعية في ظل الاحتلال البريطاني ؟

- لقد قام المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي بتوضيح كيف تدهورت الحالة الاجتماعية في ظل الاحتلال البريطاني حيث كتب ما يلي : ، ، ، والطبقة الفقيرة من الفلاحين والعمال وهم أغلبية الشعب قد ساءت حالتهم في عهد الاحتلال ، فهو المسئول الأول عن انتشار الجهل والأمية بينهم – – وهو بسياسته التعليمية قد حال دون تعليمهم وتهذيبهم وتثقيفهم ، فحرموا نور العلم والتربية الأخلاقية والدينية وساءت حالتهم المادية والمعنوية وأهمل الاحتلال حالتهم المادية والصحية والمعنوية وانتشرت فيهم الأمراض ، واجتمعت إلي ذلك رعاية الحكومة للآفات الاجتماعية التي جاءت من أوروبا ورعاها الاحتلال وحماها ، فعمت طبقات الشعب علي السواء ، كبيرها ومتوسطها وصغيرها ، وأولي هذه الآفات الربا ، فقد انتشر انتشاراً ذريعاً ، وساعد علي ذيوعه ما فطر عليه معظم الطبقات في بلادنا من قصر النظر وعدم تقدير العواقب وحب الظهور والإسراف ، ووجد المرابون من هذا الضعف ومن النظم والقوانين ورعاية المحاكم المختلطة ما جعلهم يتغلغون في مختلف الأوساط في العواصم والبنادر والقري القريبة والبعيدة فكبلوا الأهلين بالديون ، مما أفضي إلي ضياع ثروات الكثيرين منهم ، وانتشار الفقر والبؤس في الطبقات الكبيرة ، ثم المتوسطة والصغيرة ، وانتشرت الخمور الفتاكة بين سكان المدن ، ثم سكان الريف ، وصارت محلات المسكرات تفتح علناً في القري بين الفلاحين ، وفي الأحياء الآهلة بالعمال في المدن ، برعاية الحكومة وحمايتها ، وفي كنف الامتيازات الأجنبية ، ففتكت بهم فتكاً ذريعاً ، وأفسدت عليهم صحتهم ودينهم وأخلاقهم ، ونقصت مقدرتهم علي العمل والإنتاج ، وساعدت علي ازدياد حوادث الإجرام والإخلال بالأمن العام ، فبينما الحكومات الأوروبية والأمريكية التي لا تحرم الخمور تحاربها وتمنع انتشارها وبخاصة بين الفلاحين والعمال وتعقد المؤتمرات الدولية وتنشئ اللجان والنظم لمكافحتها والحد من أضرارها ، كانت هذه الآفة تلقي من الحكومة الرعاية والتنشيط ، وصار تجار الخمور في المدن والأرياف ذرائع للتسليف بالربا الفاحش واستلاب أموال الأهلين وإفساد أخلاقهم ، وانتشرت أيضاً آفة الميسر إلي جانب آفة الخمر فساءت حالة الشعب الاجتماعية تبعاً لذلك ، لم

[٣٧٩] نقلاً باختصار عن كتاب في محراب الفكر – للأستاذ جمال بدوي – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٨– مقتطفات من صفحة ١٧ وما بعدها

تتقدم إذن حالة الشعب الاجتماعية في عهد الاحتلال بل ساءت وصارت وبالاً وزادته هذه الآفات بؤساً وانحلالاً وفي ذلك يقول الأمير (السلطان) حسين كامل في حديث له نشرته جريدة ذي إجبشيان استاندرد – اللواء المصري – (عدد ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٠٨) يصف بؤس الفلاح : إن الفلاح يقضي حياته مثقلاً بالدين ، لا يزيد إيراده علي الضرائب المفروضة عليه وفوائد الديون المطلوبة منه وهو لكي يسد حاجات زراعته في مواعيدها مضطر دائماً إلي الاستدانة بالربا الفاحش ، فلهذا العسر من جهة ، ولخلوه من المال من جهة أخري ، ولكثرة من يعولهم من جهة ثالثة قد بقي الفلاح غريقاً في بحار الضنك لا يعرف لنفسه مخلصاً منها ، وصفوة القول أن سياسة الاحتلال كانت من أهم أسباب تأخر البلاد الاجتماعي وتشاركه في حمل هذه المسئولية الحكومات الأهلية والبيئات المصرية[٣٨٠]

- يا لها من مأساة

١٤٧. بيرم التونسي يسخر من الملك والاحتلال البريطاني والقوي السياسية

- لقد كانت فترة الاحتلال البريطاني ووصول أحفاد محمد علي باشا للحكم فترة من أحلك الفترات في تاريخ مصر خاصة بعد استطاع الإنجليز استبدال الزعامة الشعبية الحقيقية بزعامات تتسم بالمهادنة والمرونة واستخدموهم في تهدئة الشعب عندما يثور أو يقاوم بل جعلوا منهم حكومات تساعدهم علي القمع والظلم ونشر الجهل والفجور بين طبقات الشعب المختلفة وكان بيرم التونسي الشاعر الشعبي المعروف في تلك الفترة دائماً ما كان يسخر من هؤلاء السياسيين ومفاوضاتهم العقيمة مع الاحتلال حتي أنه أنشد يقول :

الحماس ما تبط من أيام عرابي وانتهينا
لنجليز شالوا المدافع والطوابي واتلهينا
الخازوق ماسك متين والفرقة تبني بالمدافع
والحقوق تطلبها بالروب والجوانتي وابقي رافع
للبلد جايبين حكمدار من جلاسكو واستلمها
متحمص لو كان في مدريد ولا مسكو كان هدمها
في الفوتيل قاعد أمير والشغل داير حمري جمري
ون زغر لاعظم وزير بردون يا ماهر بطنه تجري
مشروعات اتنفذت وسيادنا تنهب في الفوايد
من سكات ون كنت تزعل يللا هبهب في الجرايد
المعسكر ينبني يوم المفاوضة ونت مالك

[٣٨٠] نقلاً عن كتاب في أعقاب الثورة المصرية – ثورة ١٩١٩ – لعبد الرحمن الرافعي – الجزء الثاني –دار المعارف

دي الأوامر ، والمرافعات والمعارضة خلوها لك

وقت ما يهف الغرام قول ياللابينا عالمراتب

ستميت كبتن يجولك ع المدينة م المراكب

نتفق أو نختلف برضه انت تطلع بالبشاشة

والنشان الحلو في صدرك بيلمع وانت باشا

ياللي قصر الزعفران[٣٨١] مقفول عليكم كلمونا

سلمتكم مصر روحها بين يديكم طمنونا

- إن هذه القصيدة تعبر تعبير ساخر وعميق عن الفرق بين زعامة عرابي وزعامة من جاء بعده ، فهل كتب بيرم التونسي أشعار أخري في هذا السياق ؟
- بالتأكيد وإليك قصيدة يسخر فيها من اهتمام الملك بأحياء الأجانب في الوقت الذي لا يبالي بالأحياء الشعبية حيث أنشد يقول تحت عنوان أهل الوطن والغرباء :

وحول منازل الغرباء عنا غرست الورد ثم الياسمينا

وأخضلت الغصون لهم سماء ومهدت الرخام الجذع حينا

وما قرموا للحم الطير حتي منحتهم الأوز العائمينا

تفجر تحت أرجلهم عيونا وتفقأ وسط أعيننا عيونا

وترضي عنهمو وتصد عنا وقد سخطوا ونحن الشاكرونا

فمر بها علينا كل عام بحي الأشقياء البائسينا

تري الوحلات جاثمةً وفيها بنات قد تعلمن العجينا

إذا كنت الطبيب ونحن مرضي فأوص الناس خيراً بالبنينا

- فهل شارك شعراء آخرين في وصف الأحوال في ظل الاحتلال ؟
- بالتأكيد فالشعر يعبر عن الأحوال خير تعبير ويغني عن العديد من المقالات بل والكتب أيضاً ، ومن خير الأمثلة علي ذلك ما كان يكتبه شاعر النيل حافظ إبراهيم وخاصة عندما وجد انتشار الانحلال في عدة مناطق بالقاهرة كالأزبكية وشارع عماد الدين وغيرها
- فماذا كتب ؟
- لقد أنشد يقول :

حَطَمْتُ اليَراعَ[٣٨٢] فلا تَعْجَبِي وعِفتُ البَيانَ فلا تَعتُبي

فما أنتِ يا مصرُ دارَ الأديبِ ولا أنتِ بالبَلَدِ الطَّيِّبِ

---

[٣٨١] كان قصر الزعفران أحد الأماكن التي كان تتم فيها المفاوضات

[٣٨٢] القلم

وكمْ فيكِ يَا مصرُ مِنْ كاتبٍ أقالَ اليَراعَ ولم يَكتُبِ
فلا تُعذُليني لهذا السكوت فقد ضاقَ بي منكِ ما ضاقَ بي
وكم غَضب الناسُ من قبلِنا لسَلبِ الحُقوقِ ولمْ نغضَبِ
أنابتَةَ العصرِ إنّ الغريبَ مُجِدٌّ بمصرَ فلا تلعبي
يقولون: في النَّشْءِ خيرٌ لنا ولَلنَّشْءُ شرٌّ من الأجنبي
أفي (الأزبكيّة) مثوى البنينِ وبين المساجد مثوى الأب؟
وكم ذا بمصرَ من المضحكاتِ كما قال فيها أبو الطيِّب
أمورٌ تمرُّ وعيشٌ يُمِرُّ ونحن من اللَّهو في ملعب
وشعب يفرُّ من الصالحاتِ فرارَ السَّليم من الأجرب
وقالوا: دخيلٌ عليه العفاء ونعم الدَّخيلُ على مذهبي!
رآنا نياماً ولما نُفِقْ فشمَّرَ للسَّعي والمكسب
وماذا عليه إذا فاتنا ونحن على العيش لم ندأب؟
ألفنا الخمولَ ويا ليتنا ألفنا الخمولَ! ولم نكذب!
فيا أمّةً ضاقَ عن وصفها جَنانُ المفوَّهِ والأَخْطَبِ
تضيعُ الحقيقةُ ما بيننا ويَصلى البريءُ مع المذنب
ويُهضَمُ فينا الإمام الحكيم ويُكْرَم فينا الجهولُ الغَبِي
على الشَّرق منِّي سلامُ الودود وإنْ طأطأ الشَّرقُ للمغرب
لقد كان خِصباً بجدب الزّمانِ فأجدبَ في الزَّمن المُخْصِب!

- وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكاء ، فهل لديك معلومات عن شارع عماد الدين أو شارع الفن كما يقولون ؟

١٤٨. استخدام الفن في التأثير علي ثقافة المجتمع

- بالتأكيد إن موضوع انتشار الفن في صورة ملاهي ليلية وأعمال مسرحية ثم بعد ذلك أعمال سينيمائية كان من أكثر ما استخدمه الاحتلال تأثيراً علي ثقافة ووعي هذا الشعب فقد قدم لهم صور من الحياة التي يريد أن يقلدوها في كل شئ حتي في أسلوب الكلام والملابس وتجد أكثر الفنانين والفنانات شهرة يرتدون ملابس لا تليق بمجتمع مسلم كما كانوا يشربون الخمور في هذه الأعمال الفنية ويسخرون من كل ما هو إسلامي وقد تعلق الكثير من المصريين بهؤلاء الممثلين وأحبوهم وأصبحوا مثلاً أعلي لهم ، وقد كان القائمون علي هذه الأعمال يعملون بخبث شديد علي تقديم نماذج من أبطال هذه الأعمال الفنية تكون في قمة الأخلاق والالتزام مع احتساءهم للخمر وملابسهم الغير لائقة حتي يستقر في

وعي الناس أن هذه المحرمات ليس لها علاقة بالأخلاق الرفيعة ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه تقديم البديل الحضاري الذي يصنع مجتمع جيد في كل شئ ولا يلتزم بتعاليم الإسلام وهو أكثر خطورة من مواجهة الإسلام بأسلوب تصادمي

- بالفعل لقد تأثر المجتمع بهذه الأعمال المسرحية والفنية ربما إلي الآن حتي أن البعض يسمي ذلك العصر بزمن الفن الجميل ، ربما لأن علي ما كان فيه من عري وشرب للخمر وغير ذلك من محرمات، كانت هناك بعض الثوابت الأخلاقية والمبادئ العامة ، التي تم نسفها هي أيضاً في العديد من الأعمال الفنية حالياً ، والمؤسف حقاً أنهم تركوا من ينوب عنهم في فعل كل هذا بعد انتهاء احتلالهم للبلاد فماذا عن شارع عماد الدين الذي سألتك عنه ؟
- ورد عن شارع عماد الدين أو شارع الفن في كتاب القاهرة رحلة في المكان والزمان ما ملخصه : - - شارع الفن وكان في زمن علي باشا مبارك يمتد من شارع بولاق (فؤاد-٢٦يوليو) إلي شارع جامع الإسماعيلي ، وبه ضريح الشيخ عماد الدين ، ويمتد حالياً إلي شارع رمسيس ، والجزء الجنوبي من الشارع حتي تقاطعه مع شارع ٢٦ يوليو أطلق عليه شارع محمد فريد ، وشارع عماد الدين هو شاهد علي أروع الأزمنة في تاريخنا الفني ، في أوائل القرن العشرين
- من الواضح أنك قد اخترت كتاباً يشيد بتاريخ هذا الشارع ويفخر به ، علي أي حال لا مانع إذا كان هذا هو المتوفر لديك ،فماذا قال أيضا عن هذا الشارع ؟
- يضيف الكاتب : - - وقد شيدت مبانيه ، أشهرها عمارات الخديو علي الطرازين الإيطالي والفرنسي ، وكان من أوائل الشوارع التي ازدانت بمصابيح الغاز علي جانبيه ، ومنذ البداية كان الحرص علي تشييد المسارح والصالات والمقاهي والكازينوهات لخدمة الجاليات الأوروبية في هذه المنطقة بوسط البلد ثم أصبح الشارع ومسارحه ملتقي الراغبين من سكان الحلمية الجديدة والعباسية ومصر الجديدة والزمالك ، والأعيان من الريف المصري ، وتحولت مقاهي عماد الدين إلي صالونات فكرية وفنية جمعت أمير الشعر أحمد شوقي وخليل مطران والعقاد وحافظ إبراهيم والمازني ومحمد تيمور وفرح أنطون وعباس علام وأمين صدقي ونقولا تكلا وغيرهم من نجوم الأدب والصحافة
- إنها النخبة التي نتحدث عنها ،والمفتونة بالغرب إلا من رحم ربي ، وسبحان الله
- ويذكر الشارع عبقرية الفنان سيد درويش وهو الذي آمن بأن الموسيقي للشعب ، أراد أن يغني الشعب بجميع طبقاته ، فكتب لألحانه التي شهدت بها مسارح عماد الدين الخلود ومن المدهش أن فن المنولوج الوطني والإجتماعي ولد في صالات ومسارح عماد الدين ، وكم تألقت في سماء عماد الدين فرق ونجوم في تاريخ المسرح المصري ، أذكر منهم فرقة جورج أبيض ، فرقة عزيز عيد ، أولاد عكاشة ، فرقة يوسف وهبي -مسرح رمسيس - وفرقة نجيب الريحاني وفرقة علي الكسار -بربري مصر الوحيد- وفرقة فاطمة رشدي - أضاء جورج أبيض مسرحه الرنيسانس بشارع عماد الدين عام

١٩٢٣ وتبادل مع غيره من الفرق مسرح برنتانيا الجديد وكان مقهي الكورسال مكانه المفضل إلي جانب قهوة متاتيا بالعتبة للقاء أهل الأدب والفن والصحافة وظل علي الكسار –عثمان عبد الباسط– مسيطراً علي شارع عماد الدين نحو ٣١ عاماً ببساطته وطيبته وروحه المصرية المرحة مع تمسكه بالقيم والتقاليد ، قدم خلالها ١٦٠ مسرحية علي مسرح كازينودي باري و ١٩٠ مسرحية علي مسرح الماجيستك وقد أحدث عماد الدين لنفسه أجندة وطنية بالاجتماعات التي كانت تقام في مقاهيه عقب ثورة ١٩١٩ ، ، عمال المترو والترام شركات الغاز والكهرباء والتليفونات والسجاير ، ، وحتي جرسونات المقاهي ،، وغيرهم من الطلبة وموظفي الحكومة ،، وكان الشارع أحد منابر الوطنية والدعوة إلي النهضة المصرية والخلاص من الاحتلال البريطاني[٣٨٣] ، ،

- التيار الوطني المتأثر بالغرب يسعي للخلاص من الاحتلال البريطاني ولا يدرك أن هذا الاحتلال قد تمكن منهم ولا يعنيه بعد ذلك إذا غادر البلاد أو لم يغادرها
- بالفعل لقد سيطر بالفعل الغرب علي العقول وتحكم في الأهواء وهو أشد خطورة من السيطرة علي الأرض ، فسوف يتحكم فينا بعد ذلك دون الحاجة لاحتلال حقيقي ولقد كان هذا هو الاختلاف الذي ذكرناه من قبل بين الحملة الفرنسية والاحتلال البريطاني وهو احتلال العقول
- بالفعل فإذا تأملنا مثلاً مصر قبل الخديوي اسماعيل وتقليده لأوروبا لوجدنا أن كل رجال مصر كانوا ملتحون مسلمون ومسيحيون ويهود وكان الخديوي نفسه ملتحي وكان كل نساء مصر محجبات ويضعن البرقع علي وجوههن ثم بدأ التطور التدريجي من عهد اسماعيل إلي أيام توفيق ثم الاحتلال البريطاني ثم تطور الأمر بعد ثورة ١٩١٩ وما بعدها إلي أن وصلنا إلي شارع عماد الدين ، وأصبح السمت الإسلامي غريباً وملفتاً للنظر ومدعاة للسخرية والشك رغم أن مصر بالكامل كانت كذلك قبل الغزو الفكري للأمة والعبث بثوابتها وما يسمي بتحرير المرأة حتي يمتهنون جسدها ويصلون إليه بسهولة حتي أنك تري من يريد أن يعلن عن أي منتج يضع بجواره إمرأة شبه عارية لترويجه
- هذا صحيح فقد جعلوا مبدأ أنت حر ما لم تضر بديلاً لمبدأ أنت حر ما لم تغضب الله
- بمناسبة الحديث عن شارع عماد الدين الذي كان في الأصل للترفيه عن الاحتلال والرعايا الأجانب ثم استقر فيه المصريون ، هل لديك معلومات أيضاً عن فندق شبرد في تلك الفترة فقد سمعت أنه كان رمزاً من رموز الاحتلال في مصر ؟
- نعم لقد كان كذلك بالفعل وسوف أقرأ لك عنه من نفس الكتاب الذي تناول شارع عماد الدين حيث كُتِب عنه ما يلي : أول مقر لفندق شبرد كان في قصر محمد بك الألفي الذي اتخذه قائد الحملة الفرنسية مقراً لقيادة الحملة الفرنسية ، ثم تحول إلي مدرسة الألسن وأغلقت في عهد عباس الأول ، وموقعه

---

[٣٨٣] مقتطفات مختصرة نقلاً عن كتاب – القاهرة رحلة في المكان والزمان – تأليف عرفه عبده علي –تقديم الأديب الكبير جمال الغيطاني – الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩

كان علي حافة بركة الأزبكية ، عند تقاطع شارعي الألفي والجمهورية حالياً ، أسس هذا الفندق الشهير عام ١٨٤١ مستر صامويل شبرد تحت اسم فندق بريطانيا ، ومستر شبرد البريطاني الجنسية كان ابناً لفلاح هرب من حياته البائسه إلي البحر وفي جيبه شلن إنجليزي ، لم يدرك شيئاً عن الفنادق سوي تواضع إمكانياتها في ذلك العصر ، لكنه ينتمي إلي ذلك الطراز من العباقرة ، ومع تطور التجارة وحركة السفر النشطة بين أوروبا والشرق بلغت شهرته الآفاق وخلال عام ١٨٤٥ ظهرت لافتة فندق شبرد ، كانت إعلانات الفندق تفخر بأنه المكان المفضل للعائلات الملكية والإمبراطورية والأرستقراطية ، ومن المعالم الشهيرة للفندق شجرة كليبر التي لقي تحتها الجنرال كليبر مصرعه علي يد سليمان الحلبي ، وفي عام ١٨٩١ هدم المبني القديم للفندق وشيد مبني آخر يشرف علي حدائق الأزبكية ولأكثر من نصف القرن كان الفندق قلباً للمجتمع الأوروبي المترف في القاهرة ، وضم أكثر من ثمانين غرفة نوم بحمام مستقل وقاعة للقراءة وأخري للموسيقي وقاعة للرسم ثم قاعة ضخمة للطعام تتسع لخمسمائة مدعو ، وقد قضي تيودور هرتزل مؤسس الصهيونية العالمية فترة زيارته للقاهرة عام ١٩٠٣ بفندق شبرد ليطرح قضيته في إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين علي اللورد كرومر المندوب السامي البريطاني في مصر ، وأقام به السياسي البريطاني الأشهر سير ونستون تشرشل إبان مؤتمر القاهرة عام ١٩٢١ وخلال الحرب العالمية الثانية أصبح شبرد مركزاً للشئون السياسية ومكاناً مفضلاً للقاءات الجنرالات ، وفي عام ١٩٤٢ وبينما القائد الألماني روميل يتقدم شرقاً إلي الإسكندرية انتشرت الشائعات بأنه قرر أن يتخذ من فندق شبرد الشهير مقراً للقيادة الألمانية ، وفي رواية ساخرة أن أحد ضباط الحلفاء سأل موظف الاستقبال عما إذا كان السيد روميل قد وصل وأقام بالفندق فما كان من الموظف المندهش إلا أن راجع كشف الحجز بالفندق ثم أجابه بهدوء لا يا سيدي لم يصل بعد قد يكون في الطريق ، والكتاب الذهبي للفندق كان كبار الشخصيات يوقعون فيه وكانت أشهر التوقيعات لأمير ويلز وفيصل ملك العراق والأغاخان والملك ألبرت وملك بلغاريا وملكة بلجيكا وملكة رومانيا وأمير الدنمارك وولي عهد السويد والملك ألفونسو وبرناردشو وملك وملكة إيطاليا ودوق لوكسمبورج وحشد من الأمراء والأميرات والجنرالات وأدباء وفنانين ، وعندما قرر الملك فؤاد زيارة الملك فرديناند في شبرد استقبل من باب جانبي عقب وقوف سيارته علي حافة بساط أحمر فاخر فرش خصيصاً لصاحب الجلالة وهو الوحيد من بين الأسرة المالكة الذي رفض التوقيع في الكتاب الذهبي معتذراً بأنه لا يوقع إلا في كتاب جديد وفي الصفحة الأولي ، وفي يوم السبت الأسود ٢٦ يناير ١٩٥٢ الشهير بحريق القاهرة احترق الفندق ودمر ضمن ما نال منشآت العاصمة من خراب شامل وعبرت الكاتبة البريطانية إيفيلين وو عن مشاعرها قائلة : القاهرة لن تكون القاهرة بدون فندق شبرد ولابد أن ينهض ثانية كطائر العنقاء في الأسطورة المصرية القديمة الذي ما إن يحترق حتي يخلق ثانية في مكان آخر أكثر بهاء وجمالاً ، واستمر التخطيط والإعداد للبناء الجديد نحو عامين في موقعه الحالي علي النيل بجوار

فندق سميراميس وروعي أن يحتوي كل ثراء ماضيه العريق ، وتكلف المبني الجديد أكثر من مليون جنيه وافتتح في يوليو عام ١٩٥٧ وأصدرت هيئة البريد طابعاً تذكارياً لتخليد المناسبة[٣٨٤]

- بمناسبة الحديث عن حريق القاهرة ، هل من الممكن أن نلقي الضوء علي هذا الحدث وغيره من الأحداث التي ذكرتها مع أسماء من تولي رئاسة الحكومة في العهد الملكي
- لازلت تذكر ما وعدتك به ؟
- بالتأكيد فهي أحداث تاريخية مهمة جداً
- لا مانع ولكن سوف نستكمل حوارنا عن ذلك في اللقاء القادم إن شاء الله

- [٣٨٤] مقتطفات مختصرة نقلاً عن كتاب – القاهرة رحلة في المكان والزمان – تأليف عرفه عبده علي –تقديم الأديب الكبير جمال الغيطاني – الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩

١٤٩. المحتويات

Contents

1. كيف قامت دولة المماليك البحرية في مصر ؟ ٢
٢. ملخص العصر المملوكي بالكامل ٣
٣. عندما يتساوي الجميع فمن يكون له الحق في العرش ؟ ٤
٤. كيف كانت تنتقل السلطة من سلطان إلي آخر في الأحوال العادية ؟ ٥
٥. علاقة الإنجازات بالأفضلية أثناء الصراع ٦
٦. النزعة الدينية لدي المماليك ٨
٧. الخيول المملوكية ٩
٨. مكانة العلم والعلماء لدي المماليك ١١
٩. العلم هو سبب الازدهار والحضارة ١١
١٠. فكرة عامة عن التجارة والصناعة والبناء في العصر المملوكي ١٣
١١. المماليك والتتار ومعركة عين جالوت ١٨
12. قطز وبيبرس وضعفاء النفوس ٢٠
١٣. السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي ٢١
١٤. السلطان الأشرف خليل ابن قلاوون وجلاء آخر جندي صليبي من الشام ... ٢٢
١٥. عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون أفضل عصور المماليك ٢٣
16. جامع السلطان حسن أم مدرسة السلطان حسن ؟ ٢٤
١٧. آخر أيام المماليك البحرية ٢٦
١٨. حملة صليبية جديدة في عهد الأشرف شعبان ٢٧
١٩. أصل المماليك البرجية ٣٢
٢٠. الظاهر برقوق يؤسس دولة الجراكسة ٣٥
٢١. فتح قبرص ومحاولات فتح رودس وأحداث أخري في عصر المماليك البرجية ٣٨
٢٢. السلطان الأشرف إينال ٣٩

٢٣. السلطان الأشرف قايتباي ٤١
٢٤. من التقاليد السلطانية عند سفر السلطان وعند ركوبه إلي الميدان في العصر المملوكي من كتاب خطط المقريزي ٤٤
٢٥. محاولة إنقاذ الأندلس في العصر المملوكي..... ٤٦
٢٦. السلطان الأشرف قنصوة الغوري ٤٨
27. وصف اسلوب المؤرخ ابن اياس الحنفي..... ٥٣
٢٨. السلطان الأشرف طومان باي ونهاية دولة المماليك البرجية في مصر ٥٥
29. كيف كان يحتفل المصريون بوفاء النيل ؟ ٥٧
30. ملخص العصر العثماني ٥٨
٣١. ملك الأمراء خاير بك الذي أصبح خاين بك ٦١
٣٢. إجراءات سليم الأول في مصر ٦١
٣٣. نفوذ المماليك من سلاطين إلي بكوات ٦٢
٣٤. انتقال الخلافة ٦٤
٣٥. الوالي العثماني سنان باشا ٦٥
٣٦. المؤرخ البريطاني ستانلي لين بول يصف بعض أمراء من مماليك العصر العثماني ٦٦
٣٧. علي بك الكبير ٦٧
٣٨. بركة الأزبكية ٦٩
٣٩. الأمير عبد الرحمن كتخدا أمير البنائين في العصر العثماني ٧١
٤٠. اسماعيل أبو طاقية شاهبندر التجار في العصر العثماني ٧٢
٤١. الجبرتي يصف أسعار السلع سنة ١١٦٧ هـ / ١٧٥٤م وهو العام الذي ولد فيه ٧٤
٤٢. المواجهة بين المماليك والجيش الفرنسي ٧٥
٤٣. علي متن السفينة ولا يعرفون إلي أين تتجه ٧٧
٤٤. نلسون يبحث عن الفرنسيين في البحر ٧٨

٤٥. وصف الجبرتي لوصول الإنجليز إلي الإسكندرية..... ٧٩
46. وجهة نظر قابلة للتصحيح..... ٨٠
47. أسباب اندحار الحملة في ثلاث سنوات بينما استمر الإنجليز سبعين سنة ٨٢
48. إبراهيم بك ومراد بك من وجهة نظر الأستاذ جمال بدوي ٨٤
٤٩. ولكن ما هي الأسباب الحقيقية لهذه الحملة ؟..... ٨٥
50. التعليق علي سقوط الاسكندرية في يد نابليون..... ٨٧
٥١. رواية الجبرتي عن احتلال الإسكندرية ٨٨
٥٢. المنشور الفرنسي للشعب المصري..... ٨٩
53. معركة إمبابة ٩١
٥٤. وصف الجبرتي لاحتلال العاصمة : ٩٣
٥٥. رسالة مشايخ الأزهر لنابليون ٩٤
٥٦. معركة أبو قير البحرية ٩٥
٥٧. نابليون والاحتفالات الدينية في مصر..... ٩٦
٥٨. نموذج من نماذج المقاومة بعيداً عن العاصمة ٩٨
٥٩. ثورة القاهرة الأولي ضد الحملة الفرنسية ٩٩
٦٠. رسالة إلي الشعب علي لسان المشايخ ١٠١
٦١. محاولة إثارة أول فتنة طائفية في مصر ١٠٤
٦٢. الخليفة العثماني يدعو للجهاد..... ١٠٥
٦٣. نابليون ومذبحة يافا ١٧٩٩م ١٠٦
٦٤. رسالة نابليون من أمام عكا ١٠٩
٦٥. معركة أبو قير البرية ورحيل نابليون ١١٠
٦٦. الحملة تحت قيادة الجنرال كليبر ١١٢
٦٧. معركة عين شمس وثورة القاهرة الثانية ١١٣
٦٨. الفظائع الفرنسية في قمع ثورة القاهرة الثانية..... ١١٤

٦٩. مقتل كليبر وتولية الجنرال مينو القيادة ١١٥
٧٠. الجنرال مينو ونهاية الحملة الفرنسية علي مصر ١١٦
71. ملخص عام للحملة الفرنسية ١١٨
٧٢. لطمة حضارية علي وجه مصر ١٢٠
٧٣. تعداد سكان مصر طبقاً لتقدير علماء الحملة الفرنسية ١٢٣
٧٤. مقتطفات من كتاب وصف مصر ١٢٤
٧٥. عندما تولي محمد علي باشا حكم مصر ١٣٣
76. كيف تلاعب محمد علي باشا بعثمان بك البرديسي ؟ ١٣٤
٧٧. محمد علي باشا ومحمد بك الألفي ١٣٨
78. محمد علي يتخلص من الزعامة الشعبية والمماليك الموالين له ١٤٠
79. مذبحة القلعة ١٤٢
٨٠. محمد علي والجبرتي..... ١٤٤
81. محمد علي وتأسيس مصر الحديثة ١٤٥
٨٢. البعثات العلمية في عهد محمد علي..... ١٤٨
٨٣. السان سيمونية في مصر..... ١٥٢
٨٤. تأسيس الجيش المصري..... ١٥٣
85. بيان أسماء حكام مصر من أسرة محمد علي باشا..... ١٥٦
٨٦. الدولة السعودية الأولي والدعوة الوهابية..... ١٥٨
٨٧. محمد علي يقضي علي الدولة السعودية الأولي ١٥٩
88. علي مبارك يوضح سبب بناء سبيل محمد علي الموجود بالغورية ١٦٠
٨٩. كيف وصف الجبرتي والرافعي الحرب الوهابية بقيادة إبراهيم باشا ١٦١
٩٠. حروب محمد علي الأخري بعد الحرب في الحجاز..... ١٦٣
٩١. محمد علي يتحدي الدولة العثمانية..... ١٦٤

٩٢. أمام أسوار عكا فشل الجيش الفرنسي بقيادة نابليون وانتصر الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا ١٦٥
93. هل كان محمد علي يجهل الموقف الدولي ؟ ١٦٦
٩٤. عباس الأول ١٨٤٨-١٨٥٤ ورفاهية الفلاح المصري ١٧٠
٩٥. الجيش المصري وشجاعة فائقة في المكسيك ١٧٢
٩٦. عقد شركة قناة السويس وعندما يكون الخصم هو الحكم ١٧٣
٩٧. عندما جلس الخديو اسماعيل علي عرش مصر ١٧٥
٩٨. الخديوي اسماعيل وشغفه بتشييد القصور ١٧٧
٩٩. الخديوي اسماعيل وتعامله مع الأجانب ١٧٨
100. افتتاح قناة السويس للملاحة في عهد الخديوي اسماعيل ١٨٠
١٠١. أفراح الأنجال ١٨١
١٠٢. البتشتي.. القناوي الأزهري الجريء الذي تحدى الخديوي إسماعيل ١٨٢
١٠٣. الخديوي اسماعيل يقلد أوروبا ١٨٣
١٠٤. عندما تولي الخديوي توفيق حكم مصر ١٨٦
١٠٥. الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي ١٨٩
١٠٦. كيف قام الإنجليز بضرب الإسكندرية عند احتلالهم لمصر سنة ١٨٨٢ ١٩٣
١٠٧. مصر تحت الاحتلال البريطاني ١٩٦
108. لماذا لا نذكر التفاصيل ؟ ١٩٩
١٠٩. الخديوي عباس حلمي الثاني الوالي الأخير د ٢٠١
110. السلطان حسين كامل ٢٠٤
١١١. القومية العربية الحديثة هل هي صناعة غربية ؟ ٢٠٧
١١٢. بداية فكرة القومية العربية ٢٠٨
١١٣. السلطان عبد الحميد الثاني (الخليفة الأخير) ٢٠٩
١١٤. بريطانيا تبحث عن رمز إسلامي بديل للخليفة لتحقيق أهدافها ٢١٢

١١٥. الاتصالات بين الإنجليز والشريف حسين ٢١٣
١١٦. الثورة العربية ضد الدولة العثمانية ٢١٤
١١٧. تقسيم الدولة العثمانية ٢١٧
١١٨. كيف قام الإنجليز بالسيطرة علي الجيش المصري واستخدامه في الحرب العالمية الأولي لصالحهم؟..... ٢٢١
119. التجريدة المصرية في فلسطين ٢٢٢
120. مقدمات ثورة ١٩١٩ بعد انتهاء الحرب العالمية الأولي..... ٢٢٥
١٢١. كتب التاريخ بعد ثورة ١٩١٩ تتناول تاريخ مصر أم تاريخ الأمة الإسلامية ؟ ٢٢٦
122. الإنجليز يفضلون التعامل مع زعماء للشعب أكثر مرونة من مصطفي كامل ومحمد فريد ٢٢٧
123. جانب من حوار ١٣ نوفمبر من كتاب ثورة سنة ١٩١٩ لعبد الرحمن الرافعي.. ٢٣١
124. لجان شعبية أثناء ثورة ١٩١٩ للمحافظة علي سلميتها ٢٣٣
125. شاعر النيل حافظ إبراهيم يصف مظاهرات النساء خلال ثورة ١٩١٩ ..... ٢٣٤
١٢٦. جمهورية زفتي..... ٢٣٥
١٢٧. نداء إلي الشعب خلال ثورة ١٩١٩ للالتزام بالسلمية ٢٣٦
128. بعض ما ورد في كتاب(في المرآة) لعبد العزيز البشري عن شخصيات ذلك العصر ٢٣٧
129. استقبال سعد زغلول عند عودته بعد فشل الوفد في مفاوضات الاستقلال ٢٤٢
١٣٠. انقسام الشعب بين عدلي وسعد سنة ١٩٢١ ..... ٢٤٤
١٣١. إعلان بريطانيا تصريح ٢٨فبراير ١٩٢٢ من جانب واحد..... ٢٤٦
١٣٢. علاقة الملك فؤاد بعبد الخالق ثروت باشا رئيس الوزراء ٢٤٨
١٣٣. دستور ١٩٢٣ وقيام أول حكومة منتخبة دستورية في البلاد برئاسة سعد زغلول ٢٤٨
134. سعد باشا زغلول والملك فؤاد يحتكمان لبارون بلجيكي..... ٢٥١

135. حادث مقتل السير لي ستاك وتأثيره علي الحياة السياسية في مصر ٢٥٣
136. إلغاء الخلافة العثمانية في ٣ مارس ١٩٢٤م ٢٥٥
137. فقرة من كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ٢٦١
١٣٨. مجلس نواب لمدة تسع ساعات يوم ٢٣مارس سنة ١٩٢٥..... ٢٦٤
١٣٩. أحمد زيور باشا في مرآة عبد العزيز البشري..... ٢٦٦
140. شاعر النيل حافظ إبراهيم يصف حياد بريطانيا سنة ١٩٣٠ بالحياد الكاذب.... ٢٦٧
141. كتاب الجبهة الوطنية إلي الملك_فؤاد – ١٢ ديسمبر سنة ١٩٣٥ ..... ٢٦٩
142. بيان أسماء رؤساء وزراء مصر في العصر الملكي..... ٢٧١
143. حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ وإصرار النحاس باشا علي وزارة وفدية خالصة بضغط علي الملك فاروق من الإنجليز بالقوة..... ٢٧٢
144. جزء من مقال (يا هادي الطريق جرت) للأستاذ أحمد حسن الزيات..... ٢٧٤
145. د محمد حسين هيكل (١٨٨٨-١٩٥٦م) يوضح ما صدره الغرب للشرق ٢٧٥
146. كيف تدهورت الحالة الاجتماعية في ظل الاحتلال البريطاني ؟..... ٢٧٧
147. بيرم التونسي يسخر من الملك والاحتلال البريطاني والقوي السياسية..... ٢٧٨
١٤٨. استخدام الفن في التأثير علي ثقافة المجتمع ٢٨٠
149. المحتويات ٢٨٥